كتاب
قناطر الخيرات

تأليف الإمام القدوة العلامة

أبي طاهر إسماعيل بن موسى البجيطالي النفوسي

المتوفى سنة ٧٥٠ هـ

حققه وعلق عليه

عمرو خليفة النامي

القسم الأول

يحتوي على قنطرتي العلم والإيمان

كتاب

قناطر الخيرات

تأليف الإمام القدوة العلامة

أبي طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي

حققه وعلق عليه

عمرو خليفة النامي

القسم الأول

يحتوي على قنطرتي العلم والإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعباده الذين اصطفى .

وبعد: فلم يكن شيء أضر على المسلمين من تفرقهم وتشتتهم، وإعراضهم بعضهم عن البعض، وانشغالهم عن إعداد القوة التى تضمن لهم الغلبة والعزة بما أذهب ريحهم ، وشتت شملهم ، من الصراع على الدنيا ، والسعى للاستئثار بالسلطان فيها ، واتخاذ الهوى مطية لهم فيما يركبون حتى سخروا لذلك كل ما يبلغهم إليه من الأسباب ؛ فطعنوا فى دين بعضهم ، واتهم كل فريق غيره فى عقيدته ، واستكبروا عن تقبل الحق حينما يبين ، بل ربما حرضوا على طمس معالمه وإخفائها . . وصارت تلك القوة العظيمة ـ التى قادت الفتح الإسلامى ، وحملت هدى الله إلى أصقاع الأرض ـ سبباً لضعف المسلمين وتقهقرهم عندما انصرفوا بها عن وجهها الأول وقصدوا بها إلى الصراع على السلطان وتنازع الملك ، ومن هذا الباب الخبيث ـ باب التكالب على الدنيا والإنشغال بها ، والإعراض عن منهج الله القويم ـ نفذت الشياطين لتبث سمومها وتلقى سهامها حتى تضعف من أمر هذا الدين وأهله

وقد نال ذلك من قوة الإسلام والمسلمين فأعقبهم انحطاطاً وتقهقراً وهزيمة أطمعت فيهم الأفاقين والمرتزقة ومن ضُربت عليهم الذلة والمسكنة من أعداء الله ، فنالوا منهم ما لا يخفى على مسلم . .

وإن السبيل الوحيد أمام المسلمين اليوم لاسترداد قوتهم ، وابتعاث مجدهم ، وبناء دولتهم ، هو الإخلاص لله سبحانه فى دينهم ودنياهم ، وإقرار العبودية لله سبحانه عقيدة وشريعة ، والإستعصام بدين الله القويم كما جاء به الوحى الكريم ، وأبان عنه رسول الله صلوات الله عليه ، خالياً من البدعة والخرافة ، بعيداً عن الأضاليل والأوهام . . وفى هذا السبيل يجب أن يبذل كل مسلم فى كل ناحية من الأرض جهده الكامل حتى تتساوق

هذه الجهود وتلتقى لترفع من هذا البنيان الشامخ . .

وعندما أصدر الأستاذ الفاضل الشيخ على يحيى معمر الحلقتين الأوليين من كتابه القيم « الإباضية فى موكب التاريخ »(١) فكتب الحلقة الأولى عن نشأة الإباضية(٢)، والحلقة الثانية عن الإباضية فى ليبيا، مهد بذلك الطريق أمام هذا الفريق من المسلمين ليقوم بدوره فى هذا الجهاد فى سبيل الله، وتحكيم دينه، وإعلاء كلمته . .

فالحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها أن المسلمين فى حاجة إلى التعارف الكامل فى هذا العصر الذى تيسرت فيه وسائل اللقاء، وفى حاجة لأن يطلعوا جميعاً على الحق الذى حمل كل فريق منهم جانباً منه، أو حمله كله وحفظه وصانه على مدى التاريخ . .

وقد حمل « الإباضية » الرسالة الإسلامية صحيحة كاملة كما جاء بها كتاب الله وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحفظوا هذا الدين - حيث وُجدوا - سليما من البدعة والخرافة، بعيداً عن التزييف والتحريف فى مجتمع مسلم كان يعانى كثيراً من تنكر جيرانه من المسلمين فيما مضى من التاريخ ؛ عندما كانت الأهواء حكما فى دين الله ، وعندما كان السلطان والجبروت وطلب الدنيا هما وهدفاً للمنحرفين من الحكام المتسلطين . .

وإذا قام « الإباضية » بواجبهم فى حفظ هذا الدين فى مجتمعاتهم حتى هذا اليوم سليما صحيحاً فحفظهم الله به ، فإن عليهم اليوم أن يقوموا بواجبهم لتعريف إخوانهم المسلمين فى كل مكان بالهدى الذى معهم ، والذى حفظته لهم سِيَرُ رجالهم ومؤلفات أئمتهم فى كل العصور ، وذلك حتى تزول تلك النظرة الغائمة التى خلفها ماضى المسلمين بين جماعاتهم ، وحتى يشتد ساعد الجماعات الاسلامية المجاهدة اليوم بما تجده عندهم من الفهم الصحيح لقواعد الاسلام ، والادراك السليم لأسرار تشريعه ، والقيام الجاد على تحكيمه فى حياتهم .

نشر: مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ وسيصدر الكتاب فى عدة حلقات عن الاباضية فى كل بلادهم.

(٢) معظم الذين كتبوا عن الإباضية — عدا الإباضية أنفسهم — يعتبرونهم فرقة من فرق الخوارج ، وهو خطأ محض اختلقته الدعاية السياسية الأموية ، وأكدته كتب الفرق من بعد ، وفى هذا الخطأ وقع كل من كتب عنهم ، وقد عقد الشيخ على معمر فصلا خاصا فى كتابه عن الخوارج فى نظر الإباضية . وستطبع قريبا — إن شاء الله — رسالة فى الموضوع للشيخ ابراهيم اطفيش .

والسبيل إلى تحقيق هذا الهدف ـ مع الصورة الناصعة التى يعطيها المجتمع الإباضى اليوم فى معظم بلدانه للمجتمع الاسلامى النظيف ـ هو الإتجـــاه إلى نشر التراث الاسلامى الخصب الذى أنتجته قرائح علمائهم على مر العصور؛ فقد تركوا ـ رحمهم الله ـ ثروة لا نظير لها سواء فى المشرق:(عمان وزنجبار) أو فى المغرب:(ليبيا وتونس والجزائر).

« وقد اشتهر علماء جبل نفوسة بطول الباع فى العلوم والتأليف ، وامتلأت الخزائن فى عصور مديدة بمؤلفاتهم فى سائر العلوم العقلية والنقلية والرّياضية ما يصح أن يقال إنها أغزر مادة من الأندلس بدون مبالغة .

« ولم يمر عصر منذ القرن الثانى للهجرة ،إلا وتجد من مؤلفات علمائه ما يبهر العقول ، وبين أيدينا اليوم مايدل على تلك الذخائر الهائلة ؛ كديوان الأشياخ الذى ألفه سبعة من العلماء فى خمسة وعشرين جزءاً ، وديوان العزابة الذى ألفه عشرة من الفقهاء ، وكل منهما يعتبر دائرة معارف فقهية ، وناهيك بتأليف قد اجتمع على تحريره هذا العدد من العلماء الأجلاء ، ومنهـا « الإيضاح » الذى هو معتمد الأصحاب فى الفتوى بالمغرب ؛ إذ هو كثيراً ما يجمع الفرع إلى أصله . و« قواعد الاسلام » : للعلامة المجتهد جمال الدين الشيخ إسماعيل بن موسى الجيطالى . فـكل من الـكتابين فى المرتبة العليا من الاجادة والتحقيق وكل من المؤلفين فى الدرجة القصوى من العلم والتحقيق والتدقيق والإجادة»[1] .

ومما يصور انتشار العلم فى جبل نفوسة وشدة اهتمام أهله به ما قاله البدر الشماخى رحمه الله : « احتوى جبل نفوسة على الـكرامات وكثرة الصالحين والعلماء ما لا يوجد بغيره،حتى إنه بلغ فى بعض الأزمنة إلى أنه لا تحتاج فيه قرية إلى قرية للفتيا ـ عدا جناون وويغو ، وتندميرة ، لا تحتاج فيها دار إلى دار الفتيا . وقد ذكروا أن جناون وحدها

---

(١) مقدمة كتاب الوضع للشيخ أبى إسحق ابراهيم طفيش ص ٨ ـ ٩ ولمعرفة هذه الذخائر راجع : اللمعة المرضية فى أشعة الإباضية للشيخ السالمى .

اجتمع فيها سبعون عالماً جليلا أيام ولاية أبى عبيدة عبد الحميد عامل الامام الرستمى على نفوسة » .

ونحن نقدم اليوم إلى المسلمين عَلَماً من هؤلاء الأعلام ، وكتابا من هذه الكنوز المذخورة ، ونرجو من الله أن تتم هذه البداية فيتعرف المسلمون على كل هؤلاء الأعلام ويطلعوا على جميع هذه الذخائر ، فيكون الإباضية بذلك قد أحيوا جهاد أئمتهم ، وأبرءوا ذمتهم بما بلّغوا من دين الله سبحانه ، وبما نشروا من تراث الإسلام .

وإن المتأمل فى المكتبة الاسلامية اليوم يلمح ألواناً غريبة من الثقافة المستوردة ـ قديمة وحديثة ـ تزاحم التراث الاسلامى الأصيل وتنازعه على أذهان المسلمين وعقولهم وأذواقهم .

والشخصية الاسلامية الأصيلة المتميزة التى لن تقوم للمسلمين قائمة بدونها ، لن تنبنى بأى حال من الأحوال على هذا الخليط الغريب من الثقافات المتباينة ، والتى أصبحت تجد المجال الواسع فى مكتباتنا ومجلاتنا ومجامعنا العلمية ، بل وتجد المبالغ الطويلة من أموالنا ننفقها لإخراجها أنيقة محببة إلى نفوس أبنائنا وهى تحمل بين صفحاتها السم الزعاف ، والشر المستحكم ، والضلال المظلم . .

والذوق الاسلامى الأصيل الذى يكوّن الشخصية الاسلامية المتميزة ، إنما يتضح ويتجلى عند هؤلاء الكتّاب الذى تخرجوا فى رياض القرآن الكريم ، وهدى الرسول العظيم ، وسيرة المدرسة الاسلامية الأولى ، وهذبت نفوسهم وصقلتها عبادةُ الله وخشيته وتقواه فى السر والعلانية . .

إن هذا الطراز من الكُتّاب الذين يصدرون فيما يكتبون عن فقه حقيقى ونظيف للاسلام صاروا من الندرة بحيث يصعب أن يتجاوز عدهم العشرات فى هذا العصر ، ولكنهم فى تاريخنا المتطاول كثرة كثيرة ، لكنها مغمورة مجهولة قد حيل بينها وبين جيلنا الحاضر .

وفى « ليبيا » — هذا الوطن الاسلامى العريق ـ الذى ضرب أروع أمثله البطولة فى جهاد الكفر وأجناده ، إنما قام بذلك الدور الرائع العظيم مدفوعا بالروح الاسلامية المستعلية التى لا تقبل الذلة ، ولا تستكين للعدوان ، ولا تسكن للظلم ، والتى حفظها عليه المؤمنون المخلصون من علماء الاسلام ودعاته . . كان ذلك واضحاً جلياً سواء فى جهاد الراية التى حملها الباروني والسويحلى وإخوانهم ، أو فى الراية التى رفعها السيد أحمد الشريف وإخوانه من جند الاسلام المجاهدين عليهم رحمة الله جميعاً . .

وقد لحق هذا الوطن الحبيب ما لحق إخوته فى جميع أنحاء « الوطن الاسلامى » من مؤامرات خبيثة محكمة هدفها إفساد هذه الأصالة الاسلامية فى سلوكه وذوقه وفكره ، حتى تتميع الشخصية الاسلامية الصلبة التى قاومت مؤامرات الصليبية بصمود وإصرار لا نظير لهما . .

وظل ذلك العدوان طويلا لا يستطيع أن ينال من تلك القلعة الشماء الممتنعة ،والتى وإن غُلبت على أمرها ، وتسلط الكفر على أرضها زمناً ، فإن روحها ظلت طليقة حرة ترفرف فى أجواء الاسلام الصافية النظيفة .

غير أن المراقب للفكر فى هذا الوطن يلمح الخطر يزحف فى غير ما رحمة على أجيالنا الناشئة . . ليلحق بها إلى الركب المنحرف إلى الهاوية السحيقة التى يعدها له أعداء الاسلام بجميع أشكالهم

والواجب الأول على هذا الجيل المسلم الناشىء أن يدرك أنه على مفرق الطريق ، وأنه بين طريقين متميزين لكل وجهته وحدوده ، طريق الاسلام وطريق الكفر . . . فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ !

وواجب على هذا الجيل أيضاً أن يعرف أن وسائل أعداء الاسلام فى تعمية السبيل أمامه كثيرة ومتشعبة وخبيثة ، وأن عليه ليَسْلَم من حبائلها وأشراكها أن يعتصم بإسلامه

اعتصاما كاملا عقيدة وسلوكا وفكراً ، وأن يتخذ الوسائل لذلك فى عزم وتصميم وبدون تردد ، وهو عند ما يتبين طريقه الصحيح ، ويتبع دينه القويم ، وينهج منهج الحق ، صائر بحول الله إلى ما وعد الله جنده من النصرة والعزة . .

يجب على هذا الجيل أن يتخذ أهبته للمعركة بتحصين نفسه عن كل فكر غريب عن دينه ، وكل تصور دخيل عليه ، وكل شبهة ماكرة تحاول زعزعته ، وأن يكون على حذر من كل أعداء الإسلام المتمثلين فى أجهزة اليهودية الماكرة ، والصليبية المتعصبة العنيدة ، التى لا تكف عن ابتكار الوسائل لهدم الإسلام وتحطيمه ؛ سواء بما تروجه فى أوطان الإسلام من أنماط حياتها وحضارتها . . أو بما يجد طريقه إلى مدارسنا وجامعاتنا من تفكير زائغ منحرف عن الله ، أنبتته تصوراتهم الكسيحة ، وحمله إلى أرضنا عملاء لهم من أبنائنا . . فهم يقومون بدور الإبن الحاقد العاق ، وهم كذلك أشبه بما يسمونه الطابور الخامس الذى يعرقل زحف الجيش ويشيع فيه الفوضى والاضطراب . .

أو فيما ينخدع به أبناء هذا الجيل مما يسود العالم من نظريات وأفكار جاهلية ملحدة هدامة ، وهم غير محصنين بفهم دينهم ، ومعرفة دورهم الذى تنتظره البشرية من أمثالهم ممن يحملون هدى الله سبحانه ورسالته .

وفى هذا الصراع المرير ، الذى تكبر ناره المخططات اليهودية العالمية المتنوعة ، التى تسعى لدفع البشرية جميعها إلى متاهات من الشقاء والفوضى حتى ترجع منهوكة مكدودة مستسلمة يائسة ، والذى تزيده أواراً عصبية الصليبية العمياء الحاقدة ، يجب أن ينطلق فى هذا الصراع « جيل إسلامى » بمعنى هذه الكلمة ؛ فيحقق الوجود الإسلامى الذى يجسم الاسلام سيرة وعقيدة وحياة ، حتى تلمس فيه البشرية المكدودة اليوم أملا حقيقياً واقعاً ينقذها مما تعانيه من الشقاء فى بيداء التيه . . .

وإن من أهم جوانب الاعداد التى تميز هذا الجيل وتؤكد حقيقته ، جانب الثقافة ؛ وهو أخطر ما يواجه الجيل المعاصر لما يعانيه هذا الجانب من غزو محكم نفذ إلى جميع مراكزه ،

فلم يسلم منه إلا القليل من قادة الفكر ، الذين صفى فكرهم وذوقهم وإيمانهم من كل كدر وغبش . ومن هذا القليل الزكى المبارك[1] ، مع ذلك التراث الغنى الزاخر فى المكتبة الاسلامية يجب أن تتبنى ثقافة الجيل المسلم الذى يحقق الوجود الاسلامى الحق ، والذى نرجوه لحمل راية الاسلام عالية من جديد ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

والذى حفظ على الأمة الاسلامية ، فى جميع أجزاء الوطن الاسلامى ، شخصيتها وروحها على طول تاريخ الاسلام المجيد ، قادة أئمة مجاهدون حملوا عبء الجهاد فى سبيل الحق حيثما وجدوا ، فكان نتيجة جهادهم ذلك هذا البناء الشامخ العجيب ، الذى ظل يعاند كل مؤامرات الأعداء فى ثبات واستعلاء وشموخ . .

وفى كل ركن وكل طريق ارتفعت المشاعل شعلة إثر شعلة تنير الطريق للمدلجين على مر الأيام .. وفى كل وطن كان دعاة وعلماء ومجاهدون ، دعموا راية الاسلام وأعلوها ، وساهموا فى تركيزها .

وفى «ليبيا» ـ هذا الوطن الاسلامى العريق ، ارتفعت رايات كثيرة من الجهاد الصامد وتعددت مراكزها ، وتعدد روادها . ومن بين واجبات هذا الجيل أيضاً أن يتعرف على هؤلاء الأعلام المكافحين ، ويقتدى بهؤلاء العلماء المجاهدين ، ويتلمس الأسوة فى صبرهم ومثابرتهم وجلدهم .

وكخطوة فى هذا الطريق نقدم إلى أجيال المسلمين ، فى ليبيا وفى كل مكان ، صورة من أولئك الأعلام ، وصورة من ذلك الجهاد فى هذا الكتاب « قناطر الخيرات » للإمام العالم العامل : الشيخ أبى طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالى النفوسى ، حتى تعرف الأجيال الناشئة فى ليبيا أن جذورها موغلة فى الإسلام ، وأن نصيبها من العمل به والجهاد لنصرته

---

(١) نذكر فى مقدمتهم المسلمين العظيمين الداعية المؤمن : السيد أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الاسلامية بباكستان والداعية المؤمن : الأستاذ سيد قطب .

كان ـ دائماً ـ النصيب الوفير الكبير . وحتى ينشأ أبناؤنا متدرجين فى قناطر الحياة كما رسمها هذا العالم المؤمن الفقيه ؛ فيتجنبوا كل عثرة وكل زلة . وتنشأ نفوسهم قوية قوة الاسلام ، راسخة رسوخ الايمان ، مستعلية علو الحق .

وهى خطوة نرجو أن تتلوها خطوات . . وإذا قام بهذه الخطوة أفراد من الأمة كل الذى يرجونه من وراء ذلك هو ثواب الله وخير المسلمين ـ فإن واجب الدولة فى هذا واجب أصيل ، ثم إن العبء الأكبر من الناحية الفنية فى مثل هذا الأمر يقع على جامعيتها الفتيتين : الجامعة الاسلامية والجامعة الليبية . .

إن فى ليبيا تراثا إسلاميا خصباً ، ولم يكن لليبيا صوت ولا تراث فى غير العصر الاسلامى ، وبغير الروح الاسلامية ، والاتجاه لنشر هذا التراث والكشف عنه وتصفيته واجب من ألزم الواجبات على الأمة .

ودور ليبيا فى الفكر الإسلامى ميدان يحتاج إلى رواد يكشفون عنه ويبرزون قيمته ، وهناك فى جميع أرجاء هذا الوطن المئات من المؤلفات الضخمة فى جميع المعارف التى ازدهرت فى العصور الإسلامية المختلفة ، لا تزال مطمورة فى المكتبات الخاصة والعامة ، تنتظر من يبعثها للحياة من جديد ، ويبعث معها الروح الاسلامية المجاهدة التى ارتادت آفاق المعرفة فتركت فى طريقها مشاعل النور تزهر فى كل ميدان من ميادينها . .

الإمام الجيطالى :(*)

وفى جبل نفوسة ، وفى إحدى قرى هذا الجبل العامر بالعلم ، الحاشد بالعلماء فى كل مدنه وقراه ، نشأ الإمام المجتهد القدوة أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالى .

نشأ فى مدينة « جيطال » وهى مدينة فسيحة تقع بين « أمسين » و « إيسرْ » على ربوتين متقابلتين . تحيط بها من جميع الجهات غابات كثيفة من شجر التين والزيتون .

(*) أنظر السير للشماخى ٥٥٦ — ٥٠٨ الطبعة البارونية بالقاهرة ، ومؤنس الأحبة فى أخبار جربة : محمد ابو راس : ٩١ ـ ٩٢ ط . تونس بتحقيق محمد المرزوق ، والاباضية فى موكب التاريخ الحلقة الثانية : القسم الثانى ١٠٥ — ١١١

ولا نعرف تاريخا محددا لمولده ، والمؤرخ الوحيد الذى يمدنا بترجمة وافية للامام الجيطالى هو أبو العباس الشماخى رحمه الله فى كتابه الجليل « السِّيَرْ » وهو ينقل فيه صوراً متناثرة من حياة هذا الإمام ؛ وينتهى إلى تحديد وقت وفاته بسنة خمسين وسبعمائة للهجرة النبوية فى جزيرة جربة بتونس .

أما عن شيوخه « فقد أخذ العلم عن العالم الكبير أبى موسى عيسى بن عيسى الطرميسى ، وصاحبَ الشَّيخ أبا عزيز زماناً »[1] .

وكان شيخه أبو موسى من الأئمة الأعلام فى جبل نفوسة ، وهو صاحب المدرسة العظيمة التى خرجت عدداً غير قليل من أفذاذ العلماء العاملين ، بل لايكاد يوجد شخص ممن ينسب إلى العلم فى ذلك العصر لم يدرس فى مدرسة أبى موسى ، وحسبك أن من طلابها فقيها الاسلام المؤمنين العالمين : إسماعيل الجيطالى ، وعامر الشماخى .

وقد تميزت هذه المدرسة بين مدارس العلم فى جبل نفوسة باتجاه جديد تكون عليه من درس بها ، هذا الاتجاه هو ما حرص عليه أبو موسى من توجيه طلابه إلى تأليف الكتب . واستجاب عدد منهم لتوجيه أستاذهم ، وعكف منهم على التحرير من أنجزوا فى زمن قصير مجموعة من الكتب القيمة التى يحق أن تفخر بها المكتبة الاسلامية فى كل العصور[2] .

وأمضى الامام الجيطالى حياته الأولى فى التنقل بين مدن الجبل ـ مدرسا ومربياً ، وداعيا ومذكِّرا ، على عادة علمائه رحمهم الله ، فأقام مدة بمَزْغُورَة «والتقى فى مسجدها الكبير بالشيخ أبى عزيز والشيخ يدراسن ، ثم غادر مزغورة بعد موت أبى عزيز وسكن « فَرسَطَاء» من بلاد الجبل أيضا ، تسعة أعوام وحملهم على السبيل المستقيم»[3]

---

(١) الشماخى : السير : ٥٥٦

(٢) معمر : الاباضية فى موكب التاريخ : ٢/٢ :١٠٣

(٣) الشماخى : السير : ٥٥٨

وقصد طرابلس فى بعض أمره فلم يقر بها حتى أودعه حاكمها السجن .

ويذكر محمد أبو راس صاحب كتاب مؤنس الأحبة فى أخبار جربة « أن سبب انتقاله إلى جربة أن فقهاء طرابلس حسدوه وافتروا عليه لحاكم طرابلس ، فجمعه والفقهاء فى مجلسه ، فوجدوه كنز العلوم والمعارف ، ومعدن الفضائل بالمنطق والمفهوم ، فعظم حسدهم له ولم يمكنه إلا الانتقال عنهم »(١) .

وذكر الشماخى سبباً يشبه هذا أيضاً فقال : « وآل أمره إلى أن قال : هل لكم علم فتخرجوه لنا ؟ فما زال قاضيها وأميرها يلتمسون عليه الأسباب حتى سجناه وأخذا ما معه والله أعلم »(٢) .

وذكر الشماخى أنه « بقى فى السجن مدة ، وأنشد قصيدة مدح بها ابن مكى صاحب قابس وكانت جزيرة جربة تحت يده . فنشفع فيه عند صاحب طرابلس فأطلقه »(٣) وذكر فى موضع آخر : « أن أبناء أبى زكرياء بن أبى مسور قد تسببوا فى إطلاقه من السجن ، وتحملوا معه مالا مع ما تقدم من مدحه لابن مكى »(٤) فقدم جربة ، وقصد بها أبناء أبى زكرياء بن أبى مسور «ونزل الجامع الكبير ، وتلقاه علماء الجزيرة بأحسن لقاء ، واجتمعت عليه الطلبة ، وكان يقرىء ويصنف فى المجلس الواحد ، وأقام فى المسجد فى غاية الاجتهاد »(٥) وتوفى رحمه الله بجربة سنة سبعين وخمسمائة ودُفن بمقبرة الجامع الكبير المذكور .

وانتقل العالم الكبير إلى جوار ربه بعد عمر حافل بالجهاد العلمى المتواصل ، وبعد أن خطا خطى واضحة فى طريق الهداية الاسلامية الرشيدة ، وبعد أن رسم من سيرته

---

(١) مؤنس الأحبة فى أخبار جربة ص٩٢ : تأليف محمد ابوراس . وتحقيق محمد المرزوقى ط. تونس
(٢) ، (٣) الشماخى : السير ٥٥٦
(٤) المصدر السابق : ٥٥٧
(٥) مؤنس الأحبة : ص ٩٢

صوراً من جهاد المخلصين الهادف ، الذى يحارب الشرور فى كل ميدان ويرفع راية الاصلاح فى كل طريق . . فقد كان إلى جانب قيامه بمهام التدريس والتأليف يكثر على الناس التذكير والأمر والنهى حتى يأتى الأسواق ويعظ ، وحتى قال بعض العابثين : إنه يعلم السوقة مسائل الغش ! يعنى أنه ينهاهم عنها فتعلموها منه .

وكان رحمه الله ظاهر الكرامات مستجاب الدعوة ، عاين ذلك منه أهل عصره ، ونقل الشماخى منه طرفاً فى سيرته ، وإن لله سبحانه رجالا لو أقسموا عليه لأبرهم ، رحمه الله تعالى ورضى عنه .

مؤلفـــاته :

ذكرها الشماخى فى السير ، وبعده السالمى فى اللمعة المرضية من أشعة الاباضية وكذلك البرادى فى جواهره . . قال الشماخى[1]: « وله تآليف جليلة أحيا بها المذهب منها : القواعد . ومنها : القناطر فى أجزاء كثيرة .

ومنها : شرح النونية فى ثلاثة أجزاء فى أصول الدين للشيخ أبى نصر فتح ابن نوح الملوشائى .

ومنها : كتاب الحساب وقسم الفرائض .

ومنها : ما جمع من أجوبة الأئمة فى ثلاثة أجزاء .

ومنها : كتاب الحج والمناسك .

ومنها : ما جمع من الرسائل ، وله قصائد . »

وكتابه « قواعد الاسلام » من أوسع وأعمق ما أُلِّف فى موضوعه ، وقد أشار إليه

---

(١) الشماخى . السير ٥٥٦ ـ ٥٧

فى القناطر فى أكثر من موضع[1]، ونال اهتمام العلماء وعنايتهم فوضع له الفقيه العالم أبو ستة الجربى حاشية واسعة .

لقد ترك الامام الجيطالى ثروة كبيرة من الجهاد العلمى الجاد المثمر فى مؤلفاته القيمة العميقة ، هى من أرفع الجهود العلمية وأخصبها . . ويجد القارىء فى كتاب القناطر هذا صورة جلية لهذه الآفاق الرحبه التى يرتادها هذا العالم الكبير فى ميادين المعرفة الاسلامية فى تدفق وعمق ودراية .

وإن أمتنا المسلمة فى هذا العصر الذى استفحل فيه الشر ، واشتد كيد الشياطين وأحمرّت فيه حدق الجهلاء ـ لغى أشد الحاجة إلى مثل هذه التصانيف القيمة التى أبرزتها قلوب أحياها الايمان ، ونفوس رباها القرآن .. وإن الجيل المسلم الذى نرجوه لهذه الأمة المسلمة ، والذى يحقق الوجود الاسلامى فى الأرض ، ويعلن فيها تحرير الانسان من الطواغيت والأصنام والأوهام ، لابد أن يفىء إلى مثل هذه الظلال الوارفة من التوجيهات الاسلامية الأمينة النظيفة ، والتى صدرت عن دعاة مؤمنين مخلصين صادقين كالجيطالى رحمه الله . . .

ذلك أن الجيطالى رحمه الله ـ لم يكن من أصحاب الكلام المولعين بالنظريات يتفنون فى عرضها ويتأنقون فى إيرادها ، وبالمجادلات الفارغة يشغلون بها أنفسهم والناس ، ولكنه كان مسلما مؤمنا ، حمل ثقل الرسالة العظيمة فى ركن من بلاد الاسلام فى وقت نجمت فيه للجاهليه قرون صلبة ، فانتدب نفسه لحمل راية الإسلام ؛ فكان من دعاته المخلصين الذين عاشوه « حركة » ثم عبروا عنه « بيانا » .

تعرض لمشاكسات الجهلاء ومضايقاتهم ، فجاز ذلك كله بقلبه الكبير وعلمه الغزير ، وابْتُلِىَ بكيد الساطان ووحشة سجنه ، فصبر لذلك حتى عافاه الله ..

---

(١) أنظر ص ٣٢٦ ـ ص ٣٢٧ من هذا الكتاب .

وتعرض للشيطان وهو يسخر أولياءه فيمنعونه من إحقاق الحق وانكار المنكر فغادر بلدة « فرسطاء » التى أقام بها تسع سنوات مؤثراً نصرة دين الله عن ألفة الدار ، وجمال الحق عن أنس الجار ، وقصد جزيرة جربة ليرفع فيها راية الدعوة فى مسجدها الكبير بقية عمره معلما ومذكرا ومربيا ومصنفا ..

ولقد كان الجيطالى من أهل المجاهدة والتقوى والإخلاص ـ تجد ذلك واضحا فى كتبه التى تسفر فيها الروح الشفافة المجنحة ، التى تحلق فى آفاق من التقوى والورع والعبادة الخالصة التى لا يخالطها رياء ، ولا يفسدها هوى ، ولا تنازعها رغبات الدنيا . كان بصيرا بطريق الآخرة ، سالكا لها عالما بها ، ودعاه ذلك إلى تدبر أمره وواجبه نحو إخوانه المسلمين فألف فيما ألف قناطر الخيرات ليبصرهم الطريق ، وليهديهم السبيل ، ولينصح لهم فى دنياهم فسلك بهم النهج القويم إلى آخرتهم .

وقد نال كتاب القناطر ـ كغيره من كتب الجيطالى ـ شهرة كبيرة فى مكتبة المذهب الإباضى العامرة بالمؤلفات الكثيرة ، ذلك أنه يبدو فريداً فى منهجه وطريقة تأليفه ، واتجاه مؤلفه الواضح فيه إلى رسم مخطط متكامل لحياة الإنسان المسلم كما يحددها التصور الإسلامى ويوجه إليها ، دنيا وآخرة . فهو كتاب شامل يجمع إلى بيان أسرار العبادات ومهمات مسائلها نظرات قيمة فى التربية والأخلاق ، ولمحات بارعة فى فلسفة التشريع الاسلامى ومنهاجه الذى اختطه لتنظيم الحياة والمجتمع ..

وكان الجيطالى فى عصر تحكمت فيه النظرة المذهبية الضيقة — حين توزعت الدنيا سلطان المسلمين فكثرت الممالك وتعدد الحكام وتفرقت الأمة — كان الجيطالى فيما يكتب رائداً من رواد الاخوة الاسلامية الصحيحة التى يبنيها العلم الواسع والاجتهاد الدقيق والإيمان العميق .. لم يكن ذلك هدفا له يسوغ له تضييع بعض الحق من أجله ، أو يتسامح فيه عن أصل من أصول العقيدة فى سبيله ، ولكن هذه الاخوة الإسلامية الأصيلة التى تتشبع بها كتبه كانت نتيجة الحق الواحد الذى يسع المسلمين الصادقين

مهما تناءت بهم الديار ، ومهما باعدت بينهم الأصقاع ، وقد أوضح الجيطالى ذلك من منهجه فى التأليف فقال[1] : « وأنا أستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم ، وطغى به القلم فى كتابنا هذا وغيره من كتبنا ، وإنما ألفناه من كتب شتى ، وأكثره من كتب قومنا[2] امتثالا لقوله عليه الصلاة والسلام : « أقبل الحق ممن جاءك به حبيبا كان أو بغيضا ، ورد الباطل على من جاءك به حبيبا كان أو بغيضا » فاستخرجت العلم النافع من كل كتاب ، ولم اهتبل بمؤلفه على خطأ كان أو صواب . ونقلت الحق المفهوم من بين الشوك والسموم ، إذ حجة الله على الانسان فهم الحق وعلمه من أى لغة سمعها أو لسان » .

ومع الجيطالى ، وفى جميع كتبه ، تلتقى بأئمة الإسلام وفقهائه الصادقين المخلصين الذين بصرهم الله بالحق فصدعوا به وأبانوا عنه ، يعرضهم الجيطالى فى كتبه فى فهم ووعى وترحيب .. تلتقى بالغزالى والماوردى والمحاسبى والشافعى وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل ومالك بن أنس وسفيان الثورى والأوزاعى وغيرهم من الأئمة ، يورد آراءهم فيما يعرض له من مباحث فى دقة وأمانة ، فإذا رأى خلافا أبان عن أصله وأوضح أسبابه ثم أختار مايبلغ عقله من الحق فى ذلك .. فكان فى جميع ما يكتب داعى ألف ومحبة ، وسفير قرب ومودة ، وهو فى كل ذلك الحامل الأمين لمذهبه ، يعرض أقواله وآراءه فى وضوح وبيان ويبرزه ناصعاً جلياً ، لاتشوبه البدعة ، ولا تنبشه الضلالة ... تسلمه من شيوخه أمانة سليمة ، وحجة ناصعة رفعها ـ الجيطالى ـ بعدهم مناراً للمدلجين ، وهدى للسالكين ممن هدى الله من عباده وشرح صدورهم للحق .

وبالرغم من تأخر زمن الجيطالى ، وتشعب روافد الفكر الإسلامى وامتزاج بعضها

---

(١) القناطر ، النسخة المطبوعة جـ ٣ : ٥٦٦

(٢) عندما يقول المؤلف : علماء أصحابنا فهو يعنى بذلك علماء المذهب الاباضى وأئمته ، ولذا أراد غيرهم من علماء وأئمة بقية المذاهب الإسلامية قال : « علماء قومنا »

بشوائب غريبة دخيلة ، إلا أننا نستطيع أن نؤكد أن الجيطالى كان بمعزل عن المؤثرات الغريبة عن التصور الإسلامى ، وأنه كان فى كل ما يعرض له من نظرات وآراء لا يحتكم لغير العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وموازينها الأصيلة : الكتاب والسنة والآثار الصحيحة عن الصحابة رضوان الله عليهم . .

ونلاحظ تجوزاً من المؤلف رحمه الله فى الإستشهاد بالأحاديث الضعيفة وبعض الأحاديث الموضوعة فى كتاب القناطر ، ومعظمها مما نقله عن الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين ، وهو فى بعض الأحيان يورد الحديث منها ويقول : ذكره الغزالى فى كتابه وروى الغزالى!... وقد سلك الجيطالى رحمه الله هذا المسلك على بينه منه ، وهو يوضح رأيه فى ذلك فى نهاية قنطرة الصوم فيقول[1] : «اعلموا — أرشدكم الله — أنى إنما أوردت الأحاديث المتقدمة فى فضل صلاة الأيام والليالى وغير ذلك من أحاديث فضل العلم والتعلم ، وما أوردت من الأحاديث هاهنا فى فضل رمضان وغيره من صوم الأيام المتقدمة ، وما سنورده من الفضائل إن شاء الله ، وإن كان أكثرها غير مستفيض عند أصحابنا ولا موثوق بصحتها ؛ فانى إنما فعلت ذلك لحديث رأيته فى آثار أصحابنا عن أبى عبيدة مسلم رحمه الله ، وذلك أنه قال : بلغنى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « من بلغه حديث فى الرغائب والفضائل فى العمل فاجتهد فيه — قال : فإن كان الحديث على نحو ما بلغه كان له أجران : أجر حفظه الحديث وطاعته فيه ، وأجر عمله به . وإن كان الحديث على غير ما بلغه كان له أجره على نحو ما بلغه ؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين ، فلا يذهب أجر اجتهاده لله ونصيحته لربه ما لم يكن اجتهاده فى بدعة » .

قال الشيخ أبو عبيدة — رحمه الله — فيما وجدت عنه : اعلم أن المسلم إذا رزقه الله نفسا طيبة مستقيمة على طاعة الله ، كلما بلغه شىء يتقرب به إلى الله أجتهد فيه فيكون مأجوراً على نحو ما تقدم .

---

(١) المطبوعة : جـ ١ : ٤٩١ — ٤٩٣ .

قال : وإذا كان للانسان نفس خبيثة مل العمل لله ، وأستثقل العبادة ، فكان أكثر همه فى الجدال والمراء ، فإذا بلغه حديث فيه الرغبة فى العمل عارضه بالقياس وقال : إن هذا ليس صحيحاً ؛ لأن رأيه وما يوافق هواه ليس فيه العمل بطاعة الله تعالى .

ثم قال : « وأيضاً فإنى وجدت فى كتب فقهاء قومنا أنهم استسهلوا فى نقل أحاديث الرغائب والمواعظ وقالوا : لأن ذلك حث على طاعة الله تعالى ودعاء إليه . ورووا فى ذلك حديثا عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال عنى خيراً قلته أو لم أقله فأنا قلته » ورووا عن أبى هريرة عنه عليه السلام أنه قال : « مابلغكم من قول حسن قلته أو لم أقله فأنا قلته » قالوا : وإنما تشدد الأئمة من أهل العلم فى أحاديث الأحكام التى بُنيت عليها قواعد الاسلام ، التى فيها الأوامر والنواهى ، والحلال والحرام ، والحدود والفرائض . ولعمرى لكذلك ينبغى أن تكون ... »

ميزة أخرى ترفع من قيمة هذا السفر الجليل ، هى أنه جاء متأخراً عن جهود سابقة فى ميدانه ، فقبس منها ما لمحته من نظرات ، وما توصلت إليه من آراء وحقائق ، فكان جامعاً لأشتاتها ومؤلفا لشواردها . . فقد كانت كتب خاصه ألفها أصحابها فى المباحث التى تتعلق بعلم طريق الآخرة وتقويم السلوك وتهذيب الأخلاق ، من هذه الكتب كتب المحاسبى ، وكتب أبى طالب المكى ، وكتب الغزالى : إحياء علوم الدين وغيره ، وأدب الدنيا والدين للماوردى ، وتبيين أفعال العباد لأحمد بن بكر وغيرها . . أفاد الجيطالى من كل هذه الكتب وقبس منها وأشار إليها ... ولعل الله سبحانه ييسر لى من بعد فرصة أتعرض فيها بالدراسة المفصلة لموقع الجيطالى من الفكر الاسلامى عامة والاباضى خاصة ...

هذه الطبعة :

ولا أجد داعياً للكلام هنا عن محتويات الكتاب فقد كفانى المؤلف رحمه الله ذلك فى الفصل الذى عقده عن ترتيب قناطر الكتاب . . وأدع ذلك إلى الكلام عن

هذه الطبعة الجديدة التى سوف يصدر الكتاب فيها فى أربعة أقسام ، هذا هو القسم الأول منها ..

وأغلب الظن أن المؤلف لم يحدد فاصلا بين أجزاء الكتاب ، ولا قصرها على عدد بعينه .. وعندما تحدث عنه المؤرخ الكبير الفقيه العالم : أبو العباس الشماخى ذكر أنه فى « أجزاء كثيرة » أما نور الدين السالمى فقد ذكر أنه فى ثلاثة مجلدات ، وطبعة البارونى فى ثلاثة أجزاء . وقد تسامحنا نحن فى هذا التقسيم الجديد ، فرأينا أن يشتمل القسم الأول على قنطرتى العلم والايمان وسائر عقائد التوحيد ، ويشتمل الثانى على قناطر العبادات ، وبقية الكتاب فى قسمين آخرين ..

نسخ الكتاب :

ولما استقر العزم على الشروع فى إعداد كتا ، القناطر للطبع ، جهدنا فى إلتماس نسخ خطية منه فى «جبل نفوسة» عند ذوى العلم والفضل ممن هم مظنة لذلك ، ومر زمن غير قصير ولم نظفر بحاجتنا ، ولم تسعف الوسائل فى طلبه من الاخوان بجربة أو بوادى ميزاب أو عمان . ولما فقدت الأمل فى الحصول على مخطوطة للكتاب ، شرعت فى درسه وإعداده مستعينا فى ذلك بنسخة الطبعة الحجرية التى قام بطبعها العالم المجاهد المرحوم محمد يوسف البارونى بالقاهرة منذ أكثر من خمس وسبعين سنة .. ومضيت فى ذلك شوطا بعيداً ليس بين يدى أصل غيرها ، حتى يسر الله سبحانه الحصول على ثلاثة نسخ خطية قديمة للكتاب أقدمها كتبت عام ١١٢٤ هـ . وكلها تشمل الجزء الأول فقط وتنتهى عند نهاية قنطرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقد أخبرت عن نسخة خطية كاملة للكتاب عند بعض أهل العلم الأجلاء ولم أطلع عليها بعد .

وأغلب الظن أن هذه النسخ الثلاثة بذاتها كانت أصولا للطبعة الحجرية ، فهى مما كان وقفاً على طلبة العلم بوكالة الجاموس ، ومما حفظته من عوادى الزمن خزانة طليون بالقاهرة ، فعدت وراجعت عليها مافرغت من تصحيحه على الطبعة الحجرية ، وأكملت

بقية الكتاب معتمدا عليها جميعاً ، غير متخذ واحدة منها بذاتها أصلا ، وجهدت ما أمكننى فى ترجيح النص الأصوب حيث يوجد خلاف بين النسخ ، وهو قليل جداً ، على أن هذه النسخ جميعا كثيرا ما تتفق فى التصحيف أو الخطأ أو السقط مما يؤكد أنها من أصل واحد .

وأنا أرجو أن أجد فى إخواننا من أهل العلم والخير ممن لديهم نسخا مخطوطة لمؤلفات الجيطالى من يتفضل بارسالها إلى حتى أستعين بها فى تحقيق بقية أقسام الكتاب الذى تقتضينى ظروف خاصة تأخير العمل فيها بعض الوقت .

و إليك وصف نسخ الكتاب التى أعتُمِدت فى تحقيق هذا القسم :

١ — النسخة المطبوعة : وقد طبعت بالمطبعة البارونية الكائنة بطيلون بمصر ، طبعها الشيخ محمد يوسف البارونى ، ووافق انتهاء طبعها فى جمادى الثانية سنة ١٣٠٧هـ ويقع الكتاب فى ثلاثة أجزاء : يقع الجزء الأول فى ٤٩٢ صفحة، والجزء الثانى فى ٤٦٠ صفحة والثالث فى ٥٦٦ صفحة من القطع المتوسط . وخطها جميل واضح وفيها الكثير من الأخطاء والتصحيفات . .

٢ — نسخة مخطوطة ، مكتوبة بخط معتاد ، وعليها تصحيحات طفيفة بقلم مغاير وتتضمن الجزء الأول من الكتاب ، وجاء فى آخرها : « نجزت أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحمد الله وحسن عونه ، والصلاة على محمد نبيه عليه السلام ، و بتمامها كملت القناطر السبعة فى هذا السفر، يتلوها ساير القناطر إن مد الله تعالى فى الأجل وأعان على المقصود و يسر العمل وبه الحول والتوفيق . ووقع الفراغ من نسخ هذا الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه فى ثالث عشرين فى جمادى الأول سنة ١١٢٤ ألف ومائة وأربعة وعشرين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام . .

وقد رمزت لها بحرف (ا) .

٣ — النسخة الثالثة ، نسخة مخطوطة تتضمن كذلك الجزء الأول من الكتاب ، كتب القسم الأول منها الفقيه يحى بن أبى أسحق الجربى بخط مشرقى واضح ، وينتهى خطه فى آخر الفصل الثالث من فضيلة الصلاة وعقوبتها ، ثم تغير الخط واستأنفت المخطوطة بخط مغربى ، وفى أسفل الصفحة اليمنى كتب بقلم رصاص حديث مانصه « هنا نهاية خط الشيخ يحيى بن سليمان بن أبى أسحق بالوكالة ، وهو إما سافر إلى جربة أو توفى بمصر فأكمله أخوه عمر سنة ١٢١٥ وهو خط مشرقى » وفى أعلى الصفحة المقابلة بنفس القلم « من هنا أول خط الشيخ عمر بن سليمان ابن أبى إسحق المتوفى بجربة وهى خط مغربى »

وفى آخر النسخة : « نجزت أبواب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه ، والصلاة على نبيه محمد عليه السلام ، وبتمامه كملت القناطر الستة ويتلوها قنطرة التوبة على يد كاتبه عمر بن سليمان أبى إسحاق الجربى . اللهم أغفر له ولوالديه ولمن قرأ هذا الكتاب .

وكتب فى صدر المخطوطة : « الجزء الأول من كتاب القناطر لأولياء الله منهم مؤلفه العارف بالله الشيخ إسماعيل الجطالى النفوسى نسبا رحمه الله ورضى عنه » وعليه فى وسط الصفحة فى الجانب الأيسر . هذا كتاب القناطر : الجزء الأول كتبه لنا الفقيه يحيى أبو اسحق وكمله لنا أخوه عمر . الفقير إلى ربه عيسى أحمد الشماخى عام ١٢١٥ هـ

وقد رمزت لها بحرف (ب)

٤ — النسخة الرابعة : نسخة مخطوطة مكتوبة بخط مغربى واضح ، وبها فى عدة مواضع تكميلات بخطوط مغايرة وبهوامشها بعض التصحيحات بخط حديث ، وكذلك بها خروم فى أكثر من موضع . ولم أعرف تاريخ نسخها ، ولا الناسخ الذى كتبها .

وهذه النسخ المخطوطة جميعاً مما كان موقوفا على طلبة العلم المجاورين بوكالة الجاموس بالقاهرة .

وأنا أرجو بعون الله ، إن وقفت إلى الحصول على نسخ أقدم وأصح أن أعود إلى مراجعة هذا القسم عليها مراجعة دقيقة وإلحاق ذلك فى ملحق خاص بما يطبع بعده من أقسام . . . .

وقد تركت إثبات ما وقع من خلافات بين النسخ إلا فى مواضع قليلة يجدها القارىء، وراجعت النصوص التى تضمنها الكتاب على أصولها فى كتبها الأصلية ، ودلت على مواضعها فى تلك الأصول ، فوضعت ما ارتأيته من زيادات وتصحيحات منها بين معقوفتين هكذا [ ] فما أشرت إلى موضعه فى الهامش فهو ذاك . وما أغفلته فهو زيادةُ أوعبارةُ إحدى أصول الكتاب .

وحرصت على كتابة تعريفات مختصرة لبعض الأعلام ممن ورد ذكرهم فى الكتاب ، والتزمت ذلك بالنسبة لعلماء أصحابنا من أهل جبل نفوسة أو غيرهم .

وحرصت على تخريج أحاديث الكتاب ، فنبهت على ماورد منها فى الجامع الصحيح للربيع بن حبيب البصرى ، إذ هو معتمد أصحابنا ، وفى غيره من الصحاح وكتب السنن والحديث ما أمكننى ذلك وتعرضت بعد ذلك لشرح بعض ما أتصوره غامضاً من المفردات اللغوية مما ييسر فهم نص الكتاب والإستفادة منه .

وأنا أشعر بعد ذلك ، أن عملى فى هذا القسم هو عمل المبتدىء الذى يقع له الخطأ ويعتريه الزلل ، ويسمه القصور ، وأرجو المعذرة ، فأول كل مركب صعب ، وقد وجدت نفسى بين أن أبدأ العمل مع ضعف الآلة وقلة الزاد ، أو أن أرجىء ذلك حتى أستكمل العدة والأداة ، وأستوثق من يدى فيما أقصده من العمل ، فرأيت أن بدء العمل على حالى هـــذا خير من الإرجاء ، فسيرى فى الطريق كفيل بأن يدلنى على ما أحتاجه من الزاد ، وبأن يعرفنى ماقد استوفيته منه ، فأستكمل ما ينقصنى ، وأستزيد مما ملكتُ وأحسنت ، ثم إن ذلك يدل ذوى العلم والفضل على موضع الملاحظة والنصيحة والإرشاد من عملى ما أطمع أن تصلنى بعده نصائحهم وتوجيهاتهم ، فأستفيد

خبرة ونصيحة ، والله سبحانه هو الموفق والهادى إلى سواء السبيل . .

وأخيراً فإننى أجد لزاما على أن أتقدم بالشكر إلى من أعان على خروج هذا الكتاب إلى النور . أخص بالذكر العلامة الفاضل الشيخ أبا إسحق إبراهيم أطفيش الذى كثيراً ما كنت ألجأ إليه فيما يستعصى علىّ من المسائل فأجد عنده الرعاية والتوجيه والعون ، والأستاذ الفاضل الشيخ على يحيى معمر الذى تفضل ووضع بين يدى رسالة له مخطوطة فى تراجم علماء الجبل والتعريف ببلدانه، مع ما أحاطنى به من توجيه وتسديد .

وكذلك الأخ الفاضل الكريم الأستاذ حمودة بن قايد الذى تكرم وأعارنى مجموعة قيمة من المراجع النادرة من مكتبته الخاصة ما كنت أستطيع الحصول عليها لولا شهامته وفضله؛ فجزى الله جميع من أعان فى هذا العمل كل خير عن الإسلام وأهله ، ووفقهم إلى إعلاء كلمة الله ونصرة دينه وكبت أعدائه . ونسأله سبحانه العون والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ؟

عمرو خليفة الناصى

القاهرة : { صفر ١٣٨٥ هـ.
يونيه ١٣٦٥ م.

كتاب

قناطر الخيرات

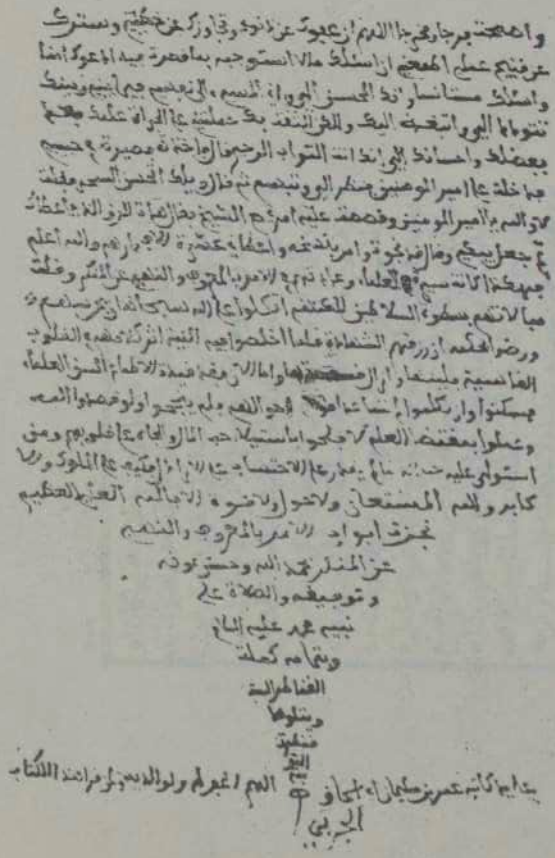
تأليف الإمام القدوة العلامة

أبي طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي

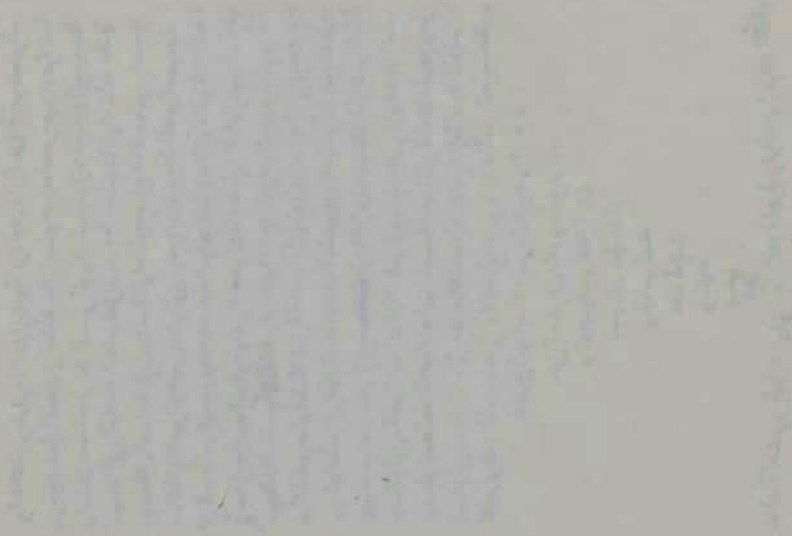
القسم الأول

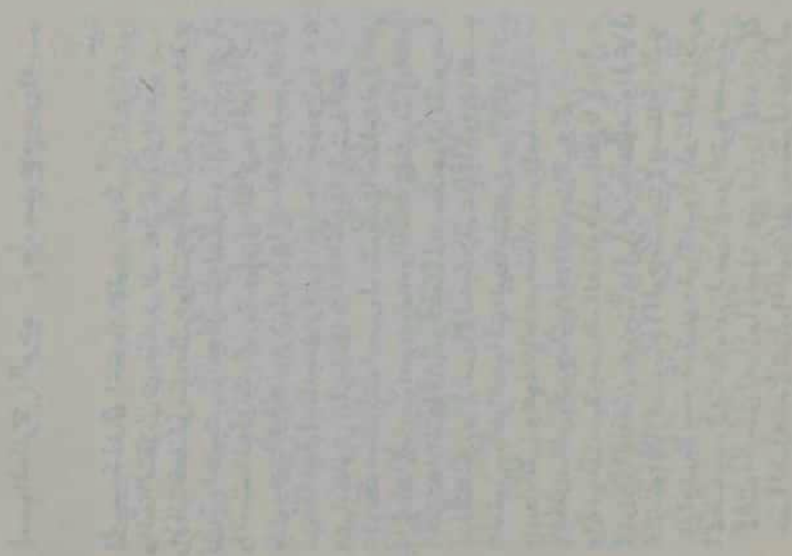
يحتوي على قنطرتي العلم والإيمان

الصفحتان الأولى والأخيرة من المخطوطة (١)



الصفحتان الأولى والأخيرة من المخطوطة (ب)





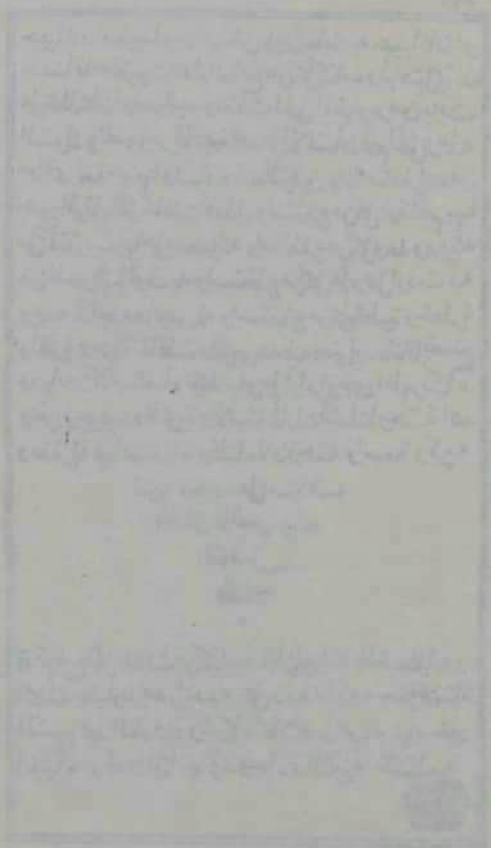
حبيبا كان او بغيضا ورد الباطل على من جاءك به حبيبا كان او
بغيضا فاستخرجت العلم النافع من كل كتاب ولم اهتبل بمؤلفه
على خطا كان او صواب ونقلت الحق المفهوم من بين
الشوك والسموم اذ حجة الله على الانسان فهم الحق وعمله
من اى لغة سمعها ولسان وبالله التوفيق وانا استغفر الله من
جميع اقوالى التى خالفت افعالى واستغفره من كل نعمة انعم بها
على فتقويت بها على معصيته واستغفره من كل وعد وعدته
من نفسى ثم لم اوف به واستغفره من كل علم وعمل اردت به
وجه فخالطه ما ليس له واستغفره من كل خطوة وخطرة
ونظرة وحركة خالفت ما ليس لله فيه رضى او دعانا الى تصنع
ورياء من كتاب الفناء او كلام او علم او امر او نهى اظهرناه
ونحن نرجو بعده التوبة والاستغفار ان تشملنا رحمة الله
ومغفرته فيما صنفناه وقلناه لان رحمته واسعة وكرمه
عميم وجوده على اصناف
الخلق فائض وبالله
التوفيق
والهداية

تم

وقد تم طبع الجزء الثالث من كتاب قناطر الخيرات بالمطبعة البارونية
الكائنة بطيلون بمصر المحمية على ذمة ملتزمه حضرة الاستاذ
الشيخ محمد البارونى وشركاه كان الله فى عونهم بجاه خير
انبياه وقد وافق انتهاؤه فى جمادى الثانية سنة ١٣٠٧

الصفحة الأخيرة من الجزء الأخير

من نسخة الطبعة البارونية



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما

الحمد لله المتوحد بالألوهية والكبرياء ، المنفرد بالديمومة والبقاء ، المتقدس عن نقائص العاهات ، تعالى عن العيوب والآفات . خلق كل شيء فقدّره ، واخترع الإنسان وصوّره . خضع كل شيء لهيبته ، وتواضع كل شيء لعظمته ، وذل كل شيء لعزته واستسلم كل شيء لجبروته . لم يزل عالما بجميع المحدثات على ما هي عليه من الصفات ؛ من تفاصيل أجناسها ومجارى أنفاسها قبل وجود أعيانها، وجريان أزمانها . شاءها الحكيم فى أزليته فظهرت على وفق مشيئته . ليس له شريك فى إنشائها ، ولا ظهير[1] فى ايجادها . أنشأها لا من شيء معه موجود ، وأتقنها على غير مثال معهود . اخترعها دلالة على قدرته ، وتحقيقا لما سبق من إرادته ، وما خلق الجن والإنس إلا لعبادته . عالم فى الأزل لما هم عاملون ، وبآجالهم التى إليها ينتهون ، وبأرزاقهم التى هم لها آكلون ، فهم لما علم منهم منقادون ، وعلى ما سطر فى كتابه المكنون ماضون . فجميع ما وجد بعد العدم من الأشياء والأمم فقد سبق به من الله القضاء ، وجف به القلم . فالآجال محدودة ، والأنفاس معدودة ، والأرزاق مقسومة ، والأعمال محتومة ، والآثار محسوبة وفى اللوح مكتوبة ؛ لا يستأخر شيء عن أجله ، ولا يسبقه قبل حلول محله . ولا يفوت أحداً رزقه المقسوم ، ولا يتعدى ما قدر له فى أمره المحتوم ، [فقد] سبقت كلمته الحسنى لعباده المرسلين ، وأوليائه المخلصين كما حق القول منه لأعدائه الغاوين ، كل مُيَسَّر لما خلق له ، ولا يتجاوز ما وقت له ، يعلم ما تكن[2] صدورهم وما يعلنون ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن ، فيكون.

---

(١) الظهير : المعين .

(٢) تكن : تستر وتخفى .

أحمده حمد من أخلص له الإنابة[١] وأدعوه دعاء مؤمل منه الإجابة. وأشهد أن لا إله إلا الله الملك المحمود، الذى ليس بوالد ولا مولود. وأشهد أن محمداً عبده المرتضى ورسوله المصطفى أرسله إلى الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً، فبلغ رسالة ربه، ناصحا لأمته، حتى أتاه من ربه اليقين، بعد كمال الدين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأخيار، وأصحابه المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم تشخص فيه الأبصار.

أما بعد، فقد إنكشف لأرباب القلوب، بحقائق الإيمان، وواضح محكمات القرآن أن لا وصول للعبد إلى السعادة الأبدية إلا بالعلم وأمتثال العبادة الدينية، وهما بضاعة الأولياء، ومنهاج الأقوياء، وهما دين الله القويم، وصراطه المستقيم، لأجله خلق الموت والحياة، وبسببه تنال عنده النجاة.

ولكنه طريق صعبة المسالك، مخيفة المهالك، كثيرة العوائق والموانع، غزيرة الأعداء والقواطع، بعيدة المسافات، كثيرة الآفات. ذات شعاب وأودية، وعقبات وأهوية[٢] محفوفة باللصوص والقطاع، مشحونة بالأفاعى والسباع، تنبعث فيها الشياطين الموسوسة، والعقبان المختلسة. قد تشبكت بالأشراك الخاتلة، ومزجت بالسموم القاتلة، وهكذا يجب أن تكون؛ لأنها طريق إلى الجنة ذات الحور والجوهر المكنون، تصديقا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «حفّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[٣] ومع ذلك أن الله سبحانه خلق الإنسان ضعيفاً، فحمّله ثقل الأمانة تكليفاً، وأوجب عليه إتقان حمل تلك الأمانة بالعلم والعمل، والتشمير فى آداء حقها بالجد لا بالكسل، فعمر الإنسان قصير، والناقد[٤] لأعماله بصير، والجهل مع اتباع الهوى عليه غالب، والآفات

(١) ناب إلى الله: تاب ورجع كأناب.
(٢) الأهوية جمع هواء: الجو بين السماء والأرض.
(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد ومسلم والترمذى عن أنس. وأخرجه مسلم عن أبى هريرة. وأحمد فى الزهد عن ابن مسعود موقوفاً.
(٤) الناقد: المميز.

محدقة[١] به من كل جانب ، والأجل قريب غير مديد ، والسفر بعيد صعب شديد ، والطاعة هى الزاد فلا بد منها ، والدنيا منصرمة فلا مرد لها ، فمن ظفر بالزاد منها سهل عليه على الصراط الجواز ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . ومن حُرِم من الطاعة نصيبُه طال عليه فى سفره النصب[٢] والتعب ، ودام عليه فى النار الوصب[٣] واللهب . فلهذا الخطب الفظيع والهول الشنيع قلَّ السالكون للطريق بالجد والتحقيق ، ومنهم من بذل فى بدء أمره من النفس بعض المجهود ، فطال عليه التعب فانقطع ولم يصل إلى المقصود إلا الأصفياء المخلصين الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء ، والصالحين .

قلت : فلما كان الطريق على ماوصفنا من المشقة والمخافة ، وكثرة العوائق وبعد المسافة ؛ من الآفات المانعة ، والمفازات[٤] الشاسعة ، والشعاب والأودية ، والعقبان المؤذية ، رأينا أن نرتب عليها قناطر لكى يمكن للسالكين عليها العبور ، حتى تفضى[٥] بهم إن شاء الله تعالى إلى درجات السرور ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى نقل بنى آدم من أصلاب[٦] الرجال إلى بطون الأمهات ، فخلقهم فيها خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ، فأخرجهم إلى الدنيا جهالا ، فأحياهم بالعقول بُلغا ورجالا ، فامتازوا بالعقول عن البهائم فصاروا من جملة العقلاء ؛ وهم الملائكة الفضلاء . فألزمهم عند كمال العقول طريقة التكليف ، وتقدم إليهم على ألسنة رسله بالإنذار والتخويف . وجعل لهم الأرض ذلولا وفراشاً ، ونباتها معاشاً ، لا ليستقروا فيها ، بل ليتخذوها منزلا ، ويتزودوا منها زادا وعملا . متحرِّزين من مصائدها ومعاطبها ، ويتحققوا أن الأعمار تسير بهم سير السفن بركابها ؛

---

(١) محدقة : محيطة .
(٢) النصب : الكد والجهد .
(٣) الوصب : المرض .
(٤) المفازات : الفلاة لا ماء فيها .
(٥) تنتهى .
(٦) أصلاب الرجال : ظهورهم .

فهم فى الدنيا سفار ، وبأعمالهم تجار . فأول منازلهم المهد ، وآخرها اللحد ، والوطن الجنة أو النار ، والعمر مسافة السفر ، والسنون مراحله ، والشهور قطاع طريقه ، والأيام أمياله والأنفاس خطواته ، والطاعة بضاعته ، والأوقات رؤوس أمواله ، والشهوات قطاع طريقه ، وربحه الفوز بلقاء الله فى دار النعيم المقيم ، وخسرانه البعد من الله تعالى فى دركات[1] الجحيم والعذاب الأليم . وان مادون الجنة من قناطر جهنم والفزع الأكبر إلى القبر الذى فيه هول المطلع ، مفازة محفوفة بالأهوال الفظيعة ، والأفزاع الهائلة الشنيعة من صحف تنشر ، ونار تزفر ، وأعمال توزن فترجح أو تخف ، وقلوب تفزع وترجف ؛ وعقارب فى القبر تلدغ ، وحيات تلسع ، وملائكة تختبر ، وجوارح تنشر ، فتحقق بهذا الترتيب العجيب أن البطون للخلق مغارات والدنيا لهم مفازات ، وما بعد الموت إلى الفراغ من الحساب أخطار مهولات .

ثم إن الله سبحانه شرع ملة الإسلام طريقة سهلة ، حنيفية سمحة ، ورتب فيها فرائض من التوحيد والصلاة والصوم والزكاة والحج وغير ذلك ، فكأنها قناطر مقنطرة . وحرم فيها أشياء من الشرك والظلم والفواحش والربا والقذف وغير ذلك مما يطول ذكره فكأنها للعبد صواعق مهلكة . وأمر عباده بقمع الشهوات ، ودفع العلائق الشاغلة عن طاعته من أصناف الخلق والهوى والنفس والدنيا ؛ فكأنها عقبات وأودية وشعاب متلفه عائقة للعبد عن سلوك الطريق إلى الله تعالى ، قاطعة له عن المسير وأمرهم بالإستعاذة به تعالى من الشياطين الموسوسة من الجن والإنس فكأنها لصوص مسترقة وعقبان مختلسة . وأوجب عليهم تطهير القلوب من مغارس الفواحش والذنوب من الشك والشرك وسخط المقدور والغل والحسد والكبر والرياء والغضب والعداوة والبغضاء

---

(١) دركات الجحيم : أسافلها .

والطمع والبخل والرغبة والبذخ والأشر[١] والبطر [٢] وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء ، والمكر والخداع والغش وسوء الظن والخيانة والفخر والخيلاء ، والتنافس والمباهاة والاستكبار عن الخلق والأنفة عن قبول الحق والعصبيه والمداهنة[٣] والعجب وحب الرياسة والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس . وزوال الحزن من القلب وخروج الخشية منه ، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها إذلال . وضعف الانتصار للحق . واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السريرة ، والأمن من مكر الله فى سلب ما أعطوا ، والإتكال على الطاعة وطول الأمل ، والقساوة والفظاظة[٤] والفرح بالدنيا والأسف على فراقها ، والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم ، والجفاء والطيش والعجلة وقلة الرحمة والإصرار على المعصية إلى غير ذلك . فهذه وأمثالها كأنها سموم قاتلة ، وأشراك لإبليس خاتلة

وأمر بحفظ اللسان عن الكذب والغيبة والنميمة والهمز والغمز واللمز ، والطعن فى فى الدين واللعن لمن لا يستحق والشتم والازراء والقذف وبهتان البرىء ، والحكم بغير ما أنزل الله ، وقول الزور والنطق بالفحشاء ، والتغنى والنياحة والخوض فيما لا يعنى وأشباه ذلك مما كان للاعمال نيران مشتعلة .

ونبه عن التيقظ وأخذ الحذر من مكائد النفس وغرور الشيطان ، وتزكية النفس والرضا عنها إلى غير ذلك مما كأنها حبائل غائلة للانسان . وأمر بغض البصر عن الحرام ، وحفظ الفروج [عن الزنا] وصيانة النفس عن جميع مالا يجوز التكلم به ، وحفظ البطن

---

(١) الأشر : الخفة .

(٢) البطر : الطغيان بالنعمة .

(٣) المداهنة : أن يظهر للناس غير مايبطن .

(٤) الفظ : الغليظ الجانب السيء الخلق . والفظاظة : الغلظة وسوء الخلق .

عن جميع مالا يحل أكله ولا شربه إلى غير ذلك من المناهى ، وأمر بعمارة القلب واللسان بذكره عز وجل ، والصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والتقوى والقناعة ، ومعرفة منه تعالى فى جميع الأحوال ، والإحسان وحسن الظن واليقين والمعرفة وحسن المعاشرة والصدق والاخلاص والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق وأشباه ذلك من جميع أضداد الآفات المتقدمة . وذكر [الله] تعالى فرائض الإسلام فقال :

« ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا ، واولئك هم المتقون » . (١)

ثم ذكر المحارم فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام :

« قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل » . (٢)

فأوجب على العبد امتثال أوامره الأول فالأول ، واجتناب محارمه والسؤال عنها حتى تعرف وتجتنب ولا تتمثل وحرضهم على كف الألسنة وتطهير الأفئدة لكى تصح الأعمال ولا تبطل ، فقال تعالى : **« اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم اعمالكم » . (٣)** الآية

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧ .
(٢) سورة الأنعام : ١٥١
(٣) سورة الأحزاب : ٧٠ — ٧١

وقال : ﴿ ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ (١)

وقال : « يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (٢)

وقال : ﴿ أولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم ﴾ الآية . (٣)

وقال : ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان ﴾ الآية (٤)

وقال : ﴿ وذروا ظاهر الاثم وباطنه ﴾ (٥) . وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام : « قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون » . (٦)

فلما كان الأمر على ما وصفنا ، كان ينبغى [لنا] أن نرتب على طريق الإسلام قناطر [كما قدمنا] ليسلك المسترشدون عليها . ونهيء لهم سلاحاً من العلم ليقاتلوا بها ، ونعلمهم على عقاقير من الصبر ونظام النفس والحلم والقناعة إلى غير ذلك حتى يتجرعوا مرارة الدنيا بالزهد فيها ، ونوقظ قلوبهم بهيجان الخوف والحذر والإشفاق حتى يتمكنوا من الهروب من النار وزقومها ، ونزعجهم بإزعاج الرجاء والشوق إلى الجنة ونعيمها إلى غير ذلك مما يطول به الكتاب . ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل الجسيم شمر الموفقون عن ساق الجد [والإجتهاد] ، ودعوا بالكلية ملاذ النفس واغتنموا بقايا الأعمار قبل أن يزعجوا عن هذا الدار ، جعلنا الله وإياكم من الموفقين لعلم دينه العاملين به إنه أرحم الراحمين .

---

(١) البقرة : ٢٦٤ (٢) الشعراء : ٨٩

(٣) المائدة : ٤١ (٤) النحل : ٩٠

(٥) الأنعام : ١٢٠

(٦) فى الأصول . (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن إلى قوله ما لا تعلمون) فآثرت أن أورد سياق الآية كما تجده هنا . وقد جرت عادة علمائنا رحمهم الله على مثل هذا ، لأنهم كانوا يكتبون للمسلمين يوم كانوا يحفظون قرآنهم فلا يحتاج القارىء منه إلا أن يذكر بداية الآية ليحضر له ما بعدها .

(فصل فى ترتيب قناطر الاسلام)

اعلم أن [الله] سبحانه خلق ابن آدم أطواراً فى الأرحام ، ونفخ فيه الروح والشم ، فمكث هناك مدة ليس له علم بشىء من الأمور إلا الحس به يستلذ وبه يتألم ، فلما خرج من بطن أمه وجرت الحركة فى مفاصله ، أبصر وذاق وشم وسمع ؛ وذلك قوله تعالى : « **والله اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئا** » فقرن الله تعالى به الملك صاحب اليمين فيرشده ويسدده ويقويه ويؤيده ، فعند تمام سبع سنين قرن به الملك صاحب الشمال يلهمه ويلقنه ويعلمه ويلسنه [إلى] تمام أربع عشرة سنة ، فلما ظهر على الكلام استقبلته القياسات الخيالية واختلطت له بالعقلية ؛ فاذا نظر إلى السماء توهمها بساطاً أخضر نثرت عليه دنانير صفر ، فلما قويت نفسه وبلغ حسه ذهب الخيال هباء منثوراً وبقى العقل أميراً مأمورا ، وهو قوله تعالى : « **اولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير** »(٢) فتعين حينئذ عليه التكليف ووجب عليه معرفة خالقه الرحيم اللطيف . نظر بعقله الذى هو من حجج الله تعالى على المكلفين مع سائر حججه من الأنبياء والمرسلين وأصناف الخلق أجمعيين . فتأمل فإذا الدنيا بين يديه كأنها مفازة مظلمة ، وبالجهالة مدلهمة(٣) ، فإذا فيها أصناف الحيوانات المؤذية قد استقبلته فقال : لا يصح لى سلوك هذه المفازة الظلماء إلا بمصباح نور يكون لى دليلا لأعرف ما آتى وما أتقى .

فنستقبله هاهنا قنطرة العلم بخالقه وهى القنطرة الأولى، ولن يصل إلى ذلك إلا بتنبيه مخبر أو إلهام ملهم يبعث عقله على التفكير والبحث والنظر ، فيتفكر فى الدليل من خلق

---

(١) النحل : ٧٨

(٢) فاطر : ٣٧ .

(٣) أدلهم الظلام ، إذا كثف واسود .

السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من خفض ورفع ، وجوهر وعرض ، ويتفكر فى اختلاف الليل والنهار وما يجرى به الدهر من الأكوان والأحداث من الخير والشر ، والنفع والضر ، والشدة والرخاء وغير ذلك . ويستدل بالصنعة على الصانع فيعلم يقيناً أن الصنعة لا بد لها من صانع ، وأن الخلق لا بد له من خالق . ثم يمعن النظر فى خلقه ونفسه وتسوية جوارحه ، وما أفاض عليه الرب سبحانه من أصناف النعم ؛ من الحياة ، والعقل والفهم والسمع والبصر والشم وغير ذلك مما لا يحصى كثرة من المعانى الشريفة والملذات العجيبة ، وما صرف عنه من أصناف المضار والآفات .

فإذا أمعن النظر بعين البصيرة(١) لا عين البصر ، علم أن لهذه الصنعة صانعاً ولهذه النعمة منعما حيّاً ، رازقاً ، عالماً بأسراره وما يختلج فى أفكاره ، وقد وعد على شكر النعمة ثواباً ، وعلى كفرانها عقاباً ، وأنه إن غفل عن شكره وخدمته أزال عنه تلك النعمة ، وأذاقه البأس والنقمة عاجلا وآجلا . فيهتاج حينئذ لا محالة فى قلبه خاطر الفزع الذى ينبهه عليه فى عقله . وتلزمه الحجة وينقطع له العذر من أجله مع سائر الحجج من كتاب الله ورسوله .

فعند ذلك :

تستفيد القنطرة الثانية: وهى قنطرة الإيمان بهذا الصانع الخالق المنعم الرازق أنه خالقه ورازقه ، طلبه فوجده ، وعرفه بعد ما جهله ، فيؤمن به إيمانا يقينا بالقلب واللسان ، ويدوم على ذلك إلى الممات . ويوحده توحيداً خالصاً يرى به الأمور كلها من الخير والشر والنفع والضر رؤية يقطع التفاته إلى الوسائط والأسباب ، وهذا التوحيد والإيمان والعلم هى العصا التى يضرب بها سيد السباع التى استقبلته حين أشرف على مفازة الدنيا المظلمة بالجهل

---

(١) أمعن . أبعد . والبصيرة . عقيدة القلب والفطنة .

فيقتله فتفترق عنه سائر الدواب المؤذية التى هى ما دون الشرك من الذنوب تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾[١]

فلما عرف العبد سيده ووحده وآمن به وعلمه بعد ما جهله تيقن أنه أوجب عليه خدمته وكلفه شكر نعمته ، ولكنه لا يدرى كيف يعبده وماذا يلزمه من خدمته بظاهره وباطنه بعد حصول هذه المعرفه به :

استقبلته القنطرة الثالثة وهى قنطرة الصلاة مقدم فرضها على الصيام فى نزول الوحى أول الإسلام لا فى حالة التكليف والإلزام ؛ لأن العبد مأمور بجميع الفرائض منهى عن جميع المعاصى فى حالة البلوغ. فوجب عليه عند دخول وقتها الإتيان بجميع وظائفها علما وعملا ؛ لأنه لما عرف سيده وجب عليه أن يخضع له ويخشع ويذعن له بجميع العبودية ؛ فلا عبادة تجمع الخضوع والخشوع والابتهال إلى الله سبحانه والتضرع إليه مثلها . فيجب على العبد الوقوف بين يدى سيده للخدمة بالطهارة الكاملة والخشوع التام ، فبذلك يحظى عنده ويرضى عنه ، فإذا واظب على الصلاة أورثه ذلك لين الفؤاد وتمرين الجسد وتذلل النفس إجلالا لخالقها وأنذلالا لرازقها . فإذا أتى بالصلاة راغباً راهبا :

استقبلته القنطرة الرابعة وهى قنطرة الصوم عند حلول شهره ووجوب فرضه ، مقدم فرضه فى النزول على الزكاة أيضا لأن النفوس على الأموال أشح ، وفيما يتعلق بالأبدان أسمح ؛ وذلك الصيام والصلاة ؛ لأن فى إيجاب فرض الصيام حثاً على رحمة الفقراء وإطعامهم وسد جوعاتهم بما قد عاناه العبد وقاساه من شدة المجاعة ؛ ولأن الصوم يقهر النفس ويكسر شهوتها المستولية عليها ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « معاشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء . »[٢] فوجب على

---

(١) الأنفال : ٣٨ .

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود

العبد إحكام الصوم بجميع شروطه ، وكف جوارحه عن المحرم عليه ظاهراً وباطناً لأن المقصود من الصوم عند أهل التحقيق ، التخلق بخلق [من أخلاق] الملائكة فى الكف عن الشهوات بحسب الإمكان ، لأنهم منزهون عن الشهوات ، والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم بقدرته بنور العقل على كسر شهوته ، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه ، وكونه مبتلى بمجاهدتها ، فكلما أنهمك فى الشهوات أنحط فى أسفل سافلين ، وألتحق بأغمار البهائم. وكلما قمع الشهوات أرتفع إلى أعلى عليين ، وألتحق بأفق الملائكة المقربين إلى الله تعالى ، قرب صفات لا قرب مكان . والذى يتشبه بأخلاقهم يقرب من الله بقربهم ، فهذه حقيقة الصوم عند أهل التحقيق . فإذا أتى العبد بفريضة الصوم على الكمال :

استقبلته القنطرة الخامسة وهى قنطرة الزكاة كما ورد فى الخبر : « الزكاة قنطرة الاسلام »(١) قدم الله تعالى فرضها على فرض الحج ؛ لأن فى الحج مع إنفاق المال سفراً شاقا . فكانت النفس إلى الزكاة أسرع إجابة منها إلى الحج . فكان فى ايجابها مؤاساة للفقراء ومعونة لذوى الحاجة ، تكفهم عن البغضاء والتقاطع ، وتبعثهم على التوادد والتواصل مع ما فى أدائها من تمرين النفس على السماحة ومجانبة الشح المذموم ؛ لأن السماحة تبعث على أداء الحقوق والشح يصد عنها ، لأن الله تعالى أمتحن عباده حين أدعوا محبته أن ينفقوا [من] أموالهم المحبوبة عندهم فيكون ذلك تصديقا لدعواهم ولذلك قال : « **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** »(٢) فاستنزلهم عن المال الذى هو معشوقهم وعن النفس التى هى غاية محبوبهم فقال تعالى : « **ان الله اشترى من المومنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة** . »(٣) وذلك بالجهاد وهو مسامحة النفس بالمهجة شوقا إلى لقاء الله تعالى ، والمسامحة بالمال أهون فإذا أخرج العبد من ماله فريضة الزكاة بكامل حقوقها إلى المستحقين لها استقبلته :

---

(١) حديث حسن . أخرجه الطبرانى فى كبيره عن أبى الدرداء .

(٢) آل عمران : ٩٢ (٣) التوبة : ١١١

القنطرة السادسة وهى قنطرة الحج ، أخّر الله سبحانه فرضه على العباد؛ لأنه يجمع عملا على بدن وحقا فى المال . جعل فرضه بعد استقرار فرائض الأبدان وفرائض الأموال ليكون استيفاؤنا سهم بكل واحد فى النوعين ذريعة إلى تسهيل الجهاد عليهم ، لأنه يجمع النفس والمال كالحج ، وكأن فى ايجابه الحج تذكيراً لسفر الآخرة فى مفارقة المال والأهل وخضوع العزيز والذليل فى الوقوف بالمحشر بين يديه ، واجتماع المطيع والعاصى فى الرهبة منه والرغبة إليه ، وإقلاع أهل المعاصى عما اجترحوه[١] وندم المذنبين على ما قدّموه ؛ لأنه قل من حج إلا وأحدث توبة من ذنب وإقلاعا عن معصية . فإذا أدى العبد فريضة الحج على الكمال خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[٢] . فهذه الخمس قناطر ، قواعد الإسلام كما صح فى الخبر : « بنى الإسلام على خمس . . الحديث . »[٣] وهى أصل العبادة والإتيان بهن على الكمال علامة السعادة . فلسنا نتعرض هنا لذكر قنطرة الجهاد لأنه من فروض الكفاية ، داخل فى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على قدر درجاته الثلاث[٤] وهذه الفرائض الخمس أصلها وأساسها الذى تبنى عليه هو التوحيد والايمان والإخلاص ، لأنه لاتصح العبادة إلا بالإيمان ، ولا يصحان إلا بالعلم ، ولايصح العلم إلا بالطلب ، ولا يصح الطلب إلا بالإرادة ، ولا تصح الإرادة إلا بباعث يبعث عليها . والباعث هو الرغبة فى ثواب الله والرهبة من عذابه ، ولا يصح ذلك إلا بالوعد والوعيد ، ولا يصحان إلا بالشرع ، ولا يصح الشرع إلا بصدق الرسول عليه السلام ، وصدق الرسول يصح بالمعجزة لأن ظهور المعجزة إنما هو بإذن الله سبحانه وتعالى ، مالك الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

---

(١) اجترح ، وجرح : كسب .

(٢) من حديث أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » أخرجه الشيخان .

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر .

(٤) إشارة للحديث الذى يقول « من رأى منكم منكراً فلينكره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »

فصل

فلما أستكمل العبد هذه الفرائض ، وتحقق له الطريق كما وصفنا انبعث قلبه ليتجرد للعبادة ، فنظر فإذا هو صاحب ذنوب وتبعات فيقول : كيف أقبل على العبادة وأنا مصر على المخالفة والمعاندة ؟ فيجب علىّ أولا أن أتوب إلى الله تعالى ليطهرنى من أقذار الذنوب فأصلح لخدمة علام الغيوب

فتستقبلها هنا قنطرة التوبة وهى القنطرة السابعة ، فيحتاج لا محالة إلى قطعها ليصل إلى المقصود من العبادة ، فيأخذ فى ذلك باقامة التوبة فى حقوقها وشروطها إلى أن يقطعها بجميع وظائفها كما سيأتى إن شاء الله تعالى ، فلما فرغ من هذه القنطرة حن إلى العبادة ليأخذ فيها ، فنظر فإذا حوله عوائق محدقة به كل واحدة منهن تعوقه عما قصد من العبادة، وتشغله بضرب من الشواغل .

فتستقبلها هنا قنطرة العوائق فتأمّل فإذا هى أربع :

إحداهن قنطرة الدنيا المتعلقة به ، فيحتاج إلى قطعها بالتجرد عنها والزهد فيها ، لأن الدنيا والآخرة ضرتان إن سخط إحداهما أرضى الأخرى ، وأنهما كالمشرق والمغرب بقدر ما يميل إلى إحداهما يعرض عن الأخرى ويبعد عنها ، فاحتاج إلى قطعها بالزهد فيها والتجرد عنها إلا قدر الزاد ، فلا بدله منه كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

الثانية قنطرة الخلق : أهل الرغبة والبطالة ، وأهل الشر والجهالة ، فيحتاج إلى قطعها بالتفرد عنهم والهرب من لقائهم إن عم البلاء أو خشى هلاك دينه . أو يعتزل أعمالهم بقلبه وفعله ويحضر الجماعة والجمعة معهم ويوفيهم حقوقهم من صلة وزيارة وحضور ميت كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

الثالثة قنطرة الشيطان : فيحتاج إلى قطعها بالقهر والمحاربة والاستعاذة بالله منه

والمخالفة له لأنه عدو ولا مطمع فيه لمصالحة وإبقاء ، لأنه لا يقنعه إلا إهلاك العبد أصلا . فلا وجه إلى الأمن من هذا العدو والغفلة عنه .

الرابعة قنطرة النفس : وهى أعدى الأعداء وأشدها على العبد ؛ إذ هى بين جنبيه لا يمكن التجرد عنها بمرة ؛ لأنها المطية . ولا مطمع أيضا فى موافقتها على ما يقصده من الإقبال على العبادة ، إذ هى مجبولة على ضد الخير أمارة بالسوء والشر . فأحتاج إذاً إلى أن يلجمها بلجام التقوى لتبقى له فلا تنقطع ، وتنقاد له فلا تطغى ، فيستعملها فى المصالح والرشاد ، ويمنعها عن المهالك والفساد . فيأخذ فى قطع هذه القنطرة بالسياسة والاعتدال ، فيقمع من شهوات النفس ما خرج عن طاعة الشرع والعقل ، ويترك لها ما لا يخرج من الشرع والعقل . فلا يترك كل شهوة ، ولا يتبع كل شهوة . فلما فرغ من من هذه القنطرة وقطعها بحسن عونه وتوفيقه رجع إلى العبادة فنظر فإذا عوارض تعترضه عن العبادة وتشغله عنها كما ينبغى .

فتستقبلها هنا قنطرة العوارض : فتأمل فإذا هى أربعة :

أحدها : الرزق تطالبه النفس به ، وتقول : لابد لى من رزق وقوام ، وقد تجردت عن الدنيا وتفردت عن الخلق فمن أين يكون قوامى ورزقى ؟

الثانى : الأخطار ، من شىء تخافه أو ترجوه أو تريده أو تكرهه ولا يدرى الصلاح فى ذلك من الفساد ، لأن عواقب الأمور مبهمة ، لأنه ربما يقع فى فساد أو مهلكة .

الثالث : الشدائد والمصائب ، تنصب عليه من كل جانب ، لاسيما وقد انتصب لمخالفة الخلق ومحاربة الشيطان ومجاهدة النفس . فكم من غصة يتجرعها ، وكم من شدة تستقبله ، وكم من هم وحزن يتعرضه ، وكم من مصيبة تتلقاه .

الرابع : القضاء من الله سبحانه بالخلق والأمر يرد عليه حالا فحالا والنفس تسارع السخط وتبادر الفتنة ؛ فيحتاج إلى قطع قنطرة هذه العوارض الأربعة بأربعة أشياء : بالتوكل على الله سبحانه فى موضع الرزق ، وبتفويض الأمور إليه فى موضع الأخطار ، وبالصبر عند نزول الشدائد ، وبالرضى عند نزول القضاء . فلما قطع هذه القنطرة بما ذكرناه بإذن الله وحسن عونه ، رجع إلى العبادة فنظر فإذا النفس فاترة كسلى ، لاتنشط ولاتنبعث للخير والعبادة كما يجب وينبغى ، وإنما ميلها أبداً إلى غفلة وراحة وبطالة ، بل إلى شر وفضول وبلية وجهالة . فاحتاج معها هاهنا إلى سائق يسوقها إلى الخير والطاعة وينشطها له . وإلى زاجر يزجرها عن الشر والمعصية ويفترها عنه ، وهما الرجاء فى ثواب الله والخوف من عذابه مع توابعهما من الحذر والإشفاق والشوق والمحبة :

فتستقبله هاهنا **قنطرة البواعث**، فأحتاج إلى قطعها بالخوف والرجاء كما قدمنا . فلما قطعها بحسن عون الله تعالى وتأييده رجع إلى العبادة فتستقبله هاهنا قنطرة العبادة بالكمال ، فيعانقها بالشوق والإجتهاد . إذ لم ير شيئاً شاغلا ولا عائقاً ، ووجد باعثاً وداعياً . فنشط فى العبادة وإقامتها بتمام الرغبة فيها . فنظر فإذا تبدو لهذه العبادة التى احتمل فيها كل ذلك آفتان عظيمتان هما : الرياء والعجب ؛ تارة يرائى الناس بطاعة الله فيفسدها ، وتارة يمتنع من ذلك ويلزم نفسه فيعجب بها ويحبط العبادة عليها ويتلفها .

فاستقبلته هاهنا **قنطرة القوادح فى الأعمال**، المبطلة لها، فاحتاج إن قطعها بذكر المنّة والإخلاص ونحو ذلك ، ليسلم له ما يعمل من خير وعبادة . فلما قطعها بجد واحتياط وحسن عصمة الله وتأييده . فلما فرغ من هذا كله حصلت العبادة ، وسلمت من كل آفة ، ولكنه نظر فإذا هو غريق فى بحور منن الله تعالى وكثرة أياديه[1] من إمداد التوفيق والعصمة وأنواع التأييد والحراسة فخاف أن يكون منه إغفال للشكر . فيقع فى الكفران فتزول عنه تلك النعم الكريمة من ألطاف الله تعالى وحسن نظره .

---

(١) أياديه : نعمه وأفضاله .

فتستقبله هاهنا قنطرة الحمد والشكر على كثير نعم تعالى . فلما فرغ من هذه القنطرة نزل فإذا هو بمقصوده من العبادة بين يديه ، فلم يسر إلا قليلا حتى وقع بميدان الأنس والرضا وبساتين المحبة واللقاء ، وصحراء الشوق وعرصات المعرفة ومجلس المناجاة .

فارتفع هاهنا على بساط قنطرة المناجاة فهو يتنعم فى لذة العبادات وبساط المجاهدات أيام حياته وبقية عمره ، تارة يتنعم بلذة الشوق والمحبة ويتلذذ بحلاوة الرجاء والطمع ، وتارة ينقبض بخوف الخاتمة ، فبينما هو يبادر الموت راغباً راهباً ، ويتوقع القدوم على الله تعالى آمناً مطمئناً :

فيظهر ها هنا قنطرة خوف الخاتمة . قال : فبينما العبد يجتهد فى الدعاء والتضرع ويتنعم فى المجاهدة والتخشع ، ويبادر الخاتمة بالخوف والقلق ، خائفاً من حرقة الطرد والإهانة ، ووحشة البعد والضلالة ، ومرارة العزل والإزالة ، وقد خلف جملة القناطر ، وانشرح له القلب بالعلوم والبصائر . وقد طهره الله سبحانه من الأوزار والكبائر ، وسبق العوائق الشاغلة ، ودفع عن نفسه العوارض المانعة ، وظفر بالبواعث والزواجر ، وسلم من القوادح المبطلة ؛

فبينما هو كذلك إذ أشرف على قنطرة الموت بشخص فى الدنيا أرضى ، وقلب فى العقبى سماوى ، وقد استقذر الدنيا وحن إلى الملأ الأعلى . واستبطأ البريد واشتاق إلى اللقاء فبينما هو كذلك إذا برسل رب العالمين قد وردوا عليه بالروح والريحان ، والبشرى والرضوان ، من عند رب راض غير غضبان . فتلقاه فى طيبة النفس وتمام البشرى والأنس من هذه الدار الفانية المفنية إلى الحضرة الإلهية ، والجنة العالية . فيكون القبر له روضة من رياض الجنة ، ويوفق للصواب عند أمتحان الملكين إياه بالسؤال والفتنة ، ويعرض روحه على مقعده من الجنة فى كل غدوة وعشية . فإذا بعث من قبره حمل على نجائب الكرامة آمنا من الفزع الأكبر وأهوال يوم القيامة ، ويكون وجهه كالقمر ليلة التمام

مع ما يلقى من البر والإكرام . ويأخذ بيمينه صحيفة العمل ، ويكسى من فاخر الحلى والحلل ، ويحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ، ويمر قناطر جهنم بنور ساطع على ذلك الظلام المدلهم ، ويساق إلى الجنة محبوراً ، ويسقيه الرب سبحانه شراباً طهوراً ، فى ملك كبير ونعيم خطير . مجاوراً الرحمن فى رياض تلك الجنان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . فيالها من سعادة ما أعظمها ، وكرامة ما أدومها !! فنسأل الله البر الرحيم المنعم الكريم أن يمن علينا وعليكم معشر الإخوان بهذه الطريقة المستقيمة ، حتى يوصلنا بها إلى هذه الكرامة العظيمة ، والنعمة الجسيمة ، وأن لا يجعلنا من الذين لا نصيب لهم فى هذا السعى المشكور والجزاء الموفور إلا وصفا وسماعاً ، وتمنياً لا انتفاعاً ، وإليه نرغب ألا يجعل ماتعلمنا حجة علينا ، وإياه نسأل أن يوفقنا جميعاً للعلم والعمل كما يحب ويرضى إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين .

فصل

ثم اعلم بالتحقيق أنه ليس هذا الطريق فى طوله وقصره وقناطره المرتبة عليه مثل المسافات التى تسلكها الأنفس فتقطعها بأقدام الأجسام ، فيقع قطعها على حسب قوة الأجسام وضعفها ، وإنما هو طريق روحانى تسلكه القلوب فتقطعه بالأفكار على حسب العقائد والبصائر ، أصله نور سماوى ونظر إلهى ، يقع فى قلب من سبقت له من الله العناية الأزلية ، فينظر العبد به نظرة فيرى بها أمر الدارين بالحقيقة ، ثم هذا النور ربما يطلبه العبد مائة سنة فلا يجده ، ويبقى فى القنطرة الواحدة سبعين سنة ولا يقطعها ، فكم يصيح ويصرخ : ما أظلم هذا الطريق وأشكله! وأعسر هذا الأمر وأعظمه! وذلك لخطئه فى الطلب وتقصيره فى الاجتهاد وجهله للطريق . وآخر يجده فى خمسين وآخر فى عشرين ، وآخر فى يوم واحد وآخر فى ساعة ولحظة على ما قسم له من عناية رب العزة وتوفيقه . ألا ترى إلى أصحاب الكهف كان مدتهم فى هذا الطريق خطرة إذ رأوا التغير فى وجه ملكهم

«دقيانوس» على ماحكى فى الخبر فقالوا: ﴿**ربنا رب السموات والأرض**﴾ وكذلك سحرة فرعون ما كانت مدتهم إلا لحظة حين رأوا معجزة موسى عليه الصلاة والسلام قالوا: ﴿ **امنا برب العالمين رب موسى وهارون** ﴾ . الآية[1] فأبصروا الطريق فى ساعة أو أقل . فصاروا من العارفين بالله، الراضين بقضائه، الصابرين على بلائه . فإن قلت فلم اختص هؤلاء بالتوفيق وحرم غيرهم وهم جميعاً مشتركون فى ربقة العبودية ؟ فاعلم أنه لايسأل عما يفعل وهم يسألون . لكن العبد مأمور بالاجتهاد ، والأمر مقسوم ، والحكم العدل يفعل ما يشاء ؛ فنسأل الله تعالى ألا يحرمنا ذلك بمنه وكرمه .

فصل

ومثال هذا الطريق فى الدنيا قناطر الصراط فى الآخرة ، فى عقباتها ومقاطعها . وهما صراطان ، صراط الدنيا وصراط الآخرة . فصراط الدنيا للقلوب يرى أحوالها أهل البصائر . وصراط الآخرة للانفس يرى أحوالها أهل الابصار . فأختلفت أحوال السالكين فى الآخرة لاختلاف أحوالهم فى الدنيا . .

فصل

ثم أعلم يقينا أن من سبق له من الله تعالى التوفيق ، وأودع قلبه نور الهداية على التحقيق حتى عرف فضيلة أرض نفسه ، ورزقه العناية لخدمتها حتى ينظر إليها فيراها أرضا أريضة ذات مياه نابعة وأشجار فارعة وأثمار يانعة ، وظل ظليل ونسيم عليل ، ويفتش فى غياض[2] شعابها فيجدها مأوى لأسد الغضب ونمور الجهل وذئاب الغدر وخنازير الشره ، وكلاب الحرص وضباع الحمق وحيات الظلم وعقارب الحسد . فإذا تحقق ذلك منها فليبتهل

---

(١) الأعراف : ١٢٢

(٢) الغيضة : مجتمع الشجر وتجمع غياض وأغياض .

إلى الله تعالى بقلب منيب أن يرزقه مجاهدة هذه الآفات المؤذية ، حتى ينقى نفسه منها بالمجاهدة الحقيقية، ويزرع فيها أصناف رياحين الأخلاق المرضية ، فإن الله سبحانه مرجو أن يهب له مطية التوفيق حتى يقطع بها هذا الطريق . وهذه المطية لها أربع قوائم من غير لحم ولا عظم . فإن قلت : اشرح لى قوائم المطية قلت : فهل ينفعك الاشتياق وأنت غير مسارع إلى اللحاق ؟ ولكن سأشرحها لك :

فالقائمة الأولى : ذكر الله تعالى على الدوام بلا ملل .

والثانية : تعلق القلب به فى كل حين وزمان

والثالثة : صرف الهمة إليه اشتياقاً .

والرابعة : إشتغال القلب به عن كل شىء سواه .

واعلم أن بصر المطية من العلم والمعرفة، وأذنها من المراقبة، وظهرها من التوكل ، وعنقها من الوفاء ، وقلبها من الصدق مكلل بالإخلاص ، ولجامها من الهيبة ، وروحها من اليقين، وطعامها من الأنس ، وقائدها التوفيق ، وسائقها العون والتأييد تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ . (١)

وطرق التوفيق إلى الله تعالى كثيرة لا تحصى ، والمطايا كذلك . ولكن هذه مطية من سلك أقرب طرق التوفيق إلى الله تعالى ، فيقطعها فى لحظة ؛ وذلك بأن يجعل ماقى الوجود فى خطوة واحدة . وهذه المطية هى الغاية القصوى ، وما سواها من المطايا تبع لها؛ إليها ينتهى عمل العاملين ، وبفنائها تناخ مطايا العارفين ، وحواليها يكون طواف الروحانيين ، وبأدبها يتأدب الصديقون ، وما سواها من من مطايا الأولياء وطرقهم تبع لهذا الطريق .

واعلم أن هذه المطية فى طريق مفازة القناطر المعمورة باللصوص والعاهات ، وفيها تقع

---

(١) العنكبوت : ٦٩

معارك الحـــروب فيكثر فيها ملاحم القتال ،فسلوا أيها الإخوان الموفون للطريق — رحمكم الله تعالى — سيوف المجاهـــدة ، وانشروا ألوية المراقبة واركزوا رايات التفقد والمحاسبة .

ولـكن لا يقطع هذه المفازة بالكمال حتى يصل إلى هذه المطية إلا من رزقه الله تعالى من التوفيق ما يخلص به أثير الهباء من الهواء ، ولطيف الهواء من الماء . مع عصمة الله تعالى وإمداده إياه بقوة اليقين حتى لا يرى فى الوجود إلا الله تعالى وأفعاله ، من أبطال العارفين وشجعان الروحانين وسياس الصديقين . ولـكن من كان التوفيق قائده ، والتيسير دليله ، فما أسرع إلى كل خير وصوله . فاجتهدوا رحمكم الله تعالى فى أخذ حظكم من مولاكم عسى أن يهديكم لركوب هذه المطايا الحسان ، ويوصلـكم عليها بلطفه دار الأمان والرضوان ، وتناصحوا فيما بينكم ولا تتركوا حب الدنيا يغلق أقفال قلوبكم ؛ فإنه شر محبوب ، وأخطر مطلوب . جعلنا الله تعالى وإياكم ممن يستمع القول فيتبع أحسنه .

فصـــل

دعانى رحمكم الله تعالى — إلى تمثيل الدنيا بالمفازة ، وتمثيل الشريعة بالطريق فيها ، وتمثيل الفرائض بالقناطر مرتبة موضوعة عليها ، وتمثيل أعمالها بالمطايا ، لأنى وجدت ضرب الأمثال يرشق القلوب بسهام الموعظة رشقاً لا يليق بغيرها ، ولأن ذلك أبلغ فى تقريب المعانى إلى العقول كقوله عليه الصلاة والسلام فيما روى عنه أنه قال : « العلم خليل المؤمن والحلم وزيره ، والعقل دليله ، والعمل قائده ، والرفق والده ، والبر أخوه ، والصبر أمير جنوده » (١) وقال بعض السلف : سألت راهباً فقلت له : ما الدنيا ؟ قال : خلق كخلق المرأة ؛ رأسها الـكبر ، ووجهها الفرح ، وعيناها السهو ، ولسانها الغدر ، وأذناها النسيان ، ونفسها العلو ، وقلبها الطمع ، وبطنها الحرص ورجلاها الحسد ، وعنقها الحزن .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ فى كتاب الثواب وفضائل الأعمـــال من حديث أنس بسند ضعيف ، وورد فى مسند الشهاب من حديث أبى الدرداء وأبى هريرة وكلاهما ضعيف .

وظهرها الإياس من الله تعالى ، وزينتها الشهوات. فهذه صفة دنياكم التى عليها تتشاجرون فاحذروها. وقال الله سبحانه : « **وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** » . وفى كتاب الله تعالى من الأمثال ما يستغرق الوصف والله المستعان .

فصل

فإن قال قائل : إذا كان الأمر على ما وصفت ، والطريق على ما مثلت ، لقد قل من الناس العابد لهذا الرب المعبود ، والواصل إلى هذا المقصود ، فمن ذا الذى يقوى على هذه المؤن ويحصل هذه الشرائط ؟

فاعلم أن الله سبحانه يقول : « **ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين** » . (١) وقال : « **وقليل من عبادى الشكور** » . (٢) وقال : « **إلاالذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم** » . (٣) ثم قال : ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولا يشكرون ولا يعقلون ، ولا يتفكرون فى أمثال هذه الآيات . ثم إن ذلك يسير على من يسره الله تعالى عليه ، وصفى قلبه ونوّره فعلى العبد الإجتهاد وعلى الله سبحانه الهداية. قال الله تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** . » (٤)

فإذا كان العبد الضعيف يقوم بما عليه من التكليف ، فما ظنك بالرب القادر العلى الكبير اللطيف . والشأن كله يرجع إلى أصل واحد ، وهو الكلمة السابقة فى الأزل بالتوفيق والسعادة . ولا يدرك ذلك باجتهاد وتكلف . ولكن بقسمة أزلية ، وهبة واهب لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وليست هذه الهبة بالأنساب ولا بالأحساب ، ألا ترى إلى لقمان الحكيم ؛ قيل إنه عبد مملوك نوبى أعطاه الله من الحكمة ما طبق الآفاق ، واشتهر فى الأقطار حتى أنزل ذلك فى القرآن. (١) وكذلك غيره ممن يطول ذكره ، رجال ونساء

---

(١) سورة لقمان : ١٢ وما بعدها من الآيات .

مثل تيجينة المعتوقة ، وغزالة[١] الأمة المجلوبة من السودان . أما تيجينة ، فإنها كانت تصلى فى مصلى أبى عبيدة الجناونى[٢] رحمه الله تعالى فقصدها أبو الخير الزواغى فرأى ضوءاً ساطعاً وأشباه رجال خلفها أو دائرين بها ، فشرب عندها من إناء لبناً ثم توضأ من ذلك الإناء ماء فى حالته تلك . وأما غزالة فهى صاحبة كهف وادى الزير . فكانت فيما قيل إذا نومت مواليها فى بلد (ويغو)[٣] حضرت المجلس فى (تونزيرف)[٤] ، فتأتى كهفها آخر

---

(١) غزالة : أمة جلبها نخاس مع جلة من العبيد مسلسلين فى رباط واحد ، فكانت إذا سمعت القرآن الكريم بركت فى مكانها تستمع كالمأخوذة — فعاقت سير العبيد — حتى تنتهى التلاوة . ومر النخاس ببضاعته على (ويغو) فأشتراها بعض أهلها ، فكانت إذا انتهت من أعمالها تذهب إلى أبى محمد عبد الله بن الخير للدراسة . وعندما يأوى الناس إلى مضاجعهم فى الليل تذهب إلى مصلى خاص بها فتستقبل القبلة وتقضى بقية الليل فى مناجاة ربها . بلغت فى العلم والزهد مرتبة عالية ، وعدها العلامة محمد بن زكريا البارونى من الطبقة السادسة من علماء أواخر القرن الثالث الهجرى .

(٢) أبو عبيدة عبد الحميد الجناونى ، عامل الدولة الرستمية على ليبيا ، من علماء القرن الثالث . يجمع إلى غزارة العلم وسعة الإطلاع صلابة فى دين الله ووقوفاً عند حدود الشرع الشريف . لا تأخذه فى الله لومة لائم . . نقل الشماخى رحمه الله من الطبقات ؛ أنه كان أحد علماء نفوسة الموصوفين بالأخلاق النفيسة ، ميالا إلى ما طبع عليه من الورع واطراح الحرص فى الدنيا وترك الطمع ، وقال : وكان غاية فى إنفاذ الأمور وإمضائها ، وقائماً بالمدافعة لأموال البغاة ودفاعها ، ووافياً بما أمر به من إصلاح النفس والدين والدنيا وتحصينها . ومسجده مشهور متوسط ، وآثاره تدل على أنه كان أكثر اتساعاً مما هو عليه الآن قبل إنه اجتمع به سبعون عالماً من أكابر علماء قرية جناون . وقد كانت معدن العلم والعلماء .. ودفن رحمه الله فى المقبرة الكائنة بالجنوب الغربى من القرية المذكورة إلا أن قبره مجهول .. انظر : (الأزهار الرياضية فى تاريخ أئمة وملوك الإباضية) تأليف المجاهد الكبير المرحوم العلامة : الشيخ سليمان باشا البارونى ج ٢ ص ١٥٢—١٧٤ . مطبعة الأزهار البارونية بالقاهرة .

والجناونى نسبة إلى جناون إحدى قرى نفوسة المشهورة تقع فى منحدر الجبل الذى تتسنم قمته بلدة جادو وبينهما فارق قليل من المسافة .

(٣) (ويغو) كانت مدينة عظيمة جنوب (مرجس) وإلى الجنوب الشرقى من مدينة (شروس) . نشأ فيها عدد غير قليل من العلماء مثل العلامة مهدى والعلامة فرج والعلامة أبى ذر أبان بن وسيم الذى ولى جبل نفوسة فى عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب ، وغيرهم .. ولما زار الإمام عبد الوهاب الرستمى جبل نفوسة قصد أولا هذه المدينة ثم انتقل إلى (ميرى) على بعد ستة أميال من مدينة جادو لتوسطها الجبل . . (البارونى : الأزهار : ٢ : ١٣٩ ، ٢١٩) .

(٤) تونزيرف : مدينة تقع على الحافة الغربية لواد عميق يلتقى مع وادى (أمين) تحت عين (جلازن) وتقابلها من الشرق مدينة (تيمجار) التى تسمى اليوم (أتبوجديد) . وهذه البلاد من بلدان جبل نفوسة العامرة بالإباضية الآن . وقد بلغ جبل نفوسة فى العمران مبلغاً عظيماً بعد الفتح الإسلامى وازدهرت فيه الحضارة أيام الدولة الرستمية وما بعدها بصورة لا تزال آثارها واضحة الدلالة عليها .

الليل فتجد فيه مصباحين يقد ان ، فاما أُعتقت انطفأ مصباح واحد وبقى آخر والله تعالى أعلم ، فنسأل الله البر الرحيم أن يمن علينا وعليكم بالتوفيق ،

فصل

إعلموا ـ رحمكم الله تعالى ـ أنى تفكرت فى أحوال أسلافنا رحمهم الله تعالى ، فوجدتهم أهل بصائر ومعرفة بالدين ، وأهل تواضع وخشية فى قوة يقين ، مع ما منحهم الله من سلامة الصدور من كل غائلة، واجتهاد فى العبادة بتصديق الورع عن كل شبهة ، فبذلوا فى إحياء دين الله تعالى أموالهم ، وأهرقوا فيه دماءهم ، فأصبحوا وقد أقفرت منهم الديار، ولم يبق إلا ذكرهم فى المجالس والأقطار . فآثارهم مذكورة ، وسيرهم فى الأسفار مشهورة ، فخلف من بعدهم خلف رضوا بالدنيا عوضا عن الآخرة ؛ عليها يتكالبون ، وبها يتواصلون ، ومن أجلها يتوالون ويتعادون . استعبدتهم الدنيا فأذلتهم . والأمانى فأضلتهم ، فياليتهم أكتسبوها من أبوابها، وأكلوها من أسبابها . ولكنهم أخذوها عوضا عن الدين ، وثمنا بخساً لسير أشياخنا الأولين . استحوذ على أكثرهم الشيطان وأستغواهم الطغيان ، فأصبح كل بعاجل حظه مشغوفاً ، فصار المنكر من أجل ذلك عندهم معروفاً حتى ضاعت حدود الدين ، وأمحت آثار السلف الصالحين ، فأصبح منار الدين مندرساً وصار الهدى فى أقطار الأرض منطمساً . ولقد خيلوا للخلق ألا علم إلا فتوى حكومة يستدرج بها العوام ، إذ لم يروا ماسواها مصيدة للحرام وشبكة للحطام . وأما علم الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله تعالى فى كتابه علما وفقها ونورا وهداية ورشدا فقد أصبح بين الخلق مطويا ، وصار نسيا منسيا .

ثم إنى نظرت فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وما دونه السلف الصالح ـ رحمهم الله تعالى ـ من الآثار والسير فى الدفاتر والأسفار ، فوجدت فى ذلك علما أتضح عندى برهانه وحقيقته ، وأيقنت بالفوز والنجاة لمن انتحله[1] وعمل به ،

---

(١) انتحله : إدعاه واتصف به .

وهو العلم بحدود التقوى ، من الورع عن محارم الله عز وجل ، والقيام بحدوده وتصفية القوت والقلوب من مكارهه ، فرأيت انتحال ذلك والعمل بحدوده واجبا على ، والحجة العظمى قائمة من أجله علىّ وعلى جميع من فهمه إذا كان ذلك دين الله القويم والحق المبين، وعليه مضى أسلافنا وسائر المتقين . ثم إنى نظرت فى أحوال دهرنا ،فرأيته دهراً مستعصبا تبدلت فيه شرائع الإيمان ، وأنتقضت فيه عرى الاسلام ، وأندرست فيه حدود الدين بالكلية .(١) ورأيت فتنا متراكبة يحار فيها اللبيب ، ودينا مندرساً لاداع إليه ولامجيب، وقد عميت عن الآخرة بصائرنا ، وأمتلأت بحب الدنيا ضمائرنا ، فخشيت الانسلاخ من الأمر كله ، فرأيت التمسك بالقليل خير من ذهاب الجميع . وإن كان لاعذر لأحد فى تضييع شىء من أوامر الله تعالى ولا ارتكاب شىء من مناهيه ولكن سداد من عوز ؛ لأنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « سيأتى من بعدكم قوم إن تمسكوا بعشر ما أنتم عليه نجوا » . (٢)فدعانى ما ذكرت إلى تأليف كتاب أشرح فيه إن شاءالله تعالى بعض شرائع الدين ، وأبين فيه بعض مناهيه ، لعل الله تعالى يجعله تذكرة لنفسى ولمن نظر فيه من أبناء جنسى وغيرهم من الناس ، وسميته (كتاب قناطر الخيرات) فالله سبحانه وتعالى أسأله التوفيق فى القول والعمل ، والعصمة من الخطأ والزلل .

وهكذا الكتاب يحتوى على سبع عشرة قنطرة أشرحها إن شاء الله تعالى بالتمام .

---

(١) عاش المؤلف رحمه الله تعالى فى القرن الثامن الهجرى ، فإذا كان حال الإسلام كما وصف منذ ذلك الحين لقد طال الأمر على هذا الدين إذن ! ! وبالرغم مما وصف من أمر دهره فقد وجد فيه هذا العالم الكبير الذى أحيا سنن الإسلام وأعاد الشباب لدعوته تصديقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفة من أمتى قائمين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم . حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون » . (رواه البخارى ومسلم) .

(٢) أخرجه أحمد من راوية رجل عن أبى ذر .

قنطرة العلم

الأولى
قنطرة العلم

وهى تحتوى على :

مقدمة فى بيان العقل . وعشرة أبواب فى تفصيل العلم .

الأول : فى بيان العلم وفضله .

الثانى : فى التعلم والتعليم .

الثالث : فى فرض العين .

الرابع : فى فرض الكفاية .

الخامس : فى بيان حد الفقه والكلام فى علم الدين وبيان علم الآخرة من علم الدنيا .

السادس : فى طرق العلم وتقاسيمه

السابع : فى آداب المتعلم والعالم .

الثامن : فن آفات العلم وعلماء السوء .

التاسع : فى بيان جنس العلم المذموم وأسماء العلم المحمود .

العاشر : فى العلامات المميزة بين علماء الدنيا والآخرة .

وسائر القناطر تأتى على الترتيب المتقدم إن شاء الله تعالى إلى آخر قنطرة فيكون آخرها صفة الجنة والنار . وهذه الأبواب تشتمل على فصول ستأتى فيما بعد إن شاء الله تعالى . ونحن الآن مبتدئون إن شاء الله تعالى فى أبواب العلم وتفاصيلها .

اعلم أنه قد قدمنا أولا أنا نشرع فى بيان مقدمة العقل قبل أبواب العلم .

فصل

فى فضل العقل وشرفه وحقيقة أقسامه

وإنما قدمنا العقل على تفصيل أبواب العلم . لأن العقل آلة لدرك العلوم ، وأس للفضائل وينبوع للآداب ، وأصل للتكليف وعماد للدنيا . فالعلم يجرى منه مجرى الثمر من الشجر ، والنور من الشمس ، والرؤية من العين . وشرف العقل مدرك بالضرورة ؛ وكيف لا يشرف ما هو وسيلة إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ؟ !

وروى عن أبى سعيد الخدرى (١) عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل شىء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته . أما سمعتم قول الفجار : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . » (٢)

وعن أنس قال : « كثرت المسائل يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس ؛ إن لكل شىء مطية ، وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا . » (٣)
وعن أبى هريرة قال : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون فلان أشجع من فلان ، وفلان أبلى ما لم يبل غيره ونحو هذا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أما هذا فلا علم لكم به . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال عليه السلام : إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل ، فكانت نصرتهم ونياتهم على قدر عقولهم ،

---

(١) هو أبو سعيد مالك بن سنان الخدرى الأنصارى ، من مشاهير الصحابة ، كثير الحديث . شهد الخندق وتوفى عام ٧٤ هـ .
(٢) أخرجه ابن المحبر وعنه الحارث . وفى رواية الغزالى : قول الفجار فى النار ... الخ .
(٣) أخرجه ابن المحبر وعنه الحارث .

فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى ، فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم » . (١)

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أصل الرجل عقله ، وحسبه دينه .

وعن الحسن البصرى (٢) قال : ما أستودع الله أحداً عقلا إلا استنقذه به يوماً ما .

وعن البراء بن عازب (٣) عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « جد الملائكة واجتهدوا فى طاعة الله سبحانه بالعقل ، وجد المؤمنون من بنى آدم على قدر عقولهم ، فأعملهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلا . » (٤)

---

(١) أخرجه ابن المحبر .

(٢) أبو سعيد : الحسن بن يسار البصرى : ولد سنة ثلاثين للهجرة ، وأبوه يسار مولى زيد بن ثابت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب الوحى ، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، نشأ فى بيتها ولقى جماعة كثيرة من الصحابة وسمع منهم . قال الغزالى فى إحياء العلوم : والقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأقربهم هدياً من الصحابة رضى الله عنهم . اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك » . (إحياء علوم الدين ١ : ٧٧) .

ووصفه ثابت بن قرة — كما نقل عنه أبو حيان التوحيدى — فقال : كان من درارى النجوم علماً وتقوى وزهداً وورعاً ، وعفة ورقة ، وفقهاً ومعرفة ، يجمع مجلسه ضروباً من الناس ، هذا يأخذ عنه الحديث وهذا يلقف منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يحكى له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكمة والقضاء ، وهذا يسمع الوعظ وهو فى جميع ذلك كالبحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألقاً ولا تنس مواقفه ومشاهده فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عند الأمراء وأشباه الأمراء بالكلام الفصل واللفظ الجزل .

مات رحمه الله فى سنة ١١٠ هجرية . وكان دفنه بعد صلاة الجمعة ، وقد تيم أهل البصرة كلهم جنازته واشتغلوا به فلم تقم صلاة العصر بالجامع لأنه لم يبق بالمسجد من يصلى العصر ، وقال بعضهم ممن شهد جنازته : « لا أعلم أن صلاة العصر تركت فى الإسلام (يعنى فى جامع البصرة) إلا يومئذ » . وذلك بعد عمر حافل بالجهاد فى سبيل الله والدعوة إلى دينه وهداية الناس إليه ، قال عوام بن حوشب : « ما أشبه الحسن إلا بنبى قام فى قومه ستين سنة يدعوهم إلى الله » .

(٣) البراء بن عازب الأنصارى الأوسى ، له ولأبيه صحبة ، وروى عنه أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة غزوة ، وفى رواية خمس عشرة . وشهد مع على بن أبى طالب الجمل وصفين وقتال أهل النهروان . ونزل الكوفة وابتنى بها داراً . ومات فى إمارة مصعب بن الزبير عام ٧٢ هـ .

(٤) الحديث : أخرجه ابن المحبر وعنه الحارث فى مسنده ورواه البغوى فى معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء ، وهو بالسند الذى رواه ابن المحبر .

وعن عائشه رضى الله تعالى عنها قالت : « قلت يا رسول الله : بم يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ قال : بالعقل . قلت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة : فهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل ؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون » . (١)

وقال بعض الحكماء : العقل أفضل مرجو ، والجهل أنكى عدو .

وقال بعض الأدباء : صديق كل امرىء عقله ، وعدوه جهله .

وقال بعض البلغاء : خير المواهب العقل ، وشر المصائب الجهل .

وأنشد الماوردى لإبراهيم بن حسان : (٢)

يزين الفتى فى الناس صحة عقله ... وإن كان محظوراً عليه مكاسبه (٣)
يشين الفتى فى الناس قلة عقله ... وإن كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل فى الناس إنه ... على العقل يجزى علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومآربه

---

(١) أخرجه ابن المحبر والترمذى الحكيم فى النوادر نحوه : ورواية الإحياء : بم يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ قال : بالعقل . قلت : وفى الآخرة ؟ قال : بالعقل ... الخ .

(٢) أدب الدنيا والدين : ٥ ــ الطبعة الرابعة ــ بولاق ١٩٠٦ .

والماوردى هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى والماوردى لقب نسبة إلى بيع الماورد . ولد بالبصرة ونشأ بها ثم استوطن ببغداد وتولى القضاء فى بلدان كثيرة . وهو من وجوه الشافعية وكبارهم وكان حافظاً للمذهب . وله فيه (كتاب الحاوى) فى ثلاثة وعشرين مجلداً يشهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالمذهب . ومن مصنفاته : كتاب أدب الدنيا والدين ، والأحكام السلطانية ، وقانون الوزارة ، وسياسة الملك . وكتاب العيون والنكت فى تفسير القرآن ، وكتاب الإقناع فى الفقه وغيرها . توفى رحمه الله يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول سنة ٤٥٠ هـ . وله من العمر ٨٦ سنة ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد .

(٣) وردت هذه الأبيات فى العقد الفريد ج ٢ : ٩٩ — ١٠٠ منسوبة لمحمد بن يزيد المبرد . ترتيب مختلف .

وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لكل شىء آلة وعدة ، وإن آلة المؤمن العقل ، ولكل شىء مطية ، ومطية المؤمن العقل ، ولكل شىء دعامة ، ودعامة المؤمن العقل ، ولكل قوم غاية ، وغاية العبّاد العقل ، ولكل أهل بيت قيم ، وقيم بيوت الصديقين العقل ، ولكل خراب عمارة ، وعمارة الآخرة العقل ، ولكل أمرىء عقب ينسب إليه ويذكر به ، وعقب الصديقين الذى ينسبون إليه ويذكرون به العقل » .(١)

وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحب المؤمن إلى الله عز وجل من نصب فى طاعته تعالى ونصح لعباده ، وكمل عقله فأبصر ، وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح » .(٢)

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « أتمكم عقلا أشدكم لله عز وجل خوفاً ، وأحسنكم فيما أمر به ونهى عنه نظراً وإن كان أقلكم تطوعاً » (٣)

وأعلم أن بالعقل تعرف حقائق الأمور ، ويفصل بين الحسنات والسيئات . وهو ينقسم قسمين : غريزى ومكتسبى ؛ فالغريزى هو العقل الحقيقى وله حد يتعلق به التكليف لا يتجاوزه إلى زيادة ولا يقصر عنه إلى نقصان ، وبه يمتاز الإنسان من سائر الحيوان . فإذا تم فى الإنسان سمى عاقلا وخرج به إلى حد الكمال ، كما قيل عن صالح بن عبد القدوس أنه قال :

إذا تم عقل المرء تمت أموره وتمت أمانيه وتم بناؤه

---

(١) أخرجه ابن المحبر وعنه الحرث .
(٢) أخرجه ابن المحبر من حديث ابن عمر .
(٣) أخرجه ابن المحبر من حديث أبى قتادة .
(٤) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس . كان حكيم الشعر ، زنديقاً متكلماً ، يقدمه أصحابه فى الجدال عن مذهبهم ، وقتله المهدى على الزندقه شيخاً كبيراً ضربه المهدى بيده بالسيف وعلق ببغداد .

وروى عن الضحاك فى قوله تعالى : « لينذر من كان حياً » : أى من كان عاقلا .

واختلف الناس فيه وفى صفته على مذاهب شتى ؛ فقال قوم: هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات. واختلف من قال بهذا فى محله فقالت طائفة محله الدماغ؛ لأن الدماغ محل الحس ، وقالت آخرون : محله القلب لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس .(١)

وفى آثار رُوِيَت عن على بن أبى طالب رفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الله سبحانه العقل من نور مكنون فى غامض علمه من حيث لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبى مرسل فجعل الزهد رأسه ، والخير سمعه ، والحياء عينيه ، والرأفة قلبه والعلم فهمه ، والبصر طبعه . ثم قواه بعشرة أشياء : بالإيمان واليقين والسكينة ، والصدق والإخلاص ، والقنوع والخشوع ، والشكر والتسليم ، والصبر . ثم قال له أقبل . فأقبل ، فكان إقباله إقبالا . ثم قال له : أدبر فأدبر ، فكان إدباره إدباراً . فقال له عز وجل : فوعزتى وجلالى ماخلقت خلقاً قط أكرم على منك، ولا أحسن منك ولا أحب إلى منك. بك آخذ وبك أعطى ، وبك أعبد وبك أعرف ، ولك الثواب وعليك العقاب .

قال : فخر العقل ساجداً فمكث فى سجوده ألفى عام ، فقال له الله عز وجل : ارفع رأسك وأسأل تعط ، وأشفع تشفع . فقال اللهم سيدى بحقك على خلقك إلا شفعتنى فيمن خلقتنى فيه . قال : فذلك لك » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أوتى العقل فقد أوتى خيراً كثيراً ، وإنما العاقل من عقل عن الله تعالى أمره ونهيه ، ومن لم يكن كذلك فليس بعاقل . » حتى قال بعض العلماء (١) فيمن أوصى بثلث ماله لأعقل الناس أن يصرف فى الزهاد لأنهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالأمل .

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٥ — ٦ .

(٢) نص الماوردى على أنهم أصحاب الشافعى . أدب الدنيا والدين : ١٤

وعنه عليه السلام قال : « أكمل الناس عقلا أطوعهم لله وأعلمهم بطاعته ، فلا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا عقله » وقال : « أمرنا معشر الأنبياء أن نكلّم الناس على قدر عقولهم » (١)

فإن قيل : إن كان العقل عرضاً فكيف خلق قبل الأجسام ؟ وإن كان جوهراً فكيف يكون جوهراً قائماً بنفسه لا يتحيز ؟ قيل له : إن هذا من العلم الغامض الذى لا يطلع عليه إلا الأنبياء والروحانيون ؛ وقد أبطل الماوردى هذا القول بهذه العلة . (٢)

وقال قوم : العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية . حكى هذا عن الحارث المحاسبى (٣) فكأنه أشار إلى أن العقل نور يقذف فى القلب به

---

(١) رواية الحديث فى الإحياء : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم . » قال أبو الفضل العراقى : رويناه فى جزء من حديث أبى بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه ، وعند أبى داود من حديث عائشة « أنزلوا الناس منازلهم . » الإحياء ١ : ٥١

(٢) لعل المراد أن الذى أبطل هذا القول هو الإمام الغزالى فهى عبارته كما وردت فى الاحياء . غير أنه قال ردا على السؤالين : فاعلم أن هذا من علم المكاشفة ، فلا يليق ذكره بعلم المعاملة : إحياء علوم الدين ١ : ٨٣ ، وناقش الماوردى هذه القضية فى كتاب أدب الدنيا والدين ص : ٦ ــ ٧ .

(٣) الحارث المحاسبى : هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى البغدادى . من أكبر أئمة التصوف ، ومن الزهاد المتكلمين على العبادة والزهد فى الدنيا والمواعظ ، وكان فقيها متكلماً مقدماً . كتب الحديث ، وعرف مذاهب النساك وقد انتفع كل من كتب فى التصوف بعده بتأليفه ، منهم الغزالى الذى قال عنه فى الاحياء : المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه .

نشأ بالبصرة ، وأقام فيها فترة من الزمن ، ثم ذهب إلى بغداد واستقر به المقام فيها . وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة . قال صاحب الفهرست : وله من الكتب كتاب التفكر والاعتبار . قال الخطيب : له كتب كثيرة فى الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة . »

ومن كتبه كتاب الوصايا . ولايزال مخطوطاً . . وله (كتاب التوهم) نشره الدكتور أ . ج آربرى وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٣٧ م . وكتابه : (الرعاية لحقوق الله) من أحسن ما كتب فى الإخلاص وتطهير النفس والحياة الأخلاقية الكاملة . طبع فى مصر بمراجعة الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور .

يستعد لإدراك الأشياء [١] ونسبة هذه الغريزة إلى العلوم نسبة العين إلى الرؤية ، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة فى انكشاف العلوم لها نسبة نور الشمس إلى البصر .

وقال آخرون : العقل بعض العلوم الضرورية ؛ أراد العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل الصغير المميِّز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، كالعلم بأن الإثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين [فى وقت واحد] [٢]

وقالت طائفة : العقل هو جملة العلوم الضرورية من وجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات .

وقال بعضهم : العقل هو العلم بالمدركات الضرورية ، وذلك نوعان :

أحدهما ماوقع عن درك الحواس الخمس كالمرئيات المدركة بالبصر ، والأصوات المدركه بالسمع ، والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم ، والأجسام المدركة باللمس . فإذا كان الإنسان ممن يدرك بحواسه هذه الأشياء ثبت له هذا النوع من من العلم وكان عاقلا ؛ لأن خروجه فى حال تغميض عينيه من أن يدرك بها ويعلم لايخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم .

والنوع الثانى : ما كان مبتدئاً فى النفوس كالعلم بأن الشىء لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم . وكالعلم بأن من المحال اجتماع ضدين ، وأن الواحد أقل من الإثنين . وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفى عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله ، فإذا كان عالماً بالمدركات الضرورية فهو كامل العقل . وإلى هذا القول ذهب الماوردى فى كتابه . قال : « فكل من نفى أن يكون العقل جوهراً أثبت محله فى القلب لأن القلب

(١ ، ٢) أنظر لحياء علوم الدين ١ : ٨٥ . والعبارة الأخيرة [فى وقت واحد .] أضفتها منه ليتم بها الكلام ، وفى نسخ المناظر : وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين .

محل العلوم كلها كما قال تعالى : « **افلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** » . (الحج : ٤٦) فدلت هذه الآية على أمرين : أحدهما أن العقل علم ، والثانى أن محله القلب . وفى قوله تعالى يعقلون بها تأويلان : أحدهما معناه يعلمون بها ، والثانى : يعتبرون بها فهذه جملة القول فى العقل الغريزى . »(١)

وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزى وذلك علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال ، فإن من حَكَمَتْهُ التجارب يقال إنه عاقل فى العادة ، ومن لا يتصف به ، يقال إنه غمر جاهل(٢) . وهذا العقل ينمو إن استعمل وينقص إن أهمل . لأنه من قوة ثقابة المعرفة وإصابة الفكرة ، مالم يمنعه مانع من هوى ولا صاد من شهوة ، لأنه يحصل ذلك بكثرة التجارب وممارسة الأمور . ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ فقالوا : عليكم بآراء الشيوخ ، فإنهم إن فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر ، وتصدت لأسماعهم آثار الغير(٣) وقال [بعض البلغاء] التجربة مرآة العقل ، والغرة ثمرة الجهل(٤) وقيل فى منثور الحكم : من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله . وقال بعض البلغاء : كفى بالتجارب تأديباً وبتقلب الأيام عظة ، وينشد :(٥)

ألم تر أن العقل زين لأهله وأن تمام العقل طول التجارب

فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا ، وقد يكون هذا أيضا لفرط الذكاء وحسن الفطنة ، وذلك جودة الحدس . وإذا امتزج بالعقل الغريزى صارت نتيجتهما هو العقل

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٧ .

(٢) حكم الأمر وأحكمه أتقنه فاستحكم ، ومنعه عن الفساد . والحكم محركة : الرجل المسن ، والغمر : من لم يجرب الأمور .

(٣) الغير : الأحداث ، وغير الدهر : أحداثه .

(٤) فى الأصل : وقال التجربة مرآة العقل ، والغمرة ثمرة الجهل . والزيادة والتصحيح من كتاب أدب الدنيا والدين . والغر والغران : الشاب لا تجربة له .

(٥) البيت فى العقد الفريد ٣ : ٩٤ .

المكتسب . كالذى يكون فى الأحداث من وفور العقل وجودة الرأى ، ولذلك قالوا : عليك بالحديث السن ، الحديد الذهن .

وقالت العرب : عليكم بمشاورة الأحداث فإنهم ينتجون رأيا لم يفله طول القدم ، ولا أستولت عليه رطوبة الهرم . وأنشد الماوردى لبعض الشعراء[١]

رأيت العقل لم يكن آنتهابا ولم يقسم على عدد السنينا
ولو أن السنين تقاسمته حوى الآباء أنصبة البنينا

وروى عن الأصمعى[٢] أنه قال : قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحادثنى فأمتعنى بفصاحته وملاحته : أيسرك أن تكون لك مائة ألف درهم وأنك أحمق ؟ قال : لا والله. قلت : ولم ؟ قال : أخاف أن يجنى على حمقى جناية تذهب بمالى ويبقى على حمقى . فانظر إلى هذا الصبى كيف استخرج بفرط ذكائه مالعله يدق على من هو أكبر منه سنا ، وأكثر منه تجربة . وحكى عن ثمامة بن أشرس [٣] أنه أخبر أن المأمون تفرد يوماً فى بعض تصيده فانتهى إلى بعض بيوت أهل البادية فرأى صبيا يضبط قربه وقد غلبه وكاؤها[٤] وهو يقول : يا أبت اشدد فاها فقد غلبنى فوها ، لاطاقة لى بفيها .

---

(١) أدب الدنيا والدين : ٩

(٢) الأصمعى : هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبدالملك بن على بن أصمع ، كان لغويا نحويا ، وإماماً فى الأخبار والنوادر والملح والغرائب . قيل لأبى نواس : قد أحضر أبو عبيدة والأصمعى إلى الرشيد ، فقال : أما أبو عبيدة فإنهم إن أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين . وأما الأصمعى فبلبل يطربهم بنغماته . قال الاصمعى عن نفسه : أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة ، وكانت ولادته سنة ١٢٢ هـ وتوفى سنة ستة عشر ومأتين . ذكر له ابن النديم فى الفهرست ٥٧ كتاباً . وله الاصمعيات وهى من المختارات الشعرية النفيسة .

(٣) ثمامة بن أشرس النميرى . مولى بنى نمير ، كان زعيم القدرية فى زمن المأمون والمعتصم والواثق وهو الذى دعا المأمون إلى الاعتزال ، وتروى عنه قصص تشير إلى استخفافه بالدين ، منها أنه رأى الناس يوم جمعة يتعادون إلى المسجد الجامع لخوفهم من فوت الصلاة فقال لرفيق له : انظر إلى هؤلاء الحمير والبقر . ثم قال : ماصنع ذاك العربى بالناس (يعنى سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم) ! ! ولعن الله كل كافر متنطع ، قتل فى زمن الواثق الذى ولى الخلافة من سنة ٢٢٧–٢٣٢ ، وقيل مات سنة ٢١٣ هـ .

(٤) وكاء القربة : الخيط الذى تربط به .

قال : ممن تكون ؟ فقال [الغلام] : من قضاعة . قال : من أيها ؟ قال : من كلب. قال : وإنك من الكلاب ؟ قال : لسنا هم ولكن قبيل يدعى كلبا . قال : فمن أيهم أنت؟ قال : من بنى عامر . قال : من أيها ؟ : قال : من الأجداد ثم من بنى كنانة .

قال : فمن أنت ياخالى فقد سألتنى عن نسبى ؟ فقال [المأمون] : ممن تبغضه العرب كلها : قال : فانت إذاً من نزار . قال : أنا ممن تبغضه نزار كلها . قال : فأنت إذاً من قريش . قال . أنا ممن تبغضه قريش كلها . قال : فأنت إذاً من بنى هاشم . قال : أنا ممن تحسده بنو هاشم كلها .

قال : فأرسل فم القربة وقام إليه فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى وبركاته ، وضرب بيده إلى شكيمة الدابة وهو يقول :

مأمون ياذا المتن الشريفة وصاحب الكتيبة الكثيفة
هل لك فى أرجوزة ظريفة أظرف من فقه أبى حنيفة
لا والذى أنت له خليفة ما ظُلمت بأرضنا ضعيفة
عاملنا مؤنته خفيفة وماجبا فضلا على الوظيفة
فالذئب والنعجة فى السقيفة واللص والتاجر فى القطيفة

قد سار فينا سيرة الخليفة

فقال له المأمون : أحسنت . أيما أحب إليك ، عشرة آلاف درهم معجلة ، أو مائة ألف مؤجلة ؟

فقال : بل أدخرك يا أمير المؤمنين . وفى خبر آخر : لأنك أنت الغنى الوفى . قال : فما لبث أن أقبلت الفرسان فقال : احملوه . فمضى به حتى كان أحد مسامريه .

انظر إلى جودة قريحة هذا الغلام ومجاوبته ،فسبحان الفعال لما يشاء .

وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ما حكى ابن قتيبة[١]أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير[٢]فهربوا منه إلا عبد الله ، فقال له عمر : مالك لم تهرب مع أصحابك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، لم أكن على ريبة فأخافك ، ولم يكن بالطريق ضيق فأوسع لك .

انظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة ، فليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية ، ولمثل هذا قالت الحكماء : غاية العقل إصابة الفهم ، وغايته إصابة الوهم .

---

(١) ابن قتيبة : هو أبو محمد عبد الله بن قتيبة الدينورى ، ولد بالكوفة فى مستهل رجب فى سنة ثلاث عشرة ومائتين من الهجرة ، وسكن بغداد مدة ، وحدث بها عن إسحاق بن راهويه ، ومحمد بن زياد بن عبيدالله ، وأبى حاتم السجستانى، وولى قضاء الدينور، بلدة من بلاد الجبل عند قرميسين .وله مايزيد على أربعة وعشرين مؤلفاً تناولت جميع معارف عهده.منها : عيون الاخبار ، وأدب الكاتب والمعارف وطبقات القراء وغيرها ، توفى رحمه الله فى منتصف شهر رجب من سنة ست وسبعين ومائتين للهجرة .

(٢) هوعبدالله بن الزبير بن العوام وامه أسماء بنت سيدنا أبى بكر رضى الله عنه . أول مولود ولد فى الإسلام للمهاجرين فى المدينة ، فكبر النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون لمولده ، وكان قد قيل لهم إن اليهود سحرتكم فلا يولد لكم . وصفه ابن عباس رضى الله عنه فقال : عفيف الإسلام ، قارىء القرآن أبوه حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه بنت الصديق ، وجدته صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمة ابيه خديجة بنت خويلد .

وعن عمر بن دينار قال : مارأيت مصلياً أحسن صلاة من ابن الزبير .

كان كثير الصلاة كثير الصيام شديد الباس شهما ، وبويع له بالخلافة سنة ٦٤ أو ٦٥ هجرية وذلك بعد وفاة معاوية بن يزيد بن معاوية ، واجتمع على طاعته اهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان، وقتل ايام عبد الملك سنة ٧٣ هـ وذلك بعد ان حاصره الحجاج فى مكة ستة اشهر وسبعة عشر يوماً . ولما قتل كبر اهل الشام فقال عبد الله بن عمر رضى الله عنه : المكبرون عليه يوم ولد خير من المكبرين عليه يوم قتل . وصلبه الحجاج بعد قتله ، ثم انزل فغسلته امه اسماء وكفنته وصلت عليه ، ثم توفيت رضى الله عنها بعد جمعة من ذلك . (الاصابة ٣٠١ ــ ٣٠٣ ، الاستيعاب ٢٩١ ــ ٢٩٨ .)

وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وإن أعضل[١]، كما قيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرة عددهم . وقيل له : كم بين السماء والأرض ؟ فقال : دعوة مستجابة . وقيل لابن عباس : أين تذهب هذه الأرواح إذا فارقت الأجساد ؟ فقال : أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان[٢]؟ وهذان الجوابان جوابا إسكات تضمنا دليل إذعان وحجة قهر .

وقيل لعلى أيضا : كم بين المشرق والمغرب ؟ قال : يوم طراد الشمس . ومن غير هذا الفن وإن كان مسكتا ماحكى أن إبليس لعنه الله حين ظهر لعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام فقال : ألست تقول لن يصيبك إلا ما كتب الله لك ؟ قال : نعم . قال : فارم نفسك إذاً من ذروة هذا الجبل فإن قدرت لك السلامة تسلم . فقال له : ياملعون ، إن الله يختبر عباده ، وليس للعبد أن يختبر ربه . ومثل هذا الجواب لايستغرب من أنبياء الله الذين أمدهم بوحيه، وأيدهم بنصره ، وإنما يستغرب ممن يلجأ إلى خاطره ويعول على بديهته فاذا اجتمع هذان الوجهان فى العقل المكتسب وهو ما ينميه فرط الذكاء بجودة الحدس ، وصحة القريحة بحسن البديهة معما ينميه الاستعمال بطرق التجارب،ومرور الزمان بكثرة الاختبار ، فهو العقل الكامل على الاطلاق فى الرجل الفاضل بالاستحقاق ، وذلك أن تنتهى قوة الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوات الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها ، فإذا حصلت هذه القوى سمى صاحبها عاقلا من حيث أن إقدامه واحجامه بحسب مايقتضيه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة ، فهذا أيضا من خواص الإنسان التى يتميز بها عن الحيوان .

---

(١) أعضل : أشكل واستعصى .

(٢) الأدهان : جمع دهن من زيت أو غيره .

فالأول هو الأصل ؛ أعنى الغريزة ، والثانى هو فرع وأعنى العلوم الضرورية ، والثالث هو فرع الأول والثانى، أعنى علوم التجارب ؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب . والرابع هى الثمرة الأخيرة ،وهى الغاية القصوى . فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب .

وحكى عن سابور بن أزدشير أنه قال : العقل عقلان :أحدهما مطبوع والآخر مسموع، ولا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه ، فنظم ذلك على بن أبى طالب فيما حكى عنه قال : (١)

رأيت العقل نوعين فمسموع ومطبـــوع
فلا ينفـــع مطبوع إذا لم يك مسموع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

فالأول هو المراد بقوله عليه الصلاة السلام: «أول ماخلق الله العقل ... الحديث»(٢) والأخير هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : « إذا تقرب الناس إلى الله عز وجل بأبواب البر فتقرب إليه بعقلك » .(٣)

وقوله لأبى الدرداء : (٤) « ازدد عقلا تزدد من الله تعالى قربا . فقال : بأبى أنت

---

(١) أنظر أيضاً : أدب الدنيا والدين ص ١٥ ، وإحياء علوم الدين : ١ ـ ٨٦ . وقد جزم الغزالى بنسبة الأبيات إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقال الماوردى : فأخذ ذلك بعض الشعراء ولم يصرح باسمه

(٢) تقدم الحديث

(٣) قال أبو الفضل العراقى : أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث على : « إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسقهم بالزلفى والتقرب» قال: واسناده ضعيف . الاحياء : ١ / ٧٦ .

(٤) أبو الدرداء ، واسمه عويمر او عامر. وقيل اسمه عامر بن مالك، وعويمر لقب ، تأخر إسلامه قليلا ، وكان آخر أهل داره إسلاماً ، وحسن إسلامه ، وكان فقيها عاقلا حكيما . . آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سلمان الفارسى رضى الله عنهما ، وروى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : «عويمر حكيم أمتى» وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه عند ما حضرته الوفاة : التمسوا العلم عند أربعة رهط: عند عويمر أبى الدرداء ، وسلمان الفارسى، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن سلام . مات رضى الله عنه فى خلافة عثمان ، قبل قتله بسنتين .

وأمى ! وكيف لى بذلك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : اجتنب محارم الله تعالى ، وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلا ، وتنفل بالصالحات من الأعمال تزدد فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة ، وتنل من ربك بها القرب والعز » (١) وقال عليه الصلاة والسلام : « ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى ». (٢)

وعن سعيد بن المسيب (٣) أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة رضى الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله : من أعلم الناس ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : العاقل . قالوا : فمن أعبد الناس ؟ قال : العاقل . قالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال : العاقل . قالوا : أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « **وان كل ذلك لما متاع الحيوة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** » .(٤) إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيساً ذليلا » .(٥) وعن أنس بن مالك(٦) قال : « أثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا .

---

(١) أخرجه ابن المحبر ومن طريقه الحارث بن أبى أسامة والترمذى الحكيم فى النوادر . ونص الحديث فى الاحياء . . وتنل فى آجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز . »

(٢) أخرجه ابن المحبر وعنه الحرث بن أبى أسامة . ورواية الحديث كما فى الاحياء : ما أكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى . وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله » . الاحياء : ١ / ٨٤ .

(٣) سعيد بن المسيب بن حزن ، من بنى مخزوم ثم من قريش . . كان أحد الفقهاء التابعين السبعة . قال فيه ابن عمر : لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسره . ولد فى المدينة المنورة فى السنة الثانية لخلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان أبوه وجده من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلما عام فتح مكة . كان مثال النباهة والاستقامة فى طفولته . لزم مجلس أمير المؤمنين عمر وهو صغير ، وسمع منه ومن عثمان وعلى وسعد بن أبى وقاص وابن عباس وابن عمر وكثير من الصحابة . وهو الحجة فى الأحاديث التى رواها ابو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن سعيد بن المسيب كان صهره زوج ابنته . ويعد من تلاميذه امثال عطاء ابن رباح ، ومحمد الباقر بين على زين العابدين ، وعمرو بن دينار وابن شهاب الزهرى .

(٤) الزخرف : ٣٥

(٥) اخرجه ابن المحبر

(٦) هو ابو حمزة انس بن مالك بن النضر الأنصارى الخزرجى ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد المكثرين من الرواية عنه ، خدم النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، وكانت إقامته بعد النبى عليه السلام بالمدينة ، ثم شهد الفتوح ، ثم قطن البصرة ومات بها .

فقال صلى الله عليه وسلم : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال صلى الله عليه وسلم : «إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلفى على قدر عقلهم . »(١)

وبالجملة من لم تكن بصيرة عقله ثاقبة لم يعقل به من الدين إلا قشوره وأمثلته دون لبابه وحقائقه .

واختلف الناس فى العقل المكتسب إذا تناهى وزاد ، هل يكون فضيلة أم لا ؟ فقال قوم : لا يكون فضيلة ؛ لأن الفضائل هيات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين ؛ فما جاوز التوسط خرج من حد الاعتدال لقوله عليه الصلاة والسلام : « خير الأمور أوساطها »(٢) وقالوا : إن زيادة العقل تفضى بصاحبها إلى الدهاء والمكر ، وذلك مذموم وصاحبه ملوم(٣) .

وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعرى أن يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد : يا أمير المؤمنين ، أعن موجدة أم خيانة ؟ فقال : لاعن واحدة منهما ، ولكن خفت أن أحمل على الناس فضل عقلك .

وقالت الحكماء للإسكندر : أيها الملك ،عليك بالاعتدال فى كل الأمور ؛ فإن الزيادة عيب والنقصان عجز .

= قال ابو هريرة رضى الله عنه : ما رايت احداً اشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن ام سليم يعنى انساً . (انظر الإصابة ١ / ٨٤ .) ولما بلغه وفاة الإمام جابر بن زيد رضى الله عنه قال : مات اعلم من على ظهر الأرض او مات خير أهل الأرض . وكان أنس عند ذلك مريضا فمات هو وجابر بن زيد فى جمعة واحده .

(١) اخرجه ابن المحبر فى العقل ، والترمذى الحكيم فى النوادر مختصراً .

(٢) اخرجه البيهقى فى شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله مرسلا .

(٣) ادب الدنيا والدين : ١٢ .

وقال بعض الحكماء : كفاك من عقلك مادلك على سبيل رشدك .

وقال آخرون — وهو أصح القولين — زيادة العقل فضيلة لأنه زيادة علم بالأمور، وحسن إصابة بالظنون ، ومعرفة مالم يكن إلى ما يكون ، وذلك فضيلة لا نقص .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العقل حيث كان ألوف مألوف »(١)

وقال القاسم بن محمد : كانت العرب تقول : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ، كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه . وقد قيل فى منثور الحكم : كل شيء إذا كثر رخص إلا العقل ، فإنه إذا كثر غلا .

وأما الدهاء والمكر فهو مذموم ، لأن صاحبه صرف فضل عقله إلى الشر، ولو صرفه إلى الخير لكان محموداً . وقد ذكر المغيرة(٢) عمر بن الخطاب فقال : كان والله أفضل من أن يَخْدع وأعقل من أن يُخْدَع .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : لست بالخب ، ولا يخدعنى الخب(٣) .

---

(١) ادب الدنيا والدين : ١٣

(٢) هو المغيرة بن شعبة بن ابى عامر بن مسعود بن معتب الثقفى ، كان إسلامه عام الخندق ، وكانت الحديبية اول مشاهده ، فشهد بيعة الرضوان ، وشهد بعدها كافة غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم . واشترك فى حروب الردة ، فشهد معركة اليمامة ضد سيلمة الكذاب ثم اليرموك وفيها ذهبت عينه .وشهد القادسية وارسله سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه فى وفد لمفاوضة كسرى وشهد غيرها من الفتوح. امره سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على البحرين ثم ولاه البصرة ؛ وعاد وعزله عنها ، ثم ولاه الكوفة بعد عزل ابى موسى الاشعرى عنها : واعتزل الحرب بين على ومعاوية فى الطائف بلده . ثم اظهر ولاءه الكامل لمعاوية بعد استشهاد على، فاستعمله معاوية على الكوفة وظل أميرا عليها حتى مات بالطاعون سنة خمسين للهجرة ، ودفن بالثوية — موضع قريب من الكوفة . وقيل بالكوفة — وهو يومئذ ابن ستين سنة .

(٣) الخب : الخداع

فصل

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزى، لأنه نتيجة منه ، وقد ينفك[١] العقل الغريزى عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل ، كالأنوك[٢] الذى لا توجد منه فضيلة، والأحمق الذى قلما يخلو من رذيلة[٣] . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الأحمق أبغض خلق الله إليه إذ حرمه أعز الأشياء إليه» . وعنه عليه الصلاه والسلام قال :«الأحمق كالفخار لا يرقع ولا يُشْعَب»[٤]

وروى عطاء عن جابر قال : كان فى بنى اسرائيل رجل له حمار فقال : يارب لو كان لك حمار لعلفته مع حمارى هذا . فهم به نبى من الأنبياء . فأوحى الله تعالى إليه ، إنما أثيب كل إنسان على قدر عقله .

وقال[٥] : وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل . [وكان الحسن البصرى] يقول[٦] : إن الأحمق يحفظ من كل شىء إلا من نفسه . ولذلك قال بعض الحكماء : الحاجة إلى العقل أكثر من الحاجة إلى المال . وقال بعض البلغاء : دولة الجاهل عبرة العاقل .

وقال أنو شروان لبزرجمهر[٧] : أى شىء للمرء خير ؟ قال عقل يعيش به. قال :فإن لم

---

(١) ينفك : يزول (٢) الأنوك : الاحمق والجمع نوكى ونوك .

(٣) وردت هذه الفقرة هكذا فى نسخ القناطر ، وهى فى أدب الدنيا والدين ص١٤ كما يلى : كالانوك الذى لا تجد له فضيلة والاحمق الذى قلما يخلو من رذيلة .

(٤) أدب الدنيا والدين ١٤ ــ ١٥ .

(٥) أدب الدنيا والدين : ١٥

(٦) فى الأصل : ويقول : إن الأحمق... الخ . بدون بيان للقائل . ووجدت هذا القول منسوباً للحسن البصرى فى أدب الدنيا والدين ص ١٦ ، فوضعته بين القوسين كما ترى ليستقيم الكلام

(٧) أنو شروان من ملوك الفرس ، وبزرجمهر بن البختكان : حكيم فارسى ، وهو الذى قص تاريخ انتساخ كتاب كليلة ودمنة، وترجمته من كتب الهند . وكثير من حكمه وأقواله منثورة فى عيون الأخبار لابن قتيبة .

يكن ؟ قال: فإخوان يسترون عليه . قال : فإن لم يكن ؟ قال: فمال يتحبب به إلى الناس . قال : فإن لم يكن ؟ قال : فِعى صامت . قال : فإن لم يكن ؟ قال فموت جارف ! !

وفى كتاب العقد[1] قال : خطب وكيع بن أبى سو[2] والى خراسان فقال : إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أشهر . قيل [illegible]ى ستة أيام . فقال : والله لقد قلتها وأنا أستقلها !

وخطب والى اليمامة فقال: إن الله لا يُقَارُ[3] عبادَهُ على المعاصى وقدأهلك أمةعظيمة فى ناقة [ما كانت] تساوى مائتى درهم. فسمِّى مقوم الناقة . قال : ودخل قوم على كردم السدوسى[4] فقالوا له : أين القبلة فى دارك هذه ؟ فقال : إنما دخلنا إليها منذ ستة أشهر ! !

قال : ونسى عامر بن عبد الله بن الزبير عطاءه فى المسجد وكان قد أوتِىَ به هناك ، فلما صار إلى بيته قال : ياغلام إئتنى بعطائى الذى نسيت فى المسجد . فقال : وأين يوجد وقد دخل فى المسجد بعدك جماعة ؟ ! قال : أو بقى أحد يأخذ ما ليس له ؟ !

قال : وسرق نعله فلم يلبس بعد ذلك نعلا حتى مات . وقال : أكره أن يجيء من

---

(١) العقد الفريد : ٧/١٥٦ — ١٥٧ وكتاب العقد الفريد من أمهات الكتب الجامعة فى الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع .. الخ . ومؤلفه هو أبوعمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبى الأندلسى (٢٤٦ هـ — ٣٢٨) .

(٢) فى نسخة القناطر : وكيع بن أبى سويد . والصحيح وكيع بن أبى سود كما فى البيان والتبيين ٢/٢٣٦ والعقد الفريد ٧/١٥٢ .

(٣) فى نسخة القناطر : يغار وفى العقد الفريد ٧/١٥٢ يعاون وأثبت رواية البيان والتبين والخبر فيه ٢/٢٣٦ ، وفى عيون الأخبار ٢/٤٥ . وقاره مقارة : قرمعه . ومنه قول ابن مسعود : قاروا الصلاة . وقصد الخطيب أن الله لا يقر الناس فيما هم عليه من المعاصى ، وأنه يهلكهم لذلك .

(٤) فى نسخة القناطر : «تردم الـ وس» وهو خطأ والصواب ما أثبت كما ورد فى البيان والتبين وقد ذكره فى النوكى . والخبر فى العقد الفريد ٧ : ١٥٢ . ورسمه فيه كردم أيضاً .

يسرقه فيأثم . قال : وفى هذا الضرب من الناس يقول أيوب السختيانى[١] : « من أصحابى من أرجو بركة دعائه ولا أقبل شهادته » .

الأصمعى قال : كان الشعبى[٢] يحدث أنه كان بين بنى إسرائيل عابد جاهل قد ترهب فى صومعته ، وكان له حمار يرعى حولها . فاطلع من الصومعة فرآه يرعى ، فرفع يديه إلى السماء فقال : يارب ، لو كان لك حمار كنت أرعاه مع حمارى وما كان يشق على فهم به نبى فى ذلك الزمان، فأوحى الله تعالى إليه : دعه فإنما سأل ، وإنما أثيب كل إنسان على قدر عقله .

هشام بن حسان قال : أقبل رجل إلى محمد بن سيرين[٣] فقال : ماتقول فى رؤيا رأيتها ؟ قال : وما رأيت ؟ قال : كنت رأيت أن لى غنما فأعطيت بها ثمانية دراهم فأبيت من البيع ، ففتحت عينى ولم أر شيئاً ، فأغلقتهما ومددت يدى فقلت : هاتوا أربعة فلم أعط شيئاً . قال ابن سيرين : لعل القوم اطلعوا على عيب فى الغنم فكرهوها . قال : يمكن الذى قلت[٤] .

وفى كتاب الماوردى قال[٥]: وولى الربيع العامرى[٦] وكان من النَّوكى منابر اليمامة فأقاد كلبا بكلب ، فقال فيه الشاعر :

---

(١) أيوب السختيانى : هو أبو بكر أيوب بن ابى تميمة كيسان السختيانى البصرى ، والسختيانى نسبة إلى عمل السختيان وبيعها وهى الجلود العتابية . كان من علماء البصرة، روى عن نافع وعطاء وغيرهم وروى عنه الأعمش وقتادة وخلق كثير .

(٢) الشعبى : عامر بن عبدالله بن شراحيل الشعبى الحميرى ، والشعبى نسبة إلى شعب بالفتح، بطن من همدان . كان من كبار الحفاظ ، واستقضاه عمر بن عبد العزيز ، ولد بالكوفة سنة ١٩ هجرية وتوفى سنه ١٠٣هـ

(٣) هو ابو بكر محمد بن سيرين الأنصارى البصرى . تابعى مشهور . كان مولى لأنس بن مالك وروى عنه ، وكان ثقة صدوقاً ورعاً، ولد قبل مقتل عثمان بسنتين، وتوفى سنة ١١٠ هـ .

(٤) إلى هنا انتهى ما نقله من العقد الفريد ٧ : ١٥٦ — ١٥٧ .

(٥) أدب الدنيا والدين : ١٦

(٦) وفى البيان والتبيين قال : ابو الربيع العامرى ، واسمه عبدالله . وهو غير مايصرح به الشعر وغير ما ورد فى عيون الأخبار والعقد الفريد ورواية الجاحظ للأبيات : شهدت بأن الله حق لفاؤه وصدر البيت الثانى كلباً بكلب ولم يدع .

شهدت بأن الله حق قضاؤه وأن ربيع العامرىّ رقيع
أقاد لنا كلباً بكلب فلم يدع دماء كلاب المسلمين تضيع

ومثل هذا من رذائل النوكى مالا يحصى كثرة، إذ لامعنى للاكثار منها، لأنه بحسب ما ينشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلا فى الغابرين وحديثاً فى الآخرين ، وقد وصف بعض البلغاء العاقل بما فيه من الفضائل فقال : العاقل إذا والى بذل فى المودة نصره ، وإذا عادى رفع عن الظلم قدْره ، فيسعد مواليه بعقله ، ويعتصم معاديه بعدله ، إن أحسن إلى أحد ترك المطالبة بالشكر ، وإن أساء إليه مسىء سبب له أسباب العذر ، أو منحه الصفح والعفو والأحمق ضال مضل ، إن أونس تكبر وإن أوحش تكدر ، وإن استنطق تخلف ، وإن ترك تكلف ، مجالسته مهنة ، ومعاتبته محنة ، ومحاورته غرر ، وموالاته ضرر ، ومقاربته عمى ، ومفارقته شفاً[1]

وقال بعض البلغاء[2] : إن الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق ، وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق ، فإن أتتك منها سهمة مع جهل ، أو فاتتك بغية مع عقل ، فلايحملنك ذلك على الرغبة فى الجهل والزهد فى العقل ، فدولة الجاهل من الممكنات ، ودولة العاقل من الموجبات وليس من أمكنه شىء من ذاته كمن استوجبه بآلاته وأدواته ، وبعد ، فدولة الجاهل كالغريب الذى يحن إلى النقلة[3] ، ودولة العاقل كالنسيب الذى يحن إلى الوصلة ، فلا يفرح المرء بحالة [جليلة][4] نالها بغير عقل ، ومنزلة رفيعة حلها بغير فضل ، فإن الجهل يزله منها ويزيله عنها ، ويحطه إلى رتبته ، ويرده إلى قيمته بعدأن تظهر عيوبه ، وتكثر ذنوبه ، ويصير مادحه هاجياً ، ووليه معادياً .

---

(١) فى ادب الدنيا والدين : ومفارقته شقاً — ص ١٥
(٢) ادب الدنيا والدين : ١٦
(٣) فى نسخ القناطر : يحن الى الغفلة والتصحيح من ادب الدنيا والدين .
(٤) زيادة من ادب الدنيا والدين .

وأما العاقل فهو أبداً من عقله فى إرشاد ، ومن رأيه فى إمداد ، فقوله سديد ، وفعله حميد ؛ فالعقل ينبوع الأخلاق الفاضلة ، وأس الفضائل الكاملة ، وأنشد بعض أهل الأدب وذكر أنها لعلى بن أبى طالب[١]

إن المكارم أخلاق مطهرة ... فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والصدق ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها ... والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم أنى لا أصدقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها
والعين تعلم من عينى محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها[٢]

فصل

وفى كتاب الغزالى[٣] قال : اختلف الناس فى تفاوت العقل ، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قد قل تحصيله ، بل المبادرة بالتصريح بالحق . قال : والحق الصريح أن التفاوت يتطرق إلى الاقسام الاربعة[٤] سوى القسم الثانى ـ وهو العلوم الضرورية من جواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الجسم فى مكانين ،من أمثالها من النظائر التى تدرك إدراكاً محققاً من غير شك ، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها »

---

(١) ادب الدنيا والدين ص ١٤

(٢) الى هنا انتهى ما نقله من ادب الدنيا والدين .

(٣) احياء علوم الدين ١ : ٨٧ وما بعدها .

(٤) وهذه الأقسام الأربعة كما يلى : ١ ـ الغريزة . ٢ ـ العلوم الضرورية . ٣ ـ علوم التجارب . ٤ ـ وهو استيلاء هذه القوة على قمع الشهوات .

وإلى ما أشار عمروس بن فتح[1] رحمه الله تعالى فى كتابه . وزعم أن أحمد بن الحسين مع من وافقه ، هم الذين ذهبوا إلى أن العقول متساوية ، وعلتهم فى ذلك تساويهم فى التكليف . ولا معنى للاشتغال باحتجاجهم فى ذلك ، إذ من أنكر التفاوت فى غريزة العقل فكأنه منخلع من ربقة[2] العقل ، ومن ظن أن عقل النبى صلى الله عليه وسلم مثل عقل بعض الجهال فهو أخس عقلا من أولئك الجهال ، وكيف ينكر تفاوت الغريزة العقلية ولولا ذلك لما اختلف الناس فى فهم العلوم ، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم ، وإلى ذكى يفهم بأدنى رمز وإشارة ، وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور دون التعليم **ديكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار**[3] وذلك مثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، إذ تتضح لهم فى باطنهم أمور غامضة من غير

---

(١) هو أبو حفص عمروس بن فتح المساكنى النفوسى قاضى الإمام أبى منصور الياس ، وأحد أعلام الإسلام فى ليبيا ، قال عنه أبو العباس فى الطبقات : بحر العلم الزاخر بل حاز كل المفاخر وحاز قصب السبق وإن كان فى السن متأخراً . كان ضابطاً حافظاً محتاطاً محافظاً . لم تكن تشغله المجاهدة فى الله عن دراسة العلم . ولم يلهه التبحر فى العلم عما تعين عليه من مصادرة تلك الهموم ، لازم الدرس والاجتهاد ثم رابط على الجهاد . له مصنفات فى الفروع والعقائد ، وقد طلب منه بعض أهل الكلام من علماء الإباضية بفزان وهو العلامة عبد الخالق الغزانى أن يؤلف كتاباً فى الأصول ، فكتب الكتاب المعروف بالعمروسى ، وكتب إليه رسالة فلما رآها الغزانى وهو صاحب الكتابين المعروفين بأصول الكلام قال : النفوسى أقوى منى . وقد شهد له العلامة محمد بن محبوب عالم الإباضية المشرق فى عصره بالتبحر فى العلم وكمال العقل . أخذ أسيراً رحمه الله فى واقعة (مانو) بين إبراهيم الأغلب ونفوسة ، عام ٢٨٣ هـ . ومانو قصر كبير بين قابس وطرابلس . وكان عمروس على فرس سابق يذود عن العسكر ويحمى الأطراف ، ولما أعياهم أمره ، نصبوا له شبكة من حبال فى طريقه فعثر فيها جواده ، فأخذوه إلى إبراهيم فقال له : سلنى العفو عنك لأترك سبيلك . فقال له عمروس : ذلك بيد الله لا بيدك ، وتلك كلمة لا أقولها أبدا حتى ألحق بالله وإنما أسألك ألا تكشف عورتى . فعرضوه بمقراض من حديد ، ولما بلغوا المرفقين فاضت روحه رحمه الله تعالى ، وذلك سنة ٢٨٣ للهجرة . وواقعة مانو هذه هى التى قل فيها حد سيوف نفوسة وفنيت أبطالهم ، وأبقت فيهم ثلمة عظيمة ، وهى المصيبة الكبرى التى تضعضع بها ركن الإباضة بتاهرت . . مات فيها أربعمائة عالم من المشاهير الأعلام ، رحمهم الله رحمة واسعة . (راجع الأزهار الرياضية للبارونى ٢ : ٢٥٢ ـ ٢٥٤ ، ٢٨٢ ـ ٢٨٣) (وكتاب السير : ٢٢٥ المطبعة البارونية . القاهرة : ١٣٢٠هـ)

(٢) الربق : بالكسر حبل فيه عدة عرى يشد به البهم كل عروة ربقة بالكسر والفتح ، ومنخلع من ربقة العقل ، كأنه منفلت من عروته .

(٣) سورة النور : ٣٥ . وانظر إحياء علوم الدين ١ : ٨٨

تعلم ولا سماع ، ويعبر عن ذلك بالإلهام . وكمثل المحدثين والمروعين ، كقوله عليه السلام : « إن لكل أمة محدثا ومروعاً ، فإن كان فيكم فعمر » .(١)

والمحدث والمروع هو الذى يلقى فى روعه (٢) وقلبه كأنه يحدث وعن مثله عبر النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها » .(٣) وقوله : « إن روح القدس نفث فى روعى : أحبب من شئت فإنك مفارقه ، وعش ما شئت فإنك ميت ».(٤) وقوله عليه الصلاة والسلام : « احذروا فراسة المؤمن فإنه بنور الله يبصر » .(٥) والفراسة معناها الظن الصادق .

وفى مثل ذلك يقول الشاعر : (٦)

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

الألمعى : الذى يلمع فى عقله الأمور قبل أن تكون

آخر : بصير بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأى ما هو واقع

وهذا أمر ظاهر لا يخفى عن ذوى عقل .

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، وأحمد وغيرهم .

(٢) الروع ، بالضم . القلب أو موضع الفزع منه ، أو سواده ، والذهن والعقل .

(٣) رواه الشافعى من حديث طويل هذا نصه : النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ، ولا تركت شيئا مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه ، وإن الروح الأمين قد نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى توفى رزقها ، فأجملوا فى الطلب » . (بدائع المنن فى جمع وترتيب مسند الشافعى والسنن ١ : ١٤) والروح الأمين هو جبريل عليه السلام .

(٤) رواه الغزالى فى الاحياء هكذا : « أحبب من أحببت فإنك مفارقه ، وعش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به » . قال أبو الفضل : أخرجه الشيرازى فى الألقاب من حديث سهل ابن سعد نحوه . والطبرانى فى الأصغر والأوسط من حديث على ، وكلاهما ضعيف .

(٥) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى أمامة فى جامع بيان العلم ١ : ١٩٦

(٦) هو أوس بن حجر بن عتاب شاعر جاهلى قديم ، كان عاقلا فى شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق ، وهو من أوصفهم للخمر والسلاح لا سيما القوس ، وسبق إلى دقيق المعانى وإلى أمثال كثيرة .

وذكر الغزالى فى كتابه[١] أن غريزة العقل فى أول مباديها مثل نور يشرق فى النفس عند سن التمييز ، فلا يزال ينمو ويزداد إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة ، ومثاله نور الصبح فإن أوائله تخفى خفاء يشق إدراكه . ثم يتدرج فى الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس .

قال : وتفـــاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر ، والفرق فى ذلك مدرك بين الأعمش[٢] وبين الحاد البصر ، بل سنة الله عز وجل جارية فى جميع خلقه بالتدريج فى الايجاد حتى إن غريزة الشهوة لا تركز[٣] فى الصبى دفعة [وبغتة] بل تظهر شيئا فشيئا على التدريج ، وكذلك جميع القوى والصفات .

قال : ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ماروى أن [عبد الله] بن سلام [رضى الله عنه] سأل النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل فيه وصف عظم العرش ، وأن الملائكة قالت : يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش ؟ قال : نعم . العقل ، قالوا : ومابلغ قدره ؟ قال هيهات ! لا يحاط بعلمه ، هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا : لا . قال عز وجل : فإنى خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل ؛ فمن الناس من أعطى حبة ، ومنهم من أعطى حبتين ، ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ، ومنهم من أعطى فرقاً ومنهم من أعطى وسقاً ومنهم من أعطى أكثر من ذلك » .[٤] وبالله التوفيق .

قد ذكرنا العقل وأقسامه وحقيقته ، فلنرجع إلى ذكر العلم وتفاصيل أبوابه إن شاء الله تعالى .

---

(١) لحياء علوم الدين ١ : ٨٨ وما بين القوسين زيادة منه .

(٢) فى نسخ القناطر : الأعمى ، والتصحيح من الإحياء .

(٣) فى الإحياء : تظهر . وفى ب : توجد .

(٤) الحديث : أخرجه ابن المحبر من حديث أنس بتمامه . والترمذى الحكيم فى النوادر مختصراً والفرق . مكيال بالمدينة يسع ثلاثة آصع . والوسق : ستون صاعا أو حمل بعير .

ذكر قنطرة العلم
وتفصيل أبوابها العشرة

الباب الأول

فى بيان فضل العلم

فأما بيان فضله فعلى خمسة أقسام : من الكتاب ، والسنة، والآثار ، والمعانى،والحس

أما الكتاب ؛ فآى كثيرة منها قوله تعالى : « **شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط** » . (١) فبدأ بنفسه ، وثنى بملائكته ، وثلث بأولى العلم من عباده ، فساواهم بنفسه وملائكته بواو التشريك تشريفا وتعظيما ، فناهيك بهذا شرفاً وفضلا ، وجلالا ونبلا .

وقوله تعالى : « شهد الله » .. الآية : والشهادة لاتكون إلا بالعلم دون الجهل والشك والظن قال الله تعالى : « **الا من شهد بالحق وهم يعلمون** » (٢)

وقال تعالى : « **يرفع الله الذى آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات** » . (٣) فقال أهل العلم : لحن الخطاب : يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة والذين أوتوا العلم درجات .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال: « للعلماء درجات فوق المؤمنين، سبعمائة درجة مابين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام »

وقوله تعالى: « **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمه فقد اوتى خيرا كثيرا** » (٤) فقوله تعالى : من يشاء ، تخصيص ؛ ولم يكتف بقوله خيراً حتى قال : كثيرا ، وهذا نهاية فى الفضل والتعظيم .

---

(١) آل عمران : ١٨ (٢) الزخرف : ٨٦
(٣) المجادلة : ١١ (٤) البقرة ٢٦٩

وقال سبحانه وتعالى : « **هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون** » .(١) فمنع من المساواة ما بين العالم والجاهل لما خص به العالم من فضيلة العلم .

وقال تعالى : « **وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون** » .(٢) فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمراً أو يفهم عنه زجراً .

وقال تعالى : « **إنما يخشى الله من عباده العلماء** » .(٣)

فأخبر سبحانه أنما يحصل له الخوف فى قلوب العلماء خاصة لأنهم أعلم به دون الجهال .

وقال تعالى : « **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب.** »(٤)

وقال جل وعلا . « **قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به .** »(٥) تنبيها على أنه أقدر عليه (٦) بقوة العلم .

وقال تعالى : « **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير .** »(٧) بين تعالى أن عظيم ثواب الآخرة إنما يعلم بالعلم

وقوله تعالى : « **ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** »(٨) رد تعالى حكمه فى الوقائع إلى استنباط أهل العلم ، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله تعالى

---

(١) الزمر : ٩
(٢) العنكبوت : ٤٣
(٣) فاطر : ٢٨
(٤) الرعد : ٤٣
(٥) النمل : ٤٠
(٦) أى اقدر على عرش ملكة سبأ ، قال الله تعالى على لسان سيدنا سليمان : « **قال يا أيها الملؤ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين** . » (النمل : ٣٨) .
(٧) القصص : ٨٠
(٨) النساء : ٨٣

وقيل فى قوله تعالى[١] : « **يابنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم** (يعنى العلم) **وريشا** (يعنى اليقين) **ولباس التقوى** (يعنى الحياء) . »[٢]

وقال تعالى : « **فلنقصن عليهم بعلم** . »[٣]

وقال : « **بل هو آيات بينات فى صدور الذين اوتوا العلم** . »[٤]

وقال : « **الرحمن . علم القرآن خلق الانسان . علمه البيان** . »[٥] وإنما ذكر ذلك فى معرض الامتنان .

وقال سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام : « **وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً** . »[٦]

وقال فى الدنيا ؛ تحقيراً وتزهيداً فيها : « **قل متاع الدنيا قليل** ».[٧]

وقال : « **ولا تمدن عينك الى متعنا به ازواجا** »(أراد أصنافاً من المال[٨]) **منهم زهرة الحياة الدنيا** (أى زينتها) »[٩] نهى نبيه عليه الصلاة والسلام أن ينظر إلى الدنيا بعين الرغبة ، وقال له فى العلم آمراً بالرغبة فيه والزيادة منه : « **وقل رب زدنى علما** ».[١٠] فلو كان معنى أفضل من العلم لأمره بالرغبة فيه والزيادة منه .

---

(١) الأعراف : ٢٦

(٢) راجع تفسير الآية فى الطبرى ٨ : ١٤٨

(٣) الأعراف : ٧

(٤) العنكبوت : ٤٩

(٥) (الرحمن : من ١ ــ ٤

(٦) النساء : ١١٣

(٧) (النساء : ٧٧)

(٨) الطبرى عن أبى رافع : ويعنى بقوله (أزواجاً منهم) رجالا منهم أشكالا ، وبزهرة الحياة الدنيا ، زينة الحياة الدنيا . التفسير ج١٦ : ٢٣٥

(٩) (طه : ١٣١)

(١٠) (طه : ١١٤)

فلما كان النبي عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق عليه ، وأفضلهم لديه اختار له أفضل المعانى وأعزها وأشرفها : وهو العلم .

وقال تعالى فى فضل العلم فى قصة موسى والخضر عليهما السلام : « **وإذ قال موسى لفتاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين اوامضى حقبا .** »[1] مع ما انطوت عليه القصة من قطع البلاد فى طلبه ، وركوب المشاق ولقاء النصب فى سفره إلى علم يتعلمه بعد أن قال : أنا أعلم أهل الأرض ، فلما بلغ مجمع البحرين وجد الخضر عليه السلام فقال له موسى مستلطفا : « **هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا** »[2] فكان من قصتهما ماذكره الله تعالى فى كتابه .

وقال أيضا فى فضله فى قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد : « **وتفقد الطير فقال مالى لا ارى الهدهد ام كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه او ليأتينى بسلطان مبين** » .[3] توعده لما تفقده بالعذاب الشديد أو بالذبح ، فلما أتاه قال : « **احطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبإ بنبإ يقين** » إلى قوله : « **من الكاذبين** »[4]

فلا معنى أعز وأشرف من العلم . فلا يختاره الله إلا لأحب الخلق إليه وأكرمهم عليه ، وغير ذلك من الآى كثير فى كتاب الله تعالى . تركناها مخافة التطويل .

فصل

وأما من السنة فأحاديث كثيرة ، منها ما رواه جابر بن زيد[5] عن ابن عباس عن

---

(١) الكهف : ٦٠ (٢) سورة الكهف (٦٠ ـ ٨٢)
(٣) النمل : ٢٠ ـ ٢١ (٤) النمل : ٢٢ ـ ٢٧
(٥) هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدى الجوفى ، البصرى العمانى ، والجوفى نسبة إلى ناحية بعمان فإن أصله من قرق وهى بلدة من أعمال نزوى بالقرب منها ، وكان من اليحمد من ولد عمرو بن اليحمد رحل فى طلب العلم وسكن البصرة فنسب إليها .

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « طلب العلم عند الله أفضل من الصلاة والصيام والحج والعمرة والجهاد فى سبيل الله » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا حضرت الجنازة وحضر مجلس العلم . فإذا كان للجنازة من يحضرها ويدفنها فإن حضور مجلس العلم أفضل من حضور ألف جنازة ، وعيادة ألف مريض ، ومن صلاة ألف ركعة،ومن قيام الليل ومن صيام ألف يوم،وصدقة

= ولد رضى الله عنه فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسنتين بقيتامنها ، وذلك أن سيدنا عمر مات فى ثلاث وعشرين من الهجرة ، فتكون ولادة جابر فى احدى وعشرين منها . وجابر بن زيد رضى الله عنه هو أصل المذهب الإباضى ، وأسه الذى قامت عليه أطامة .جمع الله تعالى له بين العلم والعمل والورع والإخلاص وحسن اليقين ، وهو صاحب ابن عباس رضى الله عنه ، وكان أشهر من صحبه وقرأ عليه . ذكر أبو طالب المكى فى كتاب قوت القلوب أن ابن عباس قال : اسألوا جابر بن زيد ، فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه ، وقال إياس بن معاوية : رأيت البصرة وما فيها مفت غير جابر بن زيد .

الربيع عن أبى عبيده قال حيان بن عمارة : سمعت عبد الله بن عباس رضى الله عنه يقول بالمسجد الحرام : جابر بن زيد أعلم الناس بالطلاق ، وقال ابن عباس أيضاً : عجباً لأهل العراق كيف يحتاجون الينا وعندهم جابر بن زيد لوقصدوا نحوه لوسعهم علمه .

وروى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - لقيه فى الطواف فقال له : ياجابر ، إنك من فقهاء البصرة وإنك تستفتى ، فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية .

وقال أبو عبد الله : جابر أعلم من الحسن البصرى ، ولكن كان جابر لقوم وكان الحسن للعامة ؛ يعنى أنه يعظهم ، وأما الفتوى فكانت لجابر خاصة .

قال جابر رضى الله عنه : أدركت سبعين رجلا من أهل بدر فحويت مابين أظهرهم إلا البحر . يعنى ابن عباس رضى الله عنه لغزارة علمه . وأخذ العلم عن جابر ناس كثيرون من جلتهم الإمام الثانى للمذهب أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى ومنهم أيضاً ضمام بن السائب وأبو نوح وحيان الأعرج وكلهم فقهاء مجتهدون

وجابر بن زيد أول من جمع الحديث فى ديوان وذكر العلامة أبو اسحق ابراهيم طفيش أنه يبلغ نحو عشر مجلدات ضخمة ، وهو من الكتب المفقودة (وقد بقى بين يدينا من حديثه بالإضافة الى ما حفظته كتب المذهب مسند الربيع بن حبيب الأزدى البصرى. وهو أصح كتب الحديث رواية وأعلاها سنداً طبع طبعة ثانية بالمطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٩هـ ووضع المرحوم الشيخ عبدالله السالمى حاشية على أجزائه الثلاثة الأولى)

ولما مات جابر بن زيد بلغ موته أنس بن مالك رضى الله عنه فقال :مات أعلم من على ظهر الأرض ، أو مات خير أهل الأرض . قال أبو عبيدة : وكان أنس عند ذلك مريضاً فمات هو وجابر بن زيد فى جمعة واحدة وكان ذلك سنة ثلاث وتسعين من هجرة التاريخ ، ولما دفن قال قتادة أدنونى من قبره - وكان ضريراً - فأدنوه فقال : اليوم مات عالم العرب .

ألف درهم ، ومن ألف حجة سوى حجة الفريضة ، ومن ألف غزوة سوى الغزوة الواجبة تغزوها فى سبيل الله تعالى بمالك ونفسك ، فأنفع من هذه المشاهد من شهد مجلس العلم . أما علمت أن الله يطاع بالعلم ويعبد بالعلم ، فخير الدنيا والآخرة مع العلم ، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل . فقال رجل : وقراءة القرآن يارسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ويحك ! ما قراءة القرآن بغير علم ؛ وما الحج بغير علم ، وما الجهاد بغير علم ؟ أما بلغك أن السنة تقضى على القرآن والقرآن لا يقضى على السنة » . (١)

وعنه عليه السلام قال : « العلم بالتعلم ، والخير عادة ، والشر لجاجة ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده » . (٢)

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العلماء ورثة الأنبياء . » (٣) ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وعنه عليه الصلاة والسلام من طريق جابر بن زيد أنه قال : « ليوم واحد من العالم الذى يعلم الناس العلم أفضل عند الله من عبادة العابد مائة سنة ؛ وإن العالم الذى يعلم الناس يستغفر له أربعة أشياء : الملائكة فى السماء ، والطير فى الهواء ، والهوام فى البر ، والحيتان فى البحر ، وإن العالم الواحد أشد على إبليس من ألف مؤمن عابد » .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات ووافقه السيوطى فى اللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (١ : ٢٠٠)

(٢) فى مسند الربيع بن حبيب . أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال : بلغنى عن معاوية بن أبى سفيان قال وهو على المنبر : أيها الناس إنه لا مانع لما أعطاه الله ، ولا معطيا منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد ، من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ثم قال : سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات على هذه الأعواد . وفى رواية أخرى : أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أراد الله به خيراً فقهه فى الدين .

ورواية الغزالى لهذا الحديث هكذا . « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده » قال أبو الفضل العراقى : متفق عليه من حديث معاوية دون قوله : ويلهمه رشده قال : وهذه الزيادة عند الطبرانى فى الكبير .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى الدرداء .

وأى شرف يزيد على شرف من تشتغل ملائكة السماء ودواب الأرض به ، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له .

ومن طريق أبى هريرة أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « للأنبياء على العلماء فضل درجتين . وللعلماء على الشهداء فضل درجة » .(١)

وروى أنس عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك » .(٢)

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « التفقه فى الدين حق على كل مسلم . ألا تعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا » .(٣)

وروى سلمان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شىء عماد . وعماد الدين الفقه » .(٤)

وروى أبو أمامة قال : « سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد ، فقال عليه الصلاة والسلام: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا » .(٥)

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٩ . والحديث أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله ١ : ٣١ .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وابن عبد البر فى بيان العلم وعبد الغنى الأزدى فى آداب المحدث من حديث أنس بإسناد ضعيف .

(٣) المارودى فى أدب الدنيا والدين قال : وروى حميد عن أنس وأورد هذا الحديث . ص ٢٧

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو بكر الآجرى من كتاب فضل العلم وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف . وعند الترمذى وابن ماجة من حديث ابن عباس بسند ضعيف : « فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد . »

(٥) أدب الدنيا والدين ص ٢٤ ورواية الغزالى فى الاحياء : فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى . أخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن صحيح .

أبو أيوب الأنصارى قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « باب واحد يتعلمه المؤمن خير له من عبادة سنة ، وخير له من عتق رقبة من ولد إسماعيل عليه السلام ، وأن طالب العلم ، والمرأة المطيعة لزوجها ، والولد البار لوالديه يدخلون الجنة مع الأنبياء بغير حساب . »

وعن الوضاح بن عقبة قال : حفظ مسألة خير من عبادة مائة سنة .

وفى كتاب الضياء (١) قال : حفظ مسأله من سائر العلوم خير من عبادة سنة .

وقال أبو محمد (٢): حفظ مسألة تعدل عبادة ستين سنة ، وهى التى على الإنسان فرض مثل التوحيد وما لا يسع جهله . قال : ومن نسخ العلم ليتعلمه ويحفظه فهو أفضل من الصوم والصلاة بعد أداء الفرض ، وتعليم باب أفضل من مائة ركعة .

ومن كتاب حياة القلوب قال : وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا لو كانت لقمة فى كفه فوضعها فى الآخرة » .

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « خير دينكم أيسره ، وأفضل عبادتكم الفقه(٣) »

وعنه عليه الصلاة والسلام من طريق جابر بن زيد رضى الله عنه أنه قال: « خصلتان لا تجتمعان فى منافق ، حسن سمت وفقه فى الدين » . (٤) ولا تشكن فى الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان، فإنه ما أراد به الفقه الذى ظننت ، وسيأتى معنى الفقه إن شاء الله تعالى

---

(١) كتاب الضياء ، من كتب أصحابنا ، تألف أبى ابراهيم سلمة بن مسلم الصحارى العوبتى من علماء عمان فى أربعة وعشرين جلداً جمع فيه أصول الشرع وفروعه . راجع اللمعة المرضية من أشعة الإباضية تأليف الشيخ عبد الله بن حميد السالمى . وذكر الشيخ أبو اسحق أن منه نسخة مخطوطة فى مكتبة القطب بوادى ميزاب بالجزائر . ويندر وجود نسخ منه فى المغرب . وهى ميسرة فى عمان .

(٢) أبو محمد هو عبد الله بن بركة المعانى وقال الشيخ أبو اسحاق وعندما يطلق أبو محمد هكذا فإنه ينصرف الى عبد الله بن بركة رحمه الله .

(٣) أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف ، والشطر الأول عند أحمد من حديث محجن بن الأدرع بسند جيد . والشطر الثانى عند الطبرانى من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

(٤) أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال . غريب .

وأدنى درجات الفقه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا ، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برأته من النفاق والرياء إن شاء الله تعالى .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « أفضل الناس المؤمن العالم الذى إذا أحتيج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه » .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « الإيمان عريان ولباسه التقوى ، وزينته الحياء ، وثمرته العلم » .(١)

وقيل : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد ، واطلب العلم حتى تنكسر العصا وتنخرق النعلان .

وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ؛ فأما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدو بأسيافهم على ما جاءت به الرسل » .(٢)

وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « موت قبيلة أيسر من موت عالم » .(٣)

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حظه ووضعه فى غير منزلته التى وضعه الله فيها حيث قال : « **وما اوتيتم من العلم الا قليلا** » .(٤)

وقال عليه الصلاة والسلام : « فضل العلم خير من فضل العبادة » وإنما كان كذلك لأن العلم يبعث على فضل العبادة ، وأما العبادة فقد لا تكون عبادة مع خلوها من العلم .(٥)

---

(١) أخرجه الحاكم فى تاريخ نيسابور من حديث أبى الدرداء بإسناد ضعيف .
(٢) أخرجه أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف .
(٣) أخرجه الطبرانى وابن عبد البر من حديث أبى الدرداء ، وأصل الحديث عن أبى الدرداء
(٤) أدب الدنيا والدين : ٢٥
(٥) فى ادب الدنيا والدين : ٢٦ مع خلو فاعلها من العلم .

وعنه عليه السلام قال : « الناس معادن ، فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » . (١)

وعنه عليه السلام قال : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء ». (٢)

وعنه عليه السلام أنه قال : « من حفظ على من أمتى أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة . ومن حمل من أمتى أربعين حديثاً لقى الله عز وجل فقيهاً عالماً » . (٣)

وعنه عليه الصلاة والسلام قال: « من تفقه فى دين الله عز وجل كفاه الله همه ورزقه من حيث لايحتسب » . (٤)

وعنه عليه السلام قال : « يشفع يوم القيامة ثلاثه : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ». (٥)

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « يبعث [الله] العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ثم يقول : يا معشر العلماء ، إنى لم أضع علمى فيكم إلا لعلمى بكم ، ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، إذهبوا فقد غفرت لكم » . رواه الغزالى فى كتابه. (٦)

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) اخرجه ابن عبد البر من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف . وفى مسند الربيع بن حبيب قال أبو عبيدة عن جابر بن زيد قال : بلغنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وسم المداد فى ثوب أحدكم إذا كان يكتب علماً كالدم فى سبيل الله ، ولا يزال ينال به الأجر مادام ذلك المداد فى ثوبه . » وذكر السخاوى عن المنجنيق فى رواية الكبار عن الصغار عن الحسن البصرى قوله : مداد العلماء أفضل من دم الشهداء :

والخطيب فى تاريخه من حديث نافع عن ابن عمر رفعه : وزن حبر العلماء بدم الشهداء فرجح عليهم . (حاشية الجامع الصحيح ج ١ : ٤٨ طبعة الأزهار البارونية ١٣٢٦) .

(٣) الشطر الأول أخرجه ابن عبدالبر فى العلم من حديث ابن عمر وضعفه ، وكذلك الشطر الثانى من الحديث أخرجه ابن عبد البر أيضاً من حديث أنس وضعفه .

(٤) رواه الخطيب فى التاريخ من حديث عبدالله بن جزء الزبيدى بإسناد ضعيف ورواية الإحياء: كفاه الله ما أهمه

(٥) رواه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف .

(٦) لحياء علوم الدين ١ : ٧ وقال أبو الفضل فى تخريجه رواه الطبرانى من حديث أبى موسى بسند ضعيف .

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قيل له : يا رسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ فقال . العلم بالله سبحانه . قيل : أى الأعمال تريد يارسول الله ؟ قال : العلم بالله سبحانه . فقيل: نسأل عن العمل وتجيب عن العلم ! فقال صلى الله عليه وسلم : إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل »(١)

وقال عليه السلام : « عمل قليل فى علم خير من عمل كثير فى جهل » .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « أوحى الله إلى ابراهيم عليه السلام : إنى عليم أحب كل عليم » . (٢)

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العالم أمين الله فى الأرض » .(٣)

وقال عليه الصلاة والسلام : « صنفان من أمتى إذا صلحا صلح الناس : الأمراء والفقهاء » .(٤)

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « إذا أتى علىّ يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم » .(٥)

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وفضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى»(٦)

---

(١) أخرجه بن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) أبو الفضل العراقى فى تخريجه لأحاديث الاحياء قال : حديث : أوحى الله إلى ابراهيم عليه السلام إنى عليم أحب كل عليم . » ذكره ابن عبد البر تعليقاً ولم أظفر له باسناد .

(٣) أخرجه ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف .

(٤) أخرجه ابن عبدالبر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف، وفيه : وإذا فسدا فسد الناس

(٥) الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى العلم من حديث عائشة باسناد ضعيف.

(٦) أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان

فأنظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوّة ، وكيف حط رتبة العقل المجرد عن العلم . وإن كان العابد لايخلو عن علم بالعبادة التى يواظب عليها ، ولولاه لم تكن عبادة .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة »[١] وفى حديث آخر : « بين العالم والعابد مائة درجة ، ما بين كل درجتين حضر الجواد المسرع المضمر سبعين سنة[٢] » .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال . « إنكم أصبحتم فى زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه قليل سائلوه كثير معطوه [العمل فيه خير من العلم] وسيأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه ، قليل معطوه كثير سائلوه ، العلم فيه خير من العمل . »[٣] وروى الغزالى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « نظرة إلى العالم أحب إلى من عبادة سنه » .

وعنه عليه السلام قال : « ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة ؟ قالوا : بلى يارسول الله قال : هم علماء أمتى » . وأمثال هذا من الأحاديث كثيرة .

وأما الآثار : فروى عن ابن مسعود[٤] أنه قال : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعه

---

(١) أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف ، ولأبى يعلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف .

(٢) الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال : « سبعون درجة » بسند ضعيف وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبى هريرة وأخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله : ١ : ٢٧ من حديث أبى هريرة .

(٣) أخرجه الطبرانى من حديث حزام بن حكيم عن عمه ، وقيل عن أبيه ، ولسناده ضعيف .

(٤) أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلى ، وأمه أم عبد الله بنت عبدود بن سواءة اسلمت وصحبت أحد السابقين الأولين . أسلم قديما وهاجر الهجرتين ، وشهد بدراً والمشاهد بعدها . روى عنه أنه قال : لقد رأيتنى سادس ستة وما على الأرض مسلم غيرنا وقال له رسول صلى الله عليه وسلم فى أول الإسلام : إنك لغلام معلم . وكان عبد الله يقول : أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعين سورة ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يسمع القرآن غضاً فليسمعه من ابن أم عبد » وبعضهم يرويه « من أراد أن يقرأ القرآن =

موت رواته ، فو الذى نفسى بيده لَيَودَّنَّ رجال قُتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم . وإن أحداً لم يولد عالما ، وإنما العلم بالتعلم » .(١)

وعن الحسن أنه قال : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء .(٢)

وقال الحسن فى قوله عز وجل : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنه » قال : هى العلم والعبادة « وفى الآخرة حسنة » قال : هى الجنة .

وقال مصعب بن الزبير لابنه : تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالا ، وإن لم يكن مال كان ذلك مالا .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : يا بنى تعلموا العلم ، فإن كنتم سادة فقتم ، وإن كنتم وسطا سدتم ، وإن كنتم سوقه(٣) عشتم .

=غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » لازم النبى صلى الله عليه وسلم فكان يلج عليه ويلبسه نعليه ويمشى أمامه وستره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذنك على أن ترفع الحجاب وأن تسمع سوادى حتى أنهاك . » وكان يعرف بين الصحابة بصاحب السواد والسواك .

وقال حذيفة : ما أعلم أحداً اقرب سمتاً ولا هديا ولا دلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يواريه جدار بيته من ابن ام عبد ، وبعثه عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الكوفة مع عمار بن ياسر وكتب إليهم : انى قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل بدر فاقتدوا بهما واسمعوا من قولهما. وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسى.. وفى الإصابة : قال البخارى : مات قبل قتل عمر ، وقال ابو نعيم وغيره مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين وقيل مات سنة ثلاث . وفى الاستيعاب : ومات ابن مسعود بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين ودفن بالبقيع وكان يوم توفى ابن بضع وستين سنة . ولما مات نعى على ابى الدرداء فقال : ما ترك بعده مثله .

(١) انظر الاحياء ١ : ٨ وفى مسند الربيع بن حبيب . جابر بن زيد عن ابى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم قبل ان يرفع ، ورفعه ذهاب اهله »

(٢) هو الحسن البصرى وقد سبقت ترجمته والخبرى الإحياء ١ :٨ وفيه : فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء .

(٣) السوقة : الرعية للواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

وقيل لبعض الحكماء أى الأشياء يقتنى ؟ قال : الشىء الذى إذا غرقت سفينتك سبح معك . يعنى العلم . وقيل : أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت .

وقال بعض الحكماء : العلم شرف لا قديم له ، والأدب مال لا خوف عليه .

وقال بعضهم : من اتخذ الحكمة لجاماً اتخذه الناس إماماً ، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار .

وقال بعض البلغاء : تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيراً ، ويقدمك ويسودك كبيراً ، ويصلح زيفك وفاسدك ، ويرغم عدوك وحاسدك ، ويقوم عوجك وميالك ، ويصحح همتك وأملك .

وقال بعض العلماء[1] : من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو فى شىء صغير فرح ومن دفع عنه حزن .

وقال كميل بن زياد[2] : أخذ بيدى على بن أبى طالب فخرج بى إلى ناحية الجبانة فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال[3] : « يا كميل ، إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير . يا كميل ، احفظ منى ما أقول لك :

الناس ثلاثة : عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، [مع كل ريح يميلون] لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق . وقال : إن هاهنا لعلما جما (أى كثيرا) — وأشار بيده إلى صدره — [لو أصبت له حملة]

---

(١) هو الشافعى كما فى احياء علوم الدين ١ : ٨

(٢) كميل بن زياد النخعى تابعى شهير له إدراك ، مات سنة اثنتين وثمانين فى الهجرة وهو ابن سبعين سنة . روى عن عمر وعلى وابن مسعود وغيرهم ، وروى عنه جماعة . كان شريفاً مطاعاً ثقة قليل الحديث ، شهد صفين مع على بن أبى طالب رضى الله عنه وقتله الحجاج بن يوسف الثقفى (الإصابة ٣/٣٠٠) وهذا الأثر فى العقد الفريد ٢ : ٦٩ وما بين القوسين زيادة منه .

(٣) النص فى نهج البلاغة طبعة مصر بتحقيق محى الدين عبد الحميد وشرح محمد عبده .

بلى ، قد أصبت لقنا غير مأمون [عليه] ، ويستعمل آلة الدين فى طلب الدنيا . ويستظهر بحجج الله [على أوليائه ، وبنعمه على عباده[1]] ، أو منقاداً لأهل الحق ولا بصيرة له فى أحنائه[2] ، ينقدح الشك فى قلبه لأول عارض من شبهة لا يدرى أين الحق ، إن قال أخطأ وإن أخطأ لم يدر ، مشغوف بكلام بدعته . بدّ له فيها بالصوم والصلاة . فهو فتنة لمن أفتتن بعبادته . وإنّ من أبغض خلق الله إليه عبداً وكله الله إلى نفسه . ألا لاذا ، ولا ذاك .

أو من هو منهوماً باللذات ، سلس القياد إلى الشهوات ، أو مغرماً بجمع الأموال والإدخار ، منقاداً لهواه وليس من دعاة الدين ، أقرب شبهاً به الأنعام السائمة . كذلك يموت العلم بموت حامليه .

ثم قال : اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم لله عز وجل بحججه ، إما ظاهراً مشهوراً وإما خفياً مغموراً ، لئلا تبطل حجج الله [وبيناته][3] ، وكم ذا ، وأين ؟ أولئك والله الأقلون عدداً ، والأعظمون [عند الله] قدراً ؛ بهم يحفظ الله حججه [حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم] . يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق .

يا كميل ، [محبة العلم دين يدان به ، يكسب به الإنسان الطاعة فى حياته] ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، ومنفعة المال تزول بزواله ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه .

يا كميل ، مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ؛ أعيانهم فى

---

(١) فى نسخ القناطر : ويستظهر بحجج الله وبكتابه وبنعمه على معاصيه . والذى أثبته هو ما جاء فى العقد الفريد .

(٢) فى نسخ القناطر : انجائه ولا معنى له هنا . وأثبت ما جاء فى العقد الفريد . وأحناء الأمور : متشابهها .

(٣) فى نسخ القناطر : وميثاقه ، وأثبت رواية العقد لأنها أشبه بسياق الكلام .

الأرض مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا حقيقةاليقين ، [فاستلانواما استوعر منه المترفون][1] ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بإدبار ، بل بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى .

يا كميل، أولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة إلى دينه . هاه[2] ، شوقاً إلى رؤيتهم .

وقال أيضاً : العالم أفضل من القائم المجاهد ، وإذ مات العالم ثلم فى الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف مثله[3] .

وقال أيضاً هو أو غيره[4] :

الناس من قبل التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حـــواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظُمٌ خلقت فيهم وأعضاء
وإن يكن لهمو فى أصلهم نسب	يفاخرون به فالطين والماء
لا فخر إلا لأهـــل العلم إنهم	على الهـدى لمن أستهدى أدلاء
الناس موتى وأهـل العلم أحياء	الناس مرضى وهم فيهم أطبـاء
الناس أرض وأهل العلم فوقهم	سناً ونوراً فما فى النور ظلماء
قل للذى يدعى فى العلم معرفة	علمت شيئاً وغابت عنك أشياء
ووزن كل امرئ ما كان يحسنه	والجاهلون لأهل العـــلم أعداء
وضد كل امرئ ما كان يجهله	وللرجال على الأفعـال أسمـاء

---

(١) فى نسخ القناطر : فاستلانوا ما استودعوه عنه المترفون . وصوابه ما جاء فى لحياء علوم الدين : فاستلانوا ما أستوعر منه المترفون . وهذا الأثر فيه جـ ١ : ٧١ ــ ٧٢ .

(٢) فى العقد الفريد : آه ، آه شوقاً إليهم . وهاه وآه كلاهما تقال عند التحزن والتوجع وراجع نص هذا الأثر أيضاً فى قوت القلوب ١ : ٢٧٢ ــ ٧٣ . ط الحلبى .

(٣) ورواية الغزالى : لا يسدها إلا خلف منه . الثلم : الكسر . والثلمة بالضم فرجة المكسور والمهدوم .

(٤) نسب الغزالى بيتين من هذه الأبيات لعلى بن أبى طالب . أنظر الاحياء : ١ : ٧ وروى أبو طالب المكى البيتين الرابع والخامس للحسن بن على وقال : ورويناه أيضاً عن على . وأنشد ابن عبد البر بعضها وقال وهو مشهور له وسمعت غير واحد ينشدها له .

وقال أبو الأسود الدؤلى[١] : ليس شىء أعز من العلم ؛ الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك .

وقال على : قيمة كل آمرىء ما يحسنه .

وقيل لبزرجمهر : العلم أفضل أم المال ؟ قال : بل العلم . قيل : فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء ، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء ؟ فقال : ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الأغنياء بفضل العلم .

وقيل لبعض الحكماء : لم لا يجتمع العلم والمال ؟ قال : لعز الكمال .

وقال ابن المعتز فى منثور الحكم : العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلا ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً . وهذا صحيح ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه [وعنهم] انحراف المعاندين ، لأن من جهل شيئاً عاداه[٢]

قال الله سبحانه وتعالى : « **بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه** »[٣] وقا : « **واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم** »[٤] .

ولذلك قال يحى بن خالد لابنه : يا بنى عليك بكل نوع من العلم فإن المرء عدو ما جهل ، وأنا أكره أن تكون عدو الشىء من العلم .

---

(١) هو أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان . وقيل اسمه عثمان . كان من القراء . قرأ على ابن أبى طالب رضى الله عنه . وسئل عن علمه بالنحو فقال : لقنت حدوده من على بن أبى طالب . قال ابن سلام : أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدئلى . قال : وكان رجل أهل البصرة وكان علوى الرأى . واستعمله أمير المؤمنين على بن أبى طالب على البصرة وولى القضاء بها فى ولاية عبد الله بن العباس . مات بالبصرة سنة تسع وستين وهو ابن خمس وثمانين سنة .

(٢) الخبر فى ادب الدنيا والدين : ٢٤ وما بين القوسين زيادة منه .

(٣) يونس : ٣٩ (٤) الأحقاف : ١١

وينشد :

تفنن وخذ من كل علم فإنما يفوق امرؤ فى كل فن له علم
فأنت عدو للذى أنت جاهل به ولعلم انت تتقنه سلم

وسئل ابن المبارك[١] : من الناس ؟ فقال : العلماء .

قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد

قيل : فمن السفلة ؟ قال : [الذين يأكلون الدنيا بالدين][٢] ولم يجعل غير أهل العلم من الناس .

وقال بعض الحكماء : ليت شعرى أى شىء أدرك من فاته العلم ، وأى شىء فات من أدرك العلم .

وقال فتح الموصلى : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت ؟

قالوا : بلى . قال : كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة ثلاثة أيام يموت . ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبه حياته كما أن غذاء الجسم الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل أحساسه ، كما أن غلبة الخوف قد تبطل إحساس ألم الجرح فى الحال وإن كان واقعاً ؛ فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسر تحسراً عظيما ثم لا ينفعه ، كذلك كإحساس المفيق من سكر بما أصابه من الجراحات فى حالة السكر أو الخوف ، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الحنظلى التميمى المروزى مولاهم . كان ابوه تركياً واسمه خوارزمية . وكان من كبار الحفاظ . جمع الفقه والأدب والنحو واللغة والشعر والزهد والفصاحة والانصات والورع وقيام الليل والعبادة والحج والغزو والفروسية والشجاعة والشدة فى بدنه وترك الكلام فيما لا يعنيه وقلة الخلاف على اصحابه .. وهكذا لعمرى كمال الرجال . ولد سنة ١١٨ وتوفى سنة ١٨١ هـ .

(٢) تصويب من إحياء علوم الدين وفى نسخ القناطر : قال : الذى يأكل بالدين .

وأنشد يقول[١] :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور

وإنّ آمرءاً لم يَحْيَ بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور

وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : خُير سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال : أيها الناس ، عليكم بالعلم ، فإن لله سبحانه رداء يحبه ، فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه ، فإن أذنب ذنباً أستعتبه لئلاً يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب .

وعن الأحنف بن قيس قال : كاد العلماء أن يكونوا أرباباً ، فكل عز لم يؤكده علم فإلى ذل يصير .

وفى وصايا لقمان لابنه قال : يابنى : جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل[٢] السماء

وقال بعض العلماء : إذا مات العالم بكى عليه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره .

قال[٣] : ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى : تصدقوا علينا بما لايتعب ضرساً ولايسقم نفساً . فأخرج له طعامٌ ونفقةٌ فقال : فاقتى إلى كلامكم أشد من حاجتى إلى طعامكم ،

---

(١) اورد الماوردى هذين البيتين فى كتاب الدنيا والدين ص ٢٥ وقال : وانشدت لبعض اهل هذا العصر ولم يصرح باسم قائلهما .

(٢) الوابل : المطر الشديد الضخم القطر .

(٣) أى الماوردى : وهذا النص فى أدب الدنيا والدين ص ٢٥ .

إنى طالب هدى لاسائل ندى . فأذن له العالم وأفاده من كل ماسأل فخرج جذلان فرحاً وهو يقول : علم أوضح لبساً[١] خير من مال أغنى نفساً .

فصل

أما فضل العلم من جهة المعانى والعقل .

أما من جهة المعانى فوجوه كثيرة أيضاً ، وذلك أن الله سبحانه قال فى كتابه : « **قل متاع الدنيا قليل** »[٢] . فقللها وصغرها مع أن العقلاء والناس عليها يقتتلون كل القتال ، وفيها يتنافسون كل التنافس . وعظم العلم وجعله خيراً كثيراً ، فإذا كان هذا القليل الفانى يتنافس فيه الناس هذا التنافس . ويقتتلون عليه هذا القتال ، ويطلبونه هذا الطلب ، فهذا المعنى الذى شرفه الله وعظمه وجعله خيراً كثيراً أولى بالتنافس فيه وشدة الحرص عليه والطلب له ، إذ فيه عز الدنيا والآخرة . ولا يتوصل إلى معرفة الطاعة والمعصية إلا بالعلم .

والدليل على فضل العلم من جهة العقل أيضاً : أن العلم سبب سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة ؛ أما فى الدنيا : فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الإحترام فى الطباع ، حتى أن أغنياء جهال العرب والعجم يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لمشايخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة ، بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتميز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها .

وأما فى الآخرة : فمعلوم أن العلم هو وسيلة للسعادة الأبدية ، وذريعة[٣] إلى القرب من رب العالمين . وأعظم الأشياء فى حق الآدمى ماهو وسيلة إلى ذلك . ولن يتوصل إلى القرب

---

(١) لبس عليه الأمر يلبسه : خلطه ، وأمر ملبس وملتبس : مشتبه .
(٢) النساء : ٧٧
(٣) تذرع : توسل . والذريعة : الوسيلة .

منه عز وجل إلا بالعمل والعلم ، ولا يتوصل إلى كيفية العمل إلا بالعلم ، فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال .

وقد سئل ابن المبارك عن الناس فقال : العلماء . ولم يجعل غيرهم من الناس[١] ، لأن الخاصية التى بها يتميز الإنسان عن سائر البهائم هى العلم . فقيل للانسان إنسان بما هو شريف من أجله ، وليس ذلك بقوة شخصه فإن الجمل أقوى منه ، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا بكثرة الأكل فإن الثور أوسع بطنا منه ، ولا بقوة شهوة الجماع فإن أخس الطيور أقوى سفادا[٢] منه ، بل لم يخلق إلا للعلم وبالله التوفيق .

وأما من جهة المحسوس : فإن هذه الصنائع كلها التى جعل الله فيها قوام النفوس والأبدان : من بناء وحراثة وخياطة إلى غير ذلك من أسباب المنافع لو جهل الناس ذلك كله لاختل أمرهم ومعاشهم وانعدمت المنافع وهلك الجميع .

ثم رأينا هذا الإنسان العالم بالصنعة يكتسب منها الخير ويجلب منها منافع كثيرة ، والجاهل بالصنعة لا يجلب منفعة ، قد تعطل من جميع المنافع ، وضاع واحتاج واختل أمر عيشه ودينه فلا يستوى من علم شيئاً مع من جهله .

قال الله تعالى : « **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** »[٣] .

وأيضاً فإن الكلب المعلم قتله للصيد ذكاة له وإباحة لأكله ، وغير المعلم يجيف الصيد ويفسده فيحرم أكله . وكذلك العالم إنما تصح عبادته بعلمه ، والجاهل لا تصح عبادته لأنه عمل بالجهل فأجاف العبادة وأفسدها ، كما أن الكلب غير المعلم أجاف الصيد وأفسده فحرم أكله ، وغير ذلك من المعانى المحسوسة فى فضل العلم كثير وبالله التوفيق .

---

(١) راجع الخبر فى ص ٧٢ .

(٢) سفد سفاداً : نزا الذكر ووثب على الأنثى .

(٣) الزمر : ٩

الباب الثانى

فى فضل التعلم والتعليم

وفى هذا الباب فصلان :

الأول : فى فضل التعلم :

أما الآيات فقد قال الله سبحانه : « **وماكان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** »(١) . وذلك فيما وجدت فى الأثر أن الناس فى عهد النبى عليه السلام يخرجون جميعاً فى الجهاد. فنزلت هذه الآية حثاً منه تعالى فى التعلم أن يقيم بعضهم ، ويغزوا بعضهم ، فتقدم الغزاة. فيخبرهم القاعدون بما أحدث الله على نبيه عليه السلام . وذلك قوله تعالى : « ليتفقهوا فى الدين » الآية .

وقال تعالى أيضاً : « **فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** »(٢) .

وأما الاحاديث الواردة فى التعلم فكثيرة كقوله عليه الصلاة والسلام من طريق جابر ابن زيد عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أطلبوا العلم ولو بالصين »(٣) والصين أقصى بلاد التوحيد . فلما أوجب طلب العلم ولو بالصين دل أن طلبه فيما دون ذلك آكد وأوجب .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٢ وفى الأصل : قال الله سبحانه : وما كان المؤمنون لينفروا كافة الى قوله ولينذروا قومهم الآية . » وقد آثرت أن أكتبها جميعاً كما ترى .

(٢) النحل : ٤٣

(٣) مسند الربيع بن حبيب الباب الرابع . فى العلم وطلبه وفضله ، رواه الربيع عن أبى عيينة عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك. وثبوت هذا الحديث من هذا الطريق يقضى بصحته وعلو سنده =

ومن طريقه[١] عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا لما يطلب » . قال الربيع عن أبي عبيدة رحمهما الله : وضع الأجنحة بدل من رفع الأيدى فى الدعاء .

ومن طريق أبي هريرة عنه عليه الصلاة والسلام قال : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقا إلى الجنة »[٢] .

وعنه عليه الصلاة والسلام من طريق جابر بن زيد أنه قال : « من تعلم العلم لله عز وجل وعمل به حشره الله يوم القيامة آمنا ويرزقه الورود على الحوض »[٣] .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « لان تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة »[٤] .

= وقد رواه ابن عبد البر وحده من حديث عبيد بن محمد عن ابن عيينة عن الزهرى عن أنس مرفوعاً. ورواه البيهقى فى المدخل والشعب وقال : متنه مشهور وأسانيده ضعيفة ! والخطيب فى الرحلة وغيرها والديلمى كلهم من حديث أبي عاتكة طريف بن سلمان وهو من الوجهين ضعيف عندهم . وأفرط ابن الجوزى حيث ذكره فى الموضوعات وكذا ابن حبان فى قوله أنه باطل لا أصل له . أنظر شرح الجامع الصحيح للشيخ عبد الله بن حميد السالمى رحمه الله جـ ١ : ص ٤٢ . ط . الأزهار البارونية سنة ١٣٢٦ بالقاهرة .

(١) أى من طريق أنس بن مالك . مسند الربيع . الباب الرابع . وأخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال .

(٢) اخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . وأخرجه ابن حبان فى صحيحه ١ : ٨٣ باللفظ الذى ذكره به المصنف وفيه زيادة : ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . ورواه كل من أبي داود والحاكم كذلك .

(٣) أخرجه الربيع بن حبيب فى مسنده الباب الرابع . ما جاء فى فضل طلب العلم : من حديث أبي هريرة . ولفظه : « ويرزق الورود على الحوض . »

(٤) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي ذر . والحديث عند ابن ماجة بنحو آخر .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها »(١) .

وعنه عليه السلام قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم بالغ » .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « العلم خزائن ومفاتحه السؤال فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل والعالم والمستمع والمحب لهم »(٢) .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « لا ينبغى للعالم أن يسكت عن علمه »(٣)

وفى حديث أبى ذر : « حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وعيادة ألف مريض ، وشهود ألف جنازة . فقيل يارسول الله : ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم »(٤) .

وعنه عليه الصلاة والسلام قال : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين الانبياء فى الجنة درجة واحدة »(٥) .

وأما الآثار : فروى عن أبى الدرداء أنه قال : لان أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة .

---

(١) ابن حبان فى روضة العقلاء ، وابن عبد البر موقوفاً على الحسن البصرى . قال ابو الفضل العراقى : ولم اره مرفوعاً إلا بلفظ « خير من مائة ركعة » رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف من حديث ابى ذر .

(٢) رواه ابو نعيم من حديث على مرفوعاً باسناد ضعيف .

(٣) هذا الحديث شطر من الحديث الشريف « لا ينبغى للجاهل ان يسكت على جهله ولا للعالم ان يسكت على علمه » . الطبرانى فى الأوسط وابن مردوية فى التفسير وابن السنى ، وابو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف .

(٤) قال ابو الفضل العراقى فى هذا الحديث : ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث عمرو ولم اجده من طريق ابى ذر .

(٥) اخرجه الدرمى وابن السنى فى رياضة المتعلمين من حديث الحسن ، فقيل هو ابن يسار البصرى فيكون مرسلا .

وقال أيضاً : العالم والمتعلم شريكان فى الاجر ، وسائر الناس همج لاخير فيهم .

وقال أيضاً : كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ، ولا تكن الرابع فتهلك .

وقيل لكسرى أنوشروان : ما بالكم لا تستفيدون من العلم شيئاً إلا زادكم عليه حرصاً ؟ فقال : لانا لانستفيد منه شيئاً إلا آزددنا بعظم منفعته علما . قيل : مابالكم لا تأنفون من التعلم من كل أحد ؟ قال : لعلمنا أن العلم نافع من حيث أخذ .

وعن سعيد بن جبير(١) قال : كنت عند ابن عباس جالساً إذا أتاه أهل التفسير فسألوه ، وأتاه أهل القرآن فقرؤا عليه فأخذ عليهم بالإعراب ، ثم جاءه أهل الحلال والحرام فسألوه . ثم جاءه أهل الشعر والعربية فسألوه فأخبرهم . حتى جاءه قوم من أهل فارس فسألوه عن رستم واستبنديار فأخبرهم بحديثهم ، فقمت إليه فقبلت رأسه وقلت : يا ابن عم رسول الله عليه السلام ما على الأرض أعلم منك . فتبسم .

وعن ابن عباس قال : ذللت طالباً فعززت مطلوباً .

وعن محمد بن كعب(٢) القرظى قال : سمعت ابن عباس يقول : والله لربما مررت بالآية من كتاب الله عز وجل فى جوف الليل فلا أعرف فيمن أنزلت، فآخذ ثوبى ثم آتى

---

(١) سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الكوفى كان مولى أسوداً لبنى والبة من بنى أسد ، وكان كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود حينما كان على قضاء الكوفة ، ثم كتب لأبى بردة بن أبى موسى . ثم خرج مع ابن الأشعث فى جملة القراء فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى مكة ، فأخذه خالد القسرى بعد مدة وبعث به إلى الحجاج بواسط فقتله صبراً سنة ٩٥ هـ وكان فقيهاً عابداً ورعاً . كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول : أليس فيكم ابن أم الدهماء ؟ يعنى سعيد بن جبير .

(٢) هو أبو حمزة محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظى المدنى حليف الأنصار كان أبوه من سبى قريظة وأمه من بنى النضير روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يخرج من الكاهنين رجل يكون أعلم الناس بكتاب الله » . فكانوا يقولون هو محمد بن كعب لأن أباه من قريظة وأمه من بنى النضير وهما اى قريظة وابن النضير المراد بالكاهنين . ذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من تابعى اهل المدينة . وكان محمد ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً . توفى سنة ثمان ومائة و[illegible] .

المسجد وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوقظ الرجل منهم وأسأله فيمن نزلت آية كذا وكذا فإن لم أجد عند واحد منهم أتيت آخر كذلك حتى أمر عليهم جميعاً ، وربما غدوت عليهم فأمر بالمهاجرين فأسألهم فإن لم أجد عندهم أتيت الأنصار فأتبعهم رجلا رجلا حتى أجد حاجتى .

وكان فيما بلغنا ينام على أبواب الصحابة فى الهواجر[1] حتى تلفح وجهه للتعلم منهم ، وكان له قلب عقول ولسان سئول حتى فاق أهل زمانه علما وفقها ، ويسمونه البحر لما فيه من كثرة فنون العلم . ويقال إنه قعد ذات يوم مع أصحابه فقال لهم : اسألونى ما دون السماء السابعة والأرضين السفلى فأخبركم به . ولذلك قال ابن أبى مليكة : ما رأيت مثل ابن عباس ، إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها ، وإذا تكلم فأعرب الناس لساناً ، وإذا أفتى فأكثر الناس علماً . ولما مات قال جابر بن زيد : اليوم دفن ربانى هذه الأمة .

وقال بعض العلماء . تعلموا ، فإذا تعلمتم فاعملوا وعلموا .

وقال : إذا تعلمتم علما فاكظموا[2] عليه ولا تخلطوه بضحك ولا بباطل فتمجه[3] القلوب . وقال بعض العلماء لبنيه : تعلموا العلم . فإن لم تنالوا به فى الدنيا حظا ، فلأن يذم الزمان لكم خير من أن يذم بكم .

وعن الأصمعى أنه قال : رآنى أعرابى فى البادية وأنا أطلب العلم فقال : يا أخا الحضر : عليك بلزوم ما أنت فيه فإن العلم زين فى المجالس ، وصلة للاخوان ، وصاحب فى الغربة ، ودليل على المروءة ، ثم أنشأ يقول شعراً[4]:

---

(١) الهجير والهجيرة والهجر والهاجرة : نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر ، او من عند زوالها إلى العصر لأن الناس يستكنون فى بيوتهم وهى شدة الحر ايضاً . والهواجر جمع . ولفحته الهواجر : احرقته .

(٢) كظم : رد وحبس ، واغلق . وكظم بالضم : سكت .

(٣) تمجه : تعافه وترميه .

(٤) قائل هذين البيتين رجل من قيس كما فى لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص ٢٢٨ وبعدهما :

ولا ترض من عيش بدون ولا يكن نصيبك لمرث قدمته الأوائل

تعلم فليس المرء يولد عالما ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا آلتفت عليه المحافل

الأبيات المشهورة .

قال : ورآنى أعرابى أكتب كل ما أسمع فقال . ما أنت إلا الحفظة تكتب لفظ اللفظة . قال : ورآنى أعرابى آخر وأنا أكتب كل ما أسمع فقال : أنت حتف الكلمات الشاذة .

قال بعضهم : رأى أعرابى رجلا من قريش يطلب الأدب فقال له : اطلب الأدب فإنه دليل على المروءة وزيادة فى العقل ، وصلة فى المجلس . وأنشد شعراً :

من كان للدهر خدناً فى تصرفه ... أهدت له صفوة الأيام تجريبا
من كان خلوا من الآداب سربله ... كر الليالى والأيام تدريبا

ويقال : الأدب نوعان ، أدب درس وأدب نفس وهو أفضلهما وأنشد :

أدب المرء كلحم ودم ... ما حواه جسد إلا صلح
لو وزنتم بأديب واحد ... ألف ألف من ذوى الجهل رجح

فصل

ويروى أن النبى عليه الصلاة والسلام جاءه رجل من مراد يقال له صفوان بن غسال المرادى . وهو متكىء على برد له أحمر فى المسجد فقال له يا رسول الله : جئت أطلب العلم . فقال : « مرحبا يا طالب العلم . إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتكنه

بأجنحتها يركب بعضهم بعضا حتى تبلغ قوائم العرش ، يستغفرون له ويصلون عليه ويترحمون عليه لفرحهم بما يطلب صلوات الله عليهم » (١) .

أبو أمامة الباهلى عنه عليه الصلاة والسلام قال : « يا أيها الناس عليكم بالعلم قبل أن يرفع وقبل أن يقبض . فالعالم والمتعلم كهذه وهذه — وجمع بين أصبعيه الوسطى والتى تليها — شريكان فى الأجر والخير معاً ،ولا خير فى سائر الناس معهما بل بعدهما . » (٢)

وعنه عليه السلام قال : « من خرج من بيته يريد مسجدى هذا لا يريد إلا ليتعلم خيراً أو يعلمه كان كمنزلة المجاهد فى سبيل الله » . (٣)

قال : وسمعنا عنه عليه السلام أنه كان يقول : إن الموت إذا جاء طالب العلم على هذه الحالة مات شهيدا» . (٤)

وعنه عليه السلام قال : « كونوا علماء صالحين ، فإن لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى » (٥)

وعن معاذ بن جبل (٦) أنه قال فى التعلم والتعليم ، ويقال أنه مرفوع إلى النبى صلى

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ، ورجاله رجال الصحيح .

(٢) جامع بيان العلم وفضله ج ١ : ٢٨ .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبيرعن سهل بن سعد وفى سنده يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه البخارى وابن حبان وضعفه النسائى وغيره واستندوا فى تضعيفه إلى أنه محدود وسماعه صحيح .
مجمع الزوائد ج ١ : ١٢٣ وانظر سنن ابن ماجة ج ١ : ٥١ وجامع بيان العلم ج ١ : ٣٣ .

(٤) جامع بيان العلم وفضله ج ١ :٣١ رواه البزار عن أبى هريرة وأبى ذر

(٥) أورده الماوردى فى كتاب أدب الدنيا والدين : ٣٢

(٦) ابو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو الأنصارى الخزرجى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام . قال كعب بن مالك : كان شابا جميلا سمحاً من خير شباب قومه شهد المشاهد كلها وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أحاديث . شهد بدرا وهو ابن احدى وعشرين سنة ، وأمره النبى صلى الله عليه وسلم على اليمن وقال له لما ودعه : « حفظك الله من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك ومن تحتك =

الله عليه وسلم أنه قال : (١) « تعلموا العلم ، فإنه تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة والدليل [على الدين ، والمصبر] على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع بالله تعالى أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة [سادة] هداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير تقتفى آثارهم ، وترمق أعمالهم ، ويقتدى بفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتها تمسحهم ، كل رطب ويابس يستغفر لهم ، حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ؛ لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلمات ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار [ومجالس الملوك] (٢) والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته تعدل بالقيام به يطاع عز وجل وبه يعبد وبه يوحد ، وبه يحمد ، وبه توصل الأرحام ويعرف الحلال والحرام . هو إمام والعمل تابعه ، يلهمه الله تعالى السعداء ، ويحرمه الأشقياء » . (٣)

= وأدرأ عنك شرور الإنس والجن . وقال الشعبي عن مسروق كنا عند ابن مسعود فقرأ: إن معاذاً كان أمة قانتا لله . فقال فروة بن نوفل : نسيت . فقال ما نسيت ، إنا كنا نشبهه بإبراهيم عليه السلام . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ، ولولا معاذ لهلك عمر . وكان أعلم الصحابة بالحلال والحرام . وفى مرسل أبى عوف الثقفى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يأتى معاذ يوم القيامة أمام الناس برتوة » .

ومناقبه كثيرة جداً ، وقدم من اليمن فى خلافة أبى بكر ، وكانت وفاته بالطاعون فى الشام سنة سبع عشر أو التى بعدها .

(١) فى مسند الربيع بن حبيب : عن جابر بن زيد قال صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم فإن تعلمه قربة لله عز وجل وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ولأن العلم لينزل بصاحبه موضع الشرف والرفعة والعلم زين لأهله فى الدنيا والآخرة . » ورواه الغزالى كما تجده هنا بطوله وقال أبو الفضل العراقى فى تخريجه : رواه ابو الشيخ بن حبان فى كتاب الثواب وابن عبد البر وقال : ليس له إسناد قوى .

(٢) زيادة فى نسخ القناطر فقط .

(٣) راجع : جامع بيان العلم : ١/٥٥ ، الاحياء ١/١١ ، وقوت القلوب ١/٢٧٣ .

الفصل الثاني

في بيان فضل التعليم من الكتاب والسنة والآثار

أما الآيات : قال الله تعالى : « **ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم** » . (١) والمراد بذلك هو التعليم والإرشاد . وقال الله تعالى : « **واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه** » (٢) . في هذه الآية إيجاب التعليم . وقوله عزّ وجل : « **وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** » (٣) . وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى في الشهادة : « **ومن يكتمها فانه آثم قلبه** » (٤) . وقال سبحانه وتعالى : « **ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا** » (٥) . وقال تعالى : « **ويعلمهم الكتاب والحكمة** الآية » (٦) . وقال تعالى : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة** » (٧) .

وأما الأحاديث : فروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما آتى الله سبحانه عالما علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذه على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه » (٨) .

وعنه عليه السلام لما بعث معاذاً إلى اليمن قال : « لأن يهدى الله سبحانه بك رجلا واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » (٩) .

---

(١) التوبة : ١٢٢

(٢) آل عمران : ١٨٧

(٣) البقرة : ١٤٦

(٥) فصلت : ٣٣

(٦) آل عمران : ١٦٤ وتلاوة الآية : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

(٧) النحل : ١٢٥

(٨) رواه أبو نعيم من حديث ابن مسعود بنحوه ، وفي الخلعيات نحوه من حديث أبي هريرة .

(٩) أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وفي الصحيحين من حديث سهل بن معاذ أنه قال ذلك لعلي .

وقال عليه السلام فيما حكى عنه : « من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صدِّيقاً » (١) .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : « من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السموات والأرض » (٢) .

وعن النبى عليه السلام أنه قال : « إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل للعابدين والمجاهدين أدخلوا الجنة . فيقول العلماء : بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا . فيقول الله عز وجل أنتم عندى كبعض ملائكتى اشفعوا تُشفعوا ، فيشفعون ثم يدخلون الجنة »(٣) . وهذا إنما يكون بالعلم المتعدى بالتعليم لا العلم اللازم الذى لا يتعدى » (٤).

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إن الله لا ينتزع العلم انتزاعا ، ينتزعه من الناس بعد أن يؤتيهم إياه ، ولكن يُقبض العلم بقبض العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم ، فيضلون ويضلون » (٥) .

وعنه عليه السلام قال : « من كتم علما علمه الله إياه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (٦) .

---

(١) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف .

(٢) احياء علوم الدين ١ : ١٠

(٣) أخرجه ابو العباس الذهبى فى العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٤) فى نسخة القناطر قال : وهذا انما يكون للعالم المتصدى للتعليم لا اللازم الذى يتصدى . وهو تحريف ظاهر لما اثبته هنا من احياء علوم الدين ١ : ص ١٠

(٥) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو .

(٦) رواه ابو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابى هريرة ، قال الترمذى : حديث حسن .

وعنه عليه السلام : « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتنطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة » (١) .

وعنه عليه السلام أنه قال : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير » (٢) .

وعنه عليه السلام قال : « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أحسن من حديث حسن بلغه فبلغه إياه » . (٣)

وعنه عليه السلام قال . « كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها خير له من عبادة سنة » (٤)

وروى أنه — عليه السلام — خرج ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، والثانى يعلمون الناس ، فقال : « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما . ثم عدل إليهم فجلس معهم » (٥) .

وعنه عليه السلام أنه قال : « مثل ما بلغنى بل ما بعثنى الله عز وجل به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله سبحانه به الناس فشربوا

---

(١) اخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس نحوه باسناد ضعيف .
(٢) اخرجه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال : غريب ، وفى نسخة : حسن صحيح .
(٣) اخرجه ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسلا نحوه .
(٤) اخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق من رواية زيد بن اسلم مرسلا نحوه ، وفى مسند الفردوس من حديث ابى هريرة بسند ضعيف : « كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة » .
(٥) أخرجه ابن ماجة من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف .

منها وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة قيعان (١) لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ » (٢) فالأول ذكره مثلا للمنتفع بعلمه ، والثانى للنافع ، والثالث للمحروم منه .

وعنه عليه السلام قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به الحديث » .(٣)

وعنه عليه السلام قال : « الدال على الخير كفاعله » .(٤) وقال صلى الله عليه وسلم: « على خلفائى رحمة الله » ، قيل : ومن خلفاؤك ؟ قال : « الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله » (٥)

وعنه عليه السلام أنه قال : « لا تمنعوا العلم أهله فإن فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرأ (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى الآية) .

وعنه عليه السلام قال : « إذا ظهرت البدع فى أمتى فعلى العالم أن ينشر علمه فإن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وينشد :

النطق ينهض بالفتى مالم يكن عى يشينه
والعلم أجمل بالفتى من كل منفعة تزينه

---

(١) قيعان : جمع قاع ، وهو الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال .
(٢) متفق عليه من حديث أبى موسى .
(٣) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .
(٤) أخرجه الترمذى من حديث أنس وقال : غريب . ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى مسعود البدرى بلفظ : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » .
(٥) رواه ابن عبد البر فى العلم ، والهروى فى ذم الكلام من حديث الحسن فقيل هو ابن يسار فيكون مرسلا . ولابن السنى وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث على نحوه .

وأما الآثار : فروى عن عمر بن الخطاب أنه قال : من حدث بحديث فعمل به فله مثل أجر ذلك العمل . وعن ابن عباس رضى الله عنه : معلم الخير يستغفر له كل شيء ، حتى الحوت فى البحر .

وقال بعض العلماء : العالم يدخل [فيما] بين الله تعالى وبين خلقه فلينظر كيف يدخل.

وقال عطاء : دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكى فقلت له ما أبكاك ؟ قال : ليس أحد يسألنى عن شيء . وقال بعض السلف : العلماء سرج الأزمنة ، كل واحد منهم مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره . وقال الحسن : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم. يعنى يخرجون الناس بالتعليم من حد البهيمة إلى حد الإنسانية .

وقال بعض مشايخنا رحمهم الله : من مشى إلى العالم فإنه يوزن له سبعة أميال من ستة جهات ، فإن مات فى ذلك مات شهيداً . قال : والنفقة فى طلب العلم أفضل من النفقة فى الجهاد . وقال : والنظر فى الكتاب عبادة . قال : وإن وقف له حرف فكان فى ترديده فإنه فى ذلك الوقت كالمتشحط بدمه فى سبيل الله ، ونفسه فى ذلك الوقت تسبيح وتقليبه الورقات كالمتقلب من نزعة إلى نزعة فى سبيل الله .

وحكى عن عكرمة قال : إن لهذا العلم ثمناً . قيل وما هو ؟ قال : أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه . وعن يحيى بن معاذ قال : العلماء أرحم بأمة محمد عليه السلام من آبائهم وأمهاتهم . قيل : كيف ذلك ؟ قال : لأن آبائهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة . وبالله التوفيق .

فصل

وينبغى للانسان بل يجب عليه فرضاً أن يتعلم دينه؛ لأن بمعرفة دينه والعمل به يستوجب الرضوان من ربه ، وبجهله يستوجب النيران من خالقه ؛ إذ لا تصح عبادة وفاعلها يجهل

صفة أوانها ولم يعلم شروط إجزائها . ولذلك قام عليه السلام : « عمل قليل فى علم خير من عمل كثير فى جهل »[١] . ويقال : ركعتان من عالم أفضل من عبادة الجاهل سنة ، ومسألة من عالم خير من عبادة الجاهل سنة .

وذكر عن أبى محمد خصيب بن إبراهيم[٢] رحمه الله أنه اجتاز على معلم فى بلد تنومات[٣] وهو يريد التعلم عند أبى الربيع سليمان اللالوتى[٤] رحمه الله ، فقال له المعلم أين تريد ؟

---

(١) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١/٤٥ عن أنس بن مالك : بلفظ : إن قليل العمل ينفع مع العلم ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل » . وقال : وقد روى مثل هذا عن عبد الله بن مسعود أيضاً بإسناد ضعيف .

(٢) أبو محمد خصيب بن ابراهيم نشأ فى (تمصمص) وهى مدينة كانت تقع جنوب طمزين من قرى نفوسة متصلة بها ، كان أبو محمد من أكابر علماء القرن الرابع وتخرج عليه عدد غير قليل من العلماء القطاحل . وفى مدرسته درست أم ماطوس وهى أول فتاة ليبية تشترك فى مدرسة للفتيان وكانت تأتى الى هذه المدرسة من قريتها (جار لصرا) كل يوم . وأخذ أبو محمد العلم عن العالمين الكبيرين أبى يحى زكريا الفرسطائى وأبى الربيع سليمان بن هارون اللالوتى .

(٣) تنومات : مدينة كانت غرب (تالات) مما يسمى اليوم (الحوامد) ولا تزال آثارها حول ربوة عالية ، وعلى قمة الربوة لاتزال أطلال المسجد الذى كان عامراً بالعلم والدين فأصبح أثراً بعد عين .

وأنظر هذه الحكاية فى السير للشماخى ص : ٣١٣ — ٣١٤ . المطبعة البارونية .

(٤) أبو الربيع سليمان بن هارون اللالوتى ، علم من أعلام القرن الثالث ، ومرب قدير نادر المثال . تخرج عليه عدد غير قليل من العلماء وأنشأ أجيالا . وكان قد سلك فى تدريسه طريقة يعتبرها المربون اليوم من مميزات العصر الحديث ، وذلك أنه كان يقوم بالرحلات مع طلابه لدراسة البيئات المختلفة ، ولتتهيأ له الفرصة لدراسة نفسياتهم فى حالتى الإقامة والسفر حتى يعد كل واحد منهم لما يناسب طبيعته وميوله . قتله بنو تيجن هو وطلابه فى إحدى تلك الرحلات طمعاً فى الغنيمة ، ولم يتجاوز عمره السابعة والعشرين عليه رحمة الله . وقد طبقت شهرته الآفاق ، وملأت أقواله كتب الفقه . أخذ العلم عن أبى هارون موسى بن يونس الجلالى وغيره .

واللالوتى نسبة الى بلدة (لالوت) بلد العلم والأشياخ كما وصفها صاحب السير . وهى أكبر قرى جبل نفوسة وما حوله فى هذا الوقت عامرة بالإباضية ويليها غرباً على مسافة مرحلة قرية (وازن) وهى الحد الفاصل بين ليبيا وتونس . وتجدها على خريطة ليبيا (نالوت) بالنون ولا يزال أهلها ينطقونها باللام . وقد ضربت مثلا رائعاً فى الجهاد الإسلامى فى حرب الإيطاليين وفى صد الفرنسيين بقيادة الشهيد المرحوم خليفة بن عسكر الذى حمل أعباء الجهاد فى الناحية الغربية من طرابلس مع المرحوم الشيخ سليمان الباروني . وقد أعدمته ايطاليا شنقاً فى مدينة الزاوية . ولا يزال فى أهلها فضل وخير كثير ، وتمسك بالفضائل الإسلامية .

فأخبره ، فقال له : جَيِّدٌ يابنى جيد ، الدنيا كلها ظلمة إلا العلم ،والعالم فيها دليل . ركعتان من عالم خير من عبادة الجاهل ستين سنة ، وعبادة الجاهل كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح .

وقال بعض مشايخنا رحمهم الله: من لم تكن فيه خصلة من خصال ثلاث فحياته كسائر الناس والبهائم ، توطين النفس على الحج كفعل جابر بن زيد رحمه الله واظب عليه حتى حج أربعين حجة(١) . وتوطين النفس على الشراء فى سبيل الله كفعل أبى بلال مرداس ابن جدير رحمه الله . والثالثة توطين النفس على طلب العلم وإفادته كفعل أبى عبيدة(٢) مسلم بن أبى كريمة رحمه الله ، مكث فى التعلم أربعين سنة ثم مكث بعد ذلك فى تعليمه أربعين سنة أخرى .

---

(١) سبقت ترجمته ص:٥٨ـ٥٩ . قال أبو سفيان بن الرحيل : كان جابر بن زيد يحج كل سنة فلما كان ذات سنة بعث إليه عامل البصرة أن لا تبرح العام فإن الناس يحتاجون إليك . فقال لا افعل.فسجنه. فلما كان غرة ذى الحجة تشفع فيه أكابر القوم ، فقالوا للعامل : أصلحك الله قد هل هلال ذى الحجة. قال : فأطلقه من السجن فخرج فأتى منزله وناقته حوله فى الدار قد كان هيأها للخروج فأخذ يشد عليها الرحل ويقول : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . يا آمنة أعندك شيء ؟ قالت : نعم . فهيأته فى جرابين . فقال : من سألك فلا تخبريه بمسيرى يومى هذا . فخرج من ليلته وانتهى إلى عرفات والناس بالموقف وقد كان سافر عليها أربعاً وعشرين مرة بين حج وعمرة فلم تك تقطع هذه المسافة البعيدة من البصرة إلى عرفات فى تسع ليال .. وهذا من فضل الله تعالى عليه .

(٢) هو أبو عبيدة مسلم أبى كريمة التميمى كان مولى فيهم ، من كبار التابعين وقد أدرك من أدركه الإمام جابر بن زيد من الصحابة فروايته عن جابر رواية تابعى عن تابعى . أخذ العلم عمن لقيه من الصحابة وعن جابر بن زيد وعن جعفر بن السماك وصحار العبدى وغيرهم ، وأكثر ما حمل عن جعفر وعن صحار وكان من أئمة المسلمين ومن قاداتهم وهو الإمام الثانى للمذهب ، حمل عنه خلق كثير لا يحصى عددهم منهم الربيع بن حبيب صاحب المسند ، وحملة العلم إلى المغرب وهم الإمام الشهيد أبو الخطاب المعافرى والإمام العادل عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية ، وعاصم السدراتى وإسماعيل بن درار الغدامسى وأبو داود القبلى النفزاوى وكان الإمام أبو الخطاب قد جاء من اليمن فوافق الأربعة من أهل المغرب فخرج معهم إلى بلادهم فنصبوه إماماً عليهم عن أمر شيخهم أبى عبيدة ، وعن أمره أيضاً نصب الإمام طالب الحق عبد الله بن يحى الكندى فى أرض اليمن وجمعت إمارته اليمن والحجاز. توفى فى ولاية أبى جعفر ، رحمه الله ورضى عنه .

وروى عن أبى يوسف مجدول التنزغتى[١] أنه مكث فى التعليم بعد ماولد خليل إبنه ثمان عشرة سنة ، ويقال إنه قعد فى طلب العلم إثنين وثلاثين سنة ؛ خمس عشرة سنة عند أبى محمد الكباوى[٢] وسبع عشرة سنة عند أبى محمد الدرفى[٣] . وأن أبا زكريا الجناونى[٤] رحمه الله مكث فى التعليم اثنين وثلاثين سنة والله أعلم .

وقال بعض الحكماء : الناس ثلاثة : قدوة ومقتد والثالث لا يفلح . وقال الأزدى : الناس ثلاثة : عالم مرتفع ، ومتعلم منتفع ، وما سواهما منتقع . وعن على عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما انتعل عبد قط ولا تخفف ولا لبس ثوباً ليغدوا فى طلب علم إلا قد غفر له حيث يخطو عتبة باب بيته » .

---

(١) أبو يوسف مجدول التنزغتى من علماء القرن الرابع ، أخذ العلم عن أبى محمد الكباوى وأبى محمد الدرفى وكان ذكياً كثير المناقشة حتى قال له أستاذه أبو محمد الدرفى وقد أكثر عليه السؤال : ليس لك يا أبا مجدول إلا السؤال ، وقد جمع إلى غزارة العلم ثروة طائلة ومالا وفيراً انتفع به ونفع به الأمة : والتنزغتى نسبة إلى (تنزعت) من مدن الجبل ، تقع شمال جربجن على حافة جبل ، نشأ فيها عدد غير قليل من فطاحل العلماء اشتهر منهم جانا التنزغتى وبناته حتى ضرب بهن المثل فى العلم والصلاح .

(٢) أبو محمد الكباوى واسمه يصليتن ، من علماء القرن الرابع ، درس على أبى هارون الجلالى وأسندت له الفتوى فى جبل نفوسة زمن حكم أبى زكريا التندميرتى وكان مرجعاً يلجأ إليه فى حل المشكلات . والكباوى نسبة إلى (كباو) وهى بلدة كبيرة دون لالوت ، وهى أكثر بلاد الجبل اتفاقاً ، وأحسنها فى العلم وتعمير المساجد بالقرآن والصلاة ، وحسبك أنها أنجبت مفخرة الجبل . بل مفخرة الإسلام فى هذا العصر العلامة المجاهد الكبير المرحوم سليمان باشا الباروني ، ففى هذه البلدة نشأت أسرته .

(٣) أبو محمد الدرفى ، نسبة إلى أدرف ، وهى الآن خراب ، وتقع على مسافة ساعتين تقريباً من (جادو) مما يلى الشرق الجنوبى . واسمه زيد بن أفصت الدرفى . عاش فى النصف الأول من القرن الرابع ، وتولى الحكم على جبل نفوسة فكان مثالا للنزاهة والعدل ، وهو جد عائلة توارثت العلم عدة أجيال .

(٤) هو العلامة أبو زكرياء يحى بن أبى الخير الجناونى ، من العلماء الأجلاء ، وصفه أبو ستة محمد القصبى الجربى بأنه الغاية القصوى فى سائر العلوم ، وله عديد من المؤلفات ، وهو فى مؤلفاته شيق الأسلوب واضح العبارة قوى الحجة ، وكان اعتماد نفوسة على كتبه حفظاً وفتيا على ما فى نفوسة من كتب قيمة ، عاش فى أوائل القرن السادس . ومن كتبه المطبوعة حديثاً كتاب الوضع مختصر فى الأصول والفقه ، وقام بنشره عالم الإباضية المعاصر الشيخ أبو اسحق ابراهيم اطفيش [حفظه الله ونفع به] والجناونى نسبة إلى جناون . إحدى قرى نفوسة المشهورة ، تقع فى منحدر الجبل الذى تتسنم قمته بلدة جادو ، وفيها مسجد العلامة أبى عبيدة عبد الحميد حاكم الجبل أيام بنى رستم .

ويقال : أطلبوا العلم فإن نعمة الجاهل كروضة على مزبلة[١] .

وقال بعض العلماء : كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد فيها قبحاً .

وقال : اطلبوا العلوم من مظانها ، أى من مواضعها التى يظن بها . ويقال : أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره ..وقال : علم علمك من يجهله ، وتعلم ممن يعلم ، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ماعلمت . وقال عطاء : مجلس العلم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو . وقال عمر رضى الله تعالى عنه : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال بعض العلماء : طلب العلم أفضل من النافلة .

وقال أبو الدرداء : من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله .

وقال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها . ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق » .[٢]

وأما الدليل على فضيلة التعلم والتعليم من شواهد العقل ، ومن كتاب الغزالى[٣] : فإنه لما كان العلم أفضل الأشياء كان تعلمه طلباً للافضل ، وكان تعليمه للغير إفادة الأفضل لغيره ، وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة فى الدين والدنيا ؛ لأن الدنيا مزرعة للآخرة ، وهى المطية والآلة الموصلة إلى الله تعالى لمن اتخذها آلة ومطية ، ومنزلا لمن اتخذها مستقرا ووطناً ، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين ، وحرفهم وصناعاتهم تنحصر فى ثلاثة أقسام :

احدها : أصول لاقوام للخلق إلا بها وهى أربعة :

---

(١) نسب الماوردى هذا القول لعبد الله بن المعتز . أدب الدنيا والدين : ٣٥

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٣) لحياء علوم الدين ج ١ : ١٢ ــ ١٣

أحدها : الزراعة للمطعم .

والثانى : الحياكة للملبس .

والثالث : البناء وهو للمسكن

والرابع : السياسة ، وهى للتأليف والإجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .

والثانى : ماهى مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها ، كالحدادة تخدم الزراعة وجملة من [الصناعات باعداد آلاتها] كالحلاجة والغزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها .

الثالث : ماهى متممة للأصول ومزينة كالطحن والخبز للزراعة ، وكالقصارة والخياطة للحياكة وذلك بالإضافة إلى قوام الحيوان الأرضى مثل أجزاء الشخص بالإضافة إليه فإنها ثلاثة : إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ، وإما خادمة له كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين ، وأشرف هذه الصناعات أصولها ، وأشرف أصولها السياسية بالتأليف والاستصلاح ، ولذلك يستخدم لامحالة صاحب صناعة السياسة سائر الصناع .

والسياسة فى استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى فى الدنيا والآخرة تنقسم على أربعة مراتب .

الأولى : وهى العليا ـ سياسة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وحكمهم على الخاصة والعامة فى ظاهرهم وباطنهم .

الثانية : سياسة الخلفاء والملوك والسلاطين على الخاصة والعامة جميعاً لكن على ظاهرهم لا على باطنهم

الثالثة : سياسة العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبيـ وحكمهم على

باطن الخاصة فقط ولا يرتفع فهم العامة إلى الإستفادة منهم ، ولا تنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظواهرهم بالإلزام والمنع [والشرع]

الرابعة : سياسة الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط ، وأشرف هذه السياسات الأربع بعد سياسة النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة المنجية وهو المراد بالعلم .

قال : وإنما قلنا إن هذا أشرف من سائر الصناعات لأن شرف الصناعات يدرك بثلاثة أمور : إما بالالتفات إلى غريزة العقل التى بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية ، إذ تدرك الحكمة بالعقل واللغة بالسمع والعقل أشرف من السمع .

وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة .

وإما بملاحظة المحل الذى فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر [جلد] الميتة . وليس يخفى أن العلوم الدينية وهى فقه طريق الآخرة ، إنما يدرك بكمال العقل ، وصفاء الذكاء ، والعقل أشرف صفات الإنسان كما تقدم ؛ إذ به قبل العبد أمانة الله عز وجل ، وبه يصل إلى جوار الله سبحانه ، وأما عموم النفع فلا يستراب فيه إذ ثمرة منفعته سعادة الآخرة ، أما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على الأرض جنس الإنسان ، وأشرف جزء من شخص الإنسان قلبه ، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من جوار الله سبحانه .

فتعليم العلم من وجه : عبادة لله تعالى ، ومن وجه ، خلافة لله عز وجل وهو أجل خلائفه لأن الله سبحانه قد فتح على قلب العالم خزانة العلم الذى هو أخص صفاته ، فهو كالخازن لأنفس خزائنه ، ثم هو مأذون [له] فى الإنفاق على كل محتاج إليه ، فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه فى تقريبهم إلى الله عز وجل وسياقتهم إلى جنة المأوى[1] وبالله التوفيق .

(١) انتهى ما نقله من كتاب احياء علوم الدين للإمام الغزالى بتصرف يسير .

الباب الثالث

فى فرض العين

اعلم أن كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة ، والإحاطة بجميعها محال ، ولذلك قال النبى عليه السلام : « من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حظه ووضعه فى غير منزلته التى وصفه الله تعالى بها حيث يقول : وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وقال سبحانه : « **ولو انما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله** » .(١)

وقال بعض الحكماء : ولو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بالنقيصة ، ولكنا نطلبه لننتقص كل يوم من الجهل ونزداد كل يوم من العلم .

وقال بعض البلغاء : المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر ؛ ليس يرى أرضاً ولا يعرف طولا ولا عرضاً . وينشد : (٢)

يانفس خوضى بحار العلم أوغوصى ... فالناس مابين معموم ومخصوص

لا شىء فى هذه الدنيا نحيط به ... إلا إحاطة مخصوص بمخصوص

فإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الإهتمام إلى معرفة أهمها ، والعناية بأولاها وأفضلها ، وأولى العلوم وأوجبها على الإنسان علم دينه ؛ لأن الناس

---

(١) لقمان : ٢٧

(٢) البيتان رواهما الماوردى فى أدب الدنيا والدين ٢٦ وقال : وأنشد الرشيد عن المهدى وقال أظنهما له .

بمعرفته يرشدون،وبجهله يضلون لقوله عليه السلام : « طلب العلم فريضة على كل محتلم » وفى حديث آخر : « كل مسلم » وقوله : « أطلبوا العلم ولو بالصين »[١] وفى كتاب الغزالى قال[٢] : اختلف الناس فى العلم الذى هو فريضة على كل مسلم وتحزبوا فيه أكثر من عشرين فرقة . قال : ولا نطيل بذكر التفصيل ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصدده ؛ فقال المتكلمون : هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد وتعلم ذات الله سبحانه وصفاته .

وقال الفقهاء : هو علم الفقه ؛ إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل ، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة . وقال المفسرون والمحدثون : هو علم القرآن والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال بعض المتصوفة : هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل . وقال بعضهم : هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان . وقال بعضهم : هو علم الباطن وذلك على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك ، وصرفوا اللفظ عن عمومه وقال أبو طالب المكى : هو العلم بما يتضمنه الحديث الذى فيه مبانى الإسلام وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس . . »[٣] لأن الواجب هـذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وكيفية الوجوب .

والحق فى هذا أن العلم المفروض على الإنسان الذى هو القطب وعليه المدار هو فى الجملة ينقسم ثلاثة أقسام : إعتقاد وفعل ، وترك .

أما علم الإعتقاد ؛ فهو علم التوحيد وجميع مالا يسع جهله كل عاقل عند حال بلوغه بالإحتلام أو بالسنين . ومعرفة فرائض القلب من الإخلاص والنية والتوبة والخوف والرجاء

---

(١) راجع تخريج هذا الحديث الشريف ص ٧٧ من هذا الكتاب .
(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين ج ١ : ١٤
(٣) قوت القلوب ١ : ٢٦٥

والتوكل والتفويض والرضا والصبر وما يسلم به العمل على ما سيأتى إن شاء الله ، ومعرفة الشرك وماينفى عن الله تعالى مالا يليق به من صفات خلقه إذا وقع ذلك على قلبه أو سئل عنه ، وكذلك يجب عليه معرفة دواعى الشر من الرياء والحسد والعجب والكبر وغير ذلك من مذموم أحوال القلب ، فإزالتها فرض عين ولا يمكن ذلك إلا بمعرفة حدودها وأسبابها ومعرفة علاجها فإن من لا يعرف الشر يقع فيه .

وأما الفعل : فنعنى به فعل الفرائض البدنية كالطهارة والصلاة والصوم والفرائض المالية من الزكاة والكفارات والنفقات وغيرها ، وما لا يمكن فعله منها إلا بالبدن والمال كالحج والجهاد . فهذه الفرائض إذا تعين فعلها على العبد بدخول أوقاتها والتمكن لأدائها وجب عليه معرفة كيفية الإتيان بها ؛ مثل أن يعيش من ضحوة النهار إلى دخول وقت الظهر فيتجدد عليه معرفة الطهارة والصلاة وهكذا بقية الصلوات ؛ فإن عاش إلى رمضان تجدد بدخول وقته تعلم الصوم وهو أن يعلم وقته من الصبح إلى غروب الشمس وأن الواجب فيه النية والإمساك عن جميع ما ينقض الصوم واستكمال طرفى المفترض عنه ، وهو أن يصام لرؤية الشهر ويفطر لرؤيته ، فإن كان له مال عند بلوغه أو دخل فى ملكه مما تجب فيه الزكاة لزمه معرفة ما يجب عليه عند تمام الحول وأدائه إلى أهله ، وكذلك الحج إذا وجب عليه بشروطه ، لكن لا تجب عليه المبادرة عند دخول أشهر الحج لأنه على التراخى فى قول بعضهم فلا يكون عاصيا على الفور ولكن ينبغى للعلماء أن ينبهوه على أن الحج فرض على من ملك الزاد والراحلة ، وحصلت له الإستطاعة بالكمال ، وأنه على التراخى فى قول بعضهم حتى ربما يرى الحزم لنفسه فى المبادرة، فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج وأركانه وواجباته دون نوافله [فإنّ فعل ذلك نفل فعلمه أيضاً نفل](١)

---

(١) فى نسخ القناطر : فإن تعلم ذلك ، وتعلم النفل نفل ، وماأثبته عبارة الغزالى . إحياء علوم الدين ١ : ١٥ .

وكذلك الجهاد إذا تعيَّن عليه ، وذلك بأن يكون إماماً أو منظوراً إليه لا يقوم فرض الجهاد إلا به . وهكذا التدريج فى تعلم سائر الأفعال التى هى فرض عين .

وأما التَّرْك : فنعنى به ترك المعاصى بجميعها ظاهراً وباطناً فيجب عليه تركها ولا تضيق عليه معرفتها ما خلا الشرك فإنه مضيق عليه علمه ولا يسعه جهله ما لم يرتكبه أو يتولَّى من ركبه، أو يتبرأ ممن تبرأ منه أووقف فيه . وهذا معنى قول أصحابنا — رحمهم الله — العلوم ثلاثة : علم لا يسع جهله طرفة عين كالتوحيد والشرك . وعلم يسع جهله إلى الورود ، مثل صفة من صفات الله إذا وردت عليه أو نبى أو ملك قامت به الحجة عليه ومثل الفرائض الموسومات الأوقات كالصلاة والصوم وما قدمنا ذكره . والثالث : علم ما يسع جهله أبداً كقسمة المواريث ودقائق الربا وأرش[1] الجراحات ، وما أشبه ذلك. يسع جهل ذلك ما لم يبتلى بالعمل أو يتقول على الله فيه الكذب . وبالله التوفيق .

وأما إذا أتى بالتوحيد فمات قبل أن يجب عليه فرض أو يرتكب محرماً أو يعتقد بدعة فقد مات على الإسلام إجماعاً . فتبين بما قلنا أن قوله عليه السلام : « أطلب العلم » أن المراد به العلم بالله والإيمان به وملائكته وكتبه ورسله والحشر والجنة والنار فى سائر ذلك من وظائف التوحيد ، والعلم بالعبادات والفرائض حتى تؤدى بالكمال ، والعلم بالمعاصى حتى لا تتمثل ؛ لأن الإنسان فى مجارى أحواله فى يومه وليلته لا يخلو من وقائع فى عبادته ومعاملاته فيلزمه السؤال عن كل ما يقع من النوازل ، والمبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً . فإذن إنما أراد بالعلم المعرف بالألف واللام فى قوله عليه السلام طلب العلم فريضه أنه علم العمل الذى هو مشهور الوجوب على المكلف لا غير ، وقد اتضح [وجه التدريج ووقت وجوبه][2] وبالله التوفيق .

---

(١) الأرش : الدية .

(٢) هذه عبارة الغزالى كما فى الإحياء ١ : ١٦ وقد وردت فى نسخ القناطر هكذا : وقد اتضح وقت التدريج فى وقت وجوبه .

فصل

إعلم أن العلم والعمل جوهران لأجلهما كان جميع ما ترى وما تسمع من تصنيف المصنفين وتعليم المعلمين ، بل لأجلهما خلقت السموات والأرض وما فيهما من الخلق ، بل لأجلهما خلقت الدنيا والآخرة . قال الله سبحانه : « **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا ان الله على كل شىء قدير وان الله قد احاط بكل شىء علما** »(١) . فكفى بهذه الآية دليلا على شرف العلم لا سيما علم التوحيد وقال عز من قائل : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** »(٢) فكفى بهذه الآية دليلا على شرف العبادة ولزومها فأعظم بأمرين هما المقصود من خلق الدارين ، فحق على العبد ألاَّ يشتغل إلاَّ بهما ولا يتعب إلاَّ لهما ولا ينظر إلا فيهما . واعلم أن ماسواهما من الأمور باطل لا خير فيه ولغو لا حاصل له فإذا علمت ذلك فاعلم أن العلم أشرف الجوهريين ، وأفضلهما ولذلك قال عليه السلام . « فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى »(٣)

وعنه عليه السلام قال : « ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة ؟ قالوا : بلى . قال : هم علماء أمتى » .

وعنه عليه السلام أنه قال : « نظرة إلى العالم أحب إلى من عبادة سنة صيامها وقيامها ».

روى هذا الحديث الغزالى فى كتابه . وقد ذكرنا فى فضل العلم ما فيه كفاية فبان لك أن العلم أشرف جوهراً من العبادة ، ولكن لابد للعبد من العبادة وإلا كان علمه هباءاً منثوراً ؛ فإن العلم بمنزلة الشجرة والعبادة ثمرة من ثمارها ، والشرف للشجرة إذ هى الأصل لكن الانتفاع إنما يكون بالثمرة . فإذاً لابد للعبد من كلا الأمرين يكون له منهما

---

(١) الطلاق : ١٢ (٢) الذاريات : ٥٦

(٣) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (١ : ٢١) من حديث أبى سعيد الخدرى.

حظ ونصيب كما قيل عن الحسن البصرى أنه قال : أطلبوا هـذا العلم طلباً لا تضروا بالعبادة ، واطلبوا هذه العبادة طلباً لا تضروا بالعلم .

ولما استقر أنه لابد للعبد منهما جميعاً فالعلم أولى بالتقديم لا محالة لأنه الأصل ، والدليل ، ولذلك قال عليه السلام : « العلم إمام العمل والعمل تابعه » . وإنما صار العلم أصلا متبوعا فيلزمك تقديمه على العبادة لأمرين : أحدهما : لتحصل لك العبادة وتسلم فإنه أحق من يجب أن تعرفه أولا المعبود عز وجل ثم تعبده ، فكيف تعبد من لا تعرفه باسمه وصفات ذاته وما يجب له وما يستحيل عليه فى صفاته عز وجل ؛ لأنه ربما تعتقد فيه شيئاً مما خالف الحق فتكون عبادتك هباء منثوراً . ثم يجب عليك أن تعلم ما يلزمك فعله من الواجبات الشرعية لتفعل ذلك على ما أمرت به ، وتعلم ما يلزمك تركه من المناهى لئلا تقع فى شىء من ذلك وأنت جاهل بتحريمه فتكون غير معذور ؛ لأنه كيف تقوم بطاعات لا تعرفها ما هى ، وكيف هى ، وكيف يجب أن تفعل ؟ وكيف تجتنب المعاصى وأنت لا تعلم أنها معاصى حتى لا توقع نفسك فيها ؟ ! ولذلك قال عليه السلام : « عمل قليل فى علم خير من عمل كثير فى جهل » فاعلم ان بناء أمر العبادة كلها على العلم ولا سيما علم التوحيد والعبادة الباطنة .

وفى الخبر أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام فقال : « يا داود تعلم العلم النافع . فقال : إلهى ، وما العلم النافع ؟ قال : أن تعرف جلالى وعظمتى وكبريائى وكمال قدرتى على كل شىء فإن هذا هو الذى يقربك إلى » .

وأعلم أن الخطر العظيم فيمن طلب العلم ليصرف وجوه الناس إليه ويجالس به الأمراء ، ويباهى به النظراء[1] ويتصيد به الحطام ؛ فمن كان كذلك فتجارته بائرة وصفقته خاسرة. وقال بعض السلف : عملت بالمجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشد من العلم وخطره .

---

(١) النظير والناظر : المثل .

وإياك أن يزين لك الشيطان فتقول إذا كان العلم بهذه الحالة من الشدة والخطر فَترْكه أولى ، فقد ذكر الغزالى فى كتابه عن النبى عليه السلام قال : « أطلعت ليلة المعراج على النار فرأيت أكثر أهلها الفقراء . قالوا : يا رسول الله ، من المال ؟ قال : لا ، بل من العلم » . فمن لم يتعلم العلم لا يتأتى له إحكام العبادة والقيام بحقوقها ، ولو أن رجلا عبد الله تعالى بعبادة الملائكة بغير علم لكان من الخاسرين. هكذا ذكرت العلماء ، وقد قال الله تعالى : « **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا** »[١] وقال تعالى: « **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** »[٢] وقال سبحانه : « **ويحسبون أنهم على شىء ألا انهم هم الكاذبون** »[٣] فشمِّر أيها المسترشد أيدك الله فى طلب العلم بالبحث والجد والإجتهاد ، واجتنب الكسل والملال والإقامة على خطر الضلال وفقنا الله سبحانه وإياك للعلم النافع والعمل به وبالله التوفيق .

---

(١) الكهف : ١٠٤

(٢) الزمر : ٤٧

(٣) المجادلة : ١٨

الباب الرابع

فى العلم الذى هو فرض كفاية

ذكر الغزالى فى كتابه فقال[1] : اعلم أن الفرض لا يتميز من غيره إلا بذكر أقسام العلوم، ثم قال : والعلوم بالإضافة إلى الفرض الذى نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية . قال : وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا ترشد التجربة إليه مثل الطب ، ولا السماع وذلك مثل اللغة . قال : والعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ماهو محمود وإلى ماهو مذموم وإلى ماهو مباح .

فالمحمود مايرتبط به مصالح الدنيا كالطب والحساب . قال : وذلك ينقسم إلى ماهو فرض كفاية وإلى ماهو فضيلة وليس بفريضة .

قال : أما فرض كفاية : فهو كل علم لا يستغنى عنه فى أمر قوامة الدنيا ، كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب فإنه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها ، فهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين .

قال : ولا تتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات من فروض الكفايات كالفلاحة والخياطة والسياسة بل الحجامة ، فلو خلا البلد من الحجام لسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك ، فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله .

---

(١) لحياء علوم الدين ١ : ١٦

قال : وأما مايعد فضيلة لافريضة فالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغيرذلك مما يستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج إليه .

قال : وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعوذة[١] والتلبيسات .

قال : وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها وتواريخ الأخبار وما يجرى مجراه . قال : وأما العلوم الشرعية وهى المقصودة بالبيان فهى محمودة كلها ، قال : ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية وتكون مذمومة وتنقسم إلى المحمودة والمذمومة .

قال : فأما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتممات فهى أربعة أضرب :

الضرب الأول : الأصول ؛ وهى أربعة : كتاب الله وسنة نبيه وإجماع الأمة وآثار الصحابة رضى الله عنهم . فالإجماع أصل من حيث أنه يدل على السنة وهو أصل فى الدرجة الثانية . وكذلك الأثر فإنه يدل أيضاً على السنة لأن الصحابة قد شاهدوا الوحى والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ماغاب عن غيرهم عيانه ، فمن هذا الوجه رأى العلماء الإقتداء بهم والتمسك بآثارهم ، وذلك بشرط مخصوص وعلى وجه مخصوص .

الضرب الثانى : الفروع ؛ وهو ما فُهِمَ من هذه الأصول لابموجب ألفاظها بل بمعان تنبهت لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره ، كما فهم من قوله عليه السلام : « لا يقضى القاضى وهو غضبان[٢] » . أنه لا يقضى إذا كان حاقناً[٣] أو جائعاً أو متألماً بمرض ، وهذا على ضربين :

أحدهما : أن يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه فن الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم من علماء الدنيا .

---

(١) الشعوذة : خفة فى اليد وأخذ كالسحر يرى الشىء بغير ما عليه أصله فى رأى العين .

(٢) الحديث متفق عليه من حديث أبى بكرة .

(٣) الحاقن : الذى يحتبس بوله .

والثانى : ما يتعلق بالآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المذمومة والمحمودة وما هو مرضى عند الله وما هو مكروه وكنحو العلم بما يترشح من القلب على الجوارح فى عباداتها وعاداتها .

الضرب الثالث : المقدمات ؛ وهو الذى يجرى مجرى الآلات ، كعلم اللغة والنحو فإنهما آلة لعلم كتاب الله سبحانه وسنة نبيه عليه السلام ، وليس اللغة والنحو من العلوم الشرعية ولكن لزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب ، وكل شريعة فلا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة ، ومن الآلات علم الكتابة والخط إلا أنَّ ذلك ليس ضرورياً ، إذ كان النبى أمياً(١) ولو تصور استقلال الحفظ بجميع مايسمع لاستغنى عن الكتابة ، ولكنه صار بحكم العجز فى الغالب ضرورياً .

الضرب الرابع: المتممات ؛ وذلك فى علم القرآن ، تنقسم إلى ما يتعلق باللفظ كعلم القراءات ومخارج الحروف ، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير فإن اعتماده أيضاً على النقل ، إذ اللغة بمجردها لا تستقل به ، وإلى مايتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص ، والباطن والظاهر فى أمثال ذلك وهو العلم الذى يسمى أصول الفقه ، ويتناول السنة أيضاً .

وأما المتممات فى الآثار والأخبار ، فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم ، وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلم بالعدالة فى الرواة ، والعلم بأحوالهم ليميز الضعيف عن القوى ، والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عند المسند ، وكذلك ما يتعلق به . قال : فهذه هى العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفاية . قال : فإن قلت : فلم ألحقت الفقه بعلم الدنيا

---

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً : أى لا يحسن الكتابة : أخرجه ابن مردويه فى التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً : « أنا النبى الأمى وفيه ابن لهيعه . ولابن حبان والدارقطنى والحاكم والبيهقى وصححه من حديث ابن مسعود « قولوا اللهم صل على النبى الأمى » وللبخارى من حديث البراء « وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب » .

وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا ؟ فاعلم أن الله تعالى أخرج آدم من التراب وأخرج ذريته من سلالة من ماء دافق فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ، ثم إلى الجنة أو إلى النار ، فهذا مبدأهم ، وهذه غايتهم ، وهذه منازلهم ، وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود ، فلو تناولوها بالعدل لا نقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ، ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم ، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات ، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لتنتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا ، ولعمرى إنه متعلق أيضا بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا فإن الدنيا مزرعة للآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان ، فالدين أصل والسلطان حارس ، ومالا أصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان ، وطريق الضبط فى فصل الخصومات بالفقه ، فكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين فى الدرجة الأولى ، بل هو معين على مالا يتم الدين إلا به ، فكذلك معرفة طريق السياسة ؛ فمعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرقه[1] تحرس من العرب فى الطريق ، ولكن الحج شىء وسلوك الطريق إلى الحج شىء ثان . والقيام بالحراسة التى لا يتم الحج إلا بها شىء ثالث ، ومعرفة الحراسة وحيلها وقوانينها شىء رابع . وحاصل فن الفقه معرفة طريق السياسة والحراسة ، ويدل على ذلك ماروى مسنداً « لا يفتى الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأمور أو متكلف[2] » فالأمير هو الإمام ، وكانوا هم المفتون ، والمأمور نائبه ، والمكلف غيرهما وهو الذى يتقلد تلك العهدة من غير حاجة ، فقد كان الصحابة رضى الله عنهم يحترزون عن الفتوى حتى كان يحيل كل واحد منهم على صاحبه ، وكانوا

---

(١) البذرقة : بالذال المعجمة والمهملة : الحفارة . والمبذرق : الخفير .

(٢) أخرجه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ « ولا يفتى على الناس ... » وإسناده حسن .

لا يحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة ، ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة ولم ينصب نفسه للفتوى منهم إلا بضعة عشر رجلا ، وكان ابن عمر منهم ، وكان إذا سئل عن الفتوى يقول : إذهب إلى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس ووضعها فى عنقه ، إشارة إلى أن الفتوى فى القضايا والأحكام من توابع السلطنة . وفى بعض الروايات بدل المتكلف المرائى ، فإن من تقلد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال . فإن قلت : هذا إن استقام لك فى [أحكام] الحدود والجراحات والغرامات فلا يستقيم لك فى العبادات من الصلاة والصوم والزكاة وغير ذلك من الحلال والحرام ، فاعلم أن أقرب ما يتكلم فيه الفقيه من أعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة والحلال والحرام ؛ وإذا تأملت منتهى نظر الفقيه علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة . وإذا عرفت هذا فى هذه الثلاثة فهو فى غيرها أظهر .

أما الإسلام : فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وما يفسد وفى شروطه وليس يلتفت فيه إلا إلى اللسان . وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال : « هلا شققت عن قلبه ؟ »(١) للذى قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذراً بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف ، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يرفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ولكنه مشير على صاحب السيف ، فإن السيف ممتد إلى رقبته واليد ممتدة إلى ماله ، وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله مادامت له رقبة ومال ، وذلك فى الدنيا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد .

إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »[1] . جعل أثر ذلك فى الدم والمال ، وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأقوال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها ، وليس ذلك من فن الفقه ، وإن خاض الفقيه فيه كان خائضا فى غير فنه كما لو خاض فى الكلام أو الطب كان خارجاً عن فنه .

وأما الصلاة : فالفقيه يفتى بالصحة ، أى مايفعله المصلى يحصل به امتثال صيغة الأمر وينقطع به عنه القتل والتعزير إذا أتى بصورة الأعمال مع الشروط الظاهرة وإن كان غافلا فى جميع صلاته إلا عند تكبيرة الإحرام . وهذه الصلاة لاتنفع فى الآخرة كما أن القول باللسان لا ينفع ، ولكن الفقيه يفتى بالصحة .

وأما الخشوع وإحضار القلب الذى هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر فلايتعرض له الفقيه ، ولو تعرض له كان خارجا عن فنه .

وأما الزكاة : فالفقيه ينظر إلى مايقطع مطالبة السلطان حتى أنه إذا امتنع فأخذها السلطان قهراً حكم بأنه برئت ذمته ، كما حكى أن أبا يوسف كان يهب ماله لزوجته فى آخر الحول ويستوهب مالها لإسقاط الزكاة ، فحكى ذلك لأبى حنيفة فقال : ذلك من فقهه . وصدق ، [فان] ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرته فى الآخرة أعظم من كل جناية ومثل هذا العلم هو الضار .

وأما الحلال والحرام : فالورع عن الحرام من الدين ولكن الورع له أربع مراتب :

الأولى : الورع الذى يشترط فى عدالة الشهود ؛ وهو الذى يخرج بعدمه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء وهو الإحتراز عن الحرام الظاهر البين .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة وعمرو بن عمر .

الثانية : ورع الصالحين ؛ وهو التوقى من الشبهات التى يتقابل فيها الاحتمالات . قال صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك إلى ما يريبك »(١). وقال : « الإثم حزاز القلوب »(٢) .

الثالثة : ورع المتقين ؛ وهو ترك الحلال المحض الذى يخاف منه أن يؤدى إلى الحرام . قال صلى الله عليه وسلم : « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مما به بأس »(٣) . وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من أن يجر ذلك إلى الغيبة ، والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر . وكالتورع عن النظر المؤدى إلى مقارفة المحظورات .

الرابعة : ورع الصديقين ؛ وهو الإعراض عما سوى الله عز وجل خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله تعالى وإن كان يعلم ويتحقق أن ذلك لا يفضى إلى حرام . فهذه درجات الورع وهى كلها خارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى وهو ورع الشهود والقضاة وما يقدح فى العدالة ، والقيام بذلك لا ينفى الإثم فى الآخرة .

وقال صلى الله عليه وسلم لوابصة « استفت قلبك وإن أفتوك وإن أفتوك »(٤) . والفقيه لا يتكلم فى حزازة القلوب وكيفية العمل بها ، بل فيما يقدح فى العدالة فقط . فإذاً جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التى بها صلاح الآخرة . فإن تكلم فى الإثم وصفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل على سبيل التطفل كما قد يدخل فى كلامه شىء من الطب والحساب والنحو وعلم الكلام ، وكما قد تدخل الحكمة فى النحو والشعر .

---

(١) أخرجه الترمذى وصححه . والنسائى وابن حبان من حديث الحسن بن على .
(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الايمان من حديث ابن مسعود . ورواه العدنى فى مسنده موقوفاً عل
(٣) أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى .
(٤) اخرجه أحمد من حديث وابصة .

قال (١) : وكان سفيان الثورى وهو إمام فى علم الظاهر يقول : إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة . وقد اتفقوا على أن الشرف فى العلم العمل به ، فكيف يظن أنه علم الظهار واللعان والسلم والإجارة والصرف ، ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بتعاطيها إلى الله تعالى فهو مجنون . وإنما العمل بالقلب والجوارح فى الطاعات والشرف هو علم تلك الأعمال (٢) ، ومع هذا فلا ينبغى أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم ؛ أعنى علم الفتاوى وعلم اللغة والنحو المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما تقدم ذكره من أنواع العلوم التى هى فرض كفاية ولاتفهمن من غلونا فى الثناء على علم الآخرة تهجينا لهذه العلوم . فالمتكلفون بالعلوم كالمتكلفين بالثغور والمرابطين بها والغزاة مجاهدون فى سبيل الله عز وجل . فمنهم الردىء المعاون ، ومنهم الذى يحفظ دوابهم ويتعاهدهم ولا ينفك واحد منهم عن الأجر إذ كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء . قال الله تعالى : « **يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات** » .(٣) وقال : « **هم درجات عند الله** » . (٤) ولا تظنن أن من نزل عن الرتبة القصوى فساقط القدر . بل الرتبة العليا الأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخون فى العلم ثم الصالحون على تفاوت درجاتهم . وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره إذا كان قصده بعلمه الله تبارك وتعالى . وأما من تجرد لعلم الخصومات والجدال ، وتعريفات الفتاوى والنحو واللغة وتواريخ الأخبار من غير أن يمزج ذلك بشىء من العلوم الدينية فلا يزيد المتجرد لها مع الإعراض عن سواها إلا قسوة فى القلب وغفلة عن الله سبحانه ، ولا برهان على ذلك كالتجربة والمشاهدة فانظر واعتبر واستبصر تشاهد ذلك فى البلاد والعباد وبالله التوفيق .

---

(١) الغزالى فى إحياء علوم الدين حـ ١ : ١٩

(٢) إلى هنا انتهى ماتقله من الإحياء مع خلاف يسير .

(٣) المجادلة : ١١

(٤) آل عمران : ١٦٣

مسألة

و بالجملة إن كل فرض يتعلق فعله على الكفاية فتعلُّم ذلك الفرض متعلق على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين و إن تركه الجميع من الناس هلكوا ؛ وذلك كعلم القضايا والأحكام وقسمة المواريث وقصاص الجراحات وعلم أداء حقوق الموتى من الغسل والكفن والصلاة عليهم ومواراتهم ، وعلم الجهاد وتعلم القرآن ما خلا مالا يجوز الصلاة إلا به وتعلم الرد على أهل البدع ونقل الشريعة و بالله التوفيق .

الباب الخامس

فى بيان حد الفقه والكلام فى علم الدين وطريق الآخرة وحد الكلام والفلسفة

وهذا الباب يتوزع منه ثلاثة فصول :

الفصل الأول

فى حد الفقه

وقد تقدم الكلام فى أنه مرتبط بمصالح الدنيا لسياسة الخلق ، كما أن الطب موضوع لاعتدال صحة الجسد فى الدنيا . فإن قيل قد سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا [وهو صحة الجسد] وذلك يتعلق به أيضا صلاح الدين، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق ، والفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه

أحدها : أنه علم شرعى : أى هو مستفاد من النبوة بخلاف الطب . فليس هو من علم الشرع هكذا اذكر الغزالى فى كتابه[1]

والثانى : [أنه] لايستغنى عنه أحد من سالكى طريق الآخرة ألبتة ، لا الصحيح ولا المريض ، وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون .

والثالث : أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر فى علم الجوارح . ومصدر الأعمال ومنشؤها صفات القلب . فالمحمود من الأعمال مايصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية فى الآخرة . والمذموم يصدر من المذموم . وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب . وأما الصحة والمرض فمنشؤهما صفاء [فى] المزاج والأخلاط وذلك من أوصاف البدن لامن أوصاف القلب ، فمهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه ، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم الآخرة وبالله التوفيق .

---

(١) إحياء علوم الدين ١ : ٩

الفصل الثانى

فى علم الدين وطريق الآخرة

فاعلم أنه قد ذكر الغزالى فى كتابه(١) أن علم طريق الآخرة قسمان :

أحدهما : علم معاملة ، وهو علم بأحوال القلب وهو نوعان : محمود ومذموم فالمحمود منها كالصبر ، والشكر ، والخوف والرجاء ، والتوبة ، والرضا ، والتوكل ، والزهد ، والتقوى ، والقناعة ، والسخاء ، ومعرفة المنة لله تعالى فى جميع الأحوال ، والخشوع ، والإحسان ، وحسن الظن ، وحسن الخلق ، وحسن المعاشرة ، والصدق ، والإخلاص ، وما أشبه ذلك من محمود أحوال القلب وصفاته . ومعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التى بها تكسب وثمرتها وعلامتها ، ومعالجة ما ضعف منها حتى يقوى ، ومازال حتى يعود ، فذلك كله من علم الآخرة .

وأما المذموم منها : فخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والغل ، والحقد ، والحسد ، والغش ، وطلب العلو ، وحب الثناء ، وحب طول البقاء فى الدنيا للتمتع ، والكبر ، والرياء ، والغضب ، والأنفة ، والعداوة ، والبغضاء ، والطمع ، والبخل ، والرغبة ، والبذخ ، والأشر ، والبطر ، وتعظيم الأغنياء ، والاستهانة بالفقراء ، والفخر ، والخيلاء ، والتنافس ، والمباهاة ، والاستكبار عن الحق ، والخوض فيما لا يعنى ، وحب كثرة الكلام ، والصلف ، والتزين للخلق ، والمداهنة ، والعجب ، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس ، وزوال الحزن من القلب ، وخروج الخشية منه ، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها

---

(١) إحياء علوم الدين ١ : ٢٠ — ٢١

ذل ، وضعف الإنتصار للحق ، وإتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر ، والأمن من مكر الله فى سلب ما أعطى ، والإتكال على الطاعة ، والمكر ، والخيانة ، والمخادعة ، وطول الأمل ، والقساوة ، والفظاظة ، والفرح بالدنيا ، والأسف على فواتها ، والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم ، والجفاء ، والطيش ، والعجلة ، وقلة الرحمة . فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ، ومنابت الأعمال المحظورة ، وأضدادها — وهى الأخلاق المحمودة — منبع الطاعات والقربات ؛ فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخره ، وهو فرض عين فى فتوى علماء الآخرة ، المعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك فى الآخرة ، كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا وبحكم فتوى فقهاء الدنيا . وبالله التوفيق .

القسم الثانى : علم مكاشفة[١] ؛ وهو علم الصديقيين والمقربين ، وهو عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ، فينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله تعالى ، وبصفاته التامات ، وبأفعاله ، وبحكمته فى خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى النبى والنبوة ، وبمعنى الوحى ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشيطان للانسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء وكيفية وصول الوحى إليهم ، والمعرفة بملكوت السماوات والأرض ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب . ومعنى قوله تعالى : « **كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** »[٢] ومعنى قوله : « **وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون** »[٣] ومعنى لقاء الله سبحانه ،

---

(١) إحياء علوم الدين ١ : ١٩ — ٢٠

(٢) الإسراء : ١٤

(٣) العنكبوت : ٦٤

ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعنى حصول السعادة لمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبيئين ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم بعضاً كما يرى الكوكب الدرى فى جو السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ؛ إذ الناس فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة ، وأن الذى أعد الله لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . و بعضهم يرى أن بعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها ، ولهذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله تعالى الاعتراف بالعجز عن معرفته ، و بعضهم يدعى أموراً عظيمة فى المعرفة بالله عز وجل ، و بعضهم يقول : حد معرفة الله ما أنتهى إليه أعتقاد العوام ، وهو أنه موجود قادر عالم سميع بصير متكلم . فالمراد بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح [له] جلية الحق فى هذه الأمور اتضاحا يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه . وهذا ممكن فى جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا ، و إنما معنى طريق الآخرة العلم بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التى هى الحجاب عن الله تعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله .

و إنما تصفيته وتطهيره بالكف عن الشهوات ، والإقتداء بالنبيئين فى جميع أحوالهم ، فبقدر صفاء مرآة القلب من الخبائث وتجليه بأنوار الطاعات تظهر فيه صور الحقائق وتتلألأ فيه لوائح الصدق ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمجاهدة ور ياضة النفس و بالعلم والتعلم تحقيقاً لقوله تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** » (١) وهذا العلم هو الغاية القصوى ، أعنى علم الباطن وهو المراد بعلم المكاشفة . وقد روى عن بعض العارفين أنه قال : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة ، وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله .

---

(١) العنكبوت : ٦٩

وقال آخر : من كانت فيه خصلتان لم يفتح له شيء من هذا العلم : بدعة ، أو كبر . وقيل : من كان محبا للدنيا ، ومصرا على هواه لم يتحقق به ، وقد تحقق به سائر العلوم ، وأقل عقوبة من يفكره ألا يرزق منه . وهو علم الصديقين والمقربين كما قدمنا وهذه العلوم التى يقولون إنها لا تسطر فى الكتب ، ولا يتحدث بها من أنعم الله سبحانه عليه بشيء منها إلا مع أهله ، وهو للشارك فيه على سبيل المذاكرة وعلى طريق الإسرار . وهذا [هو] العلم الخفى الذى أراده النبى عليه السلام بقوله : « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله عز وجل ، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الإغترار بالله ، فلا تحقروا عالما أتاه الله علما [منه] ، فإن الله تعالى لم يحقره إذ آتاه إياه » و بالله التوفيق .

فصل

فعليك — أيدك الله وأرشدك وإيانا — بالبحث والطلب عن هذه العلوم التى هى أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة حتى تعرفها أولا ، ثم تطهير القلب من المذموم منها وتحليته بالمحمود ثانيا حتى يتضح لك الحق بحقائقها ، وتنظر بنور الله بين أصناف خلقه ، أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه كمن هو أعمى عنه ، وقد تراكم رين الذنوب على بصيرة قلبه فهو يمشى مكبا على وجهه ، فلا تظنن — أصلحك — الله أن من تجرد لعلم الجدال والمماراة وأفنى عمره فى تعلم فقه المعاش والخصومات يتصف بشيء من هذه العلوم المتقدمة ، ولو سئل أكثر من يدعى الفقه وتجرد لإحياء الدين بزعمه عن معنى من معانى هذه العلوم حتى عن الإخلاص مثلا ، أو عن التوكل ، أو عن وجه الإحتراز عن الرياء لتوقف فيه ، مع أنه فرض عينه الذى فى إهماله هلاكه فى الآخرة . ولو سئل عن مسائل الفتوى واللعان والظهار والسلم والشفعة والإجارات وما أشبه ذلك من مسائل الفروع التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها ، وإن احتيج لم يخل البلد

عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها ، ولو سئل عن شيء من هذا لأجاب سريعاً وما توقف فتراه يتعب فى حفظه ودرسه ليلا ونهاراً ويغفل عما هو فرض عليه فى نفسه ، وإذا روجع فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وهو فرض كفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعليله . والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر ، وإحياء علم الدين لقدَّم على ذلك فرض نفسه . فليت شعرى كيف يجوز فى الدين أن يهمل الإنسان فرض نفسه ويشتغل بفرض كفاية قد قام به جماعة ! ! هل لهذا سبب إلا أن علم الآخرة ليس يتوصل به إلى جمع الحطام واستدراج العوام بكثرة الأتباع والطغام ؟ هيهات هيهات ! ! وقد اندرس علم الآخرة بتلبيس العلماء السوء والله المستعان وإياه نسأل أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ويضحك الشيطان وبالله التوفيق وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الفصل الثالث

فى حد الكلام وعلوم الفلسفة

أما الكلام

هو علم المتكلمين الذين يتكلمون فى تحرير الأدلة لإثبات التوحيد والصفات ، وتفصيل السكون والحركات والجواهر والأعراض والحدوث والقدوم وأشباه ذلك . ويضعون الأدلة فى الرد على أهل البدع ونقضها عليهم وليس كتابنا هذا موضوعاً لذلك .

وأما الفلسفة

فهى من علوم حكماء الأوائل المنكرين لشريعة الإسلام وهم الفلاسفة ، وذكر الغزالى فى كتابه أنهم يصدقون بالصانع والنبوة ، ويصدقون النبى عليه السلام ، ولكنهم يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشرع ويقولون : النبى محق ، فما قصد بما ذكره إلا صلاح الخلق ، ولكن لم يقدر على التصريح بالحق لكلال أفهام الخلق عن درکه . قال : ويجب القطع بتكفيرهم فى ثلاث مسائل :

الأولى : إنكارهم لحشر الأجساد والتعذيب بالنار ، والتنعيم فى الجنة بالحور العين والمأكول والملبوس . قال :

والثانية : قولهم أن الله سبحانه لا يعلم الجزئيات وتفصيل الحوادث ، وإنما يعلم الكليات . وإنما الجزئيات تعلمها الملائكة السماوية .

والثالثة : قولهم إن العالم قديم وإن الله سبحانه متقدم على العالم بالرتبة مثل تقدم

العلة على المعلول وإلا فلم يزالا فى الوجود متساويين . قال : فهؤلاء إذا وردت عليهم آيات القرآن[١] زعموا أن اللذات العقلية تقصر الأفهام عن دركها فمثل لهم ذلك باللذات الحسية . وهذا الذى قالوه شرك صريح فلا معنى للاشتغال بهم .

قال[٢] : وأما الفلسفة فليست علماً بذاتها[٣] بل هى على أربعة أجزاء :

أحدها : الهندسة والحساب ، وهما مباحان ولا يمنع عنهما إلا من يخاف عليه أن يتجاوزهما إلى البدع .

فالهندسة فعل المهندس ، وهى فيما وجدت فى علوم الدين نوعان :

أحدهما هندسة عملية : وهو أن ينظر المهندس فى خطوط وسطوح ، إما فى جسم خشب إن كان نجاراً ، أو جسم حديد إن كان حداداً أو فى جسم حائط إن كان بناءاً ، أو فى سطوح أرضين أو مذرعات إن كان ماسحاً ، وكذلك كل صاحب هندسة عملية ، فإنه إنما يتصور فى نفسه خطوطاً أو سطوحاً وتدويراً وتثليثاً فى جسم المادة التى هى الموضوعة لتلك الصناعات[٤] العملية .

والنوع الثانى هندسة نظرية : وهو أن ينظر المهندس فى خطوط وسطوح فى الأجسام على الإطلاق والعموم ، ويتصور فى نفسه الخطوط والسطوح والتربيع والتثليث والتدوير فى الوجه الذى لا يبالى فى أى جسم كانت وفى أى محسوس كان . بل على الاطلاق من غير أن يقيم فى نفسه مجسماً هو من خشب أو من حديد أو من حائط . قال : وهذا العلم هو الذى يدخل فى جملة العلوم . وهو يفصح ـ فى الخطوط والسطوح والمجسمات على الاطلاق

---

(١) أى الآيات المتعلقة بوصف التعذيب بالنار والتنعيم فى الجنة بالحور العين والمأكول والملبوس .

(٢) الغزالى أيضاً لاحياء علوم الدين ١ : ٢٢

(٣) فى الإحياء : برأسها .

(٤) فى نسخ القناطر المخطوطة : الصناعة

عن أشكالها ومقاديرها ، وتساويها وتفاصيلها ، وعن أصناف أوضاعها ، وعن جميع ما يلحقها مثل النقط والزوايا وغير ذلك . قال : وكتاب إقليدس[1] الفيثاغورى المعروف بكتاب الاستقصات هو الذى يحتوى على أصول الهندسة وعددها ، وهى داخلة فى علم الكلام والله أعلم .

الجزء الثانى من الفلسفة : المنطق ، وهو بحث عن وجه الدليل ، ووجه الحد وشروطه. فصناعة المنطق تعطى بالجملة القوانين التى من شأنها أن تقوّم العقل ، وتسدد الانسان نحو الصواب ، والحق فى كل ما يمكن الغلط فيه من جميع المعقولات ، وذلك أن فى المعقولات أشياء لا يغلط العقل فيها أصلا ، وهى التى يجد الانسان نفسه كأنها فطرت على معرفتها ؛ مثل أن الكل أعظم من الجزء ، وأن كل ثلاث فهو عدد فرد وأشباه ذلك ، وأشياء يمكن الغلط فيها ؛ وهى التى يحتاج الانسان فى إدراكها إلى تفكر وقياس واستدلال ، وفى هذه دون تلك يضطر الانسان الذى يلتمس الوقوف على الحق اليقين فى مطلوباته كلها إلى قوانين المنطق . وهذه الصناعة تناسب صناعة النحو ؛ وذلك أن نسبة صناعة المنطق إلى العقل والمعقولات كنسبة صناعة النحو إلى الألفاظ . وهو يشارك النحو بعض المشاركة بما يعطى من قوانين الألفاظ ، ويفارقه فى أن النحو إنما يعطى قوانين تخص ألفاظ أمة ما ، وعلم المنطق إنما يعطى قوانين مشتركة تعم ألفاظ الأمم كلها ، فإن فى الألفاظ أحوالا تشترك فيها جميع أحوال الأمم ، مثل أن الألفاظ منها مفردة ، ومركبة ، والمفردة إسم وكلمة وأداة ، وأن منها ما هى موزونة وغير موزونة وأشباه ذلك ، وهاهنا أحوال تخص لسانا دون لسان ؛ مثل أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، والمضاف لا يدخل فيه ألف ولام التعريف ، فإن هذا يختص بلسان العرب . وما وقع فى علم النحو من أشياء مشتركة

---

(١) اقليدس من فلاسفة الإغريق وإليه تنسب عادة هندستهم وهو الذى رتبها وصنفها وعرضها عرضا جيداً ، ويراد بهذه الهندسة البحث النظرى الذى يدرس الخواص الداخلية للأشكال التى يمكن رسمها فى المكان ، وإلى اقليدس يرجع الفضل فى تحديد المبادىء والأوليات والبديهيات الهندسية .

لألفاظ الأمم كلها فإنما يأخذ أهل النحو من حيث هو موجود فى ذلك اللسان الذى عُمِلَ النحو له : كقول النحويين من العرب : أقسام الكلام ثلاثة : إسم ، وفعل ، وأداة . وكقول نحويي اليونانيين : أجزاء الكلام فى اليونانية إسم ، وكلمة ، وأداة . وهذه القسمة لا توجد فى العربية فقط ، أو فى اليونانية فقط بل فى جميع الألسنة .

وأجزاء المنطق ثمانية ، تركتها لئلا يطول الكتاب بلا فائدة وبالله التوفيق . وإنما ذكرت هذا ـ أرشدكم الله ـ لتعرفوا معنى الهندسة والمنطق ، وهما داخلان فى علم الكلام فقط والله أعلم .

الجزء الثالث : الإلهيات : وهو بحث عن ذات الله تعالى وصفاته ، وهو داخل فى علم الكلام [أيضاً] ، والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر شرك وبعضها بدعة ، كما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين وأهل البحث والنظر أنفردوا بمذاهب باطلة . وكذلك الفلسفة .

الجزء الرابع : الطبيعيات : فبعضها مخالف للشرع ودين الحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى يورد فى أقسام العلوم . وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها وهو أشبه بنظر الأطباء . إلا أن الطبيب ينظر فى بدن الانسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون فى جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك ، ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه ، وأما علومهم فى الطبيعيات فلا حاجة إليها . فإذن الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخييلات المبتدعة وبالله التوفيق .

فإن قيل : إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون وهم أفضل الخلق عند الله ، فكيف تنزل درجتهم عن درجة علماء الدين ؟ فاعلم أنه من عرف الحق بالرجال حار فى متاهات الضلال ، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكا فى طريق الحق ، وإن قنعت

بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل فلا تغفل عن الصحابة وفضلهم ، ولم يكن تقدمهم بالفقه والكلام ، بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها .

وأما قولك ان المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون ، فاعلم أن ما ينال به الفضل عند الله تعالى شيء ، وما تنال به الشهرة شيء آخر . ولقد كانت شهرة أبي بكر رضى الله عنه بالخلافة ، وكان فضله بالشيء الذى وقر فى صدره لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا كثرة صيام ، ولكن بشيء وقر فى صدره »(١) ولقد كان من المكاشفين فيما قيل . فليكن حرصك فى طلب ذلك الشيء فهو الجوهر النفيس والدر المكنون ، وكانت شهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة والعدل وكان فضله بالعلم بالله تعالى كما روى أنه لما مات عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله : مات تسعة أعشار العلم . فقيل له : أتقول ذلك وفينا حلة الصحابة ؟ قال: لست أريد العلم بالفتوى والأحكام ، وإنما أريد العلم بالله تعالى . فكان فضله بهذا العلم وبقصده التقرب إلى الله تعالى فى ولايته وشفقته على خلقه وهو أمر باطن فى سره . وأما أفعاله الظاهرة فقد يتصور صدورها من طالب الجاه والإسم والسمعة ، والراغب فى الشهرة ، فتكون الشهرة فيما هو المهلك ، والفضل فيما هو سر لايطلع عليه أحد من الناس .

فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة قد انقسموا ؛ فمنهم من أراد الله تعالى بعلمه وفتواه وذبه عن دينه : ولم يرد به رياء ولا سمعة ؛ أولئك أهل رضوان الله لعملهم بعلمهم ، ولإرادتهم بفتواهم وجه الله تعالى ، فإن كل علم عمل لأنه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علماً . فالطبيب يقدر أن يتقرب إلى الله تعالى بعمله فيكون مثاباً عليه من حيث أنه عامل لله تعالى به . والسلطان يتوسط بالعدل بين الخلق فيكون مرضياً عند الله سبحانه ، لا من حيث أنه متكفل بعلم الدين ، بل [من حيث] هو متقلد عملا

---

(١) قال الحافظ العراقى : أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من قول أبى بكر بن عبد الله المزنى ، ولم أجده مرفوعا .

يقصد به التقرب إلى الله تعالى . وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم المكاشفة . وعمل مجرد كعدل السلطان مثلا وضبطه الناس . ومركب من علم وعمل ؛ وهو علم طريق الآخرة ، فإن صاحبه من العلماء والعمال جميعاً . فانظر فى نفسك لتكون فى حزب علماء الله عز وجل أو عمّال الله أو فى حزبهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما . وهذا أهم لك من التقليد لمجرد الاشتهار وينشد :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به
فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وبالله التوفيق .

الباب السادس

فى طرق العلم وتقاسيمه قسمة أخرى

أعلم أنا ذكرنا أقسام العلوم قبل هذا مجملة ، وسنشير هاهنا إن شاء الله تعالى إلى قسمتها موجزة ، وفى طرقها منحصرة فنقول :

إن طرق العلم محصورة فى ثلاثة طرق ، وقيل فى أربعة : أحدها : الحس : والثانى : العقل . والثالث : السمع . والرابع : قيل إنه طريق البديهة . فهذه قسمة منحصرة تدور على ابن آدم فى الدنيا والآخرة ، فلا يسأل العبد فى الآخرة إلا عنها ، لأنها منحصرة فيما يسأل عنه ، فما شاهده ببصره ، أو سمعه بسمعه ، أو أدركه بعقله ، فكل علم داخل فيها وعنها يكون . فالبصر هو ما يدرك به جميع المبصرات ، والسمع هو ما يسمع به جميع المسموعات من الشرع وغيره ، والفؤاد راجع إلى القلب كما قال تعالى : « **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** » .(١) أى حاضر القلب . والفؤاد والقلب واحد ؛ والمراد به العقل كما قال الله تعالى : « **والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** » .(٢)

وقال سبحانه : « **إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا** » .(٣) فجمع فى هاتين الآيتين ماقدمناه من طرق العلم .

أما الحس : فينقسم ثلاثة أقسام: حس متصل، وحس منفصل ، وحس بِنْية ، فالمتصل

---

(١) ق : ٣٧

(٢) النحل : ٧٨

(٣) الإسراء : ٣٦

كالملموسات والمذوقات والمشمومات ؛ فإن حاسة اللمس وحاسة الذوق لا تدركان إلا متصلتين بمحسوستها .

والمنفصل كالمسموعات والمبصرات ؛ لأن حاسة السمع تدرك الكلام من غير اتصال بالمسموع ، وحاسة البصر تدرك الأشخاص والألوان بغير اتصال .

وحس بِنْية : هو ما يجده الإنسان فى نفسه من غير طريق الحواس كالجوع والعطش والفرح والحزن وأشباه ذلك .

وأما العقل فعلى ثلاثة أقسام : واجب ، وجائز ، ومستحيل .

فالواجب على ثلاثة أقسام : وجوب انحصار الحقائق ، ووجوب اطّرادها ، ووجوب اختصاصها بأحكامها .

والمستحيل على ثلاثة أقسام : قلب الحقائق ، ونقد الحقائق ، وبطلان الحصْر .

والجائز متردد بين الواجب والمستحيل ، وهو جائز فى حقنا وعند الله تعالى واجب أو مستحيل .

وأما السمع فعلى ثلاثة أقسام : الكتاب ، والسنة ، والإجماع .

وأما البديهة : فكعلمنا أن الأكل مشبع ، والشراب مروٍ فى أمثال ذلك . فهذه طرق العلم على ثلاثة أقسام : العلم بالدين ، والعلم بالدنيا ، والعلم بما يتوصل به إليهما مما جاءت به الرسل عليهم والسلام .

فالعلم بالدين على ثلاثة أقسام : العلم بالله تعالى ، والعلم بالرسل عليهم السلام ، والعلم بما جاءت به الرسل .

فالعلم بالله تعالى على ثلاثة أقسام : العلم بما يجب له ، والعلم بما يجوز عليه ، والعلم بما يستحيل عليه .

فأما العلم بما يجب له فهو على ثلاثة : الوجود ، والوحدانية ، والكمال

عليه ثلاثة : إيجاد العالم ، وإعدامه بعد وجوده ، وإعادته بعد [illegible] يستحيل

عليه ثلاثة : التشبيه ، والتشريك ، والنقائص .

فأما العلم بوجوده فينبنى على نفى التشبيه ؛ والتشبيه على ثلاثة : التقييد بالزمان ، والتقييد بالمكان ، والتقييد بالجنس . وفى لفظ آخر : التغيُّر ، والتحيُّز والتأليف .

والعلم بالوحدانية ينبنى على نفى التشريك، والتشريك على ثلاثة : الإتصال، والانفصال، والحلول .

والكمال ينبنى على نفى النقائص ؛ والنقائص على ثلاثة : منها ما يمنع الأفعال ومنها ما يمنع الإدراك ، ومنها ما يمنع الكلام ، فالموانع من الأفعال كالعجز والجهل وغير ذلك . والموانع من الادراك كالعمى والصمم وغير ذلك . والموانع من الكلام كالخرس والبكم وغير ذلك من الآفات . وفى لفظ آخر فى النقائص ؛ والنقائص على ثلاثة ؛ منها مايدل على الحدوث ، ومنها ما يمنع الأفعال ، ومنها ما يمنع الإدراك .

وأما العلم بالرسول عليه السلام فعلى ثلاثة أيضاً : العلم بما يجب إثباته للرسول ، والعلم بما يجب نفيه عنه ، والعلم بما يجوز عليه .

فالذى يجب إثباته للرسول عليه السلام : الصدقُ ، والأمانة ، واتِّباع الحق فى أفعاله وأقواله .

والذى يجب نفيه عنه : الكذب ، والخيانة ، واتِّباع الباطل فى أقواله وأفعاله .

والذى يجوز عليه : هو ما يجوز على البشر من الانتفاع والاستضرار . وفى لفظ آخر والذى يجوز عليه : السرَّاء والضرَّاء ، والسهو الذى لاينافى التكليف .

وأما العلم بما جاءت به الرسل عليهم السلام فعلى ثلاثة : الوحى ، والتكليف، والجزاء على التكليف .

فالوحى على ثلاثة : الأمر ، والنهى ، والخبر .

والتكليف على ثلاثة : الايمان ، والتقوى ، والورع وهو الاحتياط فى الدين . والفرق بين الوحى والتكليف أن الوحى هو الامر والنهى ، والتكليف هو مقتضى الامر والنهى ؛ وهو امتثال الامر والنهى ؛ وهو امتثال الامر ، واجتناب النهى . فحقيقة التكليف هى أفعالنا وتناولنا ، والامر والنهى راجعان إلى الخطاب الذى هو بالوحى . والخبر هو ما أخبر به من الغيوب ، وهو جل الكتاب وأكثر مافيه .

والجزاء على التكليف على ثلاثة أيضا : الحساب ، والعقاب ، والثواب .

فصل

والعلم بالدنيا على ثلاثة أقسام : العلم بمنافعها ، والعلم بمضارها ، والعلم بأسباب المعيشة فيها . وفى لفظ آخر فى العلم بالدنيا : أخبرنا أن عاقبة نعيمها إلى الزوال ، وأن عاقبة عمرانها إلى الخراب ، وأن عاقبة عمارها إلى الهلاك .

وأما ما يتوصل به إلى العلم بها فثلاثة: اللغة ، والاعراب . والحساب .

فاللغة بها جاءت الشريعة والأحكام .

والإعراب أيضاً به تنصلح المعانى وتفهم ، فإذا بطل الاعراب بطلت المعانى ، وإذا بطلت المعانى بطل الشرع أيضاً وبطل جميع مايدور عليه أمر المعاملات كلها من المخاطبات فى الأقوال .

وأما الحساب أيضاً فهو مما يتوصل به إلى معرفة الدين والدنيا جميعا .

أما الدين ؛ فإن هذه العبادات المؤقتة بالأزمان لاتعرف إلا بالحساب ، به عرفت الأيام والجمع ، والشهور والسنون ، فالعبادات مرتبة فيها كصلاة الجمعة ؛ فإذا جهل يوم الجمعة بطلت الصلاة ، وكذلك الصيام إذا جهل الحساب الذى به يعرف شهره بطل أيضاً ، وكذلك السنون أيضا فى عبادة الزكاة والحج ، فالحساب أصل كبير فى الدين .

وأما الدين فبه تصح جميع المعاملات الدائرة بين الناس من المعاوضات والأخذ والعطاء ، وجميع منافع المعيشة به تصح . وبالله التوفيق .

الباب السابع

فى آداب المتعلم والمعلم

وهذا الباب ينحصر فى فصلين :

الفصل الأول

فى آداب المتعلم

وتنحصر آدابه فى عشرة أقسام :

القسم الأول : المبادرة إلى التعلم فى أول وقت الامكان ، ويرغب فيه رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ، ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجدة[1]، ولا نفوذ أمر وعلو منزلة ، فإن من ينفذ أمره فهو إلى العلم أحوج ، ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق ، وفى حديث أنس عن النبى عليه السلام أنه قال : « إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً ، وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك »[2].

وقال بعض الأدباء : كل عز لا يؤكده علم مذلة ، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة .

وقال بعض العلماء : إذا أراد الله بالناس خيراً جعل العلم فى ملوكهم والملك فى علمائهم.

وقال بعض البلغاء : العلم عصمة الملوك لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم إلى الحكم . ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويستنبطوا أهله .

---

(١) الجدة : الغنى .

(٢) تقدم فى ص ٦١ .

القسم الثانى : أن يكون قصده فى التعلم إرادة وجه الله تعالى ، وإنقاء الجهل عن نفسه ، وإرشاد من قدر على إرشاده بنيّة خالصة وعزيمة صادقة ، فإذا كان قصده ونيته ما ذكرنا فإنه يرجى أن يستوجب الفضل الذى جاء فى الأحاديث المتقدمة. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أكرم عالماً فكأنما أكرم سبعين نبياً ، ومن أكرم متعلماً فكأنما أكرم سبعين شهيداً ، ومن أحب العلم والعلماء لم تكتب عليه خطيئة أيام حياته » . هكذا وجدت فى بعض آثار أصحابنا من أهل المشرق .

وليحذر طالب العلم أن يطلبه لمراء أو رياء ؛ فإن المارى به مهجور لاينتفع ، والمرائى به محقور لا يرتفع . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تتعلموا العلم لتماروا به السفهاء ، ولا تتعلموا العلم لتجادلوا به العلماء ، فمن فعل ذلك منكم فالنار النار »[1] .

والمُمارِى هو القاصد لدفع ما يرد عليه من فاسد وصحيح .

وفى حديث آخر : « من تعلم العلم ليمارى به السفهاء ، أوليباهى به العلماء لقى الله وهو عليه غضبان »[2] .

فمن طلب العلم لمباهاة العلماء ، أو لمماراة السفهاء ، أو لينتشر ذكره فى الناس بحسن الثناء ، أو ليعظم قدره عندهم ، أو لاكتساب مال أو جاه فهو من الخاسرين وينشد :

إنى رأيت الناس فى دهرنا ... لا يطلبون العلم للعلم
إلا مباهاة لإخوانهم ... وحجة للخصم والظلم

---

(١) ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح . ولفظه فى الاحياء . « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم » .

(٢) مسند الربيع بن حبيب (١ : ١٢) ولفظه : « من تعلم العلم ليباهى به العلماء أو ليجارى به السفهاء لقى الله يوم القيامة وهو خائب من الحسنات » .

وليس المماري به هو المناظر فيـــه طلبا للصواب ، وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه : لا يمنعنك حذر المراء من حسن المناظرة فإن المماري هو الذى لا يريد أن يتعلم منه أحد ولا يرجو أن يتعلم من أحد .

القسم الثالث : ينبغى لطالب العلم أن يقدم أولا طهارة النفس من دناءة الأخلاق ومذموم الأوصاف ؛ لأن العلم عمارة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن إلى الله تعالى . فكما لا تصح صلاة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الجوارح من جميع الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق من الغل والكبر والرياء وغير ذلك . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بنى الدين على النظافة »(١) . وهو لعمرى كذلك باطناً وظاهراً ، وقد قال الله تعالى : « **إنما المشركون نجس** »(٢). تنبيهاً للعقول على أن الطهارة والنجاسة ليست مقصورة على الظواهر . فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول الجسد . ولكنه نجس الباطن بالشرك. وقد قال تعالى : « **وثيابك فطهر** » . أى قلبك فنقِّ فى بعض الأقوال .

فإن قيل : كم من طالب ردىء الأخلاق قد حصل العلوم !قيل له : فهيهات، ماأبعدك عن العلم الحقيقى النافع فى الآخرة ؛ فإن من أوائله أن تظهر للعالم به أن المعاصى سموم مهلكة. وهل رأيت من يتناول شيئاً مع علمه بأنه سم مهلك ؟ إنما الذى تسمعه من المتشبهين بالعلماء فى التشدق روايات ومسائل تلقفوها من غير معرفة بحقائقها، وليس ذلك من العلم فى شىء. وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال : ليس العلم بكثرة الروايات ، إنما العلم نور يُقذَف فى القلب .

---

(١) قال أبو الفضل العراقى . لم أجده هكذا . وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة « تنظفوا فإن الإسلام نظيف » . وللطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود « النظافة تدعو إلى الإيمان » .

(٢) التوبة : ٢٨

وقال بعضهم : إنما العلم الخشية إذ قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم . وبالله التوفيق .

القسم الرابع : أن يقلل طالب العلم علائقه من أشغال الدنيا ، ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ، ويمنّيها بانقطاع الأشغال المتّصلة . فإن لكل وقت شغلا ، وفى كل زمان عذراً وينشد قول الشاعر[1] :

نروح ونغدو بحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضى
إذا ليلة هرّمت يومها أتى بعد ذلك يوم فتى

وقد روى عن عيسى عليه السلام أنه قال : يا عبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى شهوته من الدنيا ؟ ! .

فمن أراد العلم بصحة الاجتهاد والجد فليبعد عن الوطن والأهل ، فإن العلائق شاغلة عن المطلوب ، وصارفة عن درك المأمول ، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . فهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل : العلم والوطوطة[2] لا يجتمعان :

وقال بعض العلماء : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فإذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر . ومثال الفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول نهر تفرق ماؤه فتشفت الأرض بعضه ، واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزرع وبالله التوفيق .

---

(١) هو الصلتان العبدى واسمه قثم بن خبيئة شاعر إسلامى مجيد . وهذه الأبيات من قطعة له أولها :
أتاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومر العشى
(الشعر والشعراء : ١٢٠ ط الخانجى ١٣٢٢) .

(٢) الوطوطة . الضعف ، ومقاربة الكلام . والوطواطى . الكثير الكلام . والوطوط بضمتين الضعيف العقول والأبدان . ونسب أبو العباس الشماخى هذا القول لأيوب بن إسماعيل من علمائنا . السير : ٤٤١ .

القسم الخامس : أن لا يتكبر على العلم ، ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقى إليه زمام أمره بالكلية فى كل تفصيل ، ويذعن لنصحه إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق فبذلك ينال مطلوبه ويظفر بمأموله . وقال بعض العلماء : من لم يحتمل ذل التعلم ساعة احتمل ذل الجهل أبداً . وينشد :

بُنيَّ إذا ما مسك الذل قاهر ... عزيز فإن الذل للعز أحرزُ
فلا تحملن يوماً عليه تعززاً ... فقد يورث الذلُّ الطويل تعززُ

ولهذا قال ابن عباس : ذللت طالباً فعززت مطلوباً . وروى أنه كان ينام على أبواب الصحابة فى الهواجر للتعلم منهم حتى تلفح وجهه الهواجر .

وينبغى له أن يتواضع لمعلمه ، ويطلب الثواب والشرف بخدمته وعن الشعبى أنه قال : صلى زيد بن ثابت على جنازة ، فقدمت له بغلته ليركبها . فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله . فقال ابن عباس : هكذا أُمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء . فقبّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبيِّنا صلى الله عليه وسلم (١) .

وروت عائشة عنه عليه السلام أنه قال: «من وقّر عالماً فقد وقّر ربه عز وجل». (٢)
وقال على بن أبى طالب : لا يعرف فضل أهل الفضل إلا أهل الفضل . قال الشاعر :

إن المعلم والطبيب كليهما (٣) ... لا ينصحان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه ... واصبر لجهلك إن جفوت معلما

---

(١) أخرجه الطبرانى والحاكم والبيهقى ، إلا أنهم قالوا « هكذا نفعل » قال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم .
(٢) رواه الماوردى فى أدب الدنيا والدين . ٥٩
(٣) ورواية الماوردى : كلاهما . وكذلك فى ج

ثم ليعرف له فضل علمه ، وليشكر له جميل فعله ولا يمنعه من ذلك علو منزلته إن كانت له وإن كان العالم خاملا ، فإن العلماء بعلمهم استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال . وينبغى له أن يتلطف به ويتذلل ويتملق إليه بفعاله ولا يتجهَّل ؛ لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه ، والتذلل له سبب لإدامة صبره .

وقد روى عن معاذ رضى الله عنه عن النبى عليه السلام أنه قال : « ليس الملق من أخلاق المؤمن إلا فى طلب العلم »[1] والملَقُ معناه التودُّدُ واللُّطْفُ الشديد وقال بعض حكماء الفرس : إذا قعدت وأنت صغير بحيث تحب ، قعدت وأنت كبير بحيث لا تحب . وبالله التوفيق

القسم السادس : ألا يدع طالب العلم فنًّا من العلوم المحمودة إلا وينظر فيه نظراً يطلع منه على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه. وإلا أشتغل بالأهم فأستوفاه وتَطرَّفَ من البقية . فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه فى الحال الإنفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فإن الناس أعداء ما جهلوا . ولذلك قيل عن يحى بن خالد أنه قال لابنه : عليك بكل نوع من العلم فإن المرء عدو ما جهل ، وأنا أكره أن تكون عدواً لشىء من العلوم .

وأنشد الماوردى لابن دريد :[2]

جهلت فعاديت العلوم وأهلها ... كذاك يعادى العلمَ من هو جاهله

ومن كان يهوى أن يُرَى متصدراً ... ويكره لا أدرى أصيبت مقاتله

ولا ينبغى أن يتكبر على فن من العلوم المحمودة ؛ فإن العلوم على درجاتها إما سالكة

---

(١) أخرجه ابن عدى من حديث معاذ وأبى أمامة بإسنادين ضعيفين .

(٢) أدب الدنيا والدين : ٢٥

بالعبد إلى الله تعالى ، أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة ، ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد من المقصود . ومن تكبر الطالب للعلم أن يستكنف عن الاستفادة والتعلم إلا من المشهورين الكبراء ، وذلك عين الحماقة ؛ فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، فمن طلب مهرباً من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى المهرب مشهور أو خامل ، وضراوة سباع النار بالجهل بالله تعالى أشد ضراوة من كل سبع . فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ، ويتقلد المنة لمن ساقه إليها كائناً من كان ، نبيهاً كان أو خاملا ، ولا يطلب الصيت وعلو الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء إذا كان النفع بغيرهم أعم . إلا أن يستوى النفعان فيكون الأخذ عمن أشتهر ذكره وأرتفع قدره أولى ، لأن الانتساب إليه أجمل ، والأخذ عنه أشهر وقد قال الشاعر :

إذا أنت لم يشهرك علمك لم تجد ... لعلمك إنساناً من الناس يقبله

وإن صانك العلم الذى قد حملته ... أتاك له من يجتنيه ويحمله

فهما تكبر المتعلم عن العلم انحرف العلم عنه وصعب عليه بعد ذلك طلبه . ولذلك قال بعضهم :

العلم حرب للفتى المتعالى ... كالسيل حرب للمكان العالى

ولذلك قيل : إن المتواضع من طلاب العلوم أكثرهم علماً ، كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء .

القسم السابع : ينبغى للمتعلم أن يحترز فى مبدء الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس سواء كان [ما خاض فيه] من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة ؛ لأن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الادراك . بل ينبغى له أن يتقن أولا الطريقة الوحيدة المرضية عند أستاذه إذا كان أستاذه نقاداً بصيراً بفنون العلم ، مستقلا باختيار رأى

واحد ومذهب واحد . وإن كان أستاذه إنما عادته نقل المذاهب وما فيها ، ولم يعتقد رأياً فليحذر منه فإن ضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ، فمن حاله هذا فهو بَعْدُ فى عمى الحيرة ورتبة الجهل .

وإن كان أستاذه بصيراً بالعلم متخيراً لنفسه قولا واحداً يعتمد عليه ، ورعاً فى دينه فليلق إليه المتعلم زمام أمره بحسن الأصغاء والقبول ، وليكن فى ذلك لمعلمه كأرض ميتة نالت مطراً غزيراً فشربت بجميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق فى التعليم فليقلده وليدع رأيه ؛ فإنّ خطأ مرشده أنفع له من صواب رأى نفسه، إذ التجربة تطلع الانسان على دقائق يستغرب سماعها مع أنه قد يعظم نفعها ؛ وقد نبه الله تعالى على ذلك فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر : « **انك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا** »(١) ثم شرط عليه السكوت فقال : « **فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى احدث لك منه ذكرا** »(٢) ولم يزل فى مراودته إلى أن كان ذلك سبب فراق ما بينهما .

وبالجملة فكل متعلم آستغنى بنفسه رأياً واختياراً دون اختيار المتعلم فاحكم عليه بالخيبة والخسران : وبالله التوفيق .

القسم الثامن : أن يحذر المتعلم الإدلال على من يعلمه وإن أنسه وطالت صحبته معه ، لأن الإدلال على العلماء من فعل الجهال وفيه فساد الأحوال .

وقيل لبعض الحكماء : من أذل الناس ؟ قال : عالم يجرى عليه حكم جاهل . قال(٣): وكلّمتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبى فقال لها : من أنت ؟ فقالت : بنت الرجل الجواد حاتم :

---

(١) الكهف . [٦٧ — ٦٨] .
(٢) الكهف . [٧٠] .
(٣) أى الماوردى . أدب الدنيا والدين : ٦٠

فقال صلى الله عليه وسلم : « إرحموا عنى ثلاثة : غنياً افتقر ، وعزيزاً ذل ، وعالماً ضاع بين الجهال »[١] . وليحذر المتعلم استهانة معلمه ولو وجد فى نفسه استغناء ، فإن فى ذلك كفراً لنعمته واستخفافاً بحقه فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لأبى البطحاء :

أعلّمه الرِّماية كل يوم فلما أشتد ساعده رمانى

وهذه الحالة من مصائب العلماء أن يصيروا عند من علّموه مُستَجهلين، وعند من قدموه مسترذلين . وقد قال صالح بن عبد القدوس :

وإن عناء أن تعلم جاهلا ويزعم جهلا أنه منك أعلم[٢]
متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهى عن سيىء من أتى به إذا لم يكن منه عليه تندّم

وقد رجح كثير من العلماء حق العالم على حق الوالد ، لأن الوالد يحفظه من نار الدنيا ، والعالم يحفظه من نار الآخرة .

ومع هذا فلا ينبغى له أن يحملنه معرفة الحق له حتى يقبل كل شبهة أتت من جهة معلمه ، ولا يدعوه ترك الإعنات[٣] له على التقليد فيما أخذ عنه ؛ فإنه ربما غلا بعض الأتباع فى عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وإن لم يستدل . وليكن المتعلم معتدل الرأى فيمن يأخذ عنه ، متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لا يحمله الإعنات على اعتراض المبكتين[٤] ، ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين ، فإذا فعل ذلك برىء من المذمتين ، وسلم العالم من المحنتين ، فليس كثرة السؤال فيما التبس إعناتا ، ولا ماصح فى النفس تقليداً . وقد قيل لابن عباس : بم نلت هذا العلم ؟ فقال : بلسان سئول ، وقلب عقول . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حسن السؤال نصف العلم » .

(١) الماوردى : أدب الدنيا والدين : ٦٠
(٢) وفى أدب الدنيا والدين : ٦١ فيحسب جهلا أنه منك أعلم .
(٣) الإعنات : دخول المشقة .
(٤) التبكيت : الغلبة بالحجة .

وأنشد المبرد للغنوى[1] :

فسل الفقيه تكن فقيها مثله ... لاخير فى علم بغير تدبُّر

وإذا تعسرت الأمور فأرْجها ... وعليك بالأمر الذى لم يعسر

وربما تتبع نفس المتعلم من بعد عنه من العلماء استهانة بمن قرب منه ، وطلب ماصعب احتقاراً لما سهل عليه فلا يدرك محبوبا ولا يظفر بطائل . وقد قالت العرب فى أمثالها : العالم كالكعبة ؛ يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء . وأنشد الماوردى عن بعض شيوخه للمسيح بن حاتم[2] :

لاترى عالما يحل بقوم ... فيحلوه غير دار الهوان

قلَّما تُوجد السلامة والصحة مجموعتين فى إنسان

فإذا حلَّتا مكاناً سحيقاً ... فهُما فى النُّفوس معشوقتان

هذه مكة العزيزة بيت الله يسعى لحجِّها الثَّقلاَن

وترى أزهد البرية فى الحج لها أهلها لقرب المكان

وينبغى للمتعلم أن يكون فى طلب العلم راغباً فى ثواب الله راهبا من عقابه . وقد قالت الحكماء : أصل العلم الرغبة ، وثمرته السعادة . فإذا اجتمعت فيه الرغبة فى ثواب الله ، والرهبة من عقاب الله أدياه إلى كنه حقيقة العلم وحقيقة الزهد ، فإذا اقترن العلم والزهد فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة ، وإن افترقا فياويح مفترقين ما أضر افتراقهما وأقبح انفرادهما . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من ازداد فى العلم رشداً

---

(١) المبرد : هو أبو العباس محمد بن يزيد من أئمة اللغة والأدب . وكان شاعراً أديباً عالماً باللغة والنحو والتصريف . ولد بالبصرة سنة عشر ومائتين ، ثم رحل إلى بغداد ، وما زالت همته تسمو حتى صار إمام العربية فيها . وله فيها من الكتب كتاب الكامل ، وهو أشهر كتبه .

(٢) أدب الدنيا والدين : ٦٣

ولم يزدد فى الدنيا زهداً لم يزدد من الله إلا بعداً »[١]. وقال مالك بن دينار[٢] : من لم يؤت من العلم ما يقمعه فما أوتى من العلم لا ينفعه .

القسم التاسع : ينبغى لطالب العلم ألا يقصر فى طلب وبتهز الفرصة ولا يشتغل بالفراغ فإنه من الفراغ تكون الصبوة قال الشاعر :

لقد هاج الفراغ عليك شغلا وأسباب البلاء من الفراغ

وقال بعض العلماء : من أمضى يومه فى غير حق قضاه ، أو فرض أداه ، أو مجد أثله ، أو حمد حصله ، أو خير أسسه ، أو علم اقتبسه فقد غبن يومه وظلم نفسه .

وقال : بزرجمهر : إن يكن الشغل مجهدة فإن الفراغ مفسدة .

وينبغى له أن يبتدىء العلم من أوله ، ويأتيه من مدخله ، ولا يتشاغل بطلب مالا يضر جهله فيمنعه ذلك من إدراك مالا يسع جهله ، فإن لكل علم فضولا مشغلة إن صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها ، وقد قال ابن عباس : العلم أكثر من أن يحصى ، فخذوا من كل شىء أحسنه .

وينبغى ألا يغفل فى الصغر عن التعلم لأنه أحمد من التعلم فى الكبر . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل الذى يتعلم فى صغره كالنقش على الصخرة ، والذى يتعلم فى كبره كالذى يكتب على الماء »[٣] .

---

(١) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين ١ : ٥٩ هكذا : « من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً » . وقال أبو الفضل العراقى فى تخريجه : أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس وحديث على بسند ضعيف إلا أنه قال « زهداً » وروى ابن حبان فى روضة العقلاء موقوفاً على الحسن « من ازداد علما ثم ازداد على الدنيا حرصا لم يزدد من الله إلا بعداً » .

(٢) هو أبو يحى مالك بن دينار . كان مولى لامرأة من بنى سامة بن لؤى . وكان من كبار الوعاظ الزهاد ، وكان يكتب المصاحف . روى عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التابعين توفى نحو سنة ١٣٠ هـ .

(٣) أخرجه الطبرانى عن أبى الدرداء

وقال على : قلب الحدث كالأرض الخالية ؛ ما ألقى فيها من شيء قبلته . وإنما كان كذلك لأن الصغير أفرغ قلباً وأقل شغلا ، وأيسر تبدلا وأكثر تواضعاً . وأما أن يكون الصغير أضبط من الكبير إذا عرى من هذه الموانع ، وأوعى منه إذا خلا من هذه القواطع فلا .

وحكى أن الأحنف بن قيس سمع رجلا يقول : التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر . فقال الأحنف : الكبير أكثر عقلا ولكنه أشغل قلباً[١] . ولكن تعلم الكبير أوجب لأن الأولى به أن يكون شيخا متعلما لا شيخا جاهلا؛لأن الصغير أعذر وإن لم يكن فى الجهل عذر . ولذلك قيل فى منثور الحكم : جهل الشباب معذور وعلمه محقور ، وأما الكبير فالجهل به أقبح ونقضه عليه أفضح .

وينبغى لمن زهد فى العلم أن يكون فيه راغباً ، ولمن رغب فيه أن يكون طالباً ، ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرا ، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا . ولا يطلب لتركه احتجاجاً ولا للتقصير فيه عذراً . قال الشاعر :

ولا تعذرونى فى الإساءة إنه شرار الرجال من يسيء فيعذر[٢]

آخر :

فاياك والأمر الذى إن توسعت مواردة ضاقت عليك مصادره

فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذره

وينبغى للمتعلم أن يشعر قلبه الصبر على معاناة الحفظ ، ولا يستثقل الدرس والحفظ

---

(١) الخبر فى البيان والتبيين : ١/٢٥٧ وروايته : الكبير أكبر عقلا .

(٢) البيت فى البيان والتبيين (١ : ١٩٨) وفى الحيوان (٣ : ١١١ ، ٧/٤٨٢ : ٢٦٠) .

ويتكل بعد فهم المعانى على الرجوع إلى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة إليها . والعرب تقول فى أمثالها ـ حرف فى قلبك خير من ألف فى كتبك قال الشاعر .

عليك بالحفظ بعد الكتب تجمعها فإن للكتب آفات تفرقها
فالفار يخرقها والنار تحرقها والماء يغرقها والكف يسرقها

وفى المثل ـ حرف فى تأمورك[١] خير من ألف حرف فى دستورك[٢] . وقالت العرب : لا خير فى علم لا يعبر معك الوادى ، ولا يعمر بك النادى . قال الشاعر :

إذا ما غدت طلاّبة العلم مالها من العلم إلا ماتحصل فى الكُتْبِ
غدوت بتشمير وجد عليهم فمحبرتى أذنى ودفترها قلبى

وأنشد عن الشافعى[٣] :

علمى معى حيثما يممت ينفعنى قلبى وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى أو كنت فى السُّوق كان العلم فى السُّوق

وينبغى للمتعلم أن يتفكر بعد الحفظ فى معانى الألفاظ . وقد روى عن النبى عليه السلام أنه قال : « همة السفهاء الرواية ، وهمة العلماء الرِّعاية » الذى لا يقطع شبهة ولا يؤيد

ومثل الذى يحفظ الألفاظ ولا يفهم معانيها كالكاتب [redacted] حجة . وكالحمار يحمل أسفاراً ولا يدرى ما عليه . قال الشاعر يهجو قوما[٤] :

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيِّدِها إلا كعلم الأباعر
لعمرك مايدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما فى الغرائر

---

(١) التأمور ، القلب وحبته .
(٢) الدستور : النسخة من الكتاب يحرر منها معربة وجمعها دساتير
(٣) الماوردى . ادب الدنيا والدين ص ٤٨ وروى صدر البيت الأول هكذا . علمى معى حيثما يممت يتبعنى .
(٤) الشاعر هو مروان بن ابى حفصه شاعر اسلامى والأبيات فى العقد الفريد (٢ ـ ٢٧٩)

وعن ابن مسعود رحمه الله : كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة ، فقد يرعوى من لا يروى ، أو يروى من لا يرعوى . وحكى أن الحسن البصرى حدث بحديث فقال له رجل : يا أبا سعيد ، عمّن؟ فقال : ما تصنع بعمّن ! أمّا أنت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته . ومع هذا فلا ينبغى للمتعلم أن يعتمد على حفظه وتصوره ويغفل عن تقييد العلم فى الكتب . فإن هذا منه خطأ وغلط ؛ لأن التشكيك معترض ، والنسيان طارىء .

وقد روى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قيدوا العلم بالكتابة »(١) . وشكى إليه رجل النسيان فقال له عليه السلام : « استعمل يدك »(٢) . أى اكتبه حتى ترجع إذا نسيت إلى ما كتبت .

وقال الخليل بن أحمد(٣) : اجعل ما فى الكتب رأس المال ، وما فى القلب النفقة . وقال بعض السلف : لولا ما عقدته الكتب من تجارب الأولين ، لأنحل مع النسيان عقود الآخرين . وقال بعض البلغاء : إن هذه الآداب نوافر تند(٤) عن عقول الأذهان ، فاجعلوا الكتب عنها حماة ، والأقلام لها رعاة

وقد روى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « أو أثارة من علم » . (٥) قال : يعنى :

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى آداب السامع ، وتقييد العلم ٦٩ ، وجامع بيان العلم ج ١ : ٧٢ . ولفظه : « قيدوا العلم بالكتاب ».

(٢) وروى هكذا : «استعن على حفظك بيمينك» روى عن أبى هريرة . وتقييد العلم ص٦٥،٦٦ وقد أخرجه الترمذى أيضاً من طريق أبى هريرة . أنظر توضح الأفكار ص ٣٥٣ الجزء الثانى .

(٣) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، وأبوه أول من سمى فى الإسلام بأحمد ، وأصله من الأزد من فراهيد . وكان غاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس ، وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب ، وكان من الزهاد فى الدنيا المنقطعين إلى العلم ، وكان شاعراً مقلا . واشتهر عند أصحابنا أنه إباضى ، وإلى ذلك ذهب ابن عبد ربه . انظر العقد الفريد ٢ : ٧٣ وتوفى الخليل بالبصرة سنة سبعين ومائة . وعمره أربع وسبعون سنة ، وله من الكتب المصنفة كتاب العين .

(٤) ند : نفر ، وشرد .

(٥) الأحقاف : ٤

الخط . وعن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً[١] ﴾ . يعنى الخط .

وقال حكيم الروم : الخط هندسة روحانية ، وإن ظهرت بآلة جسدانية[٢] .

وقال حكيم العرب : الخط أصل[٣] فى الروح وإن ظهر بحواس الجسد .

واختلف فى أول من كتب الخط . يذكر عن الماوردى[٤] أنه ذكر عن كعب الأحبار : أن أول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة فى طين ثم طبخه ، فلما غرقت الأرض فى زمان نوح عليه السلام بقيت الكتابة ، فأصاب كل قوم كتابهم ، وبقى الكتاب العربى إلى أن خص الله به اسماعيل عليه السلام فأصابه وتعلمها[٥] .

وحكى عن ابن قتيبة أن أول من كتب الخط إدريس عليه السلام ، واختلف فى أول من كتب بالعربية فذكر عن كعب الأحبار أنه آدم عليه السلام ، ثم وجدها بعد الطوفان إسماعيل عليه السلام. وحكى ابن عباس[٦] : أن أول من كتبها ووضعها إسماعيل على لفظ رمنطقه .

وحكى عروة بن الزبير أن أول من كتب قوم من الأولين ؛ وأسماؤهم : أبجد ، وهوز ، وحطى ، وكلمن ، وسعفص ، وقرشت ، وكانوا ملوك مدين . وحكى ابن قتيبة

---

(١) ٢٦٩ : البقرة .

(٢) فى أدب الدنيا والدين : جسمانية .

(٣) فى أدب الدنيا والدنيا : ٥٠ (أصيل)

(٤) أدب الدنيا والدين : ٥١

(٥) أنظر أصل الخط العربى فى : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ٤ : ٢١٢ وما بعدها ، البلاذرى ، فتوح البلدان ٤٧٦ ـ ٤٧٧ . والقلقشندى ، صبح الأعشى ٣ : ١١ وما بعدها . وابن النديم ، الفهرست : ١٢ ـ ١٣ .

(٦) أدب الدنيا والدين : ٥١ . والفهرست : ١٣ .

فى المعارف[١] أن أول من كتب بالعربية : مرامر بن مروة ، وأسلم بن سدرة . وعامر ابن جدرة . فمرامر وضع الصور، وأسلم وصل وفصل ، وعامر وضع الإعجام، والله أعلم .

القسم العاشر : فى الشروط التى يتوفر بها علم الطالب بعد عون الله تعالى وحسن توفيقه وهى بالجملة عشرة .

أحدها : العقل الذى به يدرك حقائق الأمور لأن معانى الأشياء التى يتوصل إليها مستودعة فى كلام مترجم عنها ، وكل كلام مستعمل فيه فهو يجمع لفظاً مسموعاً ومعنى مفهوماً ، فاللفظ كلام يعقل بالسمع ، والمعنى تحت اللفظ يفهم بالعقل .

الثانى : الفطنة التى يتصور بها غوامض العلوم ، ولذلك قال بعض الحكماء : العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه : عقل مفكر ، ولسان معبر ، وبيان مصور . فإذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه ، وإذا فهم المعانى سقطت عنه كلفة استخراجها وبقى عليه معاناة حفظها واستقرارها ؛ لأن المعانى شوارد تضل بالاغفال ، والعلوم وحشية[٢] تفر بالارسال.

الثالث : الذكاء الذى به يستقر حفظ ما تصوره ، وفهم ما علمه ، فإذا حفظ علمه بعد الفهم أستقر وأنس ، وإذا ذاكر به بعد القرار رسا وثبت . وقد قال بعض الحكماء : من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم ، وأستفاد ما لم يعلم ، قال الشاعر :

إذا لم يذاكر ذى العلوم بعلمه ... ولم يستفد علماً نسى ما تعلما

فكم جامع للكتب فى كل مذهب ... يزيد مع الأيام فى جمعه عمى[٣]

---

(١) وأنظر : الفهرست ١٢ ـ ١٣ . وأدب الدنيا والدين : ٥١ .

(٢) الوحشية : النافرة التى لا تأنس إلا بالخلاء .

(٣) أنظر البيتين فى أدب الدنيا والدين : ٤١ .

الرابع : الشهوة التى يدوم بها الطلب ، ولا يسرع إليه الملل ؛ لأن من صدقت شهوته فى العـــلم ، وبعدت همته فى الطلب . لابد أن يشعر قلبه الصبر بقوة شهوته ويشعر جسده احتمال التعب لبعد همته ، فيعقبه ذلك إلحاح الملحين الآملين ، ونشاط المدركين ، فقل عنده كل كثير ، وسهل عليه كل عسير . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون ، ولا تبلغون ما تهوون إلا بترك ما تشتهون » .

وقيل فى منثور الحكم : أتعب قدَمَك فكم تعب قدَّمك . وقال بعض البلغاء : إذا اشتد الكَلَفُ هانت الكُلَفُ[1] .

الخامس : الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلفة الطلب . ولذلك قيل : لا يصح العلم لطالبه إلا بوجود أربعة : الكتب الصحاح ، وسعة المؤنة ، وذهن حاضر ، وعالم نقاد بصير بفنون العلم . وقال بعض البلغاء : من بلغ أشده[2] لاقى من العيش أشده . ويقال : من أهتم ببصلة لم ينتفع بمسألة .

قال بعض مشائخنا رحمهم الله بعكس هذا فقال: إنما يتعلم العلم مثل أبى عبيدة البغطورى[3] الذى يبل الشعير ويصره فى طرفه ثم يفطر عليه وعلى الخبيز وهو صائم . ولا يأكل العيش المطبوخ إلا فى ليلة الجمعة الأخرى ، والله أعلم .

---

(١) الكلاف الأولى : بالفتح الولوع بالشىء والغرام به ، والكلاف الثانية جمع كلفة ، وهى ما تكلفته من نائبة ، أو ما تحملته من مشقة .

(٢) بلغ أشده : أى قوته ، وهو ما بين ثمانى عشر إلى ثلاثين سنة .

(٣) أبو عبيدة جلدين البغطورى ، نسبة إلى بغطورة من قرى قفوسة ، وتقع غربى جربجن . وهى الآن خراب . من علماء أواخر القرن الرابع كان عالماً متفننا ، أخذ العلم عن أبى عبد الله محمد ابن جلداسن اللالوتى ، كان قليل الحظ من الدنيا ، وله من العلم والعبادة الحظ الأوفر ، ومن الصبر النصيب الأكمل ، ومن القناعة السهم الأجزل ، نال شهرة كبيرة وكان أعلم أهل زمانه ، وأخذ عنه خلق كثير . جعله محمد بن زكرياء الباروني فى الطبقة الثامنة ، وتجد أخباره فى سير الشماخى ص٣٢٨.

السادس : الفراغ من العلائق ؛ لأن به يكون التوفر فى الطلب ، ويحصل به الاستكثار من العلم . ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك . وقد تقدم هذا .

السابع : عدم القواطع المذهلة من هموم وأشغال وأمراض ولذلك قال بعض البلغاء : القلب إذا علق كالرهن إذا غلق[1] . وقيل فى منثور الحكم : الهم قيد الحواس فإن كان ذا معيشة قاطعته ، وإن كان ذا رئاسة ألهته . ولذلك قيل : تفقهوا قبل أن تسودوا .

الثامن : طول العمر واتساع المدة ، لينتهى بالاستكثار إلى الكمال . وقال الاسكندر : يحتاج طالب العلم إلى أربع : مدة وجدة ، وقريحة وشهوة ، وتمامها فى الخامس معلم ناصح . ولذلك قيل :

لابد للعلم من ست لطالبه ... من فيلسوف ودود غير منان
ومن زمان ومن أمن يشايعه ... ومن مكان وإمكان وإخوان

وقال الآخر :

خصال العلم أربعة ... فأولها التجرد له
وحفظك ثم فهمكه ... وحملكه عن الحملة
خصال من تكن فيه ... وإلا لم ينل أمله

التاسع : الظفر بعالم سمح بعلمه ، متأت[2] فى تعليمه ، صادق فى كل كلامه ، بصير بفنون العلم ، ناصح للمتعلم ، ولذلك قيل عن أبى عبيدة مسلم رحمه الله أنه قال : لا يؤخذ العلم من أربعة : رجل كذاب وإن كان يصدق فى فتواه ، ورجل مبتدع

---

(١) غلق الرهن : استحقه المرتهن ؛ وذلك إذا لم يفتكك فى الوقت المشروط .
(٢) متأت فى تعليمه : متوفق فيه .

فى الدين ، ورجل سفيه مشهور السفه[١] ، ورجل لا يفرز مذهبه من مذهب غيره . فإذا ظفر بمعلم ناصح ذى دين ، فعليه أن يوقره ويتذلل لديه بحسن التأدب ، فبذلك ينال بغيته منه إن شاء الله . وقد قال أنوشروان لبزرجمهر : من أدبك ؟ قال : قريحتى ؛ نظرت إلى ما استحسنت من غيرى فاستعملته ، وما استقبحته اجتنبته . ولقد أستفدت من كل شىء محاسنه ، وأخذت من الخنزير قناعته ، ومن الكلب محافظته ، ومن القرد مساعدته ، ومن الحمار صبره ، ومن السنور[٢] لطف المسألة عند الخوان[٣] . فقيل له : بماذا نلت ما نلت من العلم ؟ فقال : ببكور كبكور الغراب ، وحرص كحرص الخنزير ، وصبر كصبر الحمار ، وتملق كتملق القط .

وقيل لبعض السلف : بم أدركت ما أدركت من العلم ؟ فقال : بقلب ذكى وأب غنى . فإذا امتثل المتعلم ما ذكرنا كان جديراً بأن ينال من العلم مقصوده . وبالله التوفيق .

العاشر : تقوى الله عز وجل وهو رأس كل بر وبه ينال المتعلم مقصوده من الخير فى الدنيا والآخرة ، قال الله سبحانه وتعالى : « **واتقوا الله ويعلمكم الله** »[٤] وقال النبى عليه السلام : « من عمل بما علم ، أورثه الله عز وجل علم بما لم يعلم »[٥] وحديث على بن أبى طالب فيه جميع وظائف الأدب التى يحتاج إليها المتعلم لمعلمه وذلك أنه قال : إن من حق العالم ألا تكثر عليه السؤال ، ولا تعنته[٦] فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ،

---

(١) السفه : خفة الحلم ، والجهل .

(٢) السنور : القط .

(٣) الخوان : مائدة الأكل

(٤) البقرة : ٢٨٢

(٥) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وضعفه .

(٦) العنت : إدخال المشقة على الإنسان ، والتعنت الذى يقصد بسؤاله الأذى والامتحان .

ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تشير عليه بيدك ، ولا تفش له سراً ، ولا تغتاب عنده أحداً . ولا تطلبن عثرته ، فإن زل أنتظرت أوبته وقبلت معذرته . وأن توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله ، ولا تمش أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته ، ولا تتبرم من طول صحبته ؛ فإنما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى تسقط عليك منها منفعة ، وإذا جئت فسلم على القوم وخصه بالتحية ، وأحفظه شاهداً أو غائباً ، وليكن ذلك كله لله فإن العالم أعظم أجراً من الصائم القائم المجاهد فى سبيل الله ، وإذا مات العالم أنثلمت من الإسلام ثلمة إلى يوم القيامة لا يسدها إلا خلف مثله ، وطالب العلم تشيعه ملائكة السماء . وبالله التوفيق .

الفصل الثانى

فى وظائف ما على العالم المعلم المرشد من الآداب

إعلم أن للإنسان فى علمه أربعة أحوال ، كما له فى ذلك إقتناء الأموال ؛ إذ لصاحب المال حالة استفادة فيكون مكتسباً ، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال ، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعاً ، وحال بذل لغيره فيكون به سخياً متفضلا وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتنى[1] كالمال ، فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يغنى عن السؤال ، وحال استبصار ؛ وهو التفكر فى المحصل والتمتع به ، وحال تبصير وتعليم لغيره وهو أشرف الأحوال . فمن عَلِم وعمل وعَلَّمَ فهو الذى يدعى عظيماً فى ملكوت السموات ؛ فإنه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيب وهو طيب . وأما الذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم ، والمِسَنّ الذى يشحذ[2] غيره ولا يقطع ، وكالإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية ، وكفتيلة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق ، وفى مثله يقال :

صرت كأنى ذبالة نصبت تضىء للناس وهى تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً ، فليحفظ وظائف آدابه ، وتنحصر بالجملة فى عشرة وظائف :

أحدها : أن يكون المعلم عاملا بعلمه أولا . لئلا يكون كما قال الله تعالى :

---

(١) يقتنى : يكتسب .

(٢) شحذ السكين : أحدها .

« **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** »[١] وقال تعالى « **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا** »[٢] وقال تعالى « **كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** »[٣] وعن قتادة في قوله تعالى : « **وإنه لذو علم لما علمناه** »[٤] يعني أنه عامل بما علم . فإذا خالف فعل العالم قوله سقطت حكمته وامتنع الناس عن قبولها ، لأن الحكمة والعلم إنما يدركان بالبصائر ، والعمل والقول بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر ؛ فكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس به ، واتهموه ، وزاد حرصهم عليه ، فيقولون : لولا أنه أعز الأشياء وألذها لما كان ينفرد به . ولذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه . وقالوا : ما نهينا عنه إلا وفيه شيء »[٥] ولذلك قال الشاعر :

منعت شيئاً فأكثرت الولوع به ... أحب شيء إلى الإنسان ما منعا

ومثال المعلم المرشد من المتعلم المسترشد مثل العود من الظل ، ومثل القلب من الجوارح[٦] ، فكيف يستوى الظل والعود أعوج ، وكيف تستقيم الجوارح والقلب معوج ، ولذلك كان وزر[٧] العالم في معاصيه أكثر ؛ إذ يزل بزلته خلق كثير يعتدون به ، ومن سن سنة سيئة فله وزرها ، ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة . ولذلك قيل عن علي ابن أبي طالب أنه قال : قصم[٨] ظهري رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متمسك ، فالجاهل يغتر الناس بتنسكه ، والعالم ينفرهم بتهتكه .

---

(١) البقرة : ٤٤ (٢) الجمعة : ٥

(٣) الصف : ٣ (٤) يوسف : ٦٨

(٥) قال أبو الفضل العراقي : لم أجده .

(٦) الجوارح : أعضاء الإنسان التي تكسب .

(٧) الوزر : الإثم . (٨) قصم : كسر .

فالواجب على العالم أن يعمل بما يعلم ، ولا يقول بما لا يفعل ، ولا يأمر بما لا يأتمر ، ولا يسر غير ما يظهر ، وقد روى عن النبى عليه السلام أنه قال : « ويل لأتباع القول ، وويل للمصرين » . يريد بأتباع القول الذين يستمعون القول ولا يعملون به . ويروى أن الخضر عليه السلام قال لموسى عليه السلام : يا ابن عمران ، تعلم العلم لتعمل به ، ولا تتعلمه لتحدث به ، فيكون عليك بوره ، ولغيرك نوره . وقيل فى منثور الحكم : لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به .

وقال بعض الحكماء : خير العلم ما نفع ، وخير القول ما ردع : وعن على أنه قال : إنما زهد الناس فى طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم .

وكان يقال : خير من القول فاعله ، وخير من الصواب قائله ، وخير من العلم حاصله . وقال بعض البلغاء : من تمام العلم استعماله ، ومن تمام العمل استقلاله(١) ، فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ، ومن استقل عمله لم يقتصر عن مراد . قال أبو تمام الطائى :

ولم يحمدوا من عالم غير عامل خلاقاً ولا من عامل غير عالم
رأوا طرقات المجد عوجا قطيعة وأقطع عجز عندهم عجز حازم

واعلم أن أمر العالم غيره بما لا يعمل به مُطَّرَح(٢) وإنكاره لما لا ينكره من نفسه مستقبح ، بل ربما كان ذلك سبباً لإغراء المأمور بترك ما أمر به عناداً ، وارتكاب مانهى عنه كياداً(٣) . وقد حكى أن أعرابياً سأل ابن أبى ذئب عن كلام وقع منه فى زوجته فأفتاه بطلاقها . فقال الأعرابى : أنظر حسناً . قال : قد نظرت ، وقد بانت(٤) منك . فولى الأعرابى وهو يقول :

---

(١) استقل الشىء : عده قليلا : استقله استقلالا .
(٢) المطرح : رماه وأبعده .
(٣) كياداً : مكراً وخبثا .
(٤) بانت : انقطعت وانفصلت .

أتيت ابن ذئب أبتغى الفقـــه عنـــده
فطلـــق حتى البَتَّ بتّت أنامـــله[1]

أطاق من فتـوى ابن ذئب حليلـتى !؟
وعنـد ابن ذئب أهـــــله وحـلائله !

فظن بجهله أنه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق . فما ظنك بقول يوجب اشتراك الآمر والمأمور فيه ، كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له ؟ كلاحتى يأتمر به ويعمل به ؛ لأن علمه لما كان فيه حجة على من أخذه عنه ، وأقتبسه منه، كان عليه أحج ، وله ألزم . لأن مرتبة العمل قبل مرتبة القول ، كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل . وبالله التوفيق .

الوظيفة الثانية :

الشفقة على المتعلمين منه ؛ أن يجريهم مجرى بنيه فى التعهد لأحوالهم ، وقد روى عن النبى عليه السلام من طريق ابن عمر أنه قال : « وقروا من تتعلمون منه ، ووقروا من تعلمونه العلم . . . »[2] .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال[3] : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تُعَلِّمون ، وليتواضع لكم من تعلمونه ، ولاتكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم .

فلما كان الأمر ما وصفنا ، كان جديراً على المعلم أن يشفق على المتعلمين منه شفقة

---

(١) البت : القطع . وطلقتها بتة وبتاتا : أى بتلة بائنة ؛ طلقها طلاقا بائنا لا رجعة فيه . وبتت أنامله ، يدعو عليه بقطعها .
(٢) أنظر أدب الدنيا والدين : ٧٧ .
(٣) الجامع الكبير ، مسند عمر حديث ٥٠٦ ، أخبار عمر للطنطاويين : ٣٣٢ .

الوالد على أولاده . . وقد روى عن النبى عليه السلام أنه قال : « أنا لكم مثل الوالد ، أعلمكم أمر دينكم »(١) ؛ وذلك أن يقصد بتعليمهم إنقاذهم من نار الآخرة فهو أهم من إنقاذ الأبوين ولدهما من نار الدنيا . ولذلك صار حق العالم المعلم أعظم من حق الأبوين لأنهما سبب لوجود الولد فى الدنيا الفانية والمعلم سبب لخلوده فى نعيم الحياة الآخرة الدائمة ، أعنى معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، وأما المعلم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله من سوابق الشقاء . فكما أن حق أولاده الرجال أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد ، فحق تلاميذ المعلم الواحد التحاب والتعاون ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ، ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصودهم الدنيا ؛ فإن العلماء وأبناء الدنيا مسافرون إلى الله عز وجل وسالكون إليه الطريق ، فالدنيا وسكونها وشهورها منازل إليه . كما أن المسافرين فى الطريق إلى بعض الأمصار لابد لهم من التعاون والتوادحتى يقطعوا الطريق إلى المصر . وإذا اختلفت كلمتهم وتباغضوا كان ذلك سبب هلاكهم فى الطريق ، فلما كان سفر الدنيا بهذه الحالة ، فالسفر إلى الله تعالى وإلى الفردوس الأعلى أحق بالترافق والتواد فى طريقه ، ولا ضيق فى طريق سعادة الآخرة ، ولذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولاتباغض ولا تحاسد ، وأما السالكون بطريق تعلمهم وتعليمهم طلب الرئاسة فهم خارجون عن موجب قول الله تعالى : « **انما المؤمنون اخوة** »(٢) وداخلون فى قوله تعالى « **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين** »(٣).

الوظيفة الثالثة :

أن يقصد العالم بتعليمه وجه الله تعالى . ويقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه فى أن يطلب ثواب الله فى تعليم من علم ، وإرشاد من أرشد ، ولا يطلب بذلك فى الدنيا

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجة وابن حبان من حديث أبى هريرة .

(١) الحجرات : ١٠ (٣) الزخرف : ٦٧

عوضاً ولا أجراً، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : « **قل ما سألتكم من اجر فهو لكم ان اجرى الا على الله** »(١) . وقال تعالى : « **ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا** »(٢) .

وعن أبى العالية قال : لا تأخذوا عليه أجراً ، وهو مكتوب عندكم فى الكتاب الأول: يا ابن آدم علم مجاناً ، كما علمت مجاناً . وقد روى عن النبى عليه السلام أنه قال : « أجر العالم كأجر الصائم القائم »(٣) . فحسب من هذا أجره أن يلتمس عليه أجراً . أو يرى لنفسه منة على المتعلمين منه ، ولو كانت المنة لازمة لهم . بل ينبغى أن يرى لهم المنة عليه إذا طهروا قلوبهم بأن يتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها كالذى يعيرك أرضه لتزرع فيها زراعة لنفسك فالمنة لصاحب الأرض عليك ، وثواب المعلم فى التعليم أكثر من ثواب المتعلم ، ولولاه ما نال المعلم ذلك الثواب الجزيل . فلا ينبغى له أن يطلب الأجر إلا من الله تعالى ، وإلا فقد أبطل ثوابه ، وخسر سعيه . وإنما الأليق بالعلماء نزاهة النفوس عن شبه المكاسب . والقناعة باليسور من كد المطالب ، فبذلك تزكو نفوسهم ويسلم دينهم وأعراضهم ، ويتوفر علمهم وتوجد له الحلاوة والقبول من أنفس المتعلمين والمنتفعين منهم لأن شبهة المكسب عار فى الدنيا ؛ ونار فى العقبى ، وكد المطلب إذلال للنفس وإهانة للعلم وأنشد الماوردى(٤) لعلى بن عبد العزيز القاضى الجرجانى(٥) :

---

(١) سبأ : ٤٧ .
(٢) البقرة : ٧٩ ، المائدة : ٤٤
(٣) أدب الدنيا والدين : ٧٧
(٤) أدب الدنيا والدين : ٧٦

(٥) على بن عبد العزيز الجرجانى : أبو الحسن المشهور بالقاضى . ولد فى جرجان سنة ٢٩٠ هـ ونشأ بها ، زار العراق والشام والحجاز ولقى مشايخ وقته وعلماء عصره ، واقتبس العلم والآداب وصار فيهما علماً وإماما . اشتهر بالفقه وفسر القرآن الكريم وأشتغل بالتاريخ ، وله من الكتب « تفسير القرآن » ذكره ياقوت فى معجم الأدباء ، وكتاب « تهذيب التاريخ » نقل عنه ابن خلدون فى تاريخه . وله كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه . وله أيضاً ديوان شعر ذكره ابن خلكان . وقد أورد ياقوت فى معجم الأدباء والثعالبى فى يتيمة الدهر طائفة كبيرة من شعره تدور حول الفخر والمديح والغزل والحنين .

يقولون لى فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما(١)

أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما

وما زلت منحازاً بعرضى جانباً ... من الذم أعتد الصيانة مغنما

ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته لى سلما

وما كل برق لاح لى يستفزنى(٢) ... وما كل من فى الأرض أرضاه منعما

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما

أنهنهها(٣) عن بعض ما قد يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أو لما

ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما

أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما(٤)

أنظر كيف انتهى أمر [الدين إلى] الذين يزعمون أنهم للعلم موضع وللدين مفزع ، وأن مقصدهم به حشر الجهال وكثرة الأتباع ، ومخالطة ذى الأموال من الغوغاء والرعاع ، وأن غرضهم بهذا كله زعموا إحياء الدين وإقامة الحق المبين ، فأضطرهم حب الدنيا وطلب الرئاسة وجمع الحطام إلى استدراج العوام بالخدع الدينية ، واستعمال المداهنة فى الدين حتى اندرس بالكلية ، فصاروا ضحكة عند الجهال ، وخداما لأرباب الأموال ؛ يتذلل أحدهم

---

(١) أحجم : كف أو نكص هيبة .

(٢) استفزه : استخفه وأخرجه من داره .

(٣) نهنهه عن الأمر : كفه وزجره .

(٤) تجهمه : استقبله بوجه كريه . وحتى تجهما : حتى بدا بوجه كريه .

للجاهل من تلامذته ، وينتهض له حماراً مسخراً لقضاء حاجاته فإن قصر فى ذلك ثار عليه وصار من أعدى أعدائه ، أخسِس[١] بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح مع ذلك برضى الجاهل عنه ، واجتماع السفلة عليه . فصار من يدعى العلم والمعرفة يتضرع للجهال ، ويتبصبص[٢] لذوى الأموال. كيف والمال وجميع مافى الدنيا خادم للبدن الذى هو مركب للنفس ومطيتها ، والمخدوم هو العلم ؛ إذ به شرف النفس ونجاتها ، فمن طلب المال بالعلم كان كمن مسح نعله برجله ليطهر النعل من الأنجاس ، فجعل المخدوم خادما ، والخادم مخدوماً ، هذا لعمرى هو التعس والانتكاس على أم[٣] الرأس ، فكيف يفرح العاقل بهذه المنزلة ويرضى بها ثم لا يستحى ويقول إن غرض إحياء الدين والتقرب إلى الله تعالى بإقامة الحق المبين ! ؟ فانظر واعتبر وبالله التوفيق .

الوظيفة الرابعة :

النصيحة للمتعلمين والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود فى رفدهم[٤] ومعونتهم؛ فإن ذلك أعظم لأجرهم وأسنى لذكرهم ، وأنشر لعلومهم وأرسخ لمعلومهم . ومن النصيحة للمتعلم أن يمنعه من التعدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ، ثم ينبهه على أن مطلب العلوم القرب من الله تعالى دون الرئاسة والمباهاة والمنافسة ، ويقبح فى نفسه ذلك بأقصى ما يمكن من التقبيح فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده . وأعلم أن المتعلمين ضربان : مستدعى ، وطالب .

---

(١) تعجب على صيغة الأمر بمعنى ما أخسه .

(٢) يصبص الكلب إذا حرك ذنبه خضوعا وتذللا ، وشبه رحمه الله هذا النوع من العلماء بالكلاب فى خضوعهم وتذللهم .

(٣) أم الرأس : الدماغ أو الجلدة الرقيقة التى عليها .

(٤) الرفد : العطاء والصلة .

فأما المستدعى إلى العلم : فهو من استدعاه العالم إلى التعلم لما ظهر له من جودة ذكائه وقوة خاطره فإذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك السعداء ، وظفر النجباء ، لأن العالم باستدعائه متوفر ، والمتعلم بشهوته مستكثر .

وأما الطالب للعلم : لداع يدعوه وباعث يحدوه ؛ فإن كان الداعى دينياً ، وكان [المقبل][1] على التعلم يقظاناً ذكياً وجب على العالم أن يكون عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفراً ، لا يخفى عنه مكنوناً ولا يطوى عليه مخزوناً . وقد روى عن النبى عليه السلام أنه قال لعلى بن أبى طالب : « لأن يهدى الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس »[2].

وإن كان بليداً بعيد الفطنة فينبغى ألا يمنع من اليسير فيحرم، ولا يحمل عليه الكثير فيظلم ، ولا يجعل بلادته ذريعة إلى حرمانه فإن الشهوة باعثة ، والصبر مؤثر . وقد روى عن النبى عليه السلام إنه قال : « لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ، ولا تضعوه فى غير أهله فتأثموا » [3] وقال بعض الحكماء : لا تمنعوا العلم أحداً فإن العلم أمنع لجانبه .

فإن لم يكن الداعى دينياً نظر فيه ؛ فإن كان مباحاً كرجل دعاه إلى طلب العلم حب النباهة وطلب الرئاسة ، فالقول فيه يقارب التعليم له إذا كان مطلوبه من العلم ما يرجى أن يعطفه فى الحال الثانى ،[4] وذلك مثل علم التفسير والحديث ، وعلم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها ، وما أشبه ذلك مما كان الأولون يشتغلون به . ولذلك حكى عن سفيان الثورى أنه قال : تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) فى أدب الدنيا والدين : ٧٣ .

(٤) عبارة الماوردى : فالقول فيه يقارب القول الأول فى تعليم من قبل ؛ لأن العلم يعطفه إلى الدين فى ثانى الحال ، وأن لم يكن مبتدئا به فى أول حال .

وقال ابن المبارك : تعلمنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا . وذلك العلم مثل ما قدمناه من علم التفسير والمواعظ . فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه ربما يتشمر له الطالب طمعاً فى الوعظ به للجاه والاستتباع ، ولكن ربما يتنبه فى آخر الأمر إذ فيه العلوم المخوفة من الله عز وجل المحقرة للدنيا ؛ المعظمة للآخرة ، وذلك يوشك أن يرده إلى قصد الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره ، ويجرى حب القبول والجاه مجرى الحب الذى ينثر حوالى الفخ ليقتنص به الطير ، وقد فعل الله ذلك لعباده إذ خلق الشهوة ليصل الخلق بها إلى بقاء النسل ، وخلق أيضاً حب الجاه ليكون سبباً لإحياء العلوم ، وهذا متوقع فى هذه العلوم، وأما علوم المجادلات والفتاوى والخصومات والأشعار التى فيها السخف وأشباه ذلك ، فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة فى القلب وغفلة عن الله سبحانه وتمادياً فى الضلال وجمعاً للحطام، إلا من تداركه الله سبحانه برحمته. وأما إذا كان الداعى إلى التعلم شراً كامناً ومكراً باطناً يريد أن يستعملهما المتعلم فى شبهة دينية وحيل فقهية لايجد أهل السلامة عنها مخلصاً ولا فيها مدفعاً. كما قال النبى عليه السلام: « لا أخاف على أمتى مؤمناً ولا مشركا ،لأن المؤمن قد شغله إيمانه ،والمشرك قد أذله الله بشركه ، ولكن أخاف عليكم منافقاً عالم اللسان جاهل القلب . . . الحديث» .

وقال عليه السلام : « أهلك أمتى رجلان : عالم فاجر ، وجاهل متعبد .»[١] وقيل: يا رسول الله ، أى الناس شر : فقال : « العلماء إذا فسدوا »[٢] فينبغى للعالم إذا رأى من هذا حاله أن يمنعه من طلبته ، ولا يعينه على إمضاء مكره وخديعته ؛ فإن إعانة من هذه حالته بسلاح العلم يجرى مجرى إعانة قاطع الطريق بالسلاح .

---

(١) رواه ابن عبد البر من حديث ابن وهب .

(٢) ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله ١ : ١٩٣

وقد روى عن أبى المنيب ما مد بن يانس[١] رحمه الله أنه كان إذا أتاه أبو خليل الدركلى[٢] رحمه الله للتعلم ، فإن وجده مضطجعاً قعد على نفسه ، أو مغطياً وجهه كشف عنه . وإن أتاه أخوه عمرو بن يانس ، فإن وجده قاعداً اضطجع او مكشوفاً وجهه غطاه، فقيل له فى ذلك فقال : أبو خليل إنما يتعلم لله ، وأما عمرو فإنما يتعلم ليؤذى المسلمين ويعنتهم . فكان الأمر كما قال الشيخ ؛ فكان أبو خليل قائما بالدين قادة[٣] فى الإسلام، وصار عمرو وبالا على المسلمين وصاحباً لخلف بن السمح[٤] ؛ فأحدث أحداثاً فى الإسلام

---

(١) هو أبو المنيب محمد بن يانس الدركلى من أعلام القرن الثانى ، أخذ العلم عن أبى الزاجر اسماعيل بن درار الغدامسى أحد حملة العلم عن أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة التميمى عن جابر بن زيد ، وهو من الإثنى عشر الذين وسموا فى جبل نفوسة بإجابة الدعاء فى زمان واحد ، وقد اختص بكثرة الكرامات ، والتفرغ لفعل الطاعات ، وأشتهر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان أحد أعضاء الوفد الذى انتدب ليقوم مقام مائة فى رد الواصلية الباغين على الإمام عبد الوهاب بتاهرت ؛ وقد أسند إليه علم التفسير والقرآن ، وقيل إنما ضمن الحلال والحرام . فقام ذلك المقام ورد المعتزلة وبدد شبهاتهم ثم رجع إلى ليبيا منصوراً . أنظر ترجمته فى سير الشماخى ط البارونية ١٦٥ ، وكذلك طبقات الدرجينى . مخطوط . الطبقة الخامسة . وجعله أبو زكرياء البارونى من علماء القرن العاشر فى الطبقة الرابعة .

(٢) أبوخليل صال الدركلى ، نسبة إلى دركل فى جهة الحرابة ، بجبل نفوسة ، وهى الآن خراب . قال الشماخى : كان من العلماء الذين جرت عليهم نسبة الدين بالمغرب من نفوسة وغيره ، وقد اخذ العلم عن محمد بن يانس عن حملة العلم عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد . . . الخ . وفى طبقات الدرجينى : « وكان رحمه الله يقول : والله ما أتيتم إلا على الجادة ، وما تركتكم إلا على الواضحة النيرة ، وما بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة لم أرهم ؛ وذلك لأنه أخذ عن الخمسة ، والخمسة أخذوا عن أبى عبيدة وأبو عبيدة أخذ عن جابر ، وجابر أخذ عن ابن عباس وعن غيره من الصحابة رضى الله عنهم وروايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومات رحمه الله عن مائة سنة وقيل عن مائة وعشرين سنة وعقله محفوظ . ولما حضرته الوفاة اجتمع إليه شيوخ نفوسة فقال لهم كيف حالى عندكم؟ قالوا : خير حال ؛ عبدت ربك العمر الطويل فتعلمت العلم ، وعلمت السير والأخلاق . وأنظر أخباره فى سير الشماخى ٢١١ ، وطبقات الدرجينى : الطبقة الخامسة .

(٣) هكذا ، وقد جاءت هكذا فى كتب السير فى أكثر من موضع . وهى هنا بمعنى القيادة ، والإمامة فى الدين ، أو بمعنى القدوة .

(٤) خلف بن السمح بن أبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى ، حاول أن يستقل بحكم جبل نفوسة فى عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، ودعا إلى نفسه وقام بعدة حروب خسرها جميعاً . وقد تبعه قوم فسموا بالخلفية .

فكان يتبع زلات المسلمين ويكتب بها إلى الامام عبد الوهاب[١] رضى الله عنه ، فكتب إليه الإمام فقال : « أعاذنا الله يا عمرو من النزول بعد الطلوع ومن الترك بعد الإجتهاد ، ومن بغض المسلمين بعد محبتهم ، ومن نفاق تخفيه الأبدان ، ومن أشياء ليس لها تجارب » . فقال : بلغوه الكتاب وما أظن أن تدركوه إلا ميتاً ، فلعل أن تدركوا جنازته ، فوجده [حامل الكتاب محمولا على النعش][٢] إلى القبر والله أعلم .

وفى روايات أبى سفيان محبوب[٣] رحمه الله قال : كان رجل ممن يقر بهذه الدعوة يقال له سلمة ، ثم ظهرت منه أشياء ؛ كان يكتب بطائق يشتم فيها المسلمين ويعيبهم ويلقيها فى المجالس حتى وجدوا نيفا على أربعين بطاقة من عيب المسلمين وشتمهم ، فاجتمعوا ليظهروا أمره للمسلمين ويتبرؤا منه ، قال : فتكلم أبو روح مغلس فقال : إنا وجدنا كتباً فيها عيب المسلمين وشتمهم ، فوالله ما كتبها إلا شيطان فعلى من كتبها لعنة الله . ثم تتابع المتكلمون على مقالة أبى روح ولم يسموا أحداً . قال : فخرج سلمة إلى البحر فغرق فيه فعافاهم الله من شره .

---

(١) هو الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم من علماء القرن الثانى ، أخذ العلم عن أبيه عبد الرحمن وأبى داود القبلى أحد حملة العلم عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد . بويع بالإمامة فى تاهرت سنة ١٧١ هجرية بطريقة الشورى ، ومكث فى الإمامة عشرين سنة تقريباً سار فيها سيرة العدول من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت البلاد التى تتمتع برعايته تعيش حياة شبيهة بالحياة التى عاشتها الأمة الإسلامية فى رعاية الخلافة الرشيدة وتوفى سنة ١٩٠ للهجرة على ما حققه سيف الإسلام البارونى . أنظر فى أخباره : الأزهار الرياضية ص ١٠٠ وما بعدها من الجزء الثانى . وأنظر أخبار فتنة خلف بن السمح فيه أيضاً ص ١٤٨ .

(٢) فى نسخ القناطر : فوجدوه كما حمل الى القبر ، وما بين القوسين زيادة من سير الشماخى ليستقيم الكلام . ص ١٤٧ .

(٣) أبو سفيان محبوب بن الرحيل العبدى من علماء القرن الثانى من طبقة الربيع بن حبيب . وان كان أصغر سناً ، وقد كانت والدته تحت الربيع . كان حجة فى السيرة لايكاد يشذ عنه شئ من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسير المسلمين من بعده ، وكان واسع الاطلاع غزيرة المادة . وصفه أبو العباس الشماخى بقوله : « أحد الأشياخ فى الأخبار . والمقيد غرائب الفقه وعجائب الأمصار ، سادّ الفضلاء علما وحفظ الآثار » (ص ١١٧ — ١١٨) ، وفى طبقات الدرجينى : « سبق الى تخليد سير الأخيار وألف ما تحصل عنده عنهم من الآثار » وفيه أيضاً : « وهو من صحت عنه الفتاوى ، وانتفع به صاحبه من مرتحل وثاوى » .

فإذا رأى العالم فى المتعلمين أمثال هؤلاء الفساق الذين يكون علمهم وبالا على المسلمين ومميتاً للدين فليقصهم ولا يفدهم العلم لئلا يكون شريكهم فى الشر والإثم وقد روى عن النبى عليه السلام من طريق أنس أنه قال : « واضع العلم فى غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ » . وعن عيسى عليه السلام : لا تلقوا اللؤلؤ للخنزير .

وفى حديث آخر : لا تلقوا الدر فى أفواه الكلاب فالعلم أفضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير .

وحكى أن تلميذاً سأل عالماً عن بعض العلوم فلم يفده ، فقيل له : لم منعته ؟ فقال : لكل تربة غرس ، ولكل بناء أس . وقال بعض البلغاء : لكل ثوب لابس ، ولكل علم قابس[1] . وقال بعض الأدباء : إرث لروضة توسطها خنزير . وارث[2] لعلم حواه شرير . قال الشاعر :

إنى وتأبينى بمدحى معشرا كمعلق درا على الخنزير

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها من أهلها فتظلموهم . ويقال : من أعطى الحكمة لغير أهلها ، حاكمته الحكمة إلى ربها . وأنشد بعض السلف من العلماء :

لعمرى لئن ضيعت فى شر بلدة فلست مضيعا عندهم غرر الكلم
فإن فرج الله اللطيف بفضله وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
صبرت مفيدا واستفدت ودادة وإلا فمخزون لدى ومكتتم
ومن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم
ومانع علم الدين ممن يريده يبوء بأوزار وإثم إذا حرم

(١) قيس العلم : استفاده .
(٢) فى أدب الدنيا والدين : وابك : ٧٤

ويروى أن سفيان الثورى رُئى حزينا فقيل له مالك ؟ ! فقال : صرنا متجرا لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل عاملا أو قاضيا أو قهرمانا ، والله أعلم .

وينشد للمتنبىء :

قالوا نراك تطيل الصمت قلت لهم ... ماطول صمتى من عِىٍّ[1] ولا خرس
لكنه أفضل الأمرين عاقبة ... عندى وأجمله من منطق شكس
أأنثر البز فيمن ليس يعرفه ... أم أنثر الدر بين العمى فى الغلس

وأما إذا كانت زلة المتعلم بينه وبين الله تعالى ، فلا ينبغى أن يقصى ويحرم العلم ، بل يلطف به لعله يتوب إذا كان الخير فيه مرجوا ، والشر من قلبه مأموناً .

وفى روايات أبى سفيان محبوب رحمه الله أنه قال : كان حاجب[2] رحمه الله يقول لعبد الملك الطويل[3] فيما يؤدبه فيه : يا عبد الملك ، إذا كان أحد يعيب عليه المسلمون فى أشياء تكون بينه وبين الله تعالى فاستروا عليه وعظوه وأحضروه مجالسكم وارفقوا [به] جهدكم عسى الله أن يتوب عليه ، وإذا كان أحد يعيب عليه المسلمون فى خلافهم

---

(١) العىّ : العجز عن التعبير والأبيات ليست للمتنبىء .

(٢) حاجب بن مدود الطائى نقل الشماخى أنه كان بالإجتهاد موصوفاً وبالزهد والورع معروفاً . وكان مرجع الإباضية فى شئونهم العلمية من أمر الحرب وجمع المال والمعونة والمخصومة ، وكان المشايخ يجتمعون فى منزله . قال أبو سفيان : وكان المشايخ لا يدعوننا نحضر معهم المجالس بالليل فقلت لرجل من أهل عمان فانطلق بنا إلى منزل حاجب فلعلهم يأذنون لنا فأذن لنا فوجدنا المختار بن عوف ورجلين أو ثلاثة من المشايخ ثم جاء مليح بن عقبة فلما صلينا العتمة أخذوا فى الكلام فيقوم أحدنا فيتكلم ما شاء الله ثم يجلس فيقوم الآخر فكذلك حتى أضاء لنا الصبح . قال المليح : مارأيت متكلما يتكلم قائماً فى مجلس قبله ولا بعده . يعنى حاجباً رحمه الله .

(٣) عبد الملك الطويل : من أكابر علماء تابع التابعين ، وممن ضيقوا طغيان الأمويين وسدوا فى وجوههم أبواب التعليم لما تصطبغ به دروسهم من روح الإسلام التى لا تتمكين للظلم ولا تقبل الطغيان ، وكان لا ينقطع عن التدريس فى محلات سرية وحينما يكتشف الظالمون له محلا ينتقل إلى آخر وربما اتخذ هو وطلبته مقراً لهم بيوت بعض المحسنات المؤمنات الصالحات . أخباره فى سير الشماخى (١٠٧ — ١٠٩)

فى الدين يريد أن يشغب عليهم ، ويفتق عليهم فتقا ، فابدوا عورته واهجروه ولا تحضروه مجالسكم ، واعلموا الناس به حتى يكونوا منه على حذر أو يتوب والله أعلم .

الوظيفة الخامسة :

ينبغى للعالم أن تكون له فراسة يتوسم بها أحوال تلامذته ، وغيرهم من المتعلمين منه من الناس فيعطى كلَّ واحد منهم مبلغ طاقته ، وقدر استحقاقه فيعطيه مالا يجهله بذكائه ، ولا يضعف عن بلادته ؛ فإنه أروح للعالم وأنجح المتعلم وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من طريق أنس بن مالك أنه قال : « إنَّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم » . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال : إذا أنا لم أعلم ما لم أرَ ، فلا علمت ما رأيت . وقال عبد الله بن الزبير : لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينه . وعن أبى عمرو بن العلاء : كان ابن عباس ألمعيًّا ؛ قال أبو عبيدة : الألمعى الذى يهجم بظنه على اليقين . وقال أبو العيناء : سألت الأصمعى عن الألمعى، قال : هو الذى يلمع الحق فى ظنه فيهجم عليه بيقين وقال غيره : سألت أبا زيد عن الألمعى فقال : الذكى المتوقد الذى يكون بظنه أوثق منك بيقين .

قال ابن الرومى :

ألمعىٌّ يرى بأوّلِ رأيٍ ... آخر الأمر من وراء المغيب
لوذعى(١) له فؤاد ذكى ... ماله فى فؤاده من ضريب(٢)
لا يُرَوِّى(٣) ولا يقلب طَرْفا ... وأكفُّ الرجال فى تقليب

ويروى أن أبا عبيدة مسلم رحمه الله قال لأحد حملة العلم عنه : أفت بما سمعت منى

(١) اللوذعى : الذكى الظريف الذهن الحديد الفؤاد واللسن الفصيح .
(٢) الضريب : المثيل .
(٣) روى فى الأمر : نظر وفكر .

وما لم تسمع ، وهو الإمام عبدالرحمن بن رستم[١] رحمه الله . وقال لآخر : أفت بما سمعت منى ، وهو أبو الخطاب عبد الأعلى المعافرى[٢] الإمام رحمه الله . وقال للثالث : لا تفت أنت بما سمعت منى ولا بما لم تسمع ، وهو أبو داود القبلى[٣] ، ثم كان الإمام عبد الوهاب رحمه الله فى زمانه عند أبى داود كالصبى قدام المعلم ، مع ما أوتى الإمام من العلم والعقل . انظر إلى فراسة أبى عبيدة فى تلامذته حتى عرف مبلغ علم كل واحد منهم ومبلغ عقله ، فأمره بما يليق بعلمه وعقله . ثم انظر إلى أبى داود الذى حظر عنه الفتوى على كل حال ، وهو قد بلغ من العلم والفضل الدرجة التى يجلس من أجلها الإمام عبد الوهاب كالصبى بين يدى المعلم ، ثم انظر إلى الذين عرضوا أنفسهم لإحياء الدين وإقامة الفتوى بزعمهم حتى تعرف أحوال السلف الصالح من أهل زمانك .

فإذا كان العالم فى توسم المتعلمين بهذه الصفة ، وكان بقدر استحقاقهم خبيراً لم يضع له عناء ، ولم يخب على يده متعلم . وإن لم يتوسمهم ، وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا وإياه فى عناء مكد ، وتعب غير مُجْدٍ ؛ لأنه لا يعدم أن يكون فيهم ذكى يحتاج إلى

---

(١) عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسى ، توفى أبوه فى الحج ، وتزوجت أمه برجل من القيروان فأخذها معه ، ولما جاء الداعية الكبير سلمة بن سعد المغرب استمع إليه عبد الرحمن وكان ضمن أفراد البعثة العلمية التى ذهبت إلى البصرة لتلقى العلم عن الإمام الثانى أبى عبيدة مسلم وحين رجع أفراد البعثة إلى المغرب وبويع أبو الخطاب بالإمامة عين عبد الرحمن عاملا على القيروان ، ولما تغلب العباسيون على ليبيا أرتحل عبد الرحمن إلى الجزائر ، وهناك أسس الدولة الرستمية فأعادت سيرة الخلافة الراشدة بالمغرب الإسلامى فترة طويلة من الزمان . .

(٢) أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى ، من حملة العلم الخمسة أخذ العلم عن أبى عبيدة مسلم ثم أرتحل إلى ليبيا مع حملة العلم ، وأتفقت الأمة على مبايعته بالإمامة سنة ١٤٠ هـ ، فسار بها كما سار الخلفاء الراشدون محبة للمسلمين وعدلا بينهم وسهراً على مصالحهم ومعرفة بجميع شئونهم . قتله محمد بن الأشعث فى معركة طاحنة فى تاورغاء ، وأرسل رأسه إلى بغداد يتقرب بذلك إلى سلطان العباسيين ! ! وأخباره مشهورة فى كتب التاريخ . وقد أفرد له الشيخ على يحى معمر فصلا خاصا فى كتابه القيم (الإباضية فى ليبيا — القسم الأول : ص ٤٩ — ٥٩) .

(٣) أبو داود القبلى : من أكابر علماء القرن الثانى ، ومن حملة العلم الخمسة . أخذ العلم عن أبى عبيدة مسلم ، وعندما رجع من العراق لتشتغل بالتدريس . وكان الإمام عبد الوهاب على غزارة علمه يجلس بين يديه كما يجلس التلميذ الصغير . وعنه أخذ كثيراً من علمه . .

الزيادة ، وبليد يحتاج إلى التقليل ؛ فيضجر الذكى ويعجز البليد ، ومتى تردد أصحابه بين ضجر وعجز مَلُّوه وملهم ولذلك قيل : كُلْ لِكُلِّ عبدٍ بمكيال عقله ، وزِنْ له بميزان عامه حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار .

فلذلك ينبغى أن يقتصر العالم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه مالا يبلغه عقله فينفر منه ، ولكن يقتدى بصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم حيث قال : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلم الناس على قدر عقولهم » .

فإن كان المتعلم ممن يستقل بفهم الحقائق فليلقها إليه ، وإلا اقتصر على ما يفهمه ، وقد روى عن النبى عليه السلام أنه قال : « ما من رجل يُحَدِّث قوما بما لم تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم »(١) .

وفى حديث على : أشار إلى صدره وقال : إن ها هنا علوماً جمة لو وجدت لها حملة . وصدق ، فقلوب الأبرار قبور الأسرار .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كلموا الناس بما يعرفونه ، ودعوا ما ينكرونه ، أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله ؟ »(٢) .

وعنه عليه السلام أنه قال : « من وضع الحكمة فى غير أهلها جهل ، ومن منعها ظلم . إن للحكمة حقاً ، وإن لها أهلا فأعط لكل ذى حق حقه . وفى لفظ آخر : كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء موضع الداء »(٣)

فلا ينبغى للعالم أن يفشى كل ما يعلمه إلى كل أحد ؛ هذا إذا كان من يفهمه من الناس ، وكان أهلا لذلك المعلم .

---

(١) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين ١ : ٥٧ .

(٢) رواية الغزالى : كلموا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ... الخ . رواه البخارى موقوفاً على على ، ورفعه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم .

(٣) وأورد ابن عبد البر مثله من كلام عيسى بن مريم عليه السلام فى جامع بيان العلم ١ : ١٠٩ .

والذى ينبغى للمعلم ألا ينشر للمتعلم رُخَص الفتاوى والمسائل إلا إذا كان مأمونا على الدين أهلا لذلك ؛ لأن الرخص إنما هى للمضطرين، والمتعلم إذا لم يكن أمينا فإنه يستعمل الرخص مختاراً لا مضطراً . وقد قال بعض العلماء لبنيه : إياكم والمرخصين لئلا تفارقوا دينكم وأنتم لا تشعرون . وسئل بعض العلماء عن شىء فلم يجب . فقال السائل : أما سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من كتم علماً نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار ؟ فقال : اترك اللجام واذهب ، فإن جاء من يفقه فكتمته فليلجمنى . وقال بعض العلماء فى قوله تعالى : « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** »[1] قال : فيه تنبيه على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى .

وقال بعض الحكماء : خير العلماء من لا يقل ولا يمل . وقال بعض العلماء :

كل علم كثر على السمع فلم يطاوعه الفهم أزداد عمىً به القلبُ ، وإنما ينتفع السمع فى الآذان ، إذا قوى فهم القلوب فى الأبدان وبالله التوفيق .

الوظيفة السادسة :

ينبغى للعالم ألاّ يعنف متعلما ، ولا يحقر ناشئاً ، ولا يستصغر مبتدئاً ؛ فإن ذلك أدعى إليه ، وأعطف للمستر شدين إليه ، وأحث على رغبتهم فيما لديه .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف »[2] ولكن إذا ظهر من المتعلم أخلاق السوء ينبغى له أن يزجره عن ذلك بطريق التعريض دون التصريح ما أمكن له ذلك ، وبطريق الرحمة

---

(١) النساء : ٥

(٢) رواه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١ : ١٢٨ ، والبيهقى فى شعب الإيمان وابن عدى فى الكامل .

لا بطريق التوبيخ ، لأن التصريح بذلك والتوبيخ له يورث الجرأة على المخالفة ، ويهيج الحرص على الإصرار ويهتك حجاب الهيبة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو منع الناس من فت البعر لفتوه وقالوا: ما نهينا عنه إلا وفيه شيء »(١). وينبغى للعالم إذا لم يكن متكفلا بجملة العلوم ألا يقبح فى نفس المتعلم مالم يحط به من العلوم ، كالعالم باللغة مثلا لا يقبح علم الفقه ، والعالم بالفقه لا يقبح علم الحديث والتفسير ويقول : إن ذلك نقل محض وسماع ، وهو من شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه . وكذا العالم بالكلام لا يقبح علم الفقه ويقول : ذلك فرع وهو كلام فى حيض النسوان فأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن ، فهذه أخلاق مذمومة من العلماء الذين تعرضوا للتعليم فينبغى أن يجتنبوها ، بل العالم المتكفل بعلم واحد ينبغى له أن يوسع على المتعلم طريق التعليم فى غير فنه هو ، وإن كان متكفلا بعلوم مختلفة فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقى المتعلم من رتبة إلى رتبة وبالله التوفيق .

الوظيفة السابعة :

أن لا يبخل العالم بتعليم ما يحسن . ولا يمنع من إفادة ما يعلم . فإن البخل به لوم وظلم ، والمنع منه حسدو وإثم . فكيف يساغ له البخل بما منحه جوداً من غير بخل ، وأوتيه عفواً من غير بذل ؟ ! أم كيف يجوز له الشح بما إن بذله زاد ، وإن كتمه تناقص ووهى . وينشد :

أبا بكر دعوتك إن أطعت ... إلى ما فيه حظك إن غفلت
إلى علم تكون به إماماً ... مطاعاً إن أمرت وإن نهيت
ويجلو ما بعينك من غشاها ... ويهديك السبيل إذا ضلت

---

(١) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين ١ : ٥٨ . وقال أبو الفضل العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء : لم أجده .

ينالك نفعه ما دمت حيا ... ويبقى ذخره لك إن ذهبت
وتحمل منه فى دنياك تاجاً ... ويكسوك الجمال إذا اعتريت
هو العضب المهندليس ينبو[1] ... تصيب به مقاتل من ضربت
وكنز لا تخاف عليه لصا ... خفيف الحمل يوجد حيث كنت
يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص إن به كفاً شددت

فكيف يبخل بما هذه صفته ، ولو سن ذلك من تقدمه لما وصل منه عنده بغيته ، ولانقرض بانقراض الأولين ، ولصار على مرور الأيام من الجاهلين . وقال بعض الحكماء : إذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل ، فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل . وقال بعض الحكماء : كما أن الاستفادة ليست نافلة للمتعلم ، كذلك الإفادة فريضة على المعلم .

ثم له بالتعليم نفعان :

أحدهما : ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبى عليه السلام التعليم صدقة فقال : « تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأى يسدده » .

وعنه عليه السلام من طريق ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « تعلموا فإن أجر العالم والمتعلم سواء . قيل وما أجرهما ؟ قال : مائة مغفرة ، ومائة درجة فى الجنة » .

والنفع الثانى : زيادة العلم وإتقان الحفظ . فقد قال الخليل بن أحمد : إجعل تعليمك دراسة لعلمك ، واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك . وقال بعض العلماء : ينبغى ألا يعجل ببذل العلم لطالبه فى أول مرة ، بل يرده ثلاث مرات ، ويعده ولا يؤيسه ،

---

(١) العضب : السيف ، والمهند نسبة إلى الهند . لأنه صنع بها . ونبا السيف عن الضريبة ينبو : يضعف ويكل .

فإن وجده معاودا طالباً ، ومترددا راغباً أجاب مسألته وأعطاه بغيته ، وإن وجده تاركا للمعاودة فليس هو من أهل الفائدة . وقد رفع عن أبى عبد الله محمد بن بركة(١) رحمه الله أنه كان يتردد إلى أبى مالك للتعلم منه وهو يدافعه دفعات . فلما تصور عنده رغبته ، وتحقق إرادته أقبل إليه فعلمه وأكرمه فينبغى للعالم إذا رضى من جاءه للتعلم أن يعلمه ولا يحرمه ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استودعوا العلم الأحداث إذا رضيتموهم »(٢) .

وعنه عليه السلام أنه قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين » . وإن رآه للجهل راكبا وعن التعلم ناكبا(٣) ، أعرض عنه إهمالا ولم يجعل له بالا . بل يبعده عنه ويؤيسه منه وبالله التوفيق.

الوظيفة الثامنة :

ينبغى للعالم إذا سأله السائل متعلما أن يجيبه ، وإن عاوده مستفهما أن يفيده ولا يضجر ؛ لأنه ربما لم يفهم عنه الجواب فى أول إجابته ، وإن بان له أنه يسأله متعنتا أو عابثا أو طالب رخصة متأولا صمت عنه ولم يجبه وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أمسك عن إجابة المتعنت وهو حبر الأمة وربانيها القائل : من يسألنى عما دون العرش أخبره(٤) .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن بركة (أبو محمد عبد الله بن بركة) البهلوى السلمى من كبار علماء أصحابنا بالمشرق وله مؤلفات كثيرة منها كتاب الجامع المعروف بجامع أبى محمد عبد الله بن بركة البهلوى السلمى وضع فيه المسائل بأدلتها وصدره بأبواب فى أصول الفقه ، ثم ذكر بعد ذلك أبواب الفروع وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب فى القاهرة . وكتاب الشرح لجامع ابن جعفر ، وكتاب التقييد وكتاب الموازنة وكتاب المبتدأ ، وكتاب التعارف ، وكتاب الإقليد وله أيضاً رسائل وقد ذكر هذه الكتب جميعا المرحوم الشيخ عبد الله السالمى فى اللمعة المرضية .

(٢) أخرجه الخطيب فى التاريخ عن طريق زيد بن ثابت مرفوعاً وفيه أبو طاهر موسى بن محمد الوليد الموفرى . قال ابن الجوزي موضوع .

(٣) ناكبا : أى منحرفا ونكب : عدل

(٤) مسند الربيع بن حبيب طبعة السلفية جـ ٢ : ٧٦

وقد روى أن على بن أبى طالب سأله ابن الكوّاء[١] وهو على المنبر فقال : أجلس يا ابن الكواء فإنك مُتَعنِّت ولست بمتفقه فقال : والله ما أنا بمتعنت وإنى لمتفقه وإنك لإمام وإنا لرعية وإن لله الحجة عليك . فقال : ويلك يا ابن الكواء ، اسأل تفهُّماً فبين أضلاعى علم جم . فهذا على توقف عن الجواب لما ظنّ أنه متعنت ، ثم أجابه إذ أقسم له أنه متفقه. والتّعنت مأخوذ من العَنَت ؛ وهو إدخال المشقة على الإنسان ؛ لأن المتعنت يريد بسؤاله الأذى والإمتحان وأنشد الماوردى :

يحاول إعناتى بما قال أو رجا ليضحك منى أو ليضحك صاحبه

وكان بعض العلماء إذا سئل عن أمر يكره فيه الجواب تمثل بهذا البيت :

أرى الصمت خير من أمور كثيرة إذا لم يكن للناطقين كلام

وقيل : كان الشيخ أبو محمد من أصحابنا إذا سئل عن غير مذهبه تمثل بهذا البيت :

تحاول منى شيمة غير شيمتى[٢] وتطلب منى مذهبا غير مذهبى

وقيل : جاء أعرابى إلى المأمون ليستمنحه فأراد المأمون امتحانه ، فقال : يا أعرابى ، كم عليك من صلاة ؟ فقال :

إن الصلاة أربع فأربع ثم صلاة بعدهن أربع
ثم صلاة الفجر لا تضيع وهى اثنتان فاستمع ما أشرع

---

(١) هو عبد الله بن عمرو من بنى يشكر كان عالما ناسبا ، وكان من الشيعة من أصحاب على . وفيه يقول مسكين الدارمى: هلم الى بنى الكواء تقضوا بحكمهم بأنساب الرجال . (الفهرست ١٣٩) . وفى الاشتقاق : ٢٠٥ « وكان خارجيا ، وكان كثير المسائلة لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه . كان يسأل تعنتا » . وذكر أبو الفرج الأصفهانى أنه كان مع الشراة الذين حاربهم المهلب .

(٢) الشيمة : بالكسر : الطبيعة والخلق .

ثم قال للمأمون : يا أمير المؤمنين ، كم فيك من كاف ؟ ولم يدر المأمون ، قال : فأخبرنى يا أعرابى . فقال : فيك الكاهل ، والكتد ، والكشح والكبد والكلية ، والكرسوع ، والكف ، والكعب ، فوصله وأحسن جائزته .

فالكاهل : مقدم الظهر مما يلى العنق وهو الثلث الأعلى ، فيه ست فقرات . والكتد : مابين الكشح إلى منتصف الظهر . والكشح : مابين الخاصرة إلى الضلع ، وهو موضع السيف من المقلد . والكرسوع : طرف الزند الذى يلى الخنصرة . والكاذة من الفخذ ؛ موضع الكى من جاعرتى[1] الحمار . والله أعلم .

الوظيفة التاسعة :

ينبغى للعالم أن يكون أوسع الناس صدراً وأكثرهم صبراً ، وأجملهم لقاء وأحسنهم أخلاقا ؛ لأن المتعلمين منه يحذون خلائقه ويتخذون طريقه ، فينبغى أن يكون لهم إلى أسنى الأفعال منهاجاً ومن غى الضلال سراجاً ، فلا يمنع طالباً ، ولا يؤيس راغباً ، ولا ينفر متعلماً لما فى ذلك من قطع الرغبة منه والزهد فيما لديه . واستمرار ذلك مفض إلى انقراض العلم بانقراضه .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أنبئكم بالفقيه من الفقيه ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه ألا لا خير فى عبادة ليس فيها تفقه ، ولا علم ليس فيه تفهم ، ولا قراءة ليس فيها تدبر » . [2]

---

(١) الجاعرتان : مضرب الفرس بذنبه على فخذيه ، أو حرفا الوركين المشرفين على الفخذين .

(٢) رواية الغزالى : ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه . قال الحافظ العراقى : رواه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق وأبو بكر السنى وابن عبد البر من حديث على . وقال ابن عبد البر : أكثرهم يوقفونه عن على . وأنظر أدب الدنيا والدين : ٧٧

وينبغى له أن يختبر المتعلم ليعرف موضعه من المعرفة ، وعن محمد بن القاسم قال : أتيت داود بن عبد الله الحرانى لأسمع منه فقلت : أرأيت أن تحدثنى ؟ قال : أقرأت القرآن ؟ قلت : نعم . قال : أقرأ على : « **واتل عليهم نبأ نوح** » (١) . فقرأته . فقال : أصبت . ثم قال : نظرت فى الفرائض ؟ فقلت : نظرت فى شىء من الكبر وبعض الصلب (٢) قال : أيما أقرب إليك : ابن أخيك أم ابن عمك ؟ قلت ابن أخى . قال : ولم ؟ قلت : لأن ذلك من ولد جدى وذا من ولد أبى . قال : أصبت . ثم قال لى : نظرت فى شىء من العربية ؟ قلت نعم . قال : ما معنى قول عمر رضى الله عنه حين ضربه أبو لؤلؤة : يالعباد الله يا للمسلمين ! ولم يقل : يا للعباد ويالله المسلمين . فقلت : استغاث مما نزل به . قال : أصبت . لو كنت اليوم محدثاً لحدثتك . فقد اختبره ليعلم موضعه ويقف على ما معه فيعطيه من التعليم حقه ولا يبخسه منه حظه .

وينبغى للعالم إذا جاءه كتاب فيه سؤال عن نازلة أن يشاور فى جوابها من بحضرته ممن يصلح لذلك ، ويقرأ ما فيها عليهم ؛ فإن ذلك اقتداء بالسلف . قال الله تعالى « **وشاورهم فى الأمر** (٣) » إلا إن كان فى الكتاب ما ينبغى أن يكتم عن غيره ، أو فى الجواب ما ينبغى أن ينفرد به دون من بحضرته فليكتم عنهم قراءته وليجب عن السؤال الذى فيه دون مشاورة جلسائه ، كما قيل عن بعض أصحاب الشافعى أنه قال : كان الشافعى إذا جاءته الفتوى عرضها على أصحابه وسأل كل واحد منهم عما عنده ، قال الربيع : فجاءته رقعة فى بعض الأيام ، فقرأها وتبسم وكتب الجواب من غير إعلامنا بذلك كالعادة . قال : وكان فيها :

---

(١) يونس : ٧١

(٢) الكبر : أن يرد الإرث إلى أقرب عاصب من الجدود . وفى غريب الاشتقاق (٢ : ٤٠٣) « مات رجل من خزاعة أو من الأزد ولم يدع وارثا ، فقال : أدفعوه إلى أكبر خزاعه ؟ أى ادفعوا ماله إلى كبيرهم ، وهو أقربهم إلى الجد الأكبر ولم يرد به السن » اهـ . وفى صحيح البخارى (٨ : ١٨٧) من حديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر » . والصلب : هو عمود النسب .

(٣) آل عمران : ١٥٩ .

سل المفتى المكى هل فى تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح

فأجاب عن ذلك فقال :

أقول معاذ الله أن يُذهِبَ التُّقَى تلاصُقُ أكبادٍ بهِنّ جراح

وقيل إن امرأة جاءت إلى الحسن البصرى فقالت شعراً :

يا حسن البصرة ياذا النهى إنى إلى وجهك مشتاق
قل لى وأنت المرء ذو حكمة فى كل ما تحكيه صداق
هل جائز تقبيل رعبوبة وردية الخدّين براق(١)

فأجابها الحسن :

أقول والرحمن لى شاهد ما أنا بالفحشاء نطاق
إن كنت للتقبيل ذا إربة ومشته للّهو تواق(٢)
حرمت فى الجنة حورية وردية الخدين رقراق
فاستشعر التقوى وكن خاشعاً فإن تقوى الله ترياق(٣)

وسألته امرأة فقالت : يا أبا سعيد ، أيحل للرجل أن يتزوج على امرأته وهى حسناء جميلة ؟ فقال : نعم ، فقالت : بعيشك يا أباسعيد لاتفتى الرجال بهذا . والله أعلم .

فهذه وأمثالها مما ينبغى أن يتفرد المفتى بقراءة كتاب سؤالها ، وينفرد بالجواب عنها .

---

(١) الرعبوبة : المرأة البيضاء الحسنة . والبراق : المرأة الحسناء البراقه .
(٢) الإربة : الحاجة والرغبة . وتواق . مشتاق .
(٣) الترياق : الدواء .

وينبغى للمفتى أن يتأمل المسألة تأملا شافياً ، كلمة بعد كلمة ، ويكون توقفه فى المسألة السهلة كتوقفه فى الصعبة ليكون ذلك عادة له .

وينبغى أن يختصر الجواب ولا يطيل . وقدحكى أن بعض أمراء البصرة سأل الحسن وابن سيرين عن مسألة ، فاختصر الحسن وأطال ابن سيرين فلما خرجا قال الأمير : أما الحسن ففقيه ، وأما ابن سيرين فقاصر ، والله أعلم .

الوظيفة العاشرة .

ينبغى للعالم إذا سئل ألا يعجل بالجواب وإن كان له حافظاً حتى يتفكر فيه ويعرفه معرفة صحيحة فيجيب بعلم ويقين ، فإن ذلك من آداب العلماء . وقد روى فى الحديث : « المؤمن وقّاف والمنافق وثّاب » .

وينبغى إذا سئل عما يعلم أن يجيب ولا يقول لا أدرى فإنه مكروه وكذب .

وقد قيل : إن الرياء سبعة وسبعون باباً أدناه حين يقول فيما يدرى لا أدرى .

وعن ابن عباس أن عمر رضى الله عنهما سأل أصحابه عن قوله تعالى : « **ايود احدكم ان تكون له جنة من نخيل واعناب** »(١) الآية فقالوا الله أعلم . فغضب فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم . وعن عمر أيضا أنه سأل رجلا عن شىء فقال : الله أعلم . فقال عمر لقد خزينا إن كنا لا نعلم أن الله يعلم . إذا سئل أحدكم عن شىء فإن كان يعلمه فليقله ، وإن كان لا يعلمه قال لا علم لى بذلك ؛ لأنه لما لم يكن إلى الإحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه ، وإن لم يكن فى جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . وقدروى

---

(١) البقرة : ٢٦٦

عن النبى عليه السلام أنه قال : « من سئل وأفتى بغير علم فقد ضل وأضل »(١) . وقال بعض الحكماء : من العلم ألا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ، فحسبك خجلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم . ولقد أحسن الشاعر حيث يقول(٢) :

إذا ما انتهى علمى تناهيت عنده ... أطال فأخلى أم تناهى فأقصرا

ويخبرنى عن غائب المرء فعله ... كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

قال الله سبحانه : « **انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وان تقولو على الله مالا تعلمون** »(٣)

وقالى تعالى : « **ولا تقف ما ليس لك به علم** »(٤) وقد روى أن رجلا سأل النبى عليه السلام : أى البقاع خير وأى البقاع شر فقال : لا أدرى حتى أسأل جبريل »(٥) .

وعن على بن أبى طالب أنه قال : خمس خذوهن عنى فلو ركبتم فيهن الفلك ما وجدتموهن إلا عندى : ألا لا يرجون أحد إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستنكف أن يتعلم ما ليس عنده ، وإذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، ومنزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد .

---

(١) صحيح البخارى ٣ — كتاب العلم : ٣٤ — باب كيف يقبض العلم : من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص. قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً ، اتخذ الناس رؤوساً جهالا ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » .

(٢) رواهما الماوردى فى أدب الدنيا والدين لزرارة بن زيد . ص ٦٦ .

(٣) الأعراف : ٣٣ (٤) الإسراء : ٣٦

(٥) هكذا رواه الماوردى فى أدب الدنيا والدين : ١٦ وروى الغزالى فى الأحياء : ١ : ٧ : « لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خير البقاع فى الأرض وشرها قال : « لا أدرى » حتى نزل عليه جبريل فسأله فقال : « لا أدرى » إلى أن أعلمه الله عز وجل أن خير البقاع المساجد وشرها الأسواق » . والحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه ، ونحوه من حديث ابن عمر .

وعن على أيضاً قال : ما أبردها على الكبد ، قالها ثلاث مرات . قالوا : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا سئل الرجل عما لا يعلم فيقول الله أعلم . أى أرضى تسعنى وأى سماء تظلنى إذا قلت على الله ورسوله مالا أعلم . وفى لفظ آخر : قال : فإن العالم من عرف أن مايعلم فيما لا يعلم قليل .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال على منبر النبى صلى الله عليه وسلم : « أيأنف أحدكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : الله أعلم » .

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنه : إذا ترك العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله .

وقال بعض العلماء : هلك من ترك لا أدرى . وقال بعض البلغاء : من قال لا أدرى عُلِّم فدرى ، ومن انتحل مالا يدرى أهمل فهوى .

قال ابن دريد :

ومن كان يهوى أن يرى مُتَصدِّراً ... ويكره لا أدرى أصيبت مقاتله

وحرام على الإنسان أن يتكلم بما لا يعلم ولا سيما فى الدين ؛ فإنه لا يخلو أن يحل حراماً أو يحرم حلالا . وقد قالت العلماء : تحريم الحلال كتحليل الحرام . وحسب المرء إذا سئل عما لا يعلم أن يجيب بما أجابت به ملائكة الله حين قالوا : « **سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا** »(١) .

وينشد لعبد الله بن مصعب ولقد أحسن :

ترى المرء يعجبه أن يقول ... وأسلم للمرء ألا يقولا
فأمسك عليك فضول الكلام ... فإن لكل كلام فضولا
ولا تصحبنَّ أخا بدعة ... ولا تسمنَّ له الدهر قيلا

---

(١) البقرة : ٣٢

فإن مقالتهم كالظلال يوشك أفياؤها أن يزولا
وقد أحكم الله آياته وكان الرسول عليها دليلا
فأوضح للمسلمين السبيل فلا تتبعن سواها سبيلا

فلا يجوز للمسئول أن يجيب إلا بما يعلم صحته ؛ إما حفظا أو رأيا إن كان ممن يجوز له اجتهاد الرأى .

ولا ينبغى للعالم وإن صار فى طبقة العلماء الأفاضل أن يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف له . وعن عيسى عليه السلام قال: يا صاحب العلم، تعلم من العلم ما جهلت وعلّم الجهال ماعلمت . وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنه أنه قال : لو كان أحد مكتفياً من العلم لأكتفى منه موسى عليه السلام حيث قال : « **هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا** »(١)

وقيل للخليل بن أحمد بم أدركت هذا العلم ؟ قال : كنت إذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: إثنان منهومان لا يشبعان أبداً ؛ طالب علم وطالب دنيا . أما طالب العلم فإنه يزداد قرباً من الرحمن . ثم قرأ : « **إنما يخشى الله من عباده العلماء** »(٢) وأما طالب الدنيا فإنه يزداد طغياناً. ثم قرأ : « **كلا إن الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى** »(٣)

ولا ينبغى للعالم أن يجهل من نفسه مبلغ علمها ، ولا أن يتجاوز بها قدر حقها ؛ لأن من جهل حال نفسه كان لغيره أجهل.

---

(١) الكهف : ٦٦ (٢) فاطر : ٢٨
(٣) العلق : ٦ ـ ٧

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: «يا رسول الله، متى يعرف الإنسان ربه؟ قال: إذا عرف نفسه».

وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس فيما علموه أو جهلوه أربعة أقسام متوالية لا يخلو الإنسان منها فقال: الرجال أربعة أقسام: رجل يدرى ويدرى أنه يدرى، فذلك عالم فاسألوه. ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى، فذلك نائم فأيقظوه. ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى، فذلك مسترشد فأرشدوه. ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى، فذلك جاهل فارفضوه. وأنشد الماوردى[1] لأبى القاسم الآمدى[2]: وأظن هذا البيت أول الأبيات:

تمام العمى طول السكوت وإنما
شفاء العمى يوماً سؤالك من يدرى
إذا كنت لا تدرى ولم تك بالذى
يسائل من يدرى فكيف إذاً تدرى
جهلت ولم تعلم بأنك جاهل
فمن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى
إذا جئت فى كل الأمور بغمة
فكن هكذا أرضاً يدسك الذى يدرى
ومن أعجب الأشياء أنك لا تدرى
وأنك لا تدرى بأنك لا تدرى

---

(١) أدب الدنيا والدين: ٦٨. ولم يرو هذا البيت الأول الذى رواه المؤلف.

(٢) هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحى الآمدى ولد ونشأ بالبصرة وبها توفى ما بين سنتى ٣٧٠ و ٣٧١ هجرية. وقد أخذ عن علماء ممن توفى فى الخمسة الأولى بعد الثلاثمائة مثل أبى موسى سليمان بن محمد الحامض وهو دليل على أنه ولد قبل ذلك بمدة. عاش حوالى ثمانين عاماً تقريباً فكان كثير المطالعات والمؤلفات. ومن مؤلفاته: الموازنة بين أبى تمام والبحترى. وقد طبع. والمؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وألقابهم طبع أيضاً.

فصل

ومما يجب على العالم : أن يلتزم التواضع ويجتنب العجب والتكبر ؛ لأن التواضع محطوف ، والعجب والتكبر منفر صروف ، وهو بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح . ولأن العجب نقص يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب(١) . وقد ورد به الخبر عن النبي عليه السلام . وعنه عليه السلام أنه قال : « قليل الفقه خير من كثير العبادة . » وكفى بالمرء علماً إذا عبد الله ، وكفى به جهلا إذا أعجب برأيه . وعلة إعجاب العلماء بأنفسهم انصراف نظرهم إلى من دونهم من الجهال ، وانحراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء . وقد قيل فى منثور الحكم : إذا علمت فلا تذكر كثرة من دونك من الجهال ، ولكن أنظر إلى من فوقك من العلماء . وينشد لابن العميد :(٢)

من شاء عيشاً هنيئاً يستفيد به ... فى دينه ثم فى دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه أدباً ... ولينظرن إلى من تحته مالا

وقل من تجد بالعلم معجباً إلا من كان فيه عقلا مقصراً لأنه يجهل قدره ويحسب أنه قد نال بالدخول فيه أكثره . وأما من كان فيه متوجهاً ومنه مستكثراً ، فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن إدراك غايته(٣) مما يصده عن العجب به . وقد قال الله تعالى : **«وما اوتيتم من العلم إلا قليلا»**(٤) فالعلم أكثر من أن يحيط به البشر ، وليس من عالم إلا وكان أعلم منه . قال الله سبحانه : « **نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم** »(٥) وينشد :

وراء كل ذى علم عليم وينتهى ... إلى الله كل العلم ناهيك من أعلى

---

(١) هكذا فى أدب الدنيا والدين : وروى الغزالى فى الأحياء : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة . وقال البخارى لا يصح . وهو عند ابن ماجة من حديث أنس بإسناد ضعيف .

(٢) أدب الدنيا والدين : ٦٥

(٣) فى أدب الدنيا والدين : نهايته .

(٤) الإسراء : ٨٥ (٥) يوسف : ٧٦

وقال ابن محبوب[١] رحمه الله : لا يزال العالم عالما ما دام يتعلم، فإذ رأى أنه قد استغنى فهو جاهل . وعن الشعبي أنه قال : العلم ثلاثة أشبار ، من نال منه شبر شمخ[٢] بأنفه وظن أنه عالم . ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه جاهل . وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبداً .

فصل

أعلم أنه قد يتعلق بالدين علوم ، كل علم منها له فضيلة ينبغي للمتعلم التطرف من كل علم منها مثل علم التفسير والحديث والقراءات وتواريخ الأخبار وعلم الغريب وأشباه ذلك. وقد يقال : علوم الشريعة عشرة أنواع مزدوجات لا تصح معرفة أحدها إلا بالآخر وإلا كان واهيا ضعيفاً . وهي الكلام واللغة والنحو والقرآن والفقه والسنة والفرائض والضرب وطبائع الإنسان وطبائع الأغذية من علم الطب ، فمن لم يعلم ذلك ويجمع المقصود منه والمطلوب كل علمه وقل فهمه واختل حكمه . وقد بين الشافعي فضيلة بعضها فقال : من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه ، ومن تعلم الغريب[٣] رق طبعه ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . ولعمري إن أس الفضائل كلها صيانة النفس عن الرذائل التي تصدر منها ، لأن من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه من العلم سلبه الجهال فضيلة علمه ، ووسموه بقبيح تبدله لما في طباعهم من نقمة الحسد . ونزاع المنافسة ، فتنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوئ،

---

(١) نسب الغزالي هذا القول لابن المبارك وقد سبقت ترجمته . أنظر الاحياء ج ١ : ٥٩ . وابن محبوب هو محمد بن محبوب بن الرحيل من أئمة العلم في المشرق ، ومن رواة الحديث الثقاة ، كان مرجعاً للإباضية في زمانه ، اجتمع به عمروس بن فتح لما حج ، وكان ابن محبوب يلقي دروسه فوجه إليه عمروس سؤالا فقال محبوب رحمه الله : إن كان عمروس في شيء من هذا البلد فهذا السؤال منه . قيل له هذا عمروس . فسلم عليه وأدنى مجلسه ، ولم يزل عمروس يسأل والإمام يجيب حتى قال له : هذا من مكنون العلم الذي لا يصرح به في مجالس العامة .

(٣) في أدب الدنيا والدين ص ٢٨ : ومن تعلم اللغة رق طبعه. وفي جامع بيان العلم «تعلم النحو»..

ولاسيما من كان بالعلم موسوماً وإليه منسوبا ، فإن زلته لا تقال ، وهفوته لا تعذر ، إما لقبح أثرها ، واغترار كثير من الناس بها ؛ لأنه قيل : زلة العالم كالسفينة تغرق [ويغرق معها خلق كثير][1] وإما لأن الجهال بذمه أغرى ، وعلى تنقصه أجرأ ، ليسلبوه فضيلة التقدم ، ويمنعوه مباينة التخصص ، عناداً لما جهلوه ، ومقتا لما باينوه ؛ لأن الجاهل يرى العلم تكلفاً ولؤماً كما أن العالم يرى الجهل تخلفاً وذماً . وينشد عن الشافعى :

فمنزله الفقيه من السفيه كمنزلة السفيه من الفقيه
فهذا زاهد فى قرب هذا وهذا [فيه] أزهد منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه تنطع فى مخالفة الفقيه

فعلى العالم أن يلتزم الأدب والوقار والحلم والسكينة والعلم ، ولا يجالس الجهال ، ولا يخوض معهم فيما يخوضون فيه من الأقوال والأفعال . وقال بعض الحكماء : من صاحب العلماء وقر ، ومن صاحب الجهال حقر . على أن العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة . ومن كان صادق النية فيه لم تكن له همة فيما يجد بدا منه. وقال بعض الحكماء : من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ، ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة وينشد[2]:

خير ما ورث الرجال بنيهم أدب صالح وحسن ثناء
هو خير من الدنانير والأوراق فى يوم شدة أو رخاء
هى تفنى والدين والأدب الصالح لا يفنيان حتى اللقاء
إن تأدبت يا بنى صغيراً كنت يوماً تعد فى الكبراء

---

(١) زيادة من أدب الدنيا والدين ليستقيم الكلام . ص : ٢٨ .

(٢) هذه الأبيات مما يروى لخلف الأحمر ، قال ابن عبد البر : وأنشدها الحشنى رحمه الله لابراهيم ابن دواد البغدادى فى قصيدة له مطولة يوصى فيها ابنه وأولها :

يابنى اقترب من الفقهاء وتعلم تكن من العلماء

جامع بيان العلم : ٨٤/١

غيره :

قل لمن فاخر جهلا بالنسب ... إنما الناس لأم أو لأب

هل تراهم خلقوا من فضة ... أو حديد أو نحاس أو ذهب

أو ترى فضلهم فى خلقة ... غير لحم فوق عظم وعصب

إنما الفخر بعقل راجح ... وبأخلاق حسان وأدب

فهذه جملة كافية فى آداب المتعلم والعالم وما يليق بهما من الأخلاق الرضية والأفعال المرضية . وبالله التوفيق

الباب الثالث

فى آفات العلم والعلماء السوء

اعلم أن هذا الباب ينحصر فى جملتين :

أحدهما : فى آفات العلم . والثانية : فى الأخبار والآثار الواردة فى العلماء السوء .

الجملة الاولى

فى آفات العلم

وهى كثيرة ونحن نذكر منها ها هنا مالابد منه .

فأول آفات العلم انصراف القلب عن التعلم حتى لا تكون للانسان همة فى الطلب وذلك يكون بأسباب :

أحدها : علو منزلة واستصلاح رئاسة دخل فيها فهذا إلى العلم أحوج كما قدمنا .

الثانى : أن يمنعه عن التعلم إصلاح ماله ومرمة[1] حاله، فهذا أضعف عذراً لأن المال ظل زائل وعارية مسترجعة تبعد عن الرحمن ، والعلم أفضل من المال إذ به تنال النجاة عند الله تعالى وقد تقدم فضل العلم على المال .

الثالث : يمنعه عن التعلم كبر السن فيتركه استحياء من تقصيره فى الصغر وتعلمه فى الكبر فرضى بالجهل عن العلم ، وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل ؛ لأن العلم لما كان فضيلة فرغبة ذوى الاسنان فيه أولى ، ولأن يكون شيخاً متعلماً أولى من أن يكون شيخاً جاهلا .

---

(١) هكذا فى المطبوعة وكذلك فى ا و ج وفى ب : وإصلاح مرتبته وحاله.

الرابع : أن يمتنع عن التعلم لتعذر المادة وهذا أقل ما يكون إلا عند ذوى شره وشهوة مستعبدة ، فينبغى أن يصرف إلى التعلم حظاً من زمانه ؛ لأنه لابد للمكتسب من أوقات عطلة أو استراحة . ومن صرف كل عمره إلى الكسب فهو من عبيد الدنيا وأسرى الحرص . وعن النبى عليه السلام أنه قال : « لكل شىء فترة ، فمن كانت فترته إلى العلم فقد نجا »(١) .

الخامس : ربما منعه من التعلم ما يخشى من صعوبته وبعد غايته ، ويخاف من قلة ذهنه ، وهذا الظن من اعتذار ذوى النقص وخيفة أولى العجز ؛ لأن الخشية قبل الابتلاء عجز . وقد قال القائل :

لاتكونن للأمور هيوباً فإلى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لأبى هريرة(٢) : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه . فقال : كفى بترك العلم إضاعة . فليس — وإن تفاضلت الأذهان ، وتفاوتت الفطن — ينبغى لمن قل من العلم حظه أن ييأس من نيل القليل وإدراك اليسير الذى يخرجه من حد الجهالة إلى ارتقاء مراتب التخصيص . فالماء مع لينه يؤثر فى صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكى فى نفس راغب شهى وطالب خلى لا سيما وطالب العلم معان .

السادس : ربما منع ذوى السفاهة من طلب العلم أن يصور فى نفسه الحرمان من أجله ، فإن رأى محبرة تطير منها ، أو وجد كتاباً أعرض عنه ، وإن رأى متحلياً بالعلم هرب منه ؛ كأنه لم ير عالما مقبلا وجاهلا مدبراً . وهذا لا يرجى له صلاح ولا يؤمل منه فلاح ؛ لأن من

---

(١) أنظر أدب الدنيا والدين : ٣٢ .

(٢) هو أبو هريرة النحوى كما فى البيان والتبين (١ : ٢٥٧ ، ١ : ٢١١) حيث نسب إليه هذا القول ونسبه الغزالى لأبى هريرة الصحابى رضى الله عنه وكذلك الماوردى نسبه له فى أدب الدنيا والدين : ٣٢ وابن عبد البر فى جامع بيان العلم .

اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين ، وأن للجهل إقبالا وأن للعلم إدباراً كان ضالا مستحكما ورشاده مستبعداً . وكان هذا هو الخامس الذى قال فيه على بن أبى طالب : أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبياً ، ولا تكن الخامس فتهلك . وقد روى هذا عن النبى عليه السلام مسنداً[١] . فنعوذ بالله من خدع الجهل المضلة وبوار الحق المظلة[٢] . ونسأله السعادة بعقل رادع وعلم نافع .

فإذا سلم العبد من آفات هذه الموانع ، وطلب العلم بالشهوة الصادقة والجد القاطع استقبلته آفة أخرى ؛ وذلك بأن تكون فى النفس أسباب فاسدة ، فيطلب نوعاً من العلوم لغرض يدعوه إلى ذلك ؛ كرجل يؤثر القضاء والحكم بين الناس فيقصد من علم الفقه أدب القاضى وما يتعلق عليه من الدعاوى والبينات أو يحب الارتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما بجهل ذلك ، فإذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جوهره ونال منه مشهوره ، ولم ير غير ذلك إلا صعبا طلبه ، وعويصا استخراجه ، فينبو عنه لقصور همته على ما أدرك ، وانصرافها عما ترك ، ولو نصح نفسه لعلم أن ما ترك أهم مما أدرك . فإذاً ليس يعرى من لوم ، وإن كان تارك الكل ألوم[٣] .

ومنها أن يحب الاشتهار بالعلم ؛ إما لتكسب به أو لتجمل به ، فيقصد من العلم ما يشهر به من مسائل الجدال وطريق النظر ، ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ، وبالجملة يقصد بعض العلوم التى لا ينتفع [بها] فى الآخرة ؛ من علوم اللسان أو علوم العقل مع ترك العلوم الدينية ، أو علوم الدين مع اعتقاد البدع فيه .

---

(١) قال الماوردى : رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن النبى صلى الله عليه وسلم . أدب الدنيا والدين : ٣٣ .

(٢) البوار . بالضم الفاسد والهالك لا خير فيه يستوى فيه الإثنان والجمع والمؤنث . الشىء وأظل الشىء غشيه فهو مظل وهى مظلة ، فيكون معنى هذه العبارة : نعوذ بالله من مهلكات الحق التى تغشاه وتحجبه .

(٣) يقصد المؤلف رحمه الله بهذا التعبير أن تارك الكل أكثر استحقاقاً للوم . وقد استعمل أفعل التفضيل من المبنى للمجهول على غير قياس .

ومنها التقليد للآباء .

ومنها قطاع طريقة الدين على المسلمين من أهل الإلحاد وفرق الموحدين .

ومنها تلبيس إبليس عند لوامح الحق المبين .

فإذا سلم من هذه الآفات كلها ، وحاز من العلوم أفضلها ، ومن الأعمال أصوبها وأكملها ، فليحترز من الجدال والمراء كما يحترز من السم القاتل فإنه الداء العضال ، وهو من آفات العلماء السوء الذين بالغوا فى التعصب للحق بزعمهم ، ونظروا إلى المخالفين بعين الإزدراء والإستحقار حتى توفرت دواعيهم على طلب نصرة آبائهم ، ووقع التباس منهم. قال الله تعالى : « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا »[1] . وفى الحديث : « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال» . ثم قرأ: « **ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون** »[2] وعنه عليه السلام أنه قال : « لا يجادل إلا منافق أو مرتاب »[3] . وعن الأوزاعى أنه قال : إذا أراد الله بقوم شراً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل .

وفى الخبر المشهور « أبغض الخلق إلى الله تعالى الألد الخصم »[4] .

والمجادل هو الذى يقصد لدفع ما يرد عليه من فاسد وصحيح . وأما إذا قصد بالجدال مناظرة مبتدع لينقض دعوته ، ويطهر قلوب العوام من تشويش ضلالته ، فذلك عادة السلف الصالح من المسلمين ، وذلك فرض كفاية على علماء الدين ينفون عنه تأويل الجاهلين وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين لقوله عليه السلام « إذا ظهرت البدع فى أمتى

---

(١) الكهف : ٥٤

(٢) الآية ٥٨ من سورة الزخرف . والحديث رواه الترمذى وابن ماجة من حديث أبى أمامة ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٣) أورده الماوردى فى أدب الدنيا والدين: ٣٦، وكذلك أورد مابعده من كلام الأوزاعى هناك.

(٤) متفق عليه من حديث عائشة .

فعلى العالم أن ينشر علمه ، فإن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[١] . واعتقاد العالم فى ذلك الذب عن الدين بالبلاغة فى المقال . والمناصحة فى الفعال ، والاعراض عن النضال ، ويقصد بذلك الدعاء إلى الحق المبين بالحكمة والموعظة الحسنة .

فالمجادلة لغير ما ذكرنا ديدن السفهاء والجاهلين ، وأما المناظرة فهى دأب الفقهاء المحققين ، ولكن لها شروط من حصلها بالكمال فلا حرج عليه فى المناظرة ، وإلا فهى مجادلة :

إحداها : أن يكون المناظر مجتهداً يفتى برأيه لا تمذهب أحد ممن تقدمه ، حتى إذا ظهر له الحق ترك رأيه وأفتى بما ظهر له كما كان تفعله الصحابة والأئمة . وأما من ليست له رتبة الإجتهاد ، وهو حكم أهل عصرنا هذا وهو إنما يفتى فيه ناقلا عن مذهب صاحبه ، ولو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه فأى فائدة له فى المذاكرة ومذهبه معلوم ؟ ! ولو كانت مناظرته فى المسائل التى فيها قولان لصاحبه لكان أشبه ؛ فربما يستفيد بالمناظرة الترجيح لأحد القولين .

الثانى : أن تكون مناظرته فى المسائل الواقعة أو مايقرب وقوعها غالباً كالفرائض وأشباهها حتى لا يضيع أوقاته فى المنازعات ، ويتعرض للمخاصمات والآفات .

الثالث : أن تكون المناظرة فى الخلوة أحب إليهم وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر ، فإن الخلوة أجمع للفهم وأدرك للحق . وحضور الجمع يحرك دواعى الرياء ، ويهيج الحرص على نصرة كل واحد منهما لنفسه محقا كان أو مبطلا .

الرابع : أن يكون فى طلب الحق كناشد ضالة لايفرق بين أن تظهر الضالة على يديه أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينا لاخصما ، ويشكره إذا عرفه الخطأ ، وأظهر له

---

(١) أخرجه الربيع بن حبيب فى صحيحه ج ٤ .

الحق. فهكذا كانت مشاورة الصحابة رضى الله عنهم، حتى ردت امرأة على عمر رضى الله عنه ونبهته على الحق وهو فى خطبته على ملأ من[١] الناس فقال : أصابت امرأة وأخطأ رجل وفى لفظ : كل يخاصم عمر حتى المرأة ، وذلك حين تكلم فى تنقص صدقات النساء[٢] .

وسأل رجل عليا فأجابه ، فقال ـ ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا فقال : أصبتَ وأخطأتُ وفوق كل ذى علم عليم[٣] .

واستدرك ابن مسعود على أبى موسى الأشعرى فقال أبو موسى : لا تسألونى عن شىء وهذا الحبر بين أظهركم . وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل فى سبيل الله فقتل . قال هو فى الجنة . وكان أمير الكوفة . فقال ابن مسعود : أعد على الأمير فلعله لم يفهم . فأعادوا وأعاد الجواب ، فقال ابن مسعود : أنا أقول إن قتل وأصاب الحق فهو فى الجنة . فقال أبو موسى ما قال . فهكذا يكون إنصاف طالب الحق . ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه استبعد ذلك وقال : لا يحتاج أن يقال أصاب الحق فإن ذلك معلوم لكل أحد !

الخامس : ألا يمنع معينه على استخراج الحق بالنظر من الإنتقال من دليل إلى دليل ، فهكذا كانت مناظرة السلف والصحابة رضى الله عنهم .

السادس : أن يناظر من يرجو الاستفادة منه ممن هو مستقل بالعلم .

فبهذه الشروط يُتَبَيَّن من يناظر لله سبحانه ممن يناظر لغرض يدعوه إلى ذلك فى نفسه .

---

(١) الملأ من الناس : الجماعة .

(٢) أخبار عمر للطنطاوين : ٥٠٠

(٣) جامع بيان العلم : ١ : ١٣١ .

السابع : أن يسلم من آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق ، من الكبر ، والعجب ، والحسد ، والمنافسة ، وتزكية النفس ، وحب الجاه ، والحقد على المناظر ، والغيبة والطعن عليه ، والكذب والبهتان والتجسس ، وتتبع عورات الناس ، والفرح بمسألتهم ، والاستكبار عن الحق إذا ظهر ، والرياء ، وملاحظة الخلق ، والجهد فى استمالة قلوبهم ، والمكر والخديعة لدفع قول مناظره وأشباه ذلك من رذائل الأخلاق ؛ لأن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام للخصوم وإظهار الشرف والفضل عند الناس واستمالة وجوههم هى منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله تعالى ، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الحسد والكبر وسائر ما قدمنا ذكره كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقتل والقذف والسرقة وسائرها ، وكما أن الذى خير بين شرب الخمر وسائر الفواحش فأستصغر الخمر وأقدم عليه فدعاه ذلك إلى إرتكاب بقية الفواحش فى سكره ، فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة فى الجدال والمناظرة لأجل طلب الجاه والمباهاه به ، دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها فى النفس ، وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة . فلهذا قلنا إن الفقهاء الأولين وعلماء السوء المتمردين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ومزقوا الأمة قطعاً قطعاً ، دعاهم طلب الرئاسة وحب الجاه والمنافسة إلى المجادلات والمناظرات ، والنظر إلى مخالفيهم بعين الإزدراء والاستحقارات ، فانبعثت دواعى المخالفين بالمقابلة والمكافآت ، وسمى كل فريق منهم ما صنفوا من المجادلات ذباً عن الدين ونضالا عن المسلمين فكان ذلك على التحقيق سبباً لهلاك الخلق ورسوخ البدع فى نفوس الأمة إلا المحسنين ، فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق لهم عذاب أليم .

ونحن نعوذ بالله من فتنة العمل ، ونعوذ بالله من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ به من العجب مما نحسن ، ونعوذ به من شر السلاطة والهذر ، كما نعوذ به من شر العى والحصر وبالله التوفيق .

الجملة الثانيـة

فى الآخبار والآثار الواردة فى العلماء السوء

اعلم أنه قد ورد فى العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة .

قال الله سبحانه :« **يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .** »(١) وقال تعالى: « **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه** »(٢) فلما لم يفعلوا عيرهم الله فقال : « **فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون** »(٣) وقال تعالى : « **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** »(٤) . فى أمثالها كثير .

وأما الأحاديث فكثيرة كقوله عليه السلام من طريق جابر بن زيد عن أنس بن مالك عنه عليه السلام أنه قال : « ويل لمن لا يعلم ولم يعمل مرة ، وويل لمن يعلم ولم يعمل مرتين »(٥) .

ومن طريقه أيضاً عنه عليه السلام أنه قال : « من تعلم العلم ليباهى به العلماء أو ليمارى

---

(١) التوبة : ٣٤ (٢) آل عمران : ١٨٧

(٣) آل عمران : ١٨٧ (٤) الأعراف : ١٦٩

(٥) مسند الربيع بن حبيب ج ١ : ٢

به السفهاء ، لقى الله وهو خائب من الحسنات »[١] وعنه عليه السلام أنه قال : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه »[٢] .

ويروى عنه عليه السلام أنه قال : « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملا »[٣]

وعنه عليه السلام أنه قال : « العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم ، وعلم فى القلب فذلك العلم النافع »[٤]

وعنه عليه السلام أنه قال : « من تعلم العلم للرفعة والعظمة أوقفه الله تعالى موقف الذل والصغار يوم القيامة ، ويجعله الله تعالى عليه حسرة حين يكون العلم لأهله زيناً.»[٥]

وعنه عليه السلام أنه قال : « يكون فى آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق »[٦]

وفى حديث آخر عنه عليه السلام أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تكون أمناء خونة وقراء فسقة ليست لهم رعة تغشاهم فتنة مظلمة يتهوَّكون فيها كما تتهوك اليهود فى الظامة . »

وعنه عليه السلام أنه قال : « الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا فى الدنيا ، فإذا فعلوا ذلك فاتهموهم على دينكم . »[٧]

---

(١) مسند الربيع بن حبيب ١ : ١٢

(٢) رواه الطبرانى فى الصغير والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابى هريرة باسناد ضعيف .

(٣) أخرجه ابن حبان فى روضة العقلاء والبيهقى فى المدخل موقفاً على أبى الدرداء .

(٤) أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر ، وابن عبد البر مرسلا من حديث الحسن باسناد صحيح (جامع بيان العلم ١ : ١٩١) والخطيب فى تاريخه عنه عن جابر باسناد جيد . وأعله ابن الجوزى .

(٥) أخرجه الربيع بن حبيب فى مسنده عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد ج ١ : ١٢ .

(٦) أخرجه الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف .

(٧) رواه الغزالى هكذا : « الفقهاء أمناء الرسل على عباد الله تعالى ما لم يخالطوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم» . قال أبو الفضل العراقى فى تخريجه : « أخرجه العقيلى فى الضعفاء ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات . قال السيوطى فى اللآلى المصنوعة ١ : ٢١٩ : الحديث ليس بموضوع . ثم قال بعد كلام طويل . وهذا الحديث الذى نحن فى الكلام عليه يحكم له على مقتضى صناعة الحديث بالحسن والله أعلم.

وعنه عليه السلام أنه قال : « لن تزال هذه الأمة تحت يد الله تعالى وفى كنفه ما لم يُمال قراؤها أمراءها ، وما لم يزكُ صلحاؤها فجارَها وما لم يهن شرارها خيارها، فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم يده ، وسلط عليهم جبابرة فساموهم سوء العذاب ، وضربهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعباً »

وعنه عليه السلام أنه قال . « أكثر منافقى هذه الأمه قراؤها »

وبلغنا أنه قيل يا رسول الله . أى الشر شرٌ ؟ قال . اللهم غفراً ، شر الشر شرار العلماء »(١) .

وعنه عليه السلام أنه قال : « من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا »(٢) .

وعنه عليه السلام أنه قال : « لأنا من غير الدجّال أخوف عليكم من الدجّال .قيل وما ذاك يارسول الله ؟ قال : أئمة ضالون مضلون »(٣)

وعن حذيفة بن اليمان(٤)قال : يارسول الله ، هذا الخير الذى آتانا الله بك هل بعده

---

(١) أخرجه الدارمى من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا

(٢) سبق

(٣) أخرجه أحمد من حديث أبى ذر باسناد جيد .

(٤) هو أبو عبد الله بن حذيفة بن اليمان واسم أبيه حسل ويقال حسيل بن جابر العبسى . وإنما قيل لأبيه اليمان لأنه أصاب فى قومه دماً فهرب إلى المدينة فحالف بنى عبد الأشهل فسماه قومه اليمان لأنه حالف اليمانية . وأم حذيفة هى الرباب بنت كعب بن عدى بن عبد الأشهل من الأنصار من الأوس .. أسلم أبوه وشهد هو وابناه حذيفة وصفوان أحداً وقتل أبوه يومئذ . وقد كان حذيفة رضوان الله عليه من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو الذى بعثه النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق لينظر إلى قريش ، فجاءه بخبر رحيلهم .. وهو معروف بين الصحابة بصاحب سر رسول الله . قال حذيفة : لقد حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان وما يكون حتى تقوم الساعة . وكان أمير=

من شر ؟ قال : نعم ، الفتنة . قال : وهل بعدها من خير ؟ قال : نعم : إغضاء على إقذاء ، وهدنة على دخن . قال : وهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم : أئمة مضلون يقتدون على أبواب جهنم ينادون إليها ، كل من أجابهم قذفوه فيها . قال : جلِّهم لنا يارسول الله فإني أخاف أن أدركهم . قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بكلامنا . »(١) وعنه عليه السلام أنه قال : « أخوف ما أخاف عليكم زلة عالم ، أو منافق يجادل بالقرآن . »(٢) وعن عيسى عليه السلام أنه قيل له: أى الناس أشد فتنة ؟ قال: زلة العالم ، إذا زل زل بزلته عالم كثير .

وعنه عليه السلام أيضا أنه قال : يا علماء السوء ، تصلون وتصومون وتتصدقون ، ولا تفعلون ماتؤمرون ، وتدرِّسون ما لاتعلمون(٣) فياسوء ماتحكمون ، تتوبون بالقول والأمانى ، وتعملون بالهوى ، ومايغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم : لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة ، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغل فى صدوركم .

ياعبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لاتنقضى من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته ؟ بحق أقول لكم : إن قلوبكم تبكى من أعمالكم ، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم ، بحق أقول لكم : أفسدتم آخرتكم وصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة وأى الناس أخسر منكم لو كنتم تعلمون ؟ !

=المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأله عن المنافقين ، وكان عمر رضى الله عنه لا يحضر جنازة لم يحضرها حذيفة . شهد نهاوند ، ولما قتل النعمان بن مقرن أخذ الراية ، وكان فتح همذان والرى والدينور على يديه . وكانت فتوحه كلها سنة اثنتين وعشرين هـ . استعمله عمر على المدائن فلم يزل بها حتى مات بعد قتل عثمان وبعد بيعة على بأربعين يوماً وذلك فى سنة ست وثلاثين . قال حذيفة : خيرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الهجرة والنصرة فأخترت النصرة .

(١) أنظر أحاديث حذيفة عن الفتنة فى منحة المعبود فى ترتيب مسند أبى داود . ج : ٢ ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) أخرجه الشيرازى من حديث أبى الدرداء . ولابن حبان نحوه من حديث عمران بن حصين .

(٣) فى ب : تعملون

ويلكم ! إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون فى محلة المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم . مهلا ! مهلا ! ويلكم ! ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه وحش مظلم ؟ ! لايغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة .

ياعبيد الدنيا : فلا كعلماء يعملون ، ولا كعبيد أتقياء ، ولا كأحرار كرام . توشك الدنيا أن تقلعكم من أصولكم فتقلبكم على وجوهكم ، ثم تكبكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم حتى يسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى . فيوقفكم على سوآتكم لم يجزيكم بسوء أعمالكم . » هذا ماروى عن عيسى عليه السلام فى كتاب المحاسبى .

قال : وبلغنا أن الله سبحانه أوصى إلى دواد عليه السلام ، لا تستشر فى أمرك عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك بسكره عن طريق محبتى ، أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين .

هذه وأمثالها من الأخبار تدل على عظم خطر العلم ، فإن العالم متعرض إما لهلاك الأبد أولسعادة الأبد ، وأنه بالخوض فى العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة .

وأعظم من هذه الأخبار ماروى عن معاذ بن جبل رحمه الله موقوفا ومرفوعاً أن النبى عليه السلام قال : «إن من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع»(١)

وفى الكلام تنميق وزيادة ، ولا يؤمن على صاحبه الخطأ . وفى الصمت سلامة وعلم . ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك فى الدرك الأول من النار ..

---

(١) الحديث أخرجه ابن الجوزى وأبو نعيم فى الموضوعات .

ومن العلماء من يكون فى علمه بمنزلة السلطان ، فإن رُدَّ عليه شىء من علمه أو تُهُوِّن بشىء من حقه غضب ، فذلك فى الدرك الثانى من النار . ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلا ، فذلك فى الدرك الثالث من النار . ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتى بالخطأ والله يبغض المتكلفين ، فذلك فى الدرك الرابع من النار . ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليغزر به علمه فذلك فى الدرك الخامس من النار . ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلا وذكراً فى الناس ، فذلك فى الدرك السادس من النار . ومن العلماء من يستفزه الزهو والعجب ؛ فإن وعظ أنف ، فذلك فى الدرك السابع من النار .

[فعليك يا أخى][1] بالصمت فبه تغلب الشيطان ، وإياك أن تضحك بغير عجب أو تمشى فى غير أرب .

وفى خبر آخر : « إن العبد لينشر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة » .[2] والله أعلم .

وأما الآثار المروية فى ذلك عن السلف فكثير منها :

ماروى عن عمر رضى الله عنه قال : أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العالم .

قالوا : وكيف يكون منافقاً عالما ؟ قال : عالم اللسان جاهل القلب .

---

(١) زيادة الإ من الاحياء : ٦٢/١ وفى نسخ الفناطر : عليك بالصمت .

(٢) قال الحافظ العراقى : لم أجده هكذا . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضه » . وانظر إحياء علوم الدين ١ : ٠٦٦

وفى أخبار داود عليه السلام : ان أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى . ياداود ، لا تسأل عنى عالماً قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتى ، أولئك قطاع طريق عبادى . ياداود ، إذا رأيت لى طالبا فكن له خادماً .

يا داود ، من ردَّ إلىَّ هارباً كتبته حميداً ، ومن كتبته حميداً لم أعذبه أبداً .

ولذلك قيل عن الحسن أنه قال : عقوبة العلماء موت القلب ؛ وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة .

ولذلك قال بعض العلماء : إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلبت الدنيا بهما .

وعن عمر رضى الله عنه أنه قال : إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم ؛ فإن كل محب يخوض فيما أحب (١)

وعن مالك بن دينار أنه قال : قرأت فى بعض الكتب أن الله عز وجل يقول : إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتى من قلبه .

قال : وكتب رجل إلى أخ له : إنك أوتيت علما فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم فى نور علمهم .

وقال الحسن : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء وتجرى فى العلم مجرى السفهاء

وقيل لإبراهيم بن عيينة : أى الناس أطول ندامة ؟ فقال : أما فى عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره . وأما عند الموت فعالم مُفَرِّط ، وينشد :

---

(١) نسب ابن عبد البر هذا القول لجعفر بن محمد . جامع بيان العلم وفضله ١/١٩٣ ونسبه لسيدنا عمر رضى الله عنه فى ألف باء . ١/٤٨ .

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشترى دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه بدينا سواه وهو من ذين أعجب

وقال بعض العلماء : (١) يهتف العلم بالعمل ، فإذا أجابه وإلا ارتحل .

وعن النبى عليه السلام أنه قال : « ان العالم يعذب عذابا يطيف به أهل النار استعظاما لشدة عذابه . » (٢) أراد به العالم الفاجر .

وعن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فيدور كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولاآتيه وأنهى عن الشر وآتيه » (٣) .

وقال بعض مشايخنا من أهل المشرق رحمهم الله فى قوله تعالى « **ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا** » (٤) قال : ما أظن هؤلاء إلا علماء قومنا .

وعنه عليه السلام أنه قال : « أهلك أمتى رجلان ؛ عالم فاجر وعابد جاهل » (٥) .

وقال بعض السلف : إنما جاء فساد الدين والدنيا من قبل أربعة : عالم فاجر ، وعابد جاهل ، وطالب الدنيا بالدين ، وسلطان جائر . وينشد :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها !

وعن أبى الدرداء أنه قال : « ويل لمن لايعلم ولا يعمل مرة واحدة . وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات » (٦)

---

(١) هو سفيان الثورى كما فى احياء علوم الدين ١ : ٥٩ .
(٢) قال الحافظ العراقى : لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده .
(٣) متفق عليه بلفظ « الرجل » بدل « العالم » .
(٤) مريم : ٦٩ وفى كشف البيان للقلهاتى (مخطوط) : قال جابر بن زيد رحمه الله فى هذه الآية : هم علماء السواء والعتو والتجبر .
(٥) تقدم
(٦) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله ١ : ٤٠ وفى مسند الربيع بن حبيب عن جابر ابن زيد برفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم بلفظ : « ويل لمن يعلم ولم يعمل سبع مرات وويل لمن لم يعلم ولم يعمل مرة واحدة » . .

وعن الشعبي أنه قال : يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار ، فيقولون لهم : ماذا أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم ؟ فيقولون : إنما كنا نأمر بالخير ولا نفعله . وينشد :

وعامل بالفجور يأمر بالبر كهاد يخوض فى الظلم
أو كطبيب شفّه سقم وهو يداوى من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متّعظٍ ثوبك طهّر أوْلاَ فلا تَلم

وعن الأوزاعى أنه قال : شكت النواويس ما تجد من نتن جيف الكفار، فأوصى الله تعالى إليها . بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه . وينشد .

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

ويروى أن الحسن انصرف من مجلسه فحمل إليه رجل من خراسان كيساً فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز وقال : يا أبا سعيد ، هذه نفقة ، وهذه كسوة فقال الحسن : [عافاك الله تعالى] ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك ، إنه من جلس مثل مجلسى هذا وقبل من الناس مثل هذا لقى الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق(١) له .

وروى الضحاك عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « علماء هذه الأمة رجلان : رجل آتاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعاً ولم يشتر به ثمناً فذلك الذى يصلى عليه طير الهواء وحيتان الماء ، ودواب الأرض، والكرام الكاتبين ، يقدم على الله تعالى يوم القيامة سيداً شريفاً حتى يرافق المرسلين ، ورجل آتاه الله عز وجل

---

(١) لا خلاق له : أى لا نصيب له ولا حظ .

علماً فى الدنيا فضن به على عباد الله وأخذ عليه طمعاً واشترى به ثمناً فذلك يأتى يوم القيامة مُلجماً بلجام من نار ، ينادى عليه مناد على رؤوس الخلائق : هذا فلان بن فلان ؛ آتاه الله علماً فى الدنيا فضن به على عباده ، وأخذ به طمعاً واشترى به ثمناً فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس »[1] .

وأشد من هذا ما روى أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول : حدثنى موسى نجى الله حدثنى موسى نجى الله حتى أثرى وكثر ماله ففقده موسى صلوات الله عليه وعلى نبينا ، فجعل يسأل عنه فلا يحس له أثراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفى يده خنزير فى عنقه حبل أسود، وفى بعض الروايات: جاءه بأرنب فى عنقها سلسلة فقال له موسى عليه السلام : أتعرف فلاناً ؟ قال نعم . هو هذا الخنزير ! فقال موسى : يارب أسألك أن تردّه إلى حاله حتى أسأله فيم أصابه هذا . فأوحى الله عز وجل إليه : لو دعوتنى بالذى دعانى به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ولكن أخبرك لم صنعت هذا به : لأنه كان يطلب الدنيا بالدين » .

وروى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :« من طلب علماً مما يبتغى به وجه الله سبحانه ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة »[2] وقد وصف الله تعالى علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد ؛ فقال فى علماء الدنيا : « **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون** »[3] .

وقال فى علماء الآخرة : « **وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم،**

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد ضعيف

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجة بإسناد جيد .

(٣) آل عمران : ١٧٨ .

وما انزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا اولئك لهم اجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب » (١)

وقال بعض السلف: العلماء يحشرون يوم القيامة فى زمرة الأنبياء، والقضاة يحشرون فى زمرة السلاطين. وفى معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه.

وروى أبو الدرداء أنه صلى الله عليه وسلم قال: « أوصى الله إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس جلود الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، إياى يخادعون وبى يستهزئون لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم حيرانا »(٢)

وكان يحى بن معاذ الرازى يقول فيما بلغنا لعلماء الدنيا: يا أصحاب العلم، قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأثوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآتمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين [الشريعة](٣) المحمدية؟ وينشد:

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها
فكيف إذا الرعاة لها ذئابُ!

وقيل لبعض العارفين: أترى أن من تكون المعاصى قرة عينه لا يعرف الله؟

قال: ما أشك أن من تكون الدنيا آثر عنده من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى، وهذا دون ذلك بكثير.

---

(١) آل عمران: ١٩٩

(٢) أخرجه ابن عبد البر باسناد ضعيف، ولفظه: ويلبسون للناس مسوك الكباش. وهى كذلك فى ا، ج

(٣) زيادة من إحياء علوم الدين. والخبر فيه ١: ٦١

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: لو أن أهل العلم أخذوا العلم بحقه لأحبهم الله تعالى من فوق عرشه ، ولأحبتهم ملائكته وأهل صفوته من أهل الأرض؛ ولكنهم أخذوه بغير حقه وطلبوا به الدنيا فمقتهم الله تعالى من فوق عرشه ، ومقتهم أهل السماء وأهل الأرض وهانوا عليهم .

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال : إن الذى بطأنا عن علم ما جهلنا تركنا العمل بما علمنا ، ولو عملنا بما علمنا لورث الله تعالى قلوبنا علماً لا يقوم به أمثالنا .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دينه . وكيف يكون من أهل العلم مَن يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به . وأنشدوا :(١)

يا جاعل العلم له بازياً يصطاد أموال المساكين
قد صرت مجنوناً به بعد ما كنت دواء للمجانين

وعن صالح بن كيسان البصرى قال : أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : من علم وعمل وعلم فذلك الذى يدعى عظيما فى

---

(١) الأبيات لعبد الله بن المبارك . وفى كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١ : ١٦٥ : « لما ولى اسماعيل بن علية على العشور ، أو على الصدقات ، كتب إلى عبد الله بن المبارك يستمده برجال من القراء يعينونه على ذلك فكتب إليه عبد الله :

يا جاعل العلم له بازيا يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنوناً بها بعدما كنت دواء للمجانين
أين رواياتك فيما مضى عن ابن عون وابن سيرين
ودرسك العلم بآثاره وتركك أبواب السلاطين
تقول أكرهت فماذا كذا زل حمار العلم فى الطين

ملكوت السموات ، ومن علم ولم يعمل فذلك الذى يضاعف له العذاب ضعفين ، ومن لم يعلم ولم يعمل فذلك الذى يموت موتة جاهلية ،

قال بعض علماء السلف : وإنما يضاعف عذاب العالم فى معصيته لأنه عصى عن علم ، ولذلك قال الله عز وجل « **ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار** »(١) لأنهم تركوا بعد العلم وعصوا بعد المعرفة . وجعل الله تعالى اليهود شرا من النصارى ، مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً . لأن قولهم عزير بن الله على جهة الرحمة فى قول بعض العلماء وكذلك قولهم نحن أبناء الله كذلك ، ولم يقولوا أيضا : إن الله ثالث ثلاثة فجعلهم شراً من النصارى لأنهم أنكروا بعد المعرفة ، قال تعالى . « **يعرفونه كما يعرفون ابناءهم** »(٢) وقال : « **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** »(٣) وقال الله تعالى فى بلعم بن باعوراء : « **واتل عليهم نبأ الذى اتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث** »(٤) أى سواء أوتى الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات لأنه أوتى كتاب الله فأخلد إلى الشهوات . وأنشدوا لابن المبارك :

ذر التزين فى دنياك بالدين ... واعمل ليوم تجازى بالموازين
ليس اللباس لباس الصوف من عمل ... ولا لأخذك شعراً كالمجانين
ذا اللباس مع الرهبان فى شعث ... فهل تراه نجاة للرهابين
قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره ... فقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوتاً بلاغلق ... تبتاع بالدين أموال المساكين
فى سورة الكهف لو فكرت موعظة ... تنهاك عن خدع بين الأساطين
وفى الطواسين أخرى إن عملت بها ... نلت الرشاد بآيات الطواسين
أما التى ذكرت فى الكهف ناهية ... عن الربا ثم أموال المساكين
وآية القصص الأخرى فزاجرة ... عن التكبر أمثال الفراعين

(١) النساء : ١٤٥ (٢) البقرة : ١٤٦ ، الأنعام : ٢٠
(٣) البقرة : ٨٩ (٤) الأعراف : ١٧٥ — ١٧٦

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر ؛ لاهى شربت الماء ولا هى تترك الماء يخلص فى الزرع ، ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص ، وباطنها نتن ، وكمثل القبور ظاهرها عامرة وباطنها عظام الموتى .

ولا تظنن أن ترك المال فقط به تلحق علماء الآخرة ، بل طلب الجاه شر من المال ؛ ولذلك قال بعض العلماء : حدثنا باب من أبواب الدنيا . ولذلك قيل عن أبى سليمان الدارانى قال : إذا طلب الرجل الحديث ، أو تزوج ، أو سافر فى طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا . وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية ، أو طلب الحديث الذى لا يحتاج إليه فى طريق الآخرة . وعن الثورى أنه قال : فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد ؛ ولذلك قال بعضهم : إذا اشتهيت أن تحدث فلا تحدث ، وإذا لم تشته فحدث . قال : وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم من كل نعيم فى الدنيا ، فمن أجاب شهوته فى ذلك فهو من أبناء الدنيا ، وهذا عندى إذا كان قصده بالتحدث جر الجاه ومنفعته والله أعلم .

فهذه الأخبار والآثار التى أوردناها تبين [أن] العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخسُّ حالا عند الله ، وأشد عذاباً من الجاهل يوم القيامة . ولهذا قال بعض السلف : العلم كله دنيا ، والآخرة منه العمل به ، والعمل كله هباء إلا الإخلاص . وقال : الناس كلهم موتى إلا العلماء ، والعلماء سكرى إلا العاملين ، والعاملون مغرورون إلا المخلصين ، والمخلص على وجل حتى يدرى ما يختم له به . والله نسأله التوفيق وحسن الخاتمة .

الباب التاسع

فى العلامات المميزة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة

ونعنى بعلماء الدنيا : العلماء السوء ، وهم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا ، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها . وهم الذين وردت فيهم الأخبار والآثار المتقدمة . ونعنى بعلماء الآخرة : العلماء بالله سبحانه ، العاملين له ، فهم الفائزون المقربون يوم القيامة ، ولهم علامات منها :

• أن لا يطلب بعلمه الدنيا ؛ فإن أقل درجات العلم النافع أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانعدامها : ويدرك عظم الآخرة ودوامها وبقاء نعيمها وجلالة ملكها ، ويعلم أن الدنيا والآخرة متضادتان ، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وأنهما كالمشرق والمغرب ؛ مهما قربت من إحداهما بعدت عن الأخرى ، وأنهما كـكفتى الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى ، وأنهما كقدحين : أحدهما مملوء ، والآخر فارغ ، فبقدر ما تصب فى أحدهما كذلك تفرغ من الآخر .

فإن من لا يعلم حقارة الدنيا وكدورتها ، وامتزاج لذتها بألمها ، ثم انعدام ما يصفو منها فهو فاسد العقل ؛ لأن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك . فـكيف يكون من العلماء من لا عقل له ؟ وإن من لا يعلم عظم الآخرة ودوامها فهو مشرك مسلوب الإيمان ، فـكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ؟ وإن من لا يعلم مضادة الدنيا والآخرة ، وأن الجمع بينهما محال وطمع فى غير مطمع فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم ، بل هو كافر بالقرآن من أوله إلى آخره . فـكيف يعد من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان بعيد من الرحمن ، قد أهلـكته شهوته ، وغلبت عليه شقوته ، فـكيف

يعد من أحزاب العلماء من هذه درجته ؟ وقد روى عن جابر موقوفا ومرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تجلسوا عند [كل] عالم إلا عالما يدعوكم من خمس إلى خمس : من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة » . (١) قال الله سبحانه لنبيه عليه السلام : **« فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم . »** (٢)

وقال تعالى إخباراً عن قارون : **« فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما اوتى قارون إنه لذوحظ عظيم »** (٣) ثم قال : **« وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون »** (٤)

فعرف أهل العلم مقدار الآخرة وثواب الله فيها ، وخساسة الدنيا وحقارتها ، فعرفوا بذلك الجهال والله أعلم .

ومنها : لا يخالف فعله قوله ، بل لا يأمر بالشيء إلا وهو أول عامل به . قال الله تعالى: **اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم »** (٥)

وقال تعالى فى قصة شعيب عليه السلام : **« وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه »** (٦)

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : « لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، ولعن الله الناهين عن المنكر الفاعلين له » . وفيما يروى عنه أن الله عز وجل أوحى إلى عيسى عليه السلام : يابن مريم عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ غيرك و إلا فاستحى منى . وأنشد :

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وابن الجوزى فى الموضوعات . وهذا من كلام شقيق بن إبراهيم كان كثيراً ما يعظ به أصحابه والناس ، فوهم الرواة فرفعوه وأسندوه . اللآلى المصنوعة (١ : ٢١٢) .

(٢) النجم : ٢٩ — ٣٠ (٣) القصص : ٧٩

(٤) القصص : ٨٠ (٥) البقرة : ٤٤

(٦) هود : ٨٨

ياواعظ الناس قد أصبحت متهما إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
يا كاسيَ الناس أثواباً وعورته للناس بادية ما إن يواريها

وعن الفضيل أنه قال : بلغنى أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان . وعن حاتم الأصم أنه قال : ليس فى القيامة أشد حسرة من رجل عَلَّمَ الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو . وعن مالك بن دينار أنه قال : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا . وينشد :

عود لسانك قـــلة اللفظ واحفظ كلامك أيما حفظ
إياك أن تعظ الرجال وقـد أصبحت محتاجا إلى الوعظ

وعن الشيخ أبى نصر[1] من مشايخ الجبل رحمهم الله أنه قال : لن ينجو من علماء آخر الزمان إلا مثل ما يسلم من ضوء المصابيح إذا رفعوا من بيت إلى بيت فى ليلة ذات ريح . ثم قال : هذا فى العلماء فكيف الجهال ! دود لا يفلت منهم أحد .

وعن النبى عليـــه السلام أنه قال : مررت ليلة أسرى بى بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نفعله »[2] .

---

(١) هو أبو نصر زار بن يونس التيفستى ، نسبة إلى (تيفست) موضع فى جبل نفوسة توجد به الآن بئر شمال درج ، بينها وبين سناون . وهو من علماء النصف الأول للقرن الرابع ، وكان من فحول العلماء ، كثير العبادة ، وصول العمل ، تقيا ورعاً . وعندما حضرته الوفاة أخـذ يبكى . قيل : ما يبكيك ؟ قال : خوفاً من الفتيا ، قلت دار من دور نفوسة لم تدخلها فتوى . ومن كلامه رحمه الله : الكلام كله لغو ؛ إلا مسألة فى الخير واستعاذة من الشر ، وقراءة القرآن ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ومن تلاميذه أبو سهل البشر بن محمد وهو ممن جرت عليهم نسبة الدين عند أصحابنا .

(٢) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (١ : ٥٢) ولفظه : فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ! . والحديث ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب . ونسبه البيهقى بروايتين بنحوه . ورواه بنحوه عن أنس . وذكره ابن كثير فى التفسير (١ : ١٥٥) . واللفظ الذى أورده المؤلف رحمه الله هنا هو لفظ رواية الغزالى فى الإحياء ١ : ٦٣ ولفظه : « كنا نأمر بالخير ولا نأتيه ، وننهى عن الشر ونأتيه » .

وينشد :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فإذا جريت مع السفيه فلمته فى مثل ماتأتى فأنت مليم

ويروى أن فى الإنجيل : لاتطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعلموا بما علمتم. ويحكى عن إبراهيم ابن أدهم أنه قال : مررت بحجر مكتوب عليه : أقلبنى تعتبر. قال : فقلبته فإذا عليه مكتوب : أنت بما تعلم لاتعمل فكيف تطلب علم ما لا تعلم ؟

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال : سيأتى على الناس زمان تمالح فيه غذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه . فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة ، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ، ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم ، فيخبرك عللهم حين تلقاه أنه يخشى الله سبحانه بلسانه والفجور بيّن في عمله ، فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب ! فو الله الذى لا إله إلا هو ماذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى ، والمتعلمين تعلموا لغير الله .

وقال ابن السماك : كم من مذكّر بالله ناس لله ! وكم من مخوّف بالله جرىء على الله ! وكم من مقرب إلى بعيد من الله سبحانه ! وكم من داع إلى الله عز وجل فارّ من الله تعالى وكم من تالٍ لكتاب الله عز وجل منساخ من آيات الله جل جلاله .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : مثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر فحملت فظهر حملها فافتضحت ؛ فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الاشهاد .

وعن معاذ رحمه الله أنه قال : احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته . وقال [١] : ثلاث بهن يهدم الزمان ، إحداهن زلة العالم .

وروى عن مكحول عن عبد الله بن غنم أنه قال : حدثنى عشرة من أصحاب رسول لله صلى الله عليه وسلم قالوا : « كنا ندرس العلم فى مسجد قُباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تعلموا ما شئتم أن تتعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا »[٢] .

وعن الأوزاعى : إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع . وعن إبراهيم بن أدهم انه قال لقد أعربنا فى كلامنا فلا نالحن[٣] ولحنا فى أعمالنا فلا نعرب .

اعلم أن مثل العالم مثل القاضى ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : «القضاة ثلاثة : قاض قضى بالحق وهو يعلم فذلك فى الجنة . وقاض قضى بالجور وهو يعلم أو قضى وهو لا يعلم فهو فى النار [وقاض قضى بغير ما أمر الله فهو فى النار] »[٤]

وعن كعب أنه قال : يكون فى آخر الزمان علماء يزهدون الناس فى الدنيا ولا يزهدون ، ويخوفون ولا يخافون ، وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة ؛ يأكلون بألسنتهم ، يقربون الأغنياء دون الفقراء ، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال ، يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره ، أولئك الجبارون أعداء الرحمن .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الشيطان ربما سبقكم بالعلم . قيل : يارسول الله ، وكيف ذلك ؟ قال [صلى الله عليه وسلم] : يقول : اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم ، فلا يزال [فى العلم قائماً] [٥] وللعمل مسوفا حتى يموت وما عمل» . [٦]

---

(١) نسب الغزالى هذا القول لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . إحياء علوم الدين ١ : ٦٤

(٢) علقه ابن عبد البر (٢ : ٧) وأسنده ابن عدى وأبو نعيم والخطيب فى كتاب اقتضاء العلم للعمل من حديث معاذ فقط بسند ضعيف . ورواه الدارمى موقوفاً على معاذ بسند صحيح .

(٣) اللحن : الخطأ فى القراءة .

(٤) أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح

(٥) هكذا فى ا . وفى غيرها : للعلم قائلا .

(٦) فى الجامع من حديث أنس بسند ضعيف .

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال : ليس العلم بكثرة الروايات وإنما العلم الخشية .

وقال الحسن : السفهاء همتهم الرواية ، والعلماء همتهم الرعاية .

وعن مالك بن دينار أنه قال : إن طلب العلم لحسن ، وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية . ولكن أنظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى ولا تؤثرن عليه شيئاً .

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال : أُنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملا ، وسيأتى قوم يَثْقَفُونه مثل القناة[1] ليسوا بخياركم . والعالم الذى لا يعمل كالمريض الذى يصف الدواء، وكالجائع الذى يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها . وفى مثله يقول [الله تعالى]: « **ولكم الويل مما تصفون** » (٢) .

والفيصل فى انقطاع الإنسان من العلم إلى العمل ، وانقطاعه عن العمل إلى العلم هو ما حكى عن الزهرى فيه ، وهو أنه قال : العلم أفضل من العمل به لمن جهل . والعمل أفضل من العلم لمن علم .

فأما فضل ما بين العلم والعبادة إذا لم يُخل بواجب ولم يقصر فى فرض ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يبعث العالم والعابد فيقال للعابد : أدخل الجنة . ويقال للعالم : إئتد حتى تشفع للناس »(٣) . والله أعلم .

● ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون العالم غير مائل إلى الترفه فى المطعم ، والتنعم

---

(١) فى نسخ القناطر: يثقفونه مثل الغناء . وهو تحريف ما أثبته هنا من إحياء علوم الدين ١ : ٦٤ وثقف الشىء : يثقفه ثقفاً: حذقه وأتقنه. والثقافة : الحذق والإتقان وضبط الأصول ، وإقامة ما يعرفه على أحسن وجوهه . والقناة : الرمح .

(٢) الأنبياء : ١٨

(٣) أخرجه ابن عبد البر من حديث جابر بن عبد الله وتمامه : « كما أحسنت أدبهم » جامع بيان العلم ١ : ٢٢

فى الملبس ، والتجمل فى الأثاث والمسكن ، بل يلزم طريقة الاقتصاد فى جميع ذلك كما ذكر أبو الحر على بن الحصين[١] رحمه الله فى رسالته إلى الإمام عبد الله بن يحيى الكندى[٢] رحمه الله . قال فيها : « . . فالله الله يا أخى أن تعمى بعد البصر ، وتضل بعد الهدى و بعد معرفة الإسلام ، وبعد إخلاص طاعة الله بالتقوى ؛ فإن أولى الألباب والنهى لم يكونوا أهل لهو ولا لعب ، ولم يكونوا أهل نسيان ولا غفلة ، ولا أهل راحة ولا فترة ، ولا أهل تلذذ بالدنيا ومطايب عيشها . ولم يكونوا أصحاب نعيم ولا فخر ، ولا أهل إبل ولا بقر ، ولا أصحاب خيلاء ولا كبر ، ولا أهل رغبة فى مال ولا أهل ولد إلا ما أعطاهم الله تعالى : فإن كان كثيراً أنقصوه عن أنفسهم وآثروا به أهل الفاقة من خلقه ، تخوفا أن يفسدهم ذلك عن الله فيشروا[٣] ويبطروا ويمرحوا ، ويشغلهم ذلك عن الذى وكلوا به والذى هم به معنيون ، فكان الأقل من الدنيا أحب إليهم من الأكثر ، وكان الجوع أحب إليهم من الشبع مالم يجهدوا ، وهم فى الشبع على أنفسهم أخوف وفى الجوع أرجا وأذكر ، وكان الفقر أحب إليهم من الغنى ، وهم فى الفقر أعبد لله وأتقى ، وفى الغنى أنسى لله وأعصى لضعفهم عن الشكر وحبسهم ما ليس لهم واستئثارهم به عن أهله ، وكان البلاء أحب إليهم

---

(١) أبو الحر على بن الحصين العنبرى ، من العلماء الفقهاء . وكان موسراً وتأتيه غلته من البصرة إلى مكة نقرة واحدة ذهباً فيقسمها نصفين فيفرق نصفها فى فقراء المسلمين ، وربعاً فى نفقته ، وربعاً يحبسه ليهيئه لمن يمر به من المسلمين وفى معاونتهم . ومن مناقب أبى الحر أن أهدى إليه رجل من أهل البصرة بساطاً فيه تصاوير فباعه . فقال له وائل : إن كان مما يوطأ ويمهد فلا بأس فلم يلتفت إلى كلامه . وأخباره فى سير الشماخى (١٠٠ — ١٠٢) وفى طبقات الدرجينى .

(٢) عبد الله بن يحى الكندى أبو يحى ، طالب الحق ، كان قاضياً لإبراهيم بن جملة — عامل القويسم — على حضرموت وهو عامل مروان على اليمن فأظهر باليمن وحضرموت جوراً كبيراً ففزعت الناس إلى عبد الله بن يحى ، فكاتب أبا عبيدة مسلم فقال : إن استطعت فلا تبق يوما واحداً ، وأرسل إليه بأبى حمزة المختار بن عوف ، وبليج بن عقبة الأزدى . فقام بالأمر لابتغاء رضاء الله ، وإقامة لشرعه ، وخلص له اليمن كله ، وأرسل قائده أبا حمزة إلى الحرمين الشريفين فأقام فيهما ماشاء الله وخطب فيهما خطباً من أبلغ ما يحتج للحق وينتصر له وهى موجودة فى دواوين الأدب . ووصف مالك ابن أنس إحداها فقال : خطبنا أبو حمزة بالمدينة خطبة حيرت المبصر وردت المرتاب ؛ يعنى أنها جعلت العالم المتبصر فى مذهبه محتاراً حيث سمع ما لم يسمعه من الحجة والبرهان .

(٣) يشروا : من الأشر ، وأشر فهو أشر : مرح .

من الرخاء ، للذى يرجون من الأجر فى البلاء ، ويخافون من الإثم فى الرخاء ، ولم يكونوا بطالين العشيات والضحى ، ولكنهم كانوا يصبرون أنفسهم مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه .. » وهى رسالة طويلة ذكر فيها حال النبى عليه السلام وأحوال الصحابة رضى الله عنهم فى التقلل فى الدنيا ، ورغبتهم فى الآخرة ، وهى مكتوبة فى كتاب رسائل الأئمة وكذلك أحوال المشايخ المسلمين من أهل المشرق وأهل المغرب ، ومشايخ الجبل رحمهم الله فى اقتصادهم فى المعيشة وزهدهم فى الدنيا ، تركت ذلك هاهنا لئلا يطول الكتاب إذ ليس هذا موضعه . ويكفى فى ذلك قول الله تعالى : « **اذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** »(١) وقوله تعالى : « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** »(٢) وقوله عز من قائل إخباراً عن الكفار أبناء الدنيا : « **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم** »(٣) .

ويروى عن النبى عليه السلام أنه قال : « من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه أخذ حتفه وما يشعر » .

وفى كتاب المحاسبى عنه عليه السلام أنه قال : « سيأتى بعدى قوم يأكلون أطايب الأطعمة وألوانها ، وينكحون أجمل النساء وألوانها ، ويلبسون ألين الثياب وألوانها ، لهم بطون من القليل لا تشبع ، وأنفس من الكثير لا تقنع ، عا كفين على الدنيا يغدون ويروحون إليها ، اتخذوها آلهة دون إلههم ، وربا دون ربهم ، إلى أمرها ينتهون ، وهواهم يتبعون ، فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدرك ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم ومن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام » .

---

(١) الأحقاف : ٢٠ (٢) الأعراف : ٣١

(٣) محمد : ١٢

وقال الله تعالى مخاطباً المسلمين : « **وتزودوا فان خير الزاد التقوى** »(١) .

وقال بعض السلف : المؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع . والتحقيق فى هذا أن التزين بالمباح والتنعم بالحلال ليس بحرام ولا محظور ، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق عليه تركه ، واستدامة التنعم لا تمكن إلا بمباشرة أسباب فى الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصى من المداهنة ومراعاة الخلق ومراءاتهم ، وأمور أخرى يكثر تعدادها من تضييع المفروضات وارتكاب المحظورات لأجل كسب الدنيا والتمتع بها والحزم اجتناب ذلك ؛ لأن من خاض فى الدنيا لا يسلم منها ألبتة ، ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فى الدنيا لأحد لما كان النبى عليه السلام يبالغ فى ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالعلم(٢) ، ونزع أيضاً خاتم الذهب فى أثناء الخطبة ثم قال : « أمَّا هذا فلا ألبسه أبداً »(٣) . إلى غير ذلك مما سيأتى فى موضعه .

وقال تعالى لنبيه عليه السلام : « **يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا** »(٤) فأمره بفراقهن إذا أردن زينة الدنيا ، فكيف إذا خضن فيها ؟ ! ! فالوقوف على حدود المباح مع السلامة من المداهنة والرياء وسائر المحظورات عسير ، لا يقوى على ذلك إلا أهل اليقين من العلماء الأقوياء الموفقين . والتنعم بالمباح خطره عظيم ، وهو بعيد من الخوف والخشية اللذين هما من علامات علماء الآخرة ، هذا فى الحلال المحض ، فما ظنك فى أمثالنا الغرقى فى شبه المكاسب المحظورات ، والمطامع المذمومات ! بل السلامة من المباح فى التقلل والنجاة من الدنيا فى الزهد والتوكل . والله تعالى نسأله العصمة والتوفيق مع حسن الخاتمة .

---

(١) البقرة : ١٩٧

(٢) متفق عليه من حديث عائشة .

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر .

(٤) الأحزاب : ٢٨

● ومن علامات علماء الآخرة : أن تكون عناية العالم بتحصيل العلم النافع فى الآخرة ، المرغب فى الطاعة والقرب من الله تعالى ، ويكون متقللا أو مجتنباً للعلوم التى يقل نفعها فى طريق الآخرة ، ويكثر فيها الجدال والقال والقيل ، وتصد عن ذكر الله تعالى . وقد روى أن رجلا جاء إلى النبى عليه السلام فقال : يا رسول الله : علمنى من غرائب العلم فقال : « وما صنعت فى رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه ؟ قال له : وما رأس العلم ؟ قال له: هل عرفت الله سبحانه ؟ قال : نعم . قال له : فما صنعت فى حقه ؟ قال : ما شاء الله . قال صل الله عليه وسلم: هل عرفت الموت ؟ قال : نعم . قال صلى الله عليه وسلم: فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله . قال صلى الله عليه وسلم : اذهب فأحكم ما هنالك ثم تعال نعلمك غرائب العلم »[1] .

بل ينبغى أن يكون تَعَلُّمُ العالم من جنس ما روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخى أنه قال له شقيق : منذ كم صحبتنى ؟ فقال له حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة . قال : فما تعلمت منى فى هذه المدة ؟ قال : ثمان مسائل . قال شقيق : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ذهب عمرى معك ولم تتعلم منى إلا ثمان مسائل ؟ قال : يا أستاذ ، لم أتعلم غيرها ولا أحب أن أكذب ، فقال : هات هذه الثمان مسائل حتى أسمعها . قال حاتم : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبه وهو مع محبوبه إلى القبر ، فإذا وصل إلى القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبى ، فإذا دخلت القبر دخل معى . قال : أحسنت يا حاتم فما الثانية ؟ فقال : نظرت إلى قوله عز وجل : « **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى** »[2] فعلمت أن قوله سبحانه هو الحق فأجهدت نفسى فى دفع الهوى حتى أستقرت على طاعة الله تعالى . قال : فما الثالثة ؟ قال : إنى نظرت إلى هذا الخلق

---

(١) ابن السنى وأبو نعيم فى كتاب الرياضة لهما . وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسلا وهو ضعيف جداً .

(٢) النازعات : ٤٠

فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه . ثم نظرت فى قول الله عز وجل : « **وما عندكم ينفد وما عند الله باق** »(١) فكلما وقع لى شيء له قيمة ومقدار وجهته إليه ليبقى لى عنده . قال : فما الرابعة ؟ قال : إنى نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال والحسب والشرف والنسب ، فنظرت فإذا هى لا شيء ، ثم نظرت إلى قوله تعالى : « **ان اكرمكم عند الله اتقاكم** »(٢) فعملت فى التقوى حتى أكون عند الله كريماً .

قال : فما الخامسة ؟ قال : إنى نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم فى بعض ويلعن بعضهم بعضاً ؛ وأصل هذا كله الحسد . ثم نظرت إلى قوله عز وجل : « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** »(٣) فتركت الحسد واجتنبت الخلق ، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه فتركت عداوة الخلق .

قال : فما السادسة ؟ قال : إنى نظرت إلى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ، ويقاتل بعضهم بعضاً فرجعت إلى قول الله تعالى : « **ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** »(٤) فعاديته وحده ، وأجتهدت فى أخذ حذرى منه لأن الله شهد عليه أنه عدوى ، وتركت عداوة الخلق .

قال : فما السابعة ؟ قال : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل نفسه ويدخل فيما لا يحل له . ثم نظرت إلى قول الله تعالى : « **ما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها** »(٥) فعلمت إنى واحد من هذه الدواب التى على الله رزقها فأشتغلت بما لله تعالى علىّ ، وتركت ما لى عنده .

---

(١) النحل : ٩٦ (٢) الحجرات : ١٣

(٣) الزخرف : ٣٢ (٤) فاطر : ٦

(٥) هود : ٦ .

قال : فما الثامنة ؟ قال : إنى نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم متوكلين ؛ هذا على ضيعته ، وهذا على تجارته ، وهذا على صناعته ، وهذا على صحة بدنه ، فكل مخلوق متوكل على مخلوق ، فرجعت إلى قول الله عز وجل : « **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** »(١) فتوكلت على الله وهو حسبى .

قال شقيق : يا حاتم ، وفقك الله ، فإنى نظرت فى علم التوارة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم [فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهى تدور](٢) على هذه الثمان مسائل ، فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة .

فهذا الفن من العلم إنما يهتم بإدراكه والتفطن له علماء الآخرة : وأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه ، ويهملون أمثال هذه العلوم التى بعثت بها الأنبياء كلهم عليهم السلام . فمثال من يشتغل بتعلم مسائل الفتاوى والجدال والخصومات . وأعرض عن طريق الآخرة وآفات الأعمال ، مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيبا حاذقا فى وقت ضيق يخشى فواته ، فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب ، وترك مهمه الذى هو مؤاخذ به . وذلك لعمر الله محض السفه . والله سبحانه نسأله العون والتوفيق ، والعصمة والتأييد إنه قريب مجيب .

● ومن علامات علماء الآخرة أيضاً : أن يكون أكثر اهتمام العالم بتعلم علم الباطن ، ومراقبة القلب ، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه بقوة المراقبة وشدة المجاهدة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة ، والجلوس مع الله تعالى فى الخلوة مع حضور القلب بما فى الفكر والإنقطاع إلى الله سبحانه وتعالى عن ما سواه ، فذلك مفتاح الالهام ومنبع الكشف ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة ! وكم من مقتصر على المهم

---

(٦) الطلاق : ٣

(٧) فى نسخ القناطر : وهو يدور على هذه الثمان ... الخ . وهذه الزيادة من إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ٦٥ — ٦٦ .

فى التعلم متوفر فى العمل مع مراقبة القلب فتح الله عز وجل له من لطائف الحكم ما تحار فيه عقول ذوى الألباب ؛ ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من عمل بما علم ، ورثه الله علم ما لم يعلم »(١) وفى بعض الكتب السالفة : يا بنى إسرائيل ، لا تقولوا العلم فى السماء من ينزل به ؟ ولا فى تخوم الأرض من يصعد به ؟ ولا من وراء البحر من يعبر يأتى به ؟ العلم مجعول فى قلوبكم ، تأدبوا بين يدىَّ بآداب الروحانيين ، وتخلقوا بأخلاق الصديقين أظهر العلم فى قلوبكم حتى يغطيكم فيغمركم . ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على العلم الظاهر لما قال صلى الله عليه وسلم : « استفت قلبك يا وابصة و إن أفتوك وأفتوك وأفتوك . »(٢)

ومما يروى عن الله سبحانه أنه قال : « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً و بصراً . . الحديث . »(٣)

وفى الخبر : « إذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتاً وزهداً فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة »(٤) .

وفى حديث آخر : « من أخلص لله عز وجل أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه »

وهذا العلم إنما يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة تصديقا لقوله تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين** »(٥)

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وضعفه .

(٢) رواه أحمد من حديث وابصة .

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ : « كنت سمعه وبصره » الحديث .

(٤) أخرجه ابن ماجة من حديث ابن خلاد بسند ضعيف .

(٥) العنكبوت : ٦٩

● ومن علامات علماء الاخرة أيضاً : أن يكون العالم شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس المال فى الدين . ولا بد للعبد من تعلم علم اليقين ؛ أعنى أوائله ثم ينفتح للقلب طريقه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليقين الإيمان كله . » (١) وقال . « تعلموا اليقين . » (٢) روى عن الغزالى فى كتابه قال : معناه جالسوا الموقنين وأسمعوا منهم علم اليقين ، وواظبو على الإقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوى يقينهم و قليل منه خير من الكثير من العمل(٣) ، قال صلى الله عليه وسلم لما قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب ، ورجل مجتهد فى العبادة قليل اليقين ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من آدمى إلا وله ذنوب ولكن من كان عزيزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب لأنه كلما أذنب تاب وأستغفر وندم فتفكر ذنوبه ، ويبقى له الفضل يدخل الجنة به . »(٤) ولذلك قال صلى الله عليه وسلم . « من أقل ما أوتيتم قوة اليقين وعزيمة الصبر . ومن أوتى حظه منهما لم يبال ما فاته فى قيام الليل أو صيام النهار »(٥) . وفى وصية لقمان لابنه : يا بنى ، لا يستطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عمل العبد حتى ينقص يقينه

---

(١) أخرجه البيهقى فى الزهد والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود باسناد حسن .

(٢) أخرجه أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلا وهو معضل ، ورواه ابن أبى الدنيا فى اليقين من قول خالد بن معدان .

(٣) لحياء علوم الدين ١ : ٧٢

(٤) رواه الغزالى فى الإحياء بلفظ : « من أوتى ... الخ . » قال الحافظ العراقى لم أقف له على أصل ، وروى عن ابن عبد البر من حديث معاذ : « ما أنزل الله شيئاً أقل من اليقين ولا قسم شيئاً بين الناس أقل من الحلم » .

(٥) أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أنس باسناد مظلم .

فصل

وفى كتاب الغزالى قال[١] : اعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء عليهم السلام من أوله إلى آخره هو من مجارى اليقين . قال : فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة[٢] . قال : ومتعلقات المعلومات التى وردت بها الشرائع فلا مطمع فى إحصائها . قال : ولكنى أشير إلى بعض أمهاتها ؛ فمن ذلك :

التوحيد ، وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب فلا تلتفت إلى الوسائط . بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها فالمصدق بهذا موقن[٣] . فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان[٤] الشك فهو موقن بأحد المعنيين ، فإن غلب على قلبه [مع الإيمان][٥] غلبة أزالت هيئة الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم ، ونزل[٦] الوسائط فى قلبه منزلة القلم واليد فى حق المنعم بالتوقيع — فإنه لايشكر القلم ولا اليد ، ولا يغضب عليهما ، بل يراهما آلتين [مسخرتين][٧] وواسطتين ـ فقد صار موقنا بالمعنى الثانى ، وهو الاشرف ، وهو ثمره اليقين الأول وروحه وفائدته . ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوق فهى مسخرات بأمره حسب تسخير القلم فى يد[٨] الكاتب ، وأن القدرة الأزلية هى المصدر للكل . . استولى [على قلبه][٩] اغلبة التوكل والرضا والتسليم، وصار [موقنا] [١٠] بريئاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق . قال : فهذا أحد أبواب اليقين .[١١] وسيأتى له مزيد بيان فى غير هذا الموضع إن شاء الله تعالى .

---

(١) لحياء علوم الدين جـ ١ : ص ٧٤ (٢) فى نسخ القناطر : مجموعة .
(٣) فى نسخ القناطر . مؤمن .
(٤) فى نسخ القناطر : لمنكار الشك . وصوابه ما أثبته من الاحياء .
(٥) زيادة من الاحياء . (٦) فى نسخ القناطر : ويرى .
(٧) زيادة من الإحياء . (٨) فى نسخ القناطر : بيد .
(٩) فى نسخ القناطر : استولى عليه التوكل ... الخ .
(١٠) زيادة من الاحياء .
(١١) انتهى ما نقله من لحياء علوم الدين للغزالى .

● ومن علامات علماء الآخرة: أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته، وسيرته وحركاته وسكونه، ونطقه وسكوته. لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً الله عز وجل، وكانت صورته دليلا على علمه. ولذلك روى أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام، إلى من تكلنا بعدك يا روح الله؟ قال: إلى من تذكركم الله رؤيته، ويزيد فى علمكم منطقه، ويرغبكم فى الآخرة علمه.

فعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم فى السكينة والذلة والتواضع. ولذلك قيل: ما ألبس الله عز وجل عبداً ألبسه أحسن من خشوع فى سكينة فهى لبسة الأنبياء وسيما الصديقين والصالحين والعلماء بالله.

وأما التهافت فى الكلام والتشدق، والاستغراق فى الضحك، والحدة فى الحركة والنطق، فكل ذلك من آثار البطر والأشر والغفلة عن عظيم عقاب الله عز وجل، وشديد سخطه، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله عز وجل دون العلماء، لما روى عن بعض علماء[1] السلف أنه قال: العلماء ثلاثة: عالم بأمر الله سبحانه لا بأيام الله تعالى وهم المفتون بالحلال والحرام. قال: فهذا العلم لا يورث الخشية. وعالم بالله تعالى، لا بأمر الله تعالى ولا بأيام الله تعالى وهم عوام المؤمنين، وعالم بالله جل جلاله سبحانه، وهم الصديقون، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم. وأراد بأيام الله تعالى: أنواع عقوباته العامضة ونعمه الباطنة والظاهرة التى أفاضها على القرون السالفة واللاحقة، فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وخشوعه إن شاء الله تعالى.

ويقال: ما آتى الله عز وجل عبدا علماً إلا آتاه معه حلماً وتواضعاً وحسن خلق ورفقا؛ فذلك العلم النافع.

---

(١) هو سهل التسترى كما فى إحياء علوم الدين للغزالى ج ١ : ٧٥ وهو أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى أحد أئمة المتصوفة وعلمائهم. صحب خاله محمد بن سوار وشهد ذا النون المصرى. توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين هـ.

وفى الخبر « إن من خيار أمتى قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله تعالى ، ويبكون سراً من خوف عذابه ، أبدانهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء ، وأرواحهم فى الدنيا وعقولهم فى الآخرة . يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة »(١)

وعن الحسن قال : الحلم وزير العلم ، والرفق أبوه ، والتواضع سربالة .

وقال بشر بن الحارث : من طلب الرياسة بالعلم ، وتقرب إلى الله بغضبه فإنه مقيت فى السماء والأرض .

وروى أنه قيل يا رسول الله : أى الأعمال أفضل ؟ قال عليه السلام « اجتناب المحارم ، وأن لايزال فمك رطبا من ذكر الله . قيل : فأى الأصحاب خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « صاحب إن ذكرت [الله] أعانك وإن نسيته ذكرك . قيل فأى الأصحاب شر ؟ قال : «صاحب إن نسيت(٢) لم يذكرك ، وإن ذكرت لم يعنك . قيل : فأى الناس أعلم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : «أشدهم لله تعالى خشية . قالوا : فأخبرنا بخيارنا نجالسهم . قال صلى الله عليه وسلم : « الذين إذا رُؤوا ذُكر الله عز وجل قالوا : فأى الناس شر ؟ قال صلى الله عليه وسلم « اللهم غفراً . قالوا : اخبرنا يارسول الله ، قال عليه السلام ، العلماء إذا فسدوا . »

وذكر جابر بن زيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأسامة بن زيد

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان وضعفه من حديث عياش بن سليمان .

(٢) أورده الغزالى فى لحياء علوم الدين ١ : ٧٦ وقال الحافظ العراقى : لم أجده هكذا بطوله وفى زيادات الزهد لابن المبارك من حديث الحسن مرسلا « سئل النبى صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ، قال : أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى . وللدارمى من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا « الا إن شر الشر شرار العلماء ، وإن خير الخير خيار العلماء » .

(٣) فى القناطر : سكت . والتصحيح من الاحياء .

« عليك بطريق الجنة وإياك أن تختلج دونه . فقال أسامة : يارسول الله ، ما أسرع ما يُقطَع به هذا الطريق ؟ فقال عليه السلام : « الظمأ فى الهواجر وكسر النفس عن لذّات الدنيا . يا أسامة ، عليك بالصوم وكثرة السجود فإن بهما يدرك ، ويباهى به الله الملائكة . يا أسامة ، إياك وكل ذى كبد جائعة أن يخاصمك يوم القيامة ، وإياك ودعاء عباد الله الذين أذابوا اللحوم وأحرقوا الجلود وغشيت أبصارهم فإن بهم يصرف الله البلاء والزلازل والفتن . ثم بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد نحيبه حتى ظنوا أنه أمر حدث من السماء ، ثم قال : ياويح هذه الأمة ماذا يلقى منهم من أطاع الله عز وجل بعدى » .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أكثر الناس أماناً يوم القيامة أكثرهم فكراً فى الدنيا ، وأكثرهم ضحكاً فى الآخرة أكثرهم بكاء فى الدنيا ، وأشد الناس فرحاً فى الآخرة أطولهم حزناً فى الدنيا »[1] .

وعن على بن أبى طالب أنه قال فى بعض خطبه : ذِمّتى رهينة وأنا [به] زعيم ، لا يهيج[2] على التقوى زرع قوم ، ولا يظمأ على الهدى سنخ[3] أصل ، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره ، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قمش (أى جمع) علماً أغار[4] فى أغباش الفتنة سماه أشباه الناس وأرذالهم عالما ، ولم يفن فى العلم يوما سالما ، بكر فاستكثر. [من جمع][6] ما قل منه خير مما كثر ، حتى إذا ارتوى من آجن[7] وأكثر من غير طائل جلس للناس مفتيا ليخلص ما التبس على غيره ، وإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها

---

(١) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين ١ : ٧٦ وقال الحافظ العراقى : لم أجد له أصلا .
(٢) يهيج : ييبس ، ويصفر . وروى الغزالى هذه الخطبة فى إحياء علوم الدين ١ : ٧٦
(٣) السنخ : المنبت ، يقال : ثبتت السن فى سنخها : أى منبتها .
(٤) أغار فى أغباش الفتنة : عجل المشى فى ظلمتها .
(٥) هكذا فى نسخ القناطر ، وفى نهج البلاغة (١ : ٤٨) « سماه أشباه الناس عالماً وليس به ، بكر .. الخ »
(٦) زيادة من نهج البلاغة ١ : ٤٨
(٧) الماء الآجن : الفاسد المتغير الطعم واللون .

حشواً رثّاً من رأيه [ثم قطع به ، فهو من لَبْس] الشبهات فى مثل غزل العنكبوت لايدرى أخطأ أم أصاب ، ركاب جهالات خباط عشوات[١] ، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ، ولا يعضّ على العلم بضرسٍ قاطع فيغنم ، تبكى منه الدماء ، و تستحلّ بقضائه الفروج الحرام ، لا ملىءٍ[٢] — والله — بإصدار ما ورد [عليه] ، ولا هو أهل لما قرظ[٣] به ، أولئك حلت عليهم النحبات والبكاء أيام حياة الدنيا .

وروى فى الإسرائيليات أن حكيما من الحكماء صنف ثلاثمائة وستين مصحفاً فى الحكمة حتى وصف بالحكمة ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل لفلان قد ملأت الأرض بَقاقاً[٤] ولم تردنى بشىء فى ذلك ، لا أقبل من بقاقك شيئا . فندم الرجل وترك ذلك ، وخالط أهل العامة ، ومشى فى الأسواق ، وأكل مع بنى إسرائيل وتواضع فى نفسه فأوحى الله عز وجل إلى ذلك النبى : قل له الآن وافقت رضاى. وعن على بن أبى طالب أنه قال : إذا سمعتم العلم فاكظموا[٥] عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب .

وقال بعض السلف : من ضحك ضحكةً مجّ العلمَ مجّةً . ويقال : إذا جمع المعلم ثلاثا تمت النعمة به على المتعلم ؛ الصبر ، والتواضع ، وحسن الخلق . وإذا جمع المتعلم ثلاثا تمت النعمة به على المعلم ؛ العقل ، والأدب ، وحسن الفهم .

وعلى الجملة ، الأخلاق التى ورد بها القرآن لاينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للدراسة ؛ ولذلك قيل : خمس من الأخلاق الحسنة وهى من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات ، وهى الخشية ، والخشوع ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد .

---

(١) العشوات : جمع عشوة ، وهى ركوب الأمر على غير هدى .

(٢) الملىء بالفضاء : من يحسنه ويجيد القيام عليه ، يعنى أنه غير فيم بذلك ، ولا غناء فيه لهذا الأمر الذى تصدر له .

(٣) قرظ : مدح .

(٤) بق على القوم بقاً وبقاقاً : كثر كلامه . وفى لحياء علوم الدين : نقاقاً .

(٥) أكظموا عليه : أحبسوه وأغلقوا عليه .

أما الخشية فمن قوله تعالى : « **إنما يخشى الله من عباده العلماء** »(١) .

وأما الخشوع فمن قوله تعالى : « **خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا** »(٢) .

وأما التواضع فمن قوله تعالى : « **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** »(٣) .

وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى : « **فبما رحمة من الله لنت لهم** »(٤) .

وأما الزهد فمن قوله تعالى : « **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا** »(٥) .

وعن ابن عمر قال : لقد عشنا برهة من الدهر فإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزجرها وما ينبغى أن يتوقف(٦) عنده منها ، ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدرى ما آمره وما زاجره وما ينبغى أن يقف عنده ينثره نثر الدقل(٧) .

وفى خبر آخر بمثل معناه قال : كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن ، وسيأتى بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان ؛ يقيمون حروفه ويضيعون حدوده [وحقوقه](٨) يقولون قرأنا ممن أقرأ منا . وعلمنا ممن أعلم منا ؟فذلك حظهم . وفى لفظ آخر : أولئك شرار هذه الأمة(٩) والله أعلم .

● ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون العالم منقبضا عن السلاطين ، وأهل المنكر من الأغنياء المترفين . قال الله سبحانه : « **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار** »(١٠)

---

(١) فاطر : ٢٨ (٢) آل عمران : ١٩٩

(٣) الشعراء : ٢١٥ (٤) آل عمران : ١٥٩

(٥) القصص : ٨٠

(٦) فى إحياء علوم الدين ١ : ٧٦ : يقف .

(٧) قال الحافظ العراقى : أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقى . والدقل : محركة أردأ التمر .

(٨) زيادة من إحياء علوم الدين ١ : ٧٦

(٩) أخرجه ابن ماجة من حديث جندب مختصراً مع اختلاف .

(١٠) هود : ١١٣

فلا ينبغى للعالم أن يركن إليهم ولا يدخل عليهم ما دام يجد سبيلا إلى الفرار منهم . بل ينبغى أن يحترز فى مخالطتهم وإن اقتربوا منه ؛ فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدى السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف فى طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم ، مع أنهم ظلمة يجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم . فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تحملهم فيزدرى نعمة الله تعالى عليه ، أو يسكت على الإنكار عليهم فيكون مداهنا شريكا لهم فى ظلمهم ، أو يتكلف فى كلامه مالا ينبغى طلبا لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت[١] الصريح ، أو يطمع فى أن ينال دنياهم وذلك هو السحت[٢] المحظور . وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشر ، وعلماء الآخرة طريقتهم الإحتياط فى جميع الأمور ؛ وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن »[٣] .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون فمن أنكر فقد برئ ، ومن كره فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع أبعده الله عز وجل »[٤] ، ومن طريق آخر : « فمن نابذهم نجا ، ومن اعتزلهم سلم أو كاد يسلم ، ومن وقع معهم فى دنياهم فهو منهم »[٥] .

قال الغزالى فى كتابه[٦] : « وذلك لأن من اعتزلهم سلم من إثمهم ، ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم إن نزل بهم لتركه المنابذة والمنازعة » .

---

(١) أن يقول على المرء ما لا يفعل .

(٢) السحت : الحرام أو ما خبث من المكاسب فلزم عنه العار .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى من حديث ابن عباس .

(٤) أخرجه مسلم من حديث أم سلمة .

(٥) أخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس بسند ضعيف وقال : « ومن خالطهم هلك » .

(٦) إحياء علوم الدين ج ٢ : ١٤٢

وعنه عليه السلام أنه قال : « سيكون بعدى أمراء يظلمون ويكذبون ، فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فليس منى وليست منه ، ولم يرد على الحوض »(١) .

وقال بعض علماء السلف(٢) : فى جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك .

وعن حذيفة رحمه الله أنه قال : إياكم ومواقف الفتن ، قيل وما هى ؟ قال أبواب الأمراء : يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ، ويقول ما ليس فيه .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق أنس أنه قال : « العلماء أمناء الرسل على عباد الله عز وجل مالم يخالطوا السلاطين ، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم » .

ويروى أنه قيل للأعمش : لقد أحييت العلم بكثرة من يأخذ عنك ! فقال : لا تعجلوا ؛ ثلث يموتون قبل الإدراك ، وثلث يلزمون السلاطين فهم شر الخلق ، والثلث الباقى لا يصلح(٣) منهم إلا القليل .

وعن سعيد بن المسيب أنه قال : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص .

وفى رسالة(٤) أبى سفيان محبوب رحمه الله قال : « وقديماً اتخذت الجبابرة عباد الله خولا(٥) ، ودينه دَغَلا(٦) ، وماله دُولاً(٧) ، واستُحِلَّ الخمر بالنبيذ والبخس بالزكاة ،

---

(١) أخرجه النسائى والترمذى وصححه والحاكم من حديث كعب بن عجرة .
(٢) هو سفيان الثورى كما فى إحياء علوم الدين ٢ : ١٤٢ .
(٣) فى إحياء علوم الدين : لا يفلح .
(٤) من عهده الذى كتب به إلى عبد الله بن يحيى ، ونصه موجود فى طبقات الدرجينى (مخطوط) فى أخبار محبوب بن الرحيل .
(٥) اتخذوهم عبيداً .
(٦) أدخلوا فيه ما يفسده .
(٧) تداولوا عليه من دون الناس .

والسحت بالهدية ؛ يأخذونها من غضب الله ، وينفقونها فى معاصى الله ، ووجدوا على ذلك من خونة العلم أعوانا ، فبهؤلاء الأعوان خطب أهل الجور على المنابر ، وبهؤلاء الأعوان قامت راية الفسق فى العساكر ، وبهؤلاء الأعوان اختفى العالم فلا ينطق ، ولا يفطن لذلك الجاهل فيسأل ، وبهؤلاء الأعوان مشى المؤمن فى طرقات الأرض بالتقية والكتمان ؛ فهو كاليتيم المتفرد يستبد به من لا يتقى الله .

وعن عبادة بن الصامت[1] أنه قال : حب القارئ الناسك للأمراء نفاق ، وحبه للأغنياء زياء .

وعن أبى ذر رحمه الله أنه قال : من كثّر سواد قوم فهو منهم ؛ أى من كثر سواد الظَّلَمَة .

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال : إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين له . قيل له : ولم ؟ قال : لأنه يرضيه بسخط الله تعالى .

وعن الأوزاعى أنه قال : ما من شىء أبغض إلى الله عز وجل من عالم يزور عاملا .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء ، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء »[2] .

وعن مكحول الدمشقى أنه قال[3] : من تعلم القرآن ، وتفقه فى الدين ثم صحب السلطان تملقا إليه وطمعا لما فى يديه ، خاض فى جهنم عدد خطاه .

---

(١) أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى ، كان أحد النقباء بالعقبة ، وشهد بدراً توفى بالرملة سنة ٣٤ هـ .

(٢) أخرجه بن ماجة بالشطر الأول نحوه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

(٣) ما يأتى من كتاب إحياء علوم الدين للغزالى : ١ : ٦٨ — ٦٩ .

وقال بعض علماء السلف : ما أسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد ، ويسأل عنه فيقال إنه عند الأمير !

قال : وكنت أسمع أنه يقال : إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت [ذلك] ، إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسى بعد الخروج فأرى عليها الدرك ، وأنتم ترون ما ألقاه به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه ، ولو وَدِدْتُ أنى أنجو من الدخول عليه كفافا مع أنى لا آخذ منهم شيئاً ولا أشرب لهم شربة ماء .

ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بنى إسرائيل يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق هواه ، ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم .

وعن الحسن أنه قال : كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم فى الإسلام ، وصحبة لرسول الله عليه السلام — قال عبد الله بن المبارك : يعنى سعد بن أبى وقاص — قال : وكان يغشى السلاطين ثم بعد عنهم فقال له بنوه : يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك فى الصحبة والقدم فى الإسلام فلو أتيتهم ، فقال : يا بَنِىّ آتى جيفة قد أحاط عليها قوم ؟ والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها ، قالوا : يا أبانا إذن نهلك هزالا ، قال : يا بَنِىّ ، لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب إلى من أن أموت منافقاً سميناً . قال الحسن : خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم السمين دون الإيمان . وفى هذا إشارة إلى أن الدخول على السلطان لا يسلم صاحبه من النفاق ألبتة ، وهو مضاد للايمان .

وعن أبى ذر رحمه الله أنه قال لسلمة : يا سلمة ، لا تغشى أبواب السلاطين فإنك لا تصيب شيئاً من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه .

وهذه فتنة عظيمة للعلماء ، وذريعة صعبة للشيطان عليهم لا سيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقى إليه أن فى وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم شعار الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ، ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف فى الكلام ويداهن ويخوض فى الثناء والمدح والدعاء ، وفيه هلاك الدين .

وكان يقال : العلماء إذا عَلِمُوا عَمِلوا ، فإذا عملوا شغلوا ، فإذا شغلوا فقدوا ، فإذا فقدوا طابوا ، فإذا طُلِبُوا هَرَبوا .

ويروى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن : أما بعد ، فأشِرْ علىَّ بقوم أستعين بهم على أمر الله تعالى . فكتب إليه : أما أهل الدين فلن يريدوك ، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ، ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة . هذا فى عمر بن عبد العزيز وكان أزهد أهل زمانه ، ولم ينقم منه أصحابنا إلا توقفه فى عثمان ومن كان مثله من أهل بيته ، ودخوله الإمارة بغير مشورة من المسلمين ، فإذا كان شرط الدين الهرب منه فكيف ترجى السلامة فى مخالطة غيره ؟ ! ولم يزل علماء السلف مثل الحسن وجابر بن زيد وغيرهم من علماء الفرق والمذاهب يتكلمون فى العلماء من أهل الدنيا لميلهم إلى الدنيا ومخالطتهم السلطان وبالله التوفيق .

● ومن علامات علماء الآخرة : أن لا يكون العالم مسارعاً إلى الفتوى ، بل يكون متوقفاً ماوجد إلى الخلاص سبيلا ، فإن سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب الله تعالى ، أو بنص حديث رسوله عليه السلام ، أو بإجماع الأمة أو بقياس جلىٍّ أفتى ، وإن سئل عما يشك فيه قال لا أدرى ، وإن سئل عما يظنه باجتهاد أو تخمين رأى احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان فى غيره غنية هو الحزم لأن تقلد الاجتهاد خطر عظيم ، ولذلك

قال جابر بن زيد رحمه الله : لقد أدركت جماعة من أصحاب رسول الله عليه السلام إذا سئل أحدهم عن حادثه أو نازلة ودَّ لو أن أخاه كَفَاهُ فتياها . فأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخافون من أن يُسألوا فيجيبوا بما عندهم ، وأنتم تنتصبون للناس وتسألوهم أن يستفتوكم ! ما أظنكم تحبون السلامة لأديانكم ولا تخافون العقوبة من ربكم ، فاتقوا الله واحذروا الفتيا ، فإذا سئلتم فإياكم أن تقوموا على ماليس لكم به علم .

وفى الحديث : « العلم ثلاثة : كتاب ناطق ، وسنة قائمة ، ولا أدرى »(٢)

وقد حكى عن بعض المتقدمين أنه قال : لقد حويت العلم كله : فقيل له : من أين قلت ذلك ؟ قال : لعلمى بالفرائض . وقد قال النبى عليه السلام : « الفرائض نصف العلم » والآن أقول فيما لا أعلم . الله أعلم [وقد قال عليه الصلاة والسلام : « الله أعلم نصف العلم » فقد كمل العلم .](١)

وعن الشعبى أنه قال : لا أدرى نصف العلم . ومن يسكت حيث لا يدرى لله سبحانه فليس بأقل أجراً ممن نطق ، لأن الإعتراف بالجهل شديد على النفس ، وهكذا كانت عادة السلف الصالح من الصحابة والتابعين وغيرهم .

ويروى أن ابن عمر كان إذا سئل عن الفتوى قال : اذهب إلى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس فضعها فى عنقه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إن الذى يفتى للناس فى كل ما يستفتونه لمجنون . وقال : جُنَّة العالم لا أدرى » فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله .

وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال : ليس شىء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم ، يقول : انظرو إلى هذا سكوته أشد على من كلامه .

---

(١) زيادة فى ا فقط

(٢) خرجه الخطيب فى أسماء من روى عن مالك موقوفا على ابن عمر ، ولأبى داود وابن ماجة من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا نحوه مع اختلاف .

ووصف بعضهم الأبدال فقال: أكلهم فاقة ، وكلامهم ضرورة . أى : مايتكلمون حتى يسألوا ، فإذا سئلوا ووجدوا من يكفيهم سكتوا ؛ فإن اضطروا أجابوا .

قال : وكانوا يعدون الإبتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام .

ويروى أن على بن أبى طالب مر بقاص يقص على الناس فقال له أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا . قال: أتعرف المحكم من المتشابه ؟قال : لا . فأخذ على بيده وقال : إن هذا يقول : اعرفونى ثم مرّ بقاصّ آخر فقال : أما أنا أسالك عن مسألتين فإن إجبت وإلا أوجعتك ضرباً . قال : سل ياأمير المؤمنين .قال :ماثبات الإيمان وزواله؟ قال : ثبات الإيمان الورع ، وزواله الطمع . قال قص فمثلك من يقص .

وقال بعض السلف : إنما العالم إذا سئل عن المسالة فكأنما تقلع ضرسه . وكان ابن عمر يقول : يريدون أن يجعلونا جسرا يعبرون علينا فى جهنم .

وقال بعض السلف : العالم هو الذى يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة من أين أجبت ؟ وكان بعضهم[1] إذا سئل عن مسألة يبكى ويقول : لم تجدوا غيرى فاحتجتم إلى .

وكان أبو العالية الرياحى ، وإبراهيم بن أدهم ، والثورى يتكلمون مع الإثنين والثلاثة والنفر اليسير فإذا كثروا انصرفوا .

فكيف يأنف العالم أن يقول فيما لا يعلم لا أدرى ؛ فهذه ملائكة الله سبحانه قالوا : « **سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا** »[2]

وفى كتاب الغزالى :[3] وقد قال النبى عليه السلام : « ما أدرى أعزير نبى أم لا ، وما أدرى أتبعٌ ملعون أمْ لا ، وما أدرى ذو القرنين نبىٌ أم لا . »[4]

---

(١) هو إبراهيم التيمى كما فى إحياء علوم الدين للغزالى ١ : ٧٠ ، وهو إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمى الكوفى من تيم الرباب . كان من العباد ، وروى عن أنس وعمر بن ميمون وأرسل عن عائشة رضى الله عنها توفى فى حبس الحجاج سنة ٩٢ هـ .

(٢) البقرة : ٣٢

(٣) إحياء علوم الدين ١ : ٧٠

(٤) الحديث : أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث ابى هريرة .

وكان ابن عمر يُسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسعة .

ويشهد لحُسْن الإحتراز من تقلُّد الفتاوى ماروى مسنداً [عن بعضهم أنه قال] : « لايفتى الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأمور أو متكلف » .

وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء : الأمانة ، والوديعة ، والوصية والفتوى .

وقال بعضهم : كان أسرعهم إلى الفتوى أقلهم علما ، وأشدهم دفعاً [لها] أورعهم ، وكان شغل الصحابة والتابعين فى خمسة : قراءة القرآن ، وعمارة المساجد ، وذكر الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك لما سمعوا من قوله صلى الله عليه وسلم « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة : أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو ذكر الله تعالى » (١)

وقد قال الله تعالى : « **لاخير فى كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس** » (٢)

قال (٣) ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأى من الكوفة فى المنام فقال له : مارأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأى ؟ فكره وجهه وأعرض عنه وقال : ما وجدناه شيئاً ، وما حمدنا عاقبته . والله أعلم .

قال : (٤) وكتب سلمان رضى الله عنه إلى أبى الدرداء — وكان قد آخى بينهما

---

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجة من حديث أم حبيبة ، قال الترمذى حديث غريب .
(٢) النساء : ١١٤
(٣) الغزالى : إحياء علوم الدين ١ : ٧٠
(٤) الغزالى : إحياء علوم الدين ١ : ٧١ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم —(١) يا أخى : بلغنى أنك قد قعدت طبيباً تداوى المرضى ، فانظر فإن كنت طبيباً فتكلم فإن كلامك شفاء . وإن كنت متطبباً فالله الله لا تقتل مسلماً فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل .

وحكى أنه روى صحابى فى حضور الحسن عشرين حديثاً فسئل عن تفسيرها فقال : ماعندى إلا مارويت . فأخذ الحسن فى تفسيرها حديثاً حديثاً ، فتعجبوا من حسن حفظه وحسن تفسيره ، فأخذ الصاحبى كفا من حصى ورماهم به وقال : تسألونى عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم ! والله أعلم .

● ومن علامات علماء الآخرة أن يكون العالم أكثر بحثه عن علم الأعمال وعن ماذا يفسدها ، ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر ، فإن أصل الدين التوقى من الشر ، ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الخير من الشرّ يَقعْ فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة ، وأقصاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان ، وإنما الشأن فى معرفة مايفسدها ويشوشها ، وهذ مما يطول تشعبه ويكثر تفريعه وكل ذلك مما يكثر مسيس الحاجة إليه ، وتعم به البلوى فى سلوك طريق الآخرة على ما سيأتى شرح بعض ذلك إن شاء الله تعالى فى قناطر الكتاب ، وذلك عادة السلف الصالح من الصحابة والتابعين . ولقد كان الحسن البصرى فيما بلغنا أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء ، وأقربهم هديا من الصحابة اتفقت العلماء فى حقه على ذلك ، وكان أكثر كلامه فى

---

(١) حديث حديث موآخاته صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء أخرجه البخارى من حديث أبى جحيفة .

خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووساوس النفوس والخواطر ، والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس .

وقيل له : يا أبا سعيد : إنك تتكلم بكلام ليس يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ فقال : من حذيفة بن اليمانى . وقيل لحذيفة : إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته ؟ قال : خصنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان الناس يسألونه عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقنى [علمه][1] . وقال مرة : فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير . وفى لفظ آخر : كان الناس يقولون : ما لمن فعل كذا وكذا : فيسألونه عن فضائل الأعمال ، وكنت أقول : يا رسول الله مايفسد كذا وكذا ؟ فلما رآنى أسأل عن آفات الأعمال خصنى بهذا العلم . وكان حذيفة صاحبُ سِرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقال إن جبريل عليه السلام أمره بذلك فخصه عليه السلام بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ، ودقائق الفتن . وكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضى الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة .

وكان يسأل عن المنافقين فيما بلغنا فيخبر بأعداد من بقى ولا يخبر بأسمائهم .

ويروى أن عمر رضى الله عنه صلى على جنازة فلما رجع قال يا حذيفة ، رجل يموت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تحضر جنازته ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر لى سراً ؟ فقال عمر : يا حذيفة ، أنشدك الله أمنهم كان ؟ قال : اللهم نعم ، قال : أنشدك الله أمنهم أنا؟ قال لا والله يا أمير المؤمنين ولا أؤمن بهذا أحداً غيرك . يعنى أنه يقول : ليس من المنافقين . فقيل لجابر بن زيد : أتخاف النفاق ؟ قال : وكيف لا أخافه وقد خافه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان عمر

---

(١) الحديث : أخرجه البخارى ومسلم مختصراً . وقد سبقت ترجمة حذيفة بن اليمان .

رضى الله عنه فيما بلغنا إذا دُعى إلى جنازة نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك ، وكان يُسمَّى صاحب السِّر .

فالعناية بأحوال القلب ومقاماته هو دأب علماء الآخرة : لأن القلب هو الساعى إلى قرب الله تعالى ، وهذا إنما يعتنى به علماء الآخرة . وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون ما يسر له طلب المعاش ، وكسب الحطام من مسائل الخصومات والأقضية والأحكام ، ويتعبون فى [وضع] مسائل ينقضى الدهر ولا تقع ، وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لا لهم وربما يجدون من يكفيهم ذلك ، ويتركون ما يلازمهم ويتكرر لهم آناء الليل وأطراف النهار فى خواطرهم وأفكارهم ووساوسهم ، فما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر وقوعه إيثاراً للقبول والتقرب إلى الخلق على التقرب لله ، وحرصاً أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا عالماً ، وجزاؤه من الله تعالى ألا ينتفع فى الدنيا بقبول الخلق صافياً من الحوادث ، بل يتكرر صفوه بنوائب الزمان ، ثم يرد يوم القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من ربح العاملين ، وفوز المقربين ، وذلك هو الخسران المبين . ولقد صدق من قال :

الطرقُ شتى وطرقُ الحق مفردة ... والسالكون طريقَ الحقِّ أفراد
لا يعرفون ولا تدرى مقاصدهم ... فهم على مَهَلٍ يمشون قصَّادُ
والناس فى غفلة عما يُرَادُ بهم ... فجلُّهم عن سبيل الحق رقَّاد

وعلى الجملة لا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطبائعهم ، فإن الحق مر ، والوقوف عليه صعب ، وإدراكه شديد ، وطريقه مستوعر لا سيما معرفة صفات القلب وتطهيرها عن الأخلاق المذمومة ، وذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة شارب الدواء فيصبر على مرارته رجاء للشفاء ، وينزل منزلة من جعل العمر صومه هو يقاسى الشدائد ليكون فطره عند الموت فمتى تكثر الرغبة فى مثل هذا الطريق ؟

وهذا كما قيل قديماً : توعرت السُّبُل فقلَّ السالكون، وسهلت فكثر الهالكون وبالله التوفيق .

● ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون اعتماد العالم فى علومه على بصيرته وإدراك صفاء قلبه لا على الصحف والكتب، ولا على تقليد ما سمعه من غيره، وإنما المقلِّدُ صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما صح عنه أنه أمر به أو قاله ، وإنما يقبل قول الصحابة من حيث أن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إذا صح عند العالم أقوال الرسول عليه السلام وأفعاله ، وتلقاها عن الصحابة أو غيرهم بالقبول ، فينبغى أن يكون حريصاً على فهم أسراره ، فإن الصحابى أيضاً إنما يفعل الفعل لأن الرسول عليه السلام فعله ، ولم يفعله إلا لسرفيه ، فينبغى أن يكون شديد البحث عن أسرار الأقوال والأعمال ، فإنه إن اكتفى بحفظ ذلك دون التفكر فيه فإنه يكون وعاء للعلم لا عالماً ؛ ولذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم . وكان لا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطّلاع عن الحكم والأسرار ، فمن كشف عن قلبه الغطاء ، واستنار بنور الهداية صار فى نفسه متبوعاً فلا ينبغى أن يتبع غيره ؛ ولذلك قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: ما من عالم إلا وفى علمه مأخوذ ومتروك ما خلا صاحب هذا القبر .فالتفت عن يمينه فأشار إلى قبر النبى عليه السلام . وحكى مثل ذلك عن ابن عباس رضى الله عنه[1] . وقد كان فيما بلغنا تعلم من زيد بن ثابت[2] الفقه ، وقرأ على أبى بن كعب ثم خالفهما فى الفقه والقراءة .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ١ : ٧٨ وقال مخرجه الحافظ العراقى : حديث ابن عباس : « مامن أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه الطبرانى من حديثه بلفظ « من قوله ويدع » .

(٢) زيد بن ثابت بن الضحاك النجارى الأنصارى الخزرجى ، كان ابن إحدى عشرة سنة حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة .. واستصغره رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر فلم يشهدها ثم شهد أحداً وما بعدها من المشاهد ، وكانت راية بنى النجار معه يوم تبوك . . وكتب الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه وقال له أبو بكر : إنك شاب =

وقال بعض علماء السلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين ، وما جاءنا عن الصحابة رضى الله عنهم فنأخذ [منه] ونترك ، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال .

وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، واعتلاق قلوبهم أموراً تدرك بالقرائن فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل فى الرواية والعبارة، إذ أفاض عليهم صلى الله عليه وسلم من نور النبوة ما يحرسهم فى الأكثر عن الخطأ.

وإذا كان الاعتماد على المسموع عن الغير تقليداً غير مرضى ، فالإعتماد على الكتب والتصانيف أبعد ، بل الكتب والتصانيف محدثة ، لم يكن شيئاً منها فى زمان الصحابة ، وصدر زمان التابعين رضى الله عنهم وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة ، وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين ، وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين . هكذا ذكر الغزالى فى كتابه[1] ثم قال : بل الأولون يكرهون كتابة الحديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن التدبر والتفكر، وقالوا : احفظوا كما كنا نحفظ .

قال: ولقد كره أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم تصنيف القرآن فى مصحف وقالوا : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وخافوا اتكال الناس على المصاحف وقالوا : نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين

= عاقل لا تتهمك . . وكان رضى الله عنه من علماء الصحابة وهو الذى تولى قسمة غنائم اليرموك .. وقال فيه صلى الله عليه وسلم : « أفرض أمتى زيد بن ثابت » وروى ابن سعد باسناد صحيح قال : كان زيد بن ثابت أحد أصحاب الفتوى وهم ستة عمر وعلى وابن مسعود وأبىّ وأبو موسى وزيد بن ثابت ومن طريق ابن عباس : لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أن زيد بن ثابت كان من الراسخين فى العلم . ومات رضى الله عنه ما بين سنة ٤٢ و ٤٥ للهجرة وهو قول الأكثر . وقيل بين سنة ٥١ و ٥٥ للهجرة . وقال أبو هريرة حين مات : اليوم مات حبر هذه الأمة ، وعسى الله أن يجعل فى ابن عباس منه خلفا .

(١) إحياء علوم الدين ١ : ٧٩

والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم ، حتى أشار عمر رضى الله عنه وبقية الصحابة بكتابة القرآن خوفاً من تخاذل الناس وتكاسلهم ، وحذراً من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه فى كلمة أو فى قراءة من المتشابهات . فانشرح صدر أبى بكر رضى الله عنه لذلك وجمع القرآن فى مصحف واحد .

وإنى أظن أن القرآن فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوب فى الأكتاف والصحف حتى جمع بعد ذلك فى مصحف واحد ؛ لأنه كان له عليه السلام كتاب يكتبون الوحى حتى حفظه على عهده وجمعه ستة رجال من الأنصار : زيد وأبو زيد وأبو أيوب وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وعثمان بن مظعون دون غيرهم ، وما مات عليه السلام إلا والقرآن مجموع مَتْلُوٌّ والله أعلم .

وفى كتاب الغزالى قال(١) : وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك تصنيف الموطأ ويقول : ابتدع ما لم تفعله الصحابة .

قال : وقيل أول كتاب صُنِّفَ فى الإسلام كتاب ابن جريج فى الآثار ، وحروف فى التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس ، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن جمع فيه سنناً مأثورة [نبوية] ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثورى .

قال : ثم فى القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام ، وكثر الخوض والجدل فى إبطال المقالات ، وظهر علم الخلاف . قال(٢) : وسبب ذلك أن الخلافة تولاها بعد النبى عليه السلام الخلفاء الراشدون وكانوا أئمة وعلماء بالله تعالى وفقهاء فى أحكامه ، ومشتغلين بالفتاوى فى الأقضية ، فكانوا لا يشتغلون بالفقهاء إلا نادراً وفى وقائع لا يستغنى فيها عن

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى : ج : ٧٩

(٢) المصدر السابق ج : ١ ص ٤١ — ٤٢

عن المشاورة . فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها . وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله سبحانه بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرتهم

قال : فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى قوم تولوا بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، أضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم فى جميع أحوالهم لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم .

وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطريق[1] الأول وملازم صفو الدين ، ومواظب على سمت علماء السلف ، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا ، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات ؛ فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الولاة والأئمة عليهم مع إعراضهم عنهم فأشرأبّوا[2] لطلب العلم توصلا إلى نيل القدر ودرك الجاه من قبل الولاة ، وتفرغوا إليهم ، وطلبوا الولايات والصلات منهم ؛ فمنهم من حرم ومنهم من أنجح . والمنجح لم يخل عن ذل الطلب ومهانة الإبتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم إلا من وفقه الله عز وجل فى كل عصر من علماء دينه .

وقد كان أكثر الإقبال فى تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها فى الولايات والحكومات .. ثم ظهر بعدهم من الأمراء من سمع مقالات الناس فى قواعد العقائد ، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيه فعلم رغبته إلى المناظرة والمجادلة فى الكلام ، فانكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله تعالى ، والنضال عن السنة ، وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم الإستقلال بفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين إشفاقا على خلق الله تعالى ، ونصيحة لهم .

---

(١) فى لحياء علوم الدين : الطراز .

(٢) اشرأب له إذا رفع رأسه ومد عنقه لينظر .

ثم ظهر بعد ذلك من الأمراء من لم يستصوب الخوض فى الكلام ، وقبح باب المناظرة فيه لما كان قد تولد فى فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الغاشية المضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة فى الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص . فترك الناس الكلام وفنون العلم ، واندفعوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد وغيرهم .

وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتفريع علل المذهب ، وتمهيد أصول الفتاوى . فأكثروا فيه التصانيف والإستنباطات ، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرون عليه إلى الآن(١) .

قال : وليس ندرى ما الذى قدر الله تعالى فيما بعدنا من الأعصار . فهذا هو هو الباعث على الإنكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير .

قال : ثم مال الناس إلى ما ذكرنا من الكلام والمجادلات ، وإلى القصص والوعظ ، فأخذ علم المتقين فى الإندراس من ذلك الزمان الأول ، فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان ، وأعرض عن ذلك إلا الأقلون . فصار يسمى المجادل المتكلم عالماً ، والقاص والمزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً .

قال : وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم ، وكان لا يتميز لهم حقيقة العلم عن غيره ولم تكن سيرة الصحابة وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون به مباينة هؤلاء لهم ، فاستمر عليهم اسم العلماء وتوارث اللقب خلف عن سلف ، وأصبح علم الآخرة مطوياً ، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم .

---

(١) أى الوقت الذى كتب فيه الغزالى رحمه الله هذا الكلام .

قال : هكذا ضعف الدين فى قرون سالفة فكيف بزمانك هذا ؟ وقد صار مُظْهرُ الإنكار يستهدف لنسبته إلى الجنون ، فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت إذا وسعه ذلك .

● ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون العالم شديد التوقّى فى محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور ؛ فلا يضره إطباق الخلق على ماأحدث بعد الصحابة ، وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم ، وما كان فيه أكثرهم : أكان فى التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوصايا ومال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم فى العشرة ؟ أم كان أكثر همهم فى الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الباطن والظاهر واجتناب دقيق الإثم وجليله ، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن ؟

وتَعلَّمْ تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحقّ أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين . ولذلك قال على : « خيارنا أتبعنا لهذا الدين » وذلك لمّا قيل له: خالفت فلاناً .

فلا ينبغى أن تكثرت لمخالفة أهل العصر فى موافقة أهل عصر رسول الله عليه السلام فإن الناس رأوا رأياً فيما هم فيه لميل طبائعهم إليه ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادّعوا أنه لاسبيل إلى الجنة سواه ؛ ولذلك قال الحسن : هما محدثان أحدثا فى الإسلام : رجل ذو رأى سيىء زعم أن الجنة لمن رأى مثله رأيه . ومترف يعبد الدنيا ، لها يغضب ولها يرضى ، وإياها يطلب فارفضوهما إلى النار ، وإن رجلا أصبح فى هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه ، وصاحب هوى يدعوه إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منهما ، يحن إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ، ويقتفى آثارهم متعرض لأجر عظيم فكذلك كونوا .

وروى عن ابن مسعود رحمه الله موقوفاً ومسنداً أنه قال : « إنما هما اثنتان : الكلام والهدى ، فأحسن الكلام كلام الله تعالى ، وأحسن الهدى هدى محمد عليه السلام ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور فإن شر الأمور محدثاتها ، وإن كل محدثة بدعة وإنّ كل بدعة ضلالة ، ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم ، ألا كل ماهو آت قريب ، ألا إن البعيد ما ليس بآت » .(١)

وفى رسالة أبى سفيان محبوب(٢) رحمه الله ذكر صفات أولياء الله ثم قال : أولئك الذين لاتعتريهم سآمة ، ولا تخترمهم رغبة ، ولا ينظرون إلى الدنيا بعين بغية ولا يعتقدون لها على مودة ، ولا يعرجون فيها على زينة ، بل ضربوا فى السهم الأوفر ، ولزموا الطريق الأقصد ، وسلكوا السبيل الأرشد ، وهم أئمة التقى ونجوم الهدى وأعلام الدين ومنار الإسلام؛ كلامهم حكمة ، وسكوتهم حجة ،ومباينتهم حسرة ومخالطتهم غنيمة ؛ والإستئناس بهم حياة ، والإقتداء بهم نجاة .

فعليك ـ أيها الزائغ عن طريقهم ، الراغب عن سبيلهم ـ بالإتباع ، فإنه ليس الإتباع كالإبتداع ، فعليك بطريق من كان بالله أعلم ، وبحلاله وحرامه منك أبصر ، ولهذا قال أبوسفيان قال واثل رحمهما الله [تعالى] :لقدأدركت بحضرموت رجالا إن كان الرجل منهم لو ولى الدنيا كلها لاحتمل ذلك فى عقله وعلمه وحلمه وورعه .

وقد قال النبى عليه السلام فى بعض خطبه : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وخالط أهل الفقه والحكمة ، وجالس أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن ذلت نفسه ، وحسنت خليقته ، وطابت سريرته وعزل

---

(١) أخرجه ابن ماجة .

(٢) هو أبو سفيان محبوب بن الرحيل وقد سبقت ترجمته . وهذا الكلام من عهده الذى كتب به الى طالب الحق الإمام عبد الله بن يحى الكندى ونصه موجود فى طبقات الدرجينى (مخطوط) فى أخبار محبوب بن الرحيل .

عن الناس شره طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ، ولم تستهوه البدعة » . (١)

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه كان يقول : حُسْنُ الهدى فى آخر الزمان خير من كثير من العمل . ثم قال : إنكم فى زمان خيركم فيه المسارع إلى الأمور ، وسيأتى بعدكم زمان يكون خيركم المتثبت المتوقف لكثرة الشبهات .

فمن لم يتثبت فى هذا الزمان ، ووافق الجماهير فيما هم عليه ، وخاض فيما خاضوا [فيه] هلك كما هلكوا إلا من أعطاه الله تعالى عقلا كاملا يردعه عن هجوم الشهوات ، وعلما نافعاً عزيزاً يهديه عند ورود الشبهات فبالأحرى أن ينجو من أصناف المهلكات .

وقد قال حذيفة بن اليمان رحمه الله : أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى ، وأن منكركم اليوم معروف زمان آت ، وأنكم ما تزالون بخير ماعرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مُسْتَخْفٍ . هذا فى زمان حذيفة فما ظنك بزماننا هذا ! ! (٢) .

وقال الغزالى فى كتابه (٣) : أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات فى عصر الصحابة . قال : إن من غرر المعروفات فى زماننا تزيين المساجد وتنجيدها (٤) وإنفاق الأموال العظيمة فى دقائق عماراتها وفرش البسط الرفيعة فيها . قال : ولقد كان يعد فرش البوارى (٥) فى المسجد بدعة ، وقيل إنه من محدثات الحجّاج اللّعين . فقد كان الأولون قَلَّمَا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً وكذلك الإشتغال بدقائق الجدل

---

(١) ذكر الحافظ العراقى عدة طرق لهذا الحديث ثم قال : وكلها ضعيفة .

(٢) توفى حذيفة بن اليمان رضى الله عنه بعد قتل عثمان وبعد بيعة على بأربعين يوماً فى سنة ست وثلاثين .

(٣) لحياء علوم الدين ج : ١ : ٨٠

(٤) التنجيد : التزيين .

(٥) البوارى . الحصر المنسوجة .

والمناظرة من أجل علوم أهل الزمان ، ويزعمون أنه أعظم القربات ، وقد كان من المنكرات .

قال : ومن ذلك التلحين فى القرآن والآذان . وقال : ومن ذلك التعسف فى النظافة ، والوسوسة فى الطهارة ، وتقدير الأسباب البعيدة فى نجاسة الثياب مع التساهل فى حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك .

قال(١) : وقد صدق ابن مسعود رضى الله عنه حيث قال : أنتم اليوم فى زمان الهوى فيه تابع للعلم ، وسيأتى عليكم زمان يكون العلم فيه تابعاً للهوى .

قال(٢) : وكان أبو سليمان الدّارانى [رحمه الله يقول] : لا ينبغى لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمع به فى الأثر فيحمد الله تعالى إذ وافق مافى نفسه ، وإنما قال هذا لأن ماقد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب ، وربما يشوش صفاء القلوب فَيُتَخَيَّل بسببه الباطل حقاً فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار .

قال : ولهذا لما أحدث مروان المنبر فى صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدرى فقال : يامروان ما هذه البدعة ؟ فقال : إنها ليست ببدعة إنها خير مما تعلم ؛ إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت . فقال أبو سعيد : والله لا تأتون بخير مما أعلم أبداً ووالله لاصليت وراءك اليوم .

قال : وإنما أنكر ذلك عليه لأن رسول الله عليه السلام « كان يتوكأ فى خطبة العيد والإستسقاء على قوس أو عصا لاعلى المنبر » . (٣)

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ج ١ : ٨٠

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين ج ١ : ٨١ .

(٣) أخرجه الطبرانى من حديث البراء ونحوه فى يوم الأضحى ليس فيه الإستسقاء وهو ضعيف ، ورواه فى الصغير من حديث سعد القرظى « كان إذا خطب العيدين خطب على قوس وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا » وهو عند ابن ماجة بلفظ « كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس .. الحديث » .

وفى الحديث المشهور : « من أحدث فى ديننا ما ليس فيه فهو رد عليه » .(١) وفى خبر آخر : « من غش أمتى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قيل : يارسول الله، وما غش أمتك ؟ قال : أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها » .(٢)

وعنه عليه السلام أنه قال : « إن لله ملكا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته » .(٣)

ويحكى أن إبليس اللعين بث(٤) جنوده فى وقت الصحابة رضى الله عنهم فرجعوا إليه خاسرين فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : مارأينا مثل هؤلاء ، ما نصيب منهم شيئاً وقد أتعبونا [فقال لهم : إنكم] لا تقدرون لهم قد صحبوا نبيهم ، وشهدوا تنزيل ربهم ولكن سيأتى بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم ، فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسين فقالوا : مارأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشىء بعدالشىء من الذنوب فإذا كان آخر النهار أخذوا فى الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات ! فقال : إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئاً لصحة توحيدهم واتباعهم لسنة نبيّهم ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم ، تلعبون بهم لعباً وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم ، لا يستغفرون فيغفر لهم ،ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات ، قال : فجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء ، وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها ديناً . لا يستغفرون [الله] منها ولا يتوبون عنها ، ، فسلط عليهم الأعداء وقادوهم أين شاؤوا . ذكر هذا الحديث الغزالى فى كتابه(٥) . وحكى مثل هذا عن أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة رضى الله عنه أنه قال:

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة بلفظ «فى أمرنا ماليس منه» وعند أبى داود بلفظ «ماليس فيه» .
(٢) أخرجه الدارقطنى فى الأفراد بسند ضعيف جداً من حديث أنس .
(٣) قال الحافظ العراقى فى هذا الحديث : لم أجد له أصلا .
(٤) بث جنوده : فرقهم فى كل ناحية .
(٥) إحياء علوم الدين ١ : ٨١ — ٨٢

لما نزل قول الله عز وجل : « **ومن يعمل سوءا او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما** »(١) . قالت الشياطين لإبليس : ذهب عملنا فى ابن آدم باطلا . فقال : سأحدث لهم ذنوباً لا يمكن لهم التوبة والإستغفار منها ؛ فأحدث لهم هذه الفرق والاهواء ، والله أعلم .

وقال بعض العلماء : ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء ، وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف .

ويقال : الحق ثقيل ؛ من جاوزه ظلم ، ومن قصر عنه عجز ، ومن وقف معه اكتفى .

وقال ابن عباس رضى الله عنه ، إن الضلالة لها حلاوة فى قلوب أهلها ؛ قال الله سبحانه . « **اتخذوا دينهم لعبا ولهوا** . . . »(٢) وقال تعالى . « **افمن زين له سوء علمه فرآه حسنا** »(٣) فكل ما أُحدث بعد الصحابة بما جاوز الحاجة فهو من اللهو واللعب . وقد قال النبى عليه السلام : « عليكم بالنمط الأوسط الذى يرجع إليه العالى ، ويرتفع إليه الدانى . . »(٤) .

وفى كتاب الغزالى قال : ومثال الجانى على الدين بإبداع ما يخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنباً مثال من عصى الملك فى قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمر الملك فى خدمة معينة ، وذلك قد يغفر له وأما قلب الدولة فلا(٥) .

---

(١) النساء : ١١٠

(٢) الأنعام : ٧٠

(٣) فاطر : ٨

(٤) أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث موقوفاً على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولم يرد مرفوعا .

(٥) إحياء علوم الدين ج ١ : ٨١

وقال بعض العلماء : إن من أعظم المعاصى الجهل بالجهل والنظر إلى العامة ، واستماع كلام أهل الغفلة . قال : وكل عالم خاض فى الدنيا فلا ينبغى أن يصغى إلى قوله بل ينبغى أن يتهم فى كل ما يقول ؛ لأن كل إنسان يخوض فيما يحب ويدفع ما لا يوافق محبوبه . ولذلك قال تعالى: « **ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا** »(١) والعوام العصاة أسعد حالا من الجهال بطريق الدين المعتقدين أنهم من العلماء ؛ لأن العامى العاصى معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب،وهذا الجاهل الظان أنه عالم وأن ما هو مشتغل به من العلوم التى هى وسائله إلى الدنيا [عن سلوك طريق الدين] فلا يتوب ولا يستغفر ؛ بل لا يزال مستمراً عليه إلى الموت . وإذا غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله وذلك أعزمن الكبريت الأحمر، ولهذا المعنى كتب بعض العلماء إلى بعض السلف فقال : ما ظنك بمن بقى لا يجد أحداً يذكر الله معه إلا كان آثما أو كانت مذاكرته معه معصية وذلك أنه لا يجدأهله ؟ولقدصدق فإن مخالط الناس لاينفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر ، وأحسن أحواله أن يفيد علماً ولو تأمل لعلم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا ووسيلة إلى الشر فيكون هو معيناً له على ذلك ومهيئاً لأسبابه كالذى يبيع السيف لقاطع الطريق . فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو ، ولذلك لا يرخص لهفى البيع ممن يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الإستعانة على قطع الطريق ؛ ولذلك لا يجوز عند العلماء حمل السلاح إلى أرض العدو والله أعلم .فإذاًوقع اليأس وانقطع الطمع من إصلاح الناس إلا من شاء الله تعالى . فهذه أثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة ، تحتوى كل واحدة على جمل من أخلاق المتقين جمعتها من كتب علماء السلف وأكثرها من كتاب الغزالى(٢) لأنها موافقة للقرآن ولما مضى عليه السلف الصالح من مشايخ المسلمين رحمهم الله .فكن يا أخى ـ أرشدك الله ـ أحد

---

(١) الكهف : ٢٨

(٢) راجع إحياء علوم الدين ج ١ : الباب السادس : فى آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء .

رجلين : إمَّا متصفا بهذه الصفات فتكون على سبيل المشايخ ذوى الكرامات ، أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار بهذا العلم مقتبساً منه على قدر العون والتيسير ، وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن تسمى علم المعاش باسم علم الآخرة وطريق الدين ، وتسمى سيرة البطَّالين بسيرة العلماء الراشدين فتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين. نعوذ بالله من خدع الشيطان الغرور ، فيها هلك الجمهور : فالأسلم فى هذا الزمان لدين الإنسان العزلة والإنفراد ، إن وجد إلى ذلك سبيلا والله المستعان .

الباب العاشر

فى بيان العلم المذموم وأسماء العلم المحمود

من كتاب الغزالى

اعلم أن هذا الباب يشتمل على جملتين : إحداهما تعده العوام من العلوم المحمودة وليست كذلك . وفيها بيان الوجه الذى يكون به بعض العلوم مذموماً .

والثانية : فى أسماء العلوم الشرعية وبيان القدر المحمود منها من المذموم .

الجملة الأولى : فى العلم المذموم .

وفى كتاب الغزالى[1] قال : أعلم أن العلم لا يُذَمُّ لعَينهِ وإنما يذم فى حق العباد لأحد أسباب ثلاثة :

الأول : أن يكون مؤديا إلى ضرر إما بصاحبه وإما بغيره كما يذم علم السحر والطلسمات :

أما السحر فقد نطق به القرآن ، قال : « **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر** »[2] .

وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سحره بعض اليهود فمرض بسبب ذلك . وروى عن الكلبى أن الذى سحره لبيد بن أعصم اليهودى ، وقيل بناته ، فمرض عليه

---

(١) إحياء علوم الدين : جـ ١ : ٢٩ .
(٢) البقرة : ١٠٢

السلام حتى انتثر شعره فلبث شهراً أو ماشاء الله ، فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما لصاحبه: ما بال الرجل ؟ فقال : طُبَّ أى سحر . قال ومن طبَّه ؟ قال لبيد بن أعصم اليهودى . قال : وبم ؟ قال : بمشط ومشاطة . قال : وأين هو ؟ قال فى جف طلعة تحت راعوفة (أى صخرة) ببئر ذروان وهى لبنى زريق . قال : فانتبه النبى عليه السلام فبعث علياً والزبير وعمار بن ياسر رحمه الله فنزحوا ماء البئر كأنه نقاعة الحناء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الجف فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه ، وإذا فيه وتر معقود إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر ، فأنزل الله سورتى التعويذ ، فكلما قرأ جبريل عليه السلام آية انحلت عقدة حتى قام صلى الله عليه وسلم عند انحلال العقدة الأخيرة كأنما أنشط[1] من عقال ، وجعل جبريل عليه السلام يرقيه[2] يقول : بسم الله أرقيك والله يشفيك ، من كل داء يؤذيك ، من كل حاسد وعين . فلأجل ذلك جوزوا الإسترقاء بما كان من كلام الله عز وجل وكلام رسوله عليه السلام . أما ما كان من العبرانية والسريانية والهندية ، أو ما كان من غير لغة العرب فلا يحل عند العلماء اعتقاده .

واختلفوا فى معنى السحر وكيفيته ، فقال قوم : معناه العلم والحذق بالشىء ، ولطافة الفعل فيما خفى فهمه قال الله تعالى : « **يا ايها الساحر** »[3] أى العالم .

وقال آخرون : السحر هو تخييل وأحزان لا أصل له ولا حقيقة كالسراب غر من رآه وأخلف من رجاه ؛ كما قال الله تعالى : « **يخيل اليه من سحرهم انها تسعى** »[4] حكى هذا عن المعتزلة .

---

(١) أنشط العقال : مده حتى ينحل .
(٢) الرقية : العوذة ، ورقاه رقيا ورقية : نفث فى عوذته ، والاسترقاء : طلب الرقية .
(٣) الزخرف : ٤٩
(٤) طه : ٦٦

وحكى عن الشافعى أن السحر هو تمريض بما يتصل به كالذى يخرج من فم المتثائب يؤثر فى المقابل له . وقيل هو تعظيم الجن ليسهلوا ما عسر عليه . وقيل : طلسم ينبىء عن تأثير خصائص الكواكب ، كتأثير الشمس فى زئبق عصى سحرة فرعون .

وفى كتاب الغزالى قال[1] : السحر حق ، إذ شهد القرآن له ، وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين . قال : وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر ، وبأمور حسابية فى مطالع النجوم ، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع ، وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ، ويحصل من مجموع ذلك — بحكم إجراء الله تعالى العادة — أحوال غريبة فى الشخص المسحور .

وفى كتاب الماوردى : قال قوم : يقدر الساحر يقلب الأعيان بسحره ويمرض ، وربما قتل . قال : لأن المرض بدء الوسوسة ، والوسوسة به والمرض بدء التلف .

وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سحر النبى عليه السلام حتى كأنه يخيل أنه يفعل الشىء وما فعله »[2] .

---

(١) لحياء علوم الدين : ج ١ : ٢٩

(٢) سمعت للشيخ العلامة أبى اسحق ابراهيم اطفيش رأياً فى مسألة تأثير السحر فى النبى صلى الله عليه وسلم وقد أحببت أن أثبته هنا ، وهذا نصه كما أملاه على : « السحر الذى نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أصيب به من قبل اليهودى لبيد بن الأعصم وبناته لا يصح ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم معصوم لا ينال منه الشياطين ؛ لأن السحر إما أن يكون من قبل الجن فنبينا صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله عصمنى من الإنس والجن » وإما أن يكون من قبل الشعوذة ، فهذا أيضاً لا يصح ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أكمل الناس عقلا وأصح الناس بنية . فعصمة الرسول عليه الصلاة والسلام من الجن مستفيضة =

وأما قول من قال يقلب الساحر أعياناً وينشىء أجساماً فهو خطأ محض ؛ لأنه لو كان فى وسع الساحر إنشاء الأجسام وقلب الأعيان عما هى به من الهيئات لم يكن بين الحق والباطل فصل ولا فرق . كيف وقد قال الله تعالى : « **يخيل اليه من سحرهم انها تسعى** »(١) .

وقول من قال : إن السحر خدع ومعان يفعله الساحر فيخيل إلى الإنسان أنه بخلاف ماهو به ، كالذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً حتى يخيل إليه أن ماعايَنَ من الأشجار والجبال سائرة معه . هذا القول ممكن سائغ . وكذلك قول الشافعى والله أعلم .

= بل متواترة . وقد أجمع المسلمون على أنه عليه الصلاة والسلام معصوم من كل القوادح التى تتأتى للانسان من قبل عقله أو جسمه . وهذا الذى ذهبنا إليه هو ما يراه بعض المحققين كالجصاص فى كتابه أحكام القرآن. ولو لم يقل بهذا من أئمة العلم لكان موجب العصمة مانعاً من تأثير السحر فيه عليه الصلاة والسلام . والذى يتبادر أن الأحاديث الواردة فى هذا ليس لها ما يؤيدها من القرآن . فسورة الفلق التى يزعمون أنها نزلت فى شأن السحر نزلت عندهم بمكة ، والسحر وقع بالمدينة . وليس لهم دليل فى قوله تعالى : « **من شر النفاثات فى العقد** » لأن النفاثات المراد بها عندنا : النفوس النمامة ، ونفثها فى العقد تحدثها إلى من أوقعه الحظ فى أيديها تلقى فى روعه ما يوجب إثارة نفسه استفزازاً لها وإيقاعاً للشر بينها وبين أخصامها . والعقد جمع عقدة ، وهى كل رابطة بين شخصين كالزوجين والصديقين والصاحبين إلى غير ذلك . . . وراجع كتابنا عصمة الأنبياء والرسل ففيه بيان كاف لا يحتاج إلى ما بعده . والحمد لله .

أبو اسحق

(١) طه : ٦٦

واختلفوا فى تعلم السحر ، فقال قوم : لا يكون تعلمه كفراً ، وإنما العمل به كفر كما أن من تعلم الزنا لا يأثم وإنما يأثم العامل به . وقال آخرون - وهو الأصح إن شاء الله - إن تعلم السحر كفر ، وكذلك تعليمه ؛ لأن الله تعالى قال : **ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم** »[1] ولم يقل : مايضرهم إن عملوا به والله أعلم .

وأما الطلسمات وخواص الأحجار مثل حجر المغنطيس فى جبذه الحديد ، وحجر الماس فى كسره الأجسام الصلبة بخصوصية فيه ، وحجر العقيق والحجر الباغض للدم وحجر البرادى وغير ذلك من خواص الأحجار والنبات وخواص الأشياء فالله أعلم ما سبب ذلك فهو تعالى قد أستأثر بعلم الأشياء وأظهر للعباد ما شاء مما لهم فيه الصلاح وأستأثر بعلم سائرها فلا تقف العقول على كنهها .

وفى كتاب المسعودى قال : ويمكن - والله أعلم بهذه الخواص والطلسمات والأشياء المحدثة فى العالم للحركات والفاعلة فى الحيوان وغيره - قال : يمكن أن يكون الله تعالى جعلها معجزة لبعض الأنبياء السالفة ثم رفع ذلك النّبىّ وبقيت علومه . قال : ولقد رأيت بمصر حيّةً مصورة من حديد توضع على شىء ويدنى منها حجر المغنطيس فتحدث فيها حركة وسعى إليه وتعلق به . قال : وإذا أصاب المغنطيس رائحة الثوم بطل فعله بالحديد ، وإن غسل بشىء من الخل أو ناله شىء من عسل النحل عاد إلى فعله الأول من جذب الحديد .

وقال فى كتابه : لا تنازع عند ذوى الفهم أن فى مواضع من الأرض مدناً وقرى لا تدخلها عقرب ولا حية مثل حمص والمعرة وأنطاكية . قال : وقد كان ببلاد أنطاكية إذا أخرج الرجل يده خارج السور وقع عليها البق ، فإذا جذبها إلى داخل لم يبق عليها منها شىء إلى أن انكسر عمود من رخام فى بعض المواضع فأصيب فى أعلاه حق من

---

(١) البقرة : ١٠٢

النحاس فى داخله بق مصورمن نحاس كنحو كف فما مضت أيام أو على القرب من ذلك حتى صار البق يعم الأكثر من دورهم والله أعلم .

ووجدت فى كتاب المقالات المنسوبة إلى أحمد بن الحسن قال: إن بعض المتكلمين قال فى الطلسمات ونحوها أن ذلك من حيل الأوائل ، قال :وذلك أن أعمارهم طالت حتى عرفوا من الأرض المواضع التى تكون فيها الحيات وغيرها من الهوام والحشرات من المواضع التى لا تكون فيها هذه الأشياء ، فعملوا الطلسمات فى المواضع الخالية من الهوام توهماً أن الطلسمات هى المانعة للهوام من الكون فيها . والله أعلم بحقيقة هذا كله وإنما كتبنا هذا ليقف القارىء على ما قاله الناس فى هذه الأشياء .

السبب الثانى : الذى يكون به العلم مذموماً : هو أن يكون مضراً بصاحبه فى غالب الأمر وذلك كعلم النجوم ، فإنه فى نفسه غير مذموم لذاته إذ هو قسمان :

قسم حسابى : وقد نطق القرآن الكريم بأن مسير القمرين محسوب فقال تعالى : **والشمس والقمر بحسبان** »(١) وقال تعالى : « **والقمر قدرناه منازل** »(٢) وقال : «**هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق يفصل الايات لقوم يعلمون** »(٣) .

القسم الثانى : الحكم بها ، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب قال الغزالى فى كتابه(٤) : وهو يضاهى استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض وهو معرفة لمجارى سنة الله تعالى وعادته فى خلقه . ولكنه ذمه الشرع وقد قال النبى عليه السلام : « إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا »(٥)

---

(١) الرحمن : ٥
(٢) يس : ٣٩
(٣) يونس : ٥
(٤) إحياء علوم الدين ١ : ٢٩ الباب الثالث : فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها .
(٥) بقية الحديث : وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا » رواه الطبرانى من حديث ابن مسعود بإسناد حسن .

وعنه عليه السلام أنه قال : « أخاف على أمتى بعدى ثلاثا : جور الأئمة ، وإيمان بالنجوم ، وتكذيب بالقدر »(١) .

وعن بعض السلف قال : من قال فى النجوم غير هذه الثلاث فهو آثم كاذب مفتر ؛ قال الله تعالى : « **هو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها** »(٢) وقال : « **وجعلناها رجوما للشياطين** »(٣) وقال : « **انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد** »(٤) .

وعن عمر رضى الله عنه أنه قال : تعلموا من النجوم ما تهتدون به فى البر والبحر ثم أمسكوا . الحديث . قال الغزالى(٥) : وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه مضر بأكثر الخلق ، فإنه إذا ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع فى نفوسهم أن الكواكب هى المؤثرة ، وأنها الآلهة [المدبرة] لأنها جواهر شريفة سماوية ، ويعظم وقعها فى القلوب فيبقى القلب ملتفتاً إليها ، ويرى الخير والشر محذوراً أو مرجواً من جهتها ، ويمحى ذكر الله سبحانه عن القلب ؛ ولذلك قال النبى عليه السلام مخبراً عن ربه عز وجل يقول : « أصبح من عبادى مؤمن وكافر ؛ فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب ، ومن قال مُطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكواكب »(٦) .

---

(١) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى محجن بإسناد ضعيف .

(٢) الأنعام : ٩٧

(٣) الملك : ٥

(٤) الصافات : ٦ — ٧

(٥) إحياء علوم الدين : ج : ١ : ٢٩

(٦) مسند الربيع بن حبيب : ج ١ : ١٧ — ١٨ (الباب العاشر) .

قال الغزالى[١] : وذلك أن الضعيف يقصر نظره على الوسائط ، والعالم الراسخ هو الذى يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه . قال : ومثال نظر الضعيف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس ، مثال النملة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس فهى تنظر إلى سواد الخط يتجدد فتعتقد أنه فعل القلم ولاتترقى فى نظرها إلى مشاهدة الأصابع ، ثم منها إلى اليد ، ثم منها إلى الإرادة المحركة لليد ، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد ، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة سبحانه فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبه السافلة ، مقطوع من الترقي إلى مسبب الأسباب فهذا أحد أسباب النهي عن النجوم .

السبب الثانى : أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك فى حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً ، والحكم به حكم بجهل ، فيكون ذمه على هذا من حيث انه جهل لامن حيث انه علم ولقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس ذلك العلم وانمحق ، وما يتق من إصابه المنجم على ندور فهو اتفاق لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس فى قدرة البشر الإطلاع عليها ، فإن اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة ، وإن لم يقدر ذلك أخطأ ويكون ذلك كتخمين الإنسان أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك ، وربما يجىء النهار بالشمس ويذهب الغيم ، وربما يكون بخلافه ، ومجرد الغيم ليس كافياً فى مجىء المطر وبقية الأسباب لا تدرك .

قال[٢] : وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تَسْلَم اعتماداً على ما أَلِفَه من

---

(١) لإحياء علوم الدين : ج ١ : ٣٠

(٢) الغزالى : المصدر السابق

العادة فى الرياح ، ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها ، فتارة يصيب فى تخمينه وتارة يخطىء ، ولهذه العلة يمنع القوى أيضاً عن النجوم .

السبب الثالث : أنه لا فائدة فيه ، فأقل أحواله أنه خوض فى فضول لا تغنى ، وتضييع العمر الذى هو أنفس بضاعة الإنسان فى غير فائدة وذلك غاية الخسران . وقد روى أن النبى عليه السلام مر برجل والناس مجتمعون عليه فقال : « ما هذا ؟ فقالوا : رجل علامة . فقال : بماذا ؟ قالوا : بالشعر وأنساب العرب . فقال عليه السلام : علم لا ينفع وجهل لا يضر »[1] ثم قال : « إنما العلم آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » .

والخوض فى النجوم ومايشبهها اقتحام خطر وخوض جهالة من غير فائدة ؛ فإن ماقدر كائن ، والإحتراز عنه غير ممكن ، بخلاف علم الطب فإن الحاجة ماسة إليه وأكثر أدلته مما يطلع عليه ، وبخلاف تعبير الرؤيا وإن كان تخميناً لأنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة[2] ولا خطر فيه .

الثالث من الأسباب التى يذم العلم به هو الخوض فى علم لا يستقل الخائض فيه به[3] فإنه مذموم فى حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها ، وخفيها قبل جليها ، وكالبحث عن الأسرار الإلهية التى لا يستقل بالوقوف على طريق بعضها إلا الأنبياء والأولياء ، ولقد

---

(١) هذا الحديث أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى هريرة وضعفه . وآخر الحديث : « إنما العلم آية محكمة .. إلى آخره » وهذه القطعة عند أبى داود وابن ماجة من حديث عبد الله بن عمرو .

(٢) فى مسند الربيع بن حبيب ج : ١ : ١٥ أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

(٣) عبارة الغزالى : علم لايستفيد الخائض فيه فائدة عاجلة . الإحياء . ج ١ : ٣٠ .

تطلع الفلاسفة وأكثر المتكلمين إليها ولم يستقلوا بها بل هلكوا[١] من أجلها . وقد قال عليه السلام : « تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق »[٢] فيجب كف الناس عن البحث عنها وردهم إلى ما نطق به الشرع ، ففى ذلك للموفق مقنع فكم من شخص خاض فى العلوم و ستضر بها ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن فى الدين قبل الخوض فيها ؛ ولذلك قيل .

وإن ألقاك فهمك فى معمو ... فبيتك ثم ليتك ما فهمت

فلا تنكر كون العلم ضاراً لبعض الأشخاص كما يضر لحم الطير وأنواع الحلاوة اللطيفة بالصبى الرضيع . بل رب شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور ، ولقد ذكر أن بعض الناس شكى إلى طبيب عقم زوجته وأنها لا تلد ، فجس الطبيب نبضها وقال : لا حاجة لك إلى دواء الولادة فإنك ستموتين إلى أربعين يوماً ، وقد دل النبض عليه ، فاستشعرت المرأة خوفاً عظيماً وتنغص عليها عيشها ، وأخرجت أموالها وفرقتها ، وأوصت ، وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة فجاء زوجها إلى الطبيب فقال : إنها لم تمت . فقال الطبيب : قد علمت ذلك ، فجامعها الآن فإنها تلد إن شاء الله تعالى . قال : فكيف ذلك ؟ قال : رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها فعلمت أنها لا تهزل إلا بخوف الموت فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة . فهذا ينبهك على استشعار الخطر من بعض العلوم و يفهمك معنى قوله عليه السلام : « أعوذ بالله من علم لا ينفع »[٣] .

فاعتبر لهذه الحكاية ولا تكن بحاثاً عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها ، ولازم

---

(١) الحكم بالهلاك على المتكلمين و الفلاسفة لأجل تطلعهم الاستقلال بالأسرار الإلهية من قول المؤلف رحمه الله . وراجع نص الغزالى فى الإحياء ١ : ٣٠

(٢) مسند الربيع بن حبيب : الجزء الثالث : ١٧ (الباب السابع) .

(٣) أخرجه ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن ؛ وهو عند ابن ماجة بلفظ « تعوذوا » .

الإقتداء بالصحابة واقتصر على اتباع السنة فالسلامة فى الإتباع والخطر فى البحث عن الأشياء والاستقلال والإبتداع ، فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى طريق النبى عليه السلام ، ويفهمك بعض موارد إشاراته فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الإتباع فإنك لا تسلم إلا به . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من العلم لجهلا وإن من القول لعيًّا »[1] ومعلوم أن العلم لا يكون جهلا ولكن منه مايؤثر تأثير الجهل فى الإضرار . وقال عليه السلام : « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم »[2] وقال عيسى عليه السلام : ما أكثر الشجر وليس كلها يثمر ، وما أكثر الثمار وليس كلها بطيب وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع . والله تعالى نسأله العون والتوفيق .

---

(١) رواه أبو داود من حديث بريدة وفى إسناده من يجهل .

(٢) قال الحافظ العراقى : حديث : « قليل من التوفيق خير من كثير العلم » لم أجد له أصلا وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبى الدرداء ، وقال « العقل » بدل العلم ، ولم يخرجه والده فى مسنده .

الجملة الثانية

فى أسامى العلوم الشرعية وبيان القدر المحمود منها

اعلم أن هذه الجملة تنحصر فى فصلين :

أحدهما : فى أسامى العلوم الشرعية وكيفية ألتباسها بالمذمومة .

الفصل الثانى : فى بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة .

الفصل الأول

ذكر الغزالى فى كتابه فقال[1] : أعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية هو تحريف الأسامى المحمودة وتبديلها [ونقلها] بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما كان[2] عليه السلف الصالح والقرن الأول ، وهى خمسة ألفاظ : الفقه ، والعلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة .

قال : فهذه أسماء محمودة ، والمتصفون بها أرباب المناصب فى الدين[3]

اللفظ الأول : الفقه ؛ فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لمعرفة الفروع فى الفتاوى والوقوف على دقائق عللها ؛ فمن كان أكثر اشتغالا بها قيل هو الأفقه ، ولقد كان اسم الفقيه فى العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات

---

(١) إحياء علوم الدين ١ : ٣١ وما بعدها .

(٢) فى الإحياء : غير ما أراده . وما بين معقوفتين زيادة من الإحياء .

(٣) جاء بعد هذا فى إحياء علوم الدين : ولكنها نقلت الآن الى معان مذمومة ، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسماء عليهم ... الخ .

الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ؛ ويدل على ذلك قول الله عز وجل : « **ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم** »(١) ، والذى يكون به الإنذار والتخويف هو هـذا الفقه دون تفريعات الطلاق واللعان والسلم والإجازة وأشـباه ذلك من الفروع . فهذا لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع منه الخشية كما يشاهد من المتجردين له . وقد قال الله عز وجل : « **لهم قلوب لا يفقهون بها** »(٢) وأراد به معانى الإيمان دون الفتاوى ، ولعمرى إن الفقه والفهم فى اللغة أسمان لمعنى واحد .

وقد قال الله تعالى : « **لانتم اشد رهبة فى صدورهم من الله** »(٣) ، أحال قلة خوفهم من الله عز وجل وأستعظامهم لسطوة الخلق على قلة الفقه ، فأنظر [إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى ، أو هو نتيجة ما ذكرناه من العلوم](٤) وقال عليه السلام : « علماء حكماء فقهاء »(٥) وفى بعض الطرق : « كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » للوفد الذين قدموا عليه فقالوا : نحن قوم مؤمنون مسلمون فذكروا الخمس عشرة خصلة تحقيقاً لإيمانهم . الحديث المشهور .

وسئل بعضهم : أى أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أتقاهم . فكأنه إشارة إلى ثمرة الفقه أنها التقوى ، والتقوى ثمرة العلم الباطن دون الفتاوى والأقضية . وقال عليه السلام :

---

(١) التوبة : ١٢٢

(٢) الأعراف : ١٧٩

(٣) الحشر : ١٣

(٤) ما بين المعقوفتين نص الإحياء .. وعبارة القناطر : فانظر ذلك ينتجه عدم الحفظ لتفريعات الفتوى أو ينتجه ما ذكرنا من العلوم .

(٥) حديث : « علماء حكماء فقهاء » رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الزهد ، والخطيب فى التاريخ من حديث سويد بن الحارث باسناد ضعيف .

« لن يتفقه أحدكم كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة » . وقال عليه السلام : « لن يتفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله »[١] .

وروى هذا عن أبى الدرداء مرفوعاً مع قوله : « ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد مقتاً » .

قال[٢] : وسأل فرقد السبخى الحسن عن شىء فأجابه . فقال : إن الفقهاء يخالفونك فقال الحسن : ثكلتك أمك فريقد [وهل رأيت فقيهاً بعينك ؟] إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم ولم يقل فى جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى .

ولما احتضر جابر بن زيد رحمه الله دخل عليه الحسن فقال : قل لا إله إلا الله يا أبا الشعثاء . فسكت فأعاد عليه ، فقال جابر : أنا من أهلها ، ولكن نعوذ بالله من غدو أو رواح إلى النار . ثم قال : ياأبا سعيد « يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانها » فقال الحسن : ما أفقهه ولو عند الموت .

وقال الله تعالى : « **ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** »[٣] . ولم يرد تعالى لا يفقهون فروع الفتوى .

ولست أقول أن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى والأحكام الظاهرة ، ولكن بطريق العموم والشمول أو بطريق الاستتباع ؛ وكان إطلاقه على علم الآخرة أكثر ، فبان من

---

(١) الحديث أخرجه ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس وقال : لا يصح مرفوعاً .

(٢) الغزالى : إحياء علوم الدين ١ : ٣٢

(٣) المنافقون : ٧

هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلب ووجدوا على ذلك معيناً من الطبع ؛ فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير ، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر ، فوجد الشيطان مجالا لتحسين ذلك فى القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذى هو اسم محمود فى الشرع وبالله التوفيق .

اللفظ الثانى : العلم : وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله عز وجل وبآياته وأفعاله فى عباده وخلقه ، حتى أنه لما مات عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، عرفه بالألف واللام ثم فسره بالعلم بالله سبحانه .

وقال الله تعالى: « **شهد الله أن لااله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط** »(١)

وقال تعالى: « **ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا** »(٢)

وقال : « **وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث** »(٣)

وقال : « **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير** »(٤)

وقال : « **وانه لذو علم لما علمناه** »(٥)

وقال : « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** »(٦)

وقال : « **ومن عنده علم الكتاب** »(٨)

وقال فى الخضر عليه السلام : « **آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** »(٨)

وقال لنبيه عليه السلام : « **وعلمك ما لم تكن تعلم** »(٩)

وقال : « **وقل رب زدنى علما** »(١٠)

---

(١) آل عمران : ١٨
(٢) الإسراء : ١٠٧
(٣) الروم : ٥٦
(٤) القصص : ٨٠
(٥) يوسف : ٦٨
(٦) المجادلة : ١١
(٧) الرعد : ٤٣
(٨) الكهف : ٦٥
(٩) النساء : ١١٣
(١٠) طه : ١١٤

فى جميع ماورد من فضائل العلم والعلماء بالله عز وجل وبأحكامه وصفاته ، وتصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شهروه فى الأكثر بمن يشتغل بمسائل الفتاوى والفروع والخصومات ولا يحيط من علم الشريعة بشىء يتقرب به إلى الله عز وجل ، فيعد من فحول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وسير الصالحين وعلم المذهب وغيره ، فصار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من الطلبة وبالله التوفيق .

اللفظ الثالث : التوحيد ؛ وهو عبارة عن معرفة من وحّد الله تعالى وآمن به إيماناً يرى به الأمور كلها من قبل الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط والأسباب ؛ فلا يرى الخير والشر إلا من الله جل جلاله ، وهو مقام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتى إن شاء الله ، ومن ثمراته أيضاً ترك شكاية الخلق ، وترك الغضب عليهم ، والتسليم لحكم الله والرضا به وتفويض الأمور إليه وغير ذلك كما سيأتى إن شاء الله .

وكان التوحيد جوهراً نفيساً وله قشران : أحدهما أبعد عن اللب من الآخر .

فالقشر الأول : إقرار اللسان المجرَّد عن الإعتقاد ، وهو أن تقول بلسانك : « لا إله إلا الله » فهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذى تصرح به النصارى أن الله ثلاثة . ولكن هذا التوحيد ربما يصدر من الزنديق الذى يخالف سرُّه جهرَه .

القشر الثانى : أن لا يكون فى القلب إنكار لمفهوم الإقرار باللسان ، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاد الوحدانية والتصديق به ، وهو توحيد عوام المسلمين والمتكلمين الذين هم حراس هذا القشر عن تشويش أهل البدع المخالفين فى صفات الله تعالى بتأويل الخطأ .

وأما اللب الذى هو داخل هذين القشرين فهو توحيد العلماء بالله الموقنين ، وذلك هو رؤيتهم الأمور كلها من الله تعالى دون الأسباب والوسائط ، وعبادتهم إياه تعالى

بكلية قلوبهم ، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ؛ لأن كل متبع هواه فقد اتخذه معبوده ؛ قال الله تعالى : « **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** »(١) وقال عليه السلام : « أبغض إله عُبد فى الأرض عند الله تعالى [هو] الهوى »(٢) وسيأتى شرح التوحيد وثمراته إن شاء الله تعالى .

فهذا هو توحيد العلماء بالله تعالى ؛ انظر كيف جعله المتكلمون من العلماء عبارة عن صياغة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والاحاطة بمناقضة الخصوم والقدرة على التشدق(٣) فيها وكثرة الأسئلة بالدلائل والالزامات حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد . وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد ، مع أن جميع ما هو خاصية هذه الصناعة لم يكن شيء منها فى العصر الأول عن الرسول والصحابة رضى الله عنهم ، وإنما حدث عن افتراق الأمة وتوزعها . وبالله التوفيق .

اللفظ الرابع : الذكر والتذكير ؛ قال الله تعالى : « **وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين** »(٤) وقد ورد فى الثناء على مجلس الذكر أخبار كثيرة كقوله عليه السلام : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر »(٥) وكقوله عليه السلام فى حديث أبى ذر حيث قال : «حضور مجلس الذكر أفضل من صلاة ألف ركعة . وحضور مجلس العلم أفضل من عيادة ألف مريض ومن حضور ألف جنازة . قيل يا رسول الله : ومن قراءة القرآن ؟ قال : وهل ينفع القرآن إلا بالعلم ؟ ! »(٦) .

---

(١) الفرقان : ٤٣

(٢) أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة بإسناد ضعيف .

(٣) تشدق : لوى شدقه للتفصح ، والشدق : طفطفة الفم من باطن الخدين .

(٤) الذاريات : ٥٥

(٥) أخرجه الترمذى من حديث أنس وحسنه .

(٦) تقدم .

وعن عطاء قال : مجلس الذكر يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو . فى أمثال هذه الأخبار سيأتى فى موضعها إن شاء الله تعالى .

قال[١] : فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ فى هذا الزمان يواظبون عليه ، وهو القصص والأشعار والشطح والطامات ، أما القصص فهى بدعة ؛ وقد ورد نهى السلف عن الجلوس إلى القصاص وقالوا : لم يكن ذلك فى عصر الرسول عليه السلام[٢] ، وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ؛ وإنما حدث ذلك حين ظهرت الفتنة فظهر القصاص .

وروى أن ابن عمر خرج من المسجد فقال : ما أخرجنى إلا القاصُّ ولولاه ما خرجت.

وقيل للثورى : نستقبل القاص بوجوهنا ؟ فقال : ولوا البدع ظهوركم .

قال : ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصا يقص ويقول : حدثنا الأعمش ، فتوسط الحلقة وأخذ ينتف شعر إبطه ، فقال القاص : يا شيخ ، أما تستحى ! قال : لم ؟ أنا فى سنة وأنت فى كذب ، أنا الأعمش وما حدثتك .

وقال بعض العلماء : أكثر الناس كذباً القصاص والسؤال .

قال : وأخرج على [رضى الله عنه] القصاص من مسجد البصرة ، فلما سمع كلام الحسن البصرى لم يخرجه إذا كان يتكلم فى علم الآخرة والتذكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ، ويذكر بآلاء الله سبحانه ونعمائه وتقصير العبد فى شكره ، ويعرف حقارة الدنيا وخطر الآخرة فى أمثال ذلك ، فهذا هو التذكير المحمود

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ١ : ٣٤

(٢) حديث : لم تكن القصص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه ابن ماجة من من حديث عمر بإسناد حسن .

فى الشرع ، الذى وردت به الأخبار والآثار على ما سيأتى إن شاء الله ، فاتخذ المنحرفون تلك الأحاديث والآثار حجة على تزكية أنفسهم ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم ، وذهلوا عن طريق الذكر المقصود وأشتغلوا بالقصص التى يتطرق إليها الاختلاف والزيادة والنقصان وتخرج عن القصص الواردة فى القرآن وتزيد عليها ، فإن من القصص ما ينفع سماعه ومنها مايضر وإن كان صدقاً . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار ؛ فلأجل هذا نهى عن القصص .

وأما إن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم ، وكان القاص صادقاً صحيح الرواية فلست أرى به بأساً ، ولكن فليحذر الكذب وحكاية أحوال تومىء إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها ، وعن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات ، ومتداركة بحسنات تغطى عليها فإن العامى يعتصم بها فى مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه العذر فى ذلك ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشائخ والأكابر وكلنا بصدد المعاصى ، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدرى . فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به ، فعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن وصح فى الكتب الصحيحة من الأخبار . وأما الأشعار فكثيرها فى المواعظ مذموم قال الله تعالى : « **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون** » الآية (١) وقال : « **وما علمناه الشعر وما ينبغى له** »(٢) . وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف فى العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفرق ، والمجالس لا يحوى إلا أجلاف العوام ، وبواطنهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى ما يحرك دواعيهم ، ولا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن فيها

---

(١) الشعراء : ٢٢٤ — ٢٢٥

(٢) يس : ٦٩

فتشتعل فيها نيران الشهوات فيزعقون ويتواجدون ، وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى فساد ، فلا ينبغى أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر لحكمه »(١) . وبالله التوفيق .

وأما الشطح فهو عندهم نوعان من الكلام أحدثهما بعض الصوفية :

أحدهما : الدعاوى الطويله العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعاوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهة بالخطاب تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال الغزالى(٢) : وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى .

قال : فهذا الفن من الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، ولا يعجز الأغبياء عن دعاوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلفيق كلمات مخبطة مزخرفة .

قال : ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، فالعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق .

قال : فهذا ومثله مما قد أستطار فى بعض البلاد شرره وعظم [فى العوام] ضرره ،

---

(١) أخرجه البخارى من حديث أبى بن كعب .
(٢) إحياء علوم الدين جـ ١ : ٣٥ وما بعدها .

حتى من نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة ، والله أعلم

قال : والنوع الثانى من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل .

قال : وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن تخبط فى عقله وتشويش فى خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإبرازها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم ، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول [ويحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معانى ما أريدت بها][1] ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال عليه السلام : « ما حدث أحدكم قوماً بحديث لا يفهمونه إلا كان فتنة عليهم »[2] والله أعلم .

قال[3] : وأما الطامات فيدخلها ماذكرنا فى الشطح ؛ وأمر آخر يخصها ، وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لايسبق منها إلى الأفهام فائدة . كدأب الباطنية فى التأويلات ؛ فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم ؛ فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى .

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من الإحياء .

(٢) هذا الحديث رواه العقيلى فى الضعفاء وابن السنى وأبو نعيم فى الرياء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ولمسلم فى مقدمة صحيحه موقوفاً على ابن مسعود .

(٣) الغزالى فى إحياء علوم الدين جـ ١ : ٣٧

قال : وإنما قصد أصحابها بها الإغراب ؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له .
قال : وبهذا الطريق توصلت الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم .

قال : ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى : « **اذهب الى فرعون انه طغى** »(١) أنه إشارة إلى قلبه وقال : هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان . وفى قوله تعالى : « **وان الق عصاك** »(٢) أى كل مايتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغى أن يلقيه .

وفى قوله عليه السلام : « تسحروا فإن فى السحور بركة »(٣) أراد به الاستغفار فى الأسحار وأمثال ذلك حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء .

وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً ، كتنزيل فرعون على القلب ؛ فإن فرعون شخص مخصوص تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له ، وكأبى لهب وأبى جهل وغيرهما من الكفار . وليس من جنس الشياطين والملائكة وما لا يدرك بالحسّ حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه ، وكذا حمل السحور على الاستغفار « فإنه كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتناول الطعام ويقول : تسحروا وهلموا إلى الغذاء المبارك »(٤)

---

(١) طه : ٢٤

(٢) القصص : ٣١

(٣) الحديث متفق عليه من حديث أنس .

(٤) روى البخارى من حديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا . وحديث « هلموا إلى الغذاء المبارك » رواه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث العرباض بن سارية ، وضعفه ابن القطان .

فهذه أمور يدرك بالتواتر والحسن بطلانها [نقلا] ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك فى أمور لا يتعلق بها الإحساس ، وكل ذلك حرام وضلالة وبدعة شائعة عظيم ضررها . . فقد عرفت كيف صرف الشيطان دعاوى الخلق من العلوم المحمودة إلى المذمومة وكل ذلك بتلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى والله المستعان .

اللفظ الخامس : الحكمة : وهى التى أثنى الله تعالى عليها فقال : « **ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا** »(١) وقال عليه السلام : « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها » وقال : « الحكمة ضالة المؤمن » فى أمثال ذلك . ثم صار اسم الحكمة يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم وأمثالهم ، فانظر إلى الذى كان اسم الحكمة عبارة عنه ، وإلى ماذا نقل ، وقس به بقية الألفاظ واحترز عن الإغترار بتلبيسات علماء السوء فإن شرهم أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتوصل إلى انتزاع الدين عن قلوب الخلق ، فقد عرفت العلم المحمود من العلم المذموم ، ومثار الإلتباس ، وإليك الخيرة فى أن تنظر لنفسك فتقتدى بالسلف ، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع محدث والله المستعان . وقد صح قوله عليه السلام : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » فقيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : « الذين يصلحون أنفسهم عند فساد الناس ، ويحيون من سنتى ما أماته الناس »(٢) وفى خبر آخر : « هم المستمسكون بما أنتم

---

(١) البقرة : ٢٦٩

(٢) الحديث أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة مختصراً ، وهو بتمامه عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسنه .

عليه اليوم »[1] وفى حديث آخر : « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير ، من يبغضهم أكثر ممن يحبهم »[2] وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها ، ولذلك قال الثورى : إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط ؛ لأنه إن نطق بالحق أبغضوه .

كتبت أكثر هذا الباب من كتاب الغزالى ؛ لأنه اتبع فيه فضائح علماء السوء منهم فأحببت أن تقفوا عليها إذ كان ما ذكره موافقاً للحق غير خارج عن الشرع وبالله التوفيق .

---

(١) قال الحافظ العراقى : حديث « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم » يقوله فى وصف الغرباء ، لم أر له أصلا .

(٢) أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

الفصل الثانى

فى بيان القدر المحمود من العلم المحمود[1]

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام :

قسم مذموم قليله وكثيره ،وهو الذى لا فائدة فيه فى دين ولادنيا ؛ إذ فيه ضرر يغلب نفعه وهوماقدمناه من علم السحر والطلسمات والنجوم ، فبعضه لا فائدة فيه أصلا ، وصرف العمر الذى هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة ، وإضاعة النفائس مذمومة . ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر فى الدنيا والله أعلم .

القسم الثانى : قسم هو محمود قليله وكثيره ، وكلما كثر كان أحسن وأفضل ، وذلك هو العلم بالله تعالى وأفعاله ، وسنته فى خلقه ، وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا ؛ فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة ، وبذل المقدور فيه إلى أقصى غاية الجهد قصور عن حد الواجب؛ فإنه البحر الذى لا يُدرك غوره ، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يُيسَّر لهم،وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون فى العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله تعالى فى حقهم ، وهذا هو العلم المكنون الذى لا يسطر فى الكتب ، ويعين على التنبيه لهذا العلم مشاهدة أحوال علماء الآخرة كما قدمنا من علاماتهم ، هذا فى أول الأمر ، ويعين عليه فى آخر الأمر المجاهدة والرياضة للنفس ، وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا والتشبُّه فيها بأنبياء الله تعالى وأوليائه ، ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد

---

(١) أنظر الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ١ : ٣٨ وما بعدها .

ولكن لا غنى فيه عن الإجتهاد ، فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح سواها وبالله التوفيق .

القسم الثالث : يحمد منه مقدار الكفاية ، ولا يحمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه ؛ وهى العلوم التى تقدمت قبل هذا فى فروض الكفايات ؛ فإن فى كل علم منها اقتصاراً هو على الأقل ، واقتصاداً هو الوسط ، واستقصاء لا مرد له إلى آخر العمر .

وهذه الأقسام الثلاثة كأحوال البدن : فإن منه ما لا يحمد قليله ولا كثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنه ما يحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال ، ومنه ما يحمد الاقتصار فيه كبذل المال ، فإن التبذير لا يحمد فيه وهو بذل ، وكالشجاعة فإن التهور لا يحمد فيها ، وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم على هذا الحال .

فكن أحد رجلين : إمامشغولا بنفسك ، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك ، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذى هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك من معرفة الله تعالى وما يتعلق بها من الأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم ، وإنما الأهم الذى أهمله الكل وهو علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم ، إذ لا ينفك بشر عن الصفات المذمومة من الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات ، وإهمالها مع الإشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهى[1] الإشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذى بالجرب والدماميل والتهاون بإخراج المادة — من القيح والدم - منها بالفصد والإسهال ، وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما تشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن .

وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابتها وقلع

---

(١) يضاهى : يشاكل ويشبه .

مغارسها وهى فى القلب، وإنما فزع لأكثرون إلى الأعمال الظاهرة دون تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب، كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة، فلا يزال يتعب فى الطلاء ويزيد فى المواد وتتضاعف به الأمراض؛ فإن كنت مريداً للآخرة وطالباً للنجاة، وهارباً من هلاك الأبد فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما سيأتى إن شاء الله؛ فإنك إذا فعلت ذلك انجر ذلك بك إلى المقامات المحمودة التى تأتى مشروحة إن شاء الله، فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود، كالأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين، فإن لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات لا سيما وفى الخلق من قام به، فإن مُهلك نفسه فى طلب صلاح غيره سفيه. فما أشد حماقة من دخلت الأفاعى والعقارب داخل ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا يغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به! وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها، وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه فصار ذلك ديدناً لك وعادة متيسرة فيك ـ وما أبعد ذلك ـ فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج فيها؛ فابتدىء بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسوله عليه السلام، ثم بعلم التفسير وسائر علم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ، والمقطوع والموصول، والمحكم والمتشابه. وكذلك فى السنة، ثم اشتغل بالفروع، وهو علم المذهب من الفقه دون الخلاف ثم بأصول الفقه، وهكذا إلى بقية العلوم بما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت، ولا تستغرق عمرك فى واحد منها طلباً للاستقصاء، فإن العلم كثير والعمر قصير، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها، وكل ما يطلب لغيره فلا يليق أن يُنسى من أجله المطلوب ويستكثر منه، فاقتصر من شائع علم اللغة على ما تفهم به كلام العرب وتنطق به، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث، ودع التعمق فيه، واقتصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة، ومن علم الكلام على ما تحفظ به التوحيد والإعتقاد من تشويش المبتدعة على نفسك واختلاسها قلوب العوام من معتقدى مذهب المسلمين، وكن متيقظاً لمكايد النفس، متحرزاً من شياطين الجن والإنس، وبالجملة فالمرضى عند العقلاء أن تعد

نفسك فى الدنيا وحدك مع الله تعالى وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار وتأمّل فيها بعينك واشتغل فيما بين يديك ودع عنك ما سوى ذلك والسلام .

مثال لهذه العلوم فى سلوك طريق الآخرة : ذكر معنى ذلك الغزالى فى كتابه فقال[١]: اعلم أنه لا يهمك إلا شأنك فى الدنيا والآخرة . قال : وإذا لم يمكن الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن ، وشهد له من نور العقل والبصائر ما يجرى مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد .

قال: فعند ذلك تصير الدنيا منزلا ،والبدن مركباً ،والأعمال سعياً إلى المقصد،ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وإن كان لا يعرف فى هذا العالم قدره إلا الأقلون .

قال : والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله تعالى على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال . قال : وهو أن العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج ، وقيل له : إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعاً ، وإن ابتدأت بطريق الحج والإستعداد له وعاقك فى الطريق مانع ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل :

الأول : تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية[٢] وإعداد الزاد والراحلة .

الثانى : السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلا بعد منزل .

والثالث : الاشتغال بأعمال الحج ركناً بعد ركن ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة ،وله فى كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره ، ومن أول سلوك البوادى إلى آخره ، ومن أول أركان الحج

---

(١) لحياء علوم الدين ١ : ٥٣ وما بعدها .

(٢) الراوية : المزادة فيها الماء ، وخرزها : أحكمها .

إلى آخره . وليس قربُ من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعدُ فى إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل هو أقرب منه .

قال : فالعلوم أيضا ثلاثة أقسام :

قسم يجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة،وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن فى الدنيا .

وقسم يجرى مجرى سلوك البوادى وقطع العقبات،وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التى عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفَّقين . فهذا سلوك للطريق ، وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله ، وكما لا يغنى علم المنازل وطرق البوادى دون سلوكها، كذلك لايغنى علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ، ولكن المباشرة دون العلم غير ممكنة .

وقسم ثالث يجرى مجرى نفس الحج وأركانه ، وهو العلم بالله عز وجل وصفاته وملائكته وأفعاله فى جميع ما تقدم ذكره فى ترجمة علم المكاشفة . قال : وها هنا نجاة وفوز بالسعادة ؛ فالنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة ، وأما الفوز بالسعادة فلا ينالها إلا العارفون وهم المقربون المنعمون فى جوار الله عز وجل بالروح والريحان وجنة النعيم .

قال : فأما الممنوعون من ذروة الكمال فهم النجاة والسلامة كما قال الله تعالى : « فأما إن كان من المقربين فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين »(١) .

وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له أو تنهض إلى جهته لاعلى قصد لامتثال

---

(١) الواقعة : ٨٨ — ٩١ .

والعبودية، بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين وله نُزُلٌ من حميم وتصلية جحيم . واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين ، أعنى أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هى أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار ، وترقوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع وحالهم حال من أخبرَ فصدق ثم شاهد فتحقق . وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ، أعنى ما سبق إلى فهم عوام المسلمين والمتكلمين دون العارفين ؛ لأنهم آمنوا وصدقوا ولم يحظوا بالمشاهدة والعيان

قال : والسعادة وراء علم المكاشفة ، والمكاشفة وراء علم المعامله التى هى سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات . وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات ، وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك وراء علم سلامة البدن

قال : ومساعدة أسباب الصحة وسلامة البدن بالاجتماع والتعاون الذى يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن ، وهو منوط بالسلطان وقانونه فى ضبط الناس وحملهم على نهج العدل والسياسة فى ناصية الفقيه ، وأما أسباب الصحة ففى ناصية الطبيب .

ومن قال : العلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان وأشار به إلى الفقه فإنما أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة .

قال : فإن قلت: لم شبهت علم الطب والفقه بإعداد الزاد والرَّاحلة ؟ فاعلم أن الساعى إلى الله سبحانه لينال قربه هو القلب دون البدن ، ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس بل هو سر من أسرار الله تعالى لا يدركه الحس ، ولطيفة من لطائفه تارة تعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المطمئنة ، والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى الحاملة لذلك السر وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لذلك السر . وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضنون[1] به بل لا رخصة فى ذكره ، وغاية المأذون [فيه] أن يقال :

---

(١) ضن بالشىء : بخل به لنفاسته ، وضنائن الله : خاصة خلقه

هوجوهر نفس ودرّته[1] عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية،وإنما هو أمر إلهى كماقال تعالى : « **ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى** »[2] الآية . وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن،ولله الخلق والأمر جميعا ، والأمر أعلى من الخلق . وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أَبَيْنَ أن يحملنها وأشفقن منها ، وإياك أن تفهم من هذا تعريضا بقدَمها فالقائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدرى ما يقول . والمقصود أن هذه اللطيفة هى الساعية إلى قرب الله سبحانه ، أعنى الروح ؛ لأنه من أمر الرب تعالى فمنه مصدره وإليه مرجعه .

قال : وأما البدن فمطية الروح التى يركبها ويسعى بواسطتها ، فالبدن له فى طريق الله سبحانه كالناقل للبدن فى طريق الحج ، وكالروية الخازنة للماء الذى يَفتقر إليه البدن فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية ، ولا يخفى أن الطب كذلك فإنه يحتاج إليه فى حفظ الصحة على البدن ولو كان الإنسان وحده لاحتاج إليه . والفقه يفارقه فى أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغنى عنه ، ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده ؛ إذ لا يستقل بالسعى وحده فى تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والخبز والطبخ ، وفى تحصيل الملبس والمسكن ، وفى إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخالطة والاستعانة . ومهما اختلط الناس وثارت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل ، وبالطب يحفظ الإعتدال فى الأخلاط المتنازعة من داخل ، وبالسياسة والعدل يحفظ الإعتدال فى التنافس

---

(١) الدر : النفس

(٢) الإسراء : ٨٥

من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس فى المعاملات والأفعال فقه . وكل ذلك يحفظ البدن الذى هو مطية ، فالمتجرد لعلم الفقه والطب إذا لم يجاهد نفسه ولم يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج .

والمستغرق عمره فى دقائق الكلمات التى تجرى فى مجادلات الفقه كالمستغرق عمره فى دقائق الأسباب التى بها تستحكم الخيوط التى تخرز بها الراوية للحج ، ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى سالكى طريق الحج أو ملابسى أركانه .

قال الغزالى : فتأمل هذا أولا واقبل النصيحة مجاناً ممن قامت عليه غالية ولم يصل إليها إلا بعد جهد شديد وجراءة تامة على مباينة[1] الخلق [العامة والخاصة] فى النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة وبالله التوفيق .

فنسأل الله الذى بيده أزمة الأمور أن يعصمنا من زخارف القول والغرور ، وأن يجعلنا من الذين لا تغرهم الحياة الدنيا ولا يغرهم بالله الغرور . وأن يعيذنا من الخطإ والزلل فى القول والعمل فهو حسبنا ونعم الوكيل . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد ومولانا النبى الكريم .

كمل كتاب قنطرة العلم بحمد الله وحسن عونه ، يتلوها قنطرة الإيمان والتوحيد إن شاء الله تعالى .

---

(١) مباينة الخلق : مفارقتهم .

القنطرة الثانية

قنطرة الإيمان وسائر قواعد الاعتقاد والتوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

القنطرة الثانية

قنطرة الإيمان

وسائر قواعد الاعتقاد والتوحيد

وهذه القنطرة التى للايمان مرتبة على قنطرة العلم ؛ وذلك أن سعادة الآخرة العلم ، ثم الإيمان، ثم العمل ، ثم التوفيق ، ثم حسن الخاتمة ؛ وذلك أن الإنسان لما حصل له العلم الضرورى المتيقن بأن جميع المحدثات كائنة بعد أن لم تكن ، وجب عليه أن يعرف أن لها محدثاً ومكوناً كونها فيؤمن بها ويعتقد أنه خالقه وموجده على ما هو عليه من صفاته وأفعاله . فتشتمل حينئذ هذه القنطرة على خمسة أبواب :

الباب الأول

وينحصر هذا الباب فى عشرة فصول

الفصل الأول

يحتوى على ترجمة العقيدة والاستدلال على وجود الله سبحانه بالفاظ وجيزة

أما الترجمة : فهو أن الله تعالى أوجب على كل عاقل سلم عقله من الآفات أن يعتقد أن الله سبحانه إله واحد لا شريك له ، منفرد لا ند له ، مستمر الوجود لا آخر له ، ليس بجسم مصور ولا بجوهر مقدر ، ولا يماثل الأجسام ولا يتجزأ بالانقسام . ولا تحله الجواهر والأعراض ، ولا تعتريه الخواطر والأغراض ،ولا تحويه الأقطار والجهات ، ولا تكتنفه الأرض والسموات ، منزه عن التغير والإنتقال، مقدس عن الزوال ،حى قادر جبار قاهر ، لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت، منفرد بالخلق والاختراع ، متوحد بالإيجاد والإبداع . عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى من تخوم[1] الأرض إلى أعلى السماوات ، لا تعزب[2] عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء . يعلم حركات الخواطر

---

(١) تخوم الأرض : حدودها .
(٢) لا يعزب : لا يغيب .

وما يختلج[١] فى مكنون الضمائر . عالم بما كان وما يكون من ظاهر ومكنون ؛ يعلم ذلك بنفسه وبذاته لا بعلم متجدد قائم بالذات ، تعالى عن حلول المعانى والآفات .

وهو تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات ، خالق لجميع الموجودات وأفعالها ، مقدر لأرزاقها وآجالها . لا يقع كفر ولا إيمان، ولا نكر ولا عرفان ،ولا سهو ولا نسيان إلا بقضائه ومشيئته ، وحكمه وإرادته . لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه . لم يزل واحداً حياً عالماً قادراً مريداً فى الأزل لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها لها فوجدت فى أوقاتها كما قدرها من غير تقدم ولا تأخير،بل وقعت على وفق علمه وإرادته .

وهو — سبحانه — سميع لا تخفى عنه الأصوات ، بصير لا تغيب عنه الألوان ، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق . يرى من غير حدقه[٢] ولا أجفان ، ويسمع من غير أصمخة[٣] ولا آذان . كما يعلم من غير قلب ولا جنان[٤]

وهو ـ تعالى ـ متكلم بلا شفه ولا لسان، وآمر بالطاعة والإحسان ، ناه عن الاساءة والعصيان ، وأعد على طاعته ثواب الخلد والجنان ، متوعد على معصيته عقاباً بين أطباق النيران .

وأنه ـ تعالى ـ حكيم فى أفعاله ، عادل فى أحكامه ، متفضل بالإنعام ، ممتن بالإحسان لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

---

(١) ما يختلج فى مكنون الضمائر : ما يضطرب فى سرائرها .
(٢) الحدقة : محركة : سواد العين .
(٣) الصماخ بالكسر : كالأصموخ : خرق الأذن والأذن نفسها والجمع : أصمخة .
(٤) الجنان : القلب .

وأنه ـ تعالى ـ بعث رسوله النبى الأمين محمد بن عبد الله خاتم النبيين إلى الجن والإنس أجمعين ، فنسخ[1] بشريعته جميع الشرائع المتقدمة إلا ما لا ينسخ من التوحيد ومكارم الأخلاق المتممة . فختم به الأنبياء ، وفضله عن جميع أوليائه من الأنبياء والأصفياء . ومنع ـ سبحانه ـ كمال التوحيد الذى هو قول « لا إله إلا الله » ما لم تقترن به الشهادة لرسوله بأنه محمد رسول الله . وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما قاله وأخبر عنه ؛ من أن الموت حق ، وأن البعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق . وأن لله جملة الأنبياء والرسل ، وجملة الملائكة والكتب .

والإيمان بالقضاء والقدر ، وولاية أولياء الله من الأولين والآخرين . والعداوة لأعدائه من الإنس والجن أجمعين .

ومعرفة التوحيد والشرك ، وفرز كبائر الشرك من كبائر النفاق ، ومعرفة تحريم دماء المسلمين وأموالهم وسبى ذراريهم بالتوحيد الذى معهم . ومعرفة تحليل دماء المشركين وأموالهم وسبى ذراريهم بالشرك الذى معهم . ومعرفة الملل وأحكامها واعتقاد العبودية لله تعالى بجميع أوصافها . وبالله التوفيق .

فينبغى أن يُلقَّن الصبى هذه العقيدة مشروحة[2] فى أول نشوئه ليحفظها حفظاً ، ثم لا يزال ينكشف له معناها فى كبره شيئاً فشيئاً ؛ فابتداؤه الحفظ ، ثم الفهم ، ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق بها ، وذلك مما يحصل فى قلب الصبى بغير برهان .

ثم لابد من تقويته بتلاوة القرآن وتفسيره ، وقراءة الحديث وفهم معانيه . ويشتغل بوظائف العبادات ؛ فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن

---

(١) نسخ الشىء : أزاله وغيره وأبطله ، وأقام شيئاً مقامه .

(٢) قام المؤلف رحمه الله بشرح وتفصيل هذه العقيدة التى أجملها هنا شرحاً وافياً فى كتابه الجليل « قواعد الإسلام » وقد شغل ذلك جميع الركن الأول من الكتاب .

ومصرفة بمقتضى تدبيره ، ولذلك قال الله تعالى : « **افى الله شك فاطر السموات والأرض** »(١) .

وقال تعالى : « **فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** »(٢) .

فإذن فى فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغنى عن إقامة برهان . ولكنّا على سبيل الإستظهار والإقتداء بالعلماء النظار ، نقول فى انطباق فطرة العقول أن الحادث لا يستغنى فى حدوثه عن محدث يحدثه ، فالعالم بأسره حادث ؛ لأن كل حادث لا بد له أن يكون مختصاً بوقت يجوز فى العقل تقدير تقدمه وتأخره ، واختصاصه بوقت معلوم يفتقر بالضرورة إلى المخصص . وأما قولنا إن العالم حادث . فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان لأجل تعاقبهما . ووجود البعض منهما عقيب الآخر .

وذلك مشاهد فى جميع الأجسام ؛ فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز تحركه ، وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه . فالطارىء منهما حادث لطروئه ، والسابق حادث ؛ لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه . فلما ثبت أن الأجسام لا تخلو عن الأعراض ، وأنها تتعاقب على الأجسام وهى حوادث ، فما لم يسبق الحادث فهو حادث مثله ، وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات الضرورية . وبالله التوفيق .

الاصل الثانى : العلم بأن البارىء ـ سبحانه ـ قديم لا أول لوجوده . والدليل على قدمه كونه قبل الحدث ؛ لأن معنى الحدث ما لم يكن ثم كان ، ومعنى القديم : ما كان بغير تكوين ، وهو الله سبحانه ؛ لأنه كان ولا شىء معه ثم كوّنَ الأشياء . فلو لم يكن قديماً لكان محدثاً مفتقراً إلى محدث يحدثه ، وافتقر محدثه إلى محدث ،

---

(١) سورة ابراهيم : ١٠ (٢) سورة الروم : ٣٠

وتسلسل ذلك إلى غير نهاية ، وما تسلسل لم يتحصل ، وينتهى إلى محدث قديم وذلك هو المطلوب الذى هو صانع الأشياء وبارئها ومحدثها وموجدها، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم .

الاصل الثالث : العلم بأنه ـ تعالى ـ لا نهاية لوجوده ودوامه ؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه والدليل على ذلك أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم هو غيره ؛ لأن ذلك المعدم لو كان قديماً لما تصور الوجود معه . وقد ثبت بما قدمناه أنه قديم لا أول لوجوده ، فكيف كان وجوده فى القدم وحده ومعه ضده ؟

وإن كان الضد المعدوم حادثاً كان محالا ؛ إذ ليس الحادث بمضادته القديم حتى ينقطع وجوده بأولى من القديم فى مضادته الحادث حتى يدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع ، والقديم أقوى من الحادث . فثبت أنه لا آخر لوجوده ولا نهاية لدوامه وبالله التوفيق ...

الاصل الرابع : العلم بأنه ليس بجوهر يتحيز ؛ ودليله أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ، ولو يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحركا عنه ، والسكون والحركة حادثان ، فما لا يخلو من الحوادث فهو حادث . ولو تصور جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم وذلك محال . فثبت أنه قديم ليس بجوهر تعالى عن ذلك .

الاصل الخامس : العلم بأنه ـ تعالى ـ ليس بجوهر مؤلف من جواهر . إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر . فلما بطل كونه جوهراً مختصاً بحيز بطل كونه جسما ؛ لأن كل جسم لابد أن يكون مختصاً بحيز، مركباً من جوهرين فصاعداً. والجوهر والجسم يستحيل خلوهما عن الحوادث من الإفتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئات والمقدار. فهذه دلائل الحدث تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

الاصل السادس : العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم فى الجسم أو حال فى محل ؛ لأن العرض هو ما يحل فى الجسم ويعترض فيه من حركة وسكون . فكل جسم حادث ، ومحدثه موجود قبله. فكيف يكون حالاً فى جسم وقد كان فى الأزل ولاشىء معه موجود ثم أحدث الأجسام والأعراض ؟ ويتحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ، فإن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فإذن لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شىء لاستحالة مماثلة الصناعة صانعها .

الاصل السابع : العلم بأن الله تعالى منزّه الذات عن الاختصاص بالأمكنة والجهات. فإن الجهات إما فوق وإما يمين أو شمال أو قُدّام أو خلف . وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها ، فلو اختص بجهة ما لكان متحيزاً محدوداً كاختصاص الجواهر والأجسام وتحيزها بالأمكنة والجهات . وقد ثبت استحالة كونه جوهراً أو جسما فاستحال كونه مختصاً بجهة . فمن زعم أنه مختص بجهة فوقية قيل له :لو كان فوق العالم بجهة لكان محاذياً له ، وكل محاذ لجسم فإنه لابد أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر ، وكل ذلك تقدير يُحوج إلى مقدِّر يتعالى عنه الواحد المدبر . وأما رفع الأيدى عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبلة للداعى ، وفيه أيضاً إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء ، وتنبيهاً بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء ، فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر والإستيلاء.

الاصل الثامن : العلم بأنه تعالى مستوٍ على العرش بالمعنى الذى أراده الله تعالى بالاستواء وهو الذى لا ينافى وصف الكبرياء ولا تتطرق إليه سمات الحدث والفناء ، وهو استواء القهر والغلبة والاستيلاء كما قال الشاعر :

قد استوى بِشرٌ على العراق ... مِن غَيرِ سَيفٍ ودَمٍ مُهرَاق

فاضطر أهلَ الحق إلى هذا التأويل ما اضطر أهلَ الباطن إلى تأويل قوله تعالى : « **وهو معكم اينما كنتم** »(١) إذ حُمل بالاتفاق على الإحاطة والعلم ، وحُمل قوله عليه السلام : «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن »(٢) على القوة والقهر . وحُمل قوله عليه السلام : « الحجر الأسود يمين الله فى أرضه »(٣) على التشريف والإكرام ؛ لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال . فكذلك الإستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن للزم منه كون المتمكن جسما مماسا للعرش إما مثله أو أكبر منه أو أصغر ، وكل ذلك محال، وما يؤدى إلى المحال فهو محال .

الاصل التاسع : العلم بأنه تعالى منزه عن الرؤية والإدراك بالأبصار ، إذ هو تعالى مقدس عن الجهات والأقطار لقوله تعالى : « **لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير** »(٤) فهذه مدحة امتدح تعالى بها عن الإدراك بالبصر كما امتدح بقوله تعالى « **لا تاخذه سنة ولا نوم** »(٥) عن الغفلة وحلول الآفة به من النوم والسِّنَة . فإن قال قائل . لاتدركه الأبصار يعنى فى الدنيا . قيل له : لا تاخذه سِنَةٌ ولا نومٌ فى الدنيا ! فإن حاول بينهما فرقا لم يجد إلى ذلك سبيلا . وقد استقصينا شرح هذه الفصول والحجج عليها فى كتاب « شرح قصيدة أبى نصر » رحمه الله .

الاصل العاشر : العلم بأنه تعالى واحد لا شريك له ، فرد لا ندَّ له . انفرد بالخلق والإبداع ، وتوحد بالإيجاد والاختراع لا مثل له يساميه ويساويه [و] لا ضد له فينازعه

---

(١) سورة الحديد : ٤

(٢) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ولفظه : « إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم صرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » ج ١٠ / ٢٠٤ .

(٣) أخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن عمر . وجعله الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى من موضوعات : (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة : المجلد الأول — الجزء الثالث ص : ٢٥) .

(٤) الأنعام : ١٠٣ (٥) البقرة : ٢٥٥

ويناويه . دليله قوله تعالى : « **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** »[1] وبيانه أنهما لو كانا اثنين وأراد أحدهما أمراً ، فالثانى إن كان مضطراً إلى مساعدته كان مقهوراً له عاجزاً ولم يكن إلهاً قادراً ، وإن كان قادراً على مخالفته ومدافعته كان الثانى قوياً قاهراً والأول ضعيفاً قاصراً فلم يكن إلهاً قادراً .

فمدار هذا الباب على عشرة أصول ؛ وهى : العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه ، وأنه ليس بجوهر ولا عرض ، وأنه ليس مختصاً بجهة ولا مستقراً على مكان دون مكان ، وأنه مستوٍ على العرش ، وأنه ليس بمرئى ، وأنه واحد لا شريك له.

---

(١) الأنبياء : ٢٢.

الباب الثانى

فى معرفة صفاته فى ذاته

ويشتمل على عشرة أصول وهى : العلم بكونه حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً منزهاً عن حلول الحوادث . وأن صفاته هى هو ، وأنها غير قائمة بالذات غير متغايرة بينها البين وبالله التوفيق .

الاصل الاول : العلم بأن الله ـ تعالى ـ عالم بجميع الأشياء ما كان منها وما لم يكن أن لو كان كيف كان يكون ، علم ذلك بنفسه وبذاته ، لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والإنتقال . لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . يعلم وساوس الضمائر وهواجس الأفكار والسرائر ، صادق فى قوله : « **وهو بكل شىء عليم** » ، ومرشد إلى صدقه بقوله : « **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** » أرشد ـ سبحانه ـ إلى الاستدلال بالخلق على العلم ؛ لأنه لا يستريب ذو عقل فى دلالة الخلق اللطيف المحكم والصنع المزين بالترتيب والنظم العجيب ولو فى الشىء الحقير على علم الصانع الخبير . فما ذكره الله ـ سبحانه ـ هو المنتهى فى الهداية والتعريف لأهل العقول والدراية .

الاصل الثانى : العلم بأنه ـ تعالى ـ قادر ، وأنه فى قوله جل وعلا : « **وهو على كل شىء قدير** » صادق ؛ لأن العالم بأسره محكم فى صنعته ، مرتب فى خلقته . ومن رأى ثوباً من ديباج حسن النسيج والتأليف ، متناسب التطريز والتظريف ، ثم توهم ظهور ذلك من ميت لا استطاعة له ، أو من إنسان لا قدرة له كان متخلفاً عن غريزة العقل ، منخرطاً فى سلك أهل الغباوة والجهل .

الاصل الثالث : العلم بأنه ـ تعالى ـ حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، فإن من

ثبت علمه وقدرته ثبتت بالضرورة حياته . إذ الأموات استحالت منهم القدرة والعلوم . ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حياً لجاز أن يشك فى حياة الحيوانات عند ترددها فى الحركات والسكنات ، بل فى حياة أرباب الحرف والصناعات ، وذلك انغماس فى غمرة الجهالات .

الأصل الرابع : العلم بأنه تعالى مريد لأفعاله؛ فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته ؛ فهو تعالى المبدئ المعيد الفعال لما يريد ، وكيف لا يكون مريداً وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده مما يجوز عليه ، وما لا ضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه . وكيف يكون إلها قادراً من يكون فى ملكه مالا يريده بل هو مستكره عاجز تعالى عن ذلك علوا كبيرا . وهو تعالى مريد بذاته ، حى عالم بنفسه وبذاته .

الأصل الخامس : أنه تعالى سميع لاتخفى عليه الأصوات ، بصير لاتخفى عنه الألوان لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ، ولا يشد عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

فالسمع كناية عن درك الأصوات ، والبصر كناية عن درك الألوان وذلك نفس العلم ، وهما صفتان لله سبحانه فى ذاته صفتا كمال فى حقه ؛ سميع ليس بأصم ، بصير ليس بأعمى . فهاتان صفتا كمال فى المخلوق فكيف الخالق ؟ ! ؛ لأنه لو لم يكن كذلك كيف تستقيم حجة إبراهيم الخليل عليه السلام على أبيه إذ كان يعبد الأصنام غيا وجهلا فقال : « **لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر** »(١) ولو انقلب عليه ذلك فى معبوده لأضحت حجته داحضة(٢) ودلالته ساقطة ولم يصدق قوله : « **وتلك حجتنا اتيناها إبراهيم** »(٣) الآية .

---

(١) سورة الأنعام : ٨٣

(٢) دحضت الحجة دحوضا : بطلت .

(٣) سورة مريم : ٤٢

حاشا خليل الرحمن عن مقالة أهل الطغيان . فكما عُقل كونه فاعلا بلا جارحة ، عالما بلا قلب ولا دماغ ، فليعقل كونه بصيراً بلا حدقة وسميعا بلا أذن إذ لا فرق بينهما .

الأصل السادس : أنه تعالى متكلم ليس بأخرس ، وكلامه على وجهين :

أحدهما : الكلام الذى هو صفة له على نفى الخرس عنه ، فذلك صفة له فى ذاته لم يزل موصوفاً به .

والثانى : كلامه الذى هو القرآن وسائر كتبه المنزلة ؛ فذلك فعل من أفعاله لقوله تعالى : « **فاجره حتى يسمع كلام الله** »(١) ولا يسمع الانسان كلامه إلا بأذنيه وهذا المسموع مُحْدث . وتركنا ماوراء ذلك من الحجج مخافة التطويل ، إذ ليس هذا فصل الجدال واتساع المجال . وقد وصف الله تعالى كلامه الذى هو القرآن بالتشابه والتماثل والإتصال والإنفصال ، وأخبر أنه فى اللوح المحفوظ ، وفى صدور الذين أُتوا العلم . ووصفه بالذهاب والحدوث والنزول وغير ذلك من دلائل الحدث ومعانى المخلوق وبالله التوفيق .

الأصل السابع . أنه تعالى منزه عن حلول الحوادث والآفات كحلول الأعراض فى الأجسام . بل هو — سبحانه — متصف بمحامد الصفات فلا تعتريه التغييرات ؛ لأن محل الحوادث لا يخلو عن حوادث تعتقب عليه ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغاير وتقلب الأوصاف ، فكيف يكون خالقها مشاركا لها فى قبول التغيير ؟ تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

الأصل الثامن : أن صفاته تعالى هى هو لاغيره ، ليس هناك معنى يفارقه أويلازمه فقولنا : الله تعالى موجود . إثباته : ليس هناك وجود غيره يخالفه أو يوافقه . وقولنا : الله تعالى حى . إخبار عن الذات أنها ليست بميتة ولها التصرف فى الغير . وقولنا : الله

---

(١) التوبة : ٦

در . إخبار عن الذات ليست بعاجزة ولا يعجزها شيء . وقولنا : الله مريد إخبار عن الذات أنها غير مكرهة ولا يفوقها شيء وكذلك سائرها .

وليس فى أن نفينا عن الذات هذه الأمور ما يقتضى أن معها شيء غيرها يقاومها فيضاهيها ، وشيء غيرها تستعين به أو يكون جزءاً منها ، وذلك محال فى ذات البارىء سبحانه . والقديم سبق الحدوثَ والعجزَ والحاجةَ وجودُه ، فمن حصل له اسم القـــدم حصلت له الألوهية والصفات الـكاملة ، وذلك عن غير الله منفى ولا قديم إلا الله ، ولا إله إلا الله ، وأستأثر الله بالكمال ، ولم يبرأ الغير من النقصان ، وبالله التوفيق .

الأصل التاسع : أن صفات الله تعالى ليست معانى غيره ، ولا هى قائمة بذاته تعالى عن ذلك وإنما ذلك قول الأشعرية ، وهذا شبيه بقول المتـكلمين إن الأعراض حالّة فى الأجسام . فلو جعلوا الأعراض قائمة بالجسم ، والمعانى التى ذكروها حالة فى ذات البارىء سبحانه لما زادوا . فأتوا على معنى قولهم هذا بالمعنى الموجود فى الأجسام صراحاً ، ونحلوه ذات البارى سبحانه براحاً ، فإن قالوا : إنكم أبطلتم المعنى المعقول فى لغة العرب أنهم إذا وصفوا إنساناً بالشجاعة أو بالجبن أو السخاء أو البخل أثبتوها صفاتا غيره . وليس فى لسانهم ما يقتضى أنها هى هو أو غيره ، وإنما تدرك معرفة ذلك من وجه آخر من طريق من نظر فى دوات العالم ؛ وعلى أن الجسمية صفة للجسم ، وليس فى ذلك ما يقتضى أنها غير الجسم ؛ وكذلك العرضية صفة للعرض ، والخلق صفة الخالق وهى هو . وبالله التوفيق .

الأصل العاشر : أن هذه الصفات التى ذكرناها من العلم والقدرة وسائرها غير متغايرة بينها البين . فإن قالوا : العلم هو القدرة فى سائرها . قلنا : هذا ممنوع من جهة اللغة والتخاطب بين الناس ، ولو أطلقة إنسان لما جاوز خطؤه اللغة ، وهو أحسن حالا ممّن أخطأ فى صفات الله تعالى .

اعلم أن هذه الصفات التي ذكرنا صفات ذات لم يزل الله تعالى متصفا بها في الأزل والحال؛ إذ لو حدث العلم لكان قبله جاهلا، ولو حدثت القدرة لكان قبلها عاجزاً، ولو حدثت الحياة لكان قبلها مواتا، ولو حدثت الإرادة لكان قبلها مستكرها، ولو حدث السمع والبصر لكان قبل ذلك أعمى وأصم؛ فهذه صفات ذات مهما انخرمت منها صفة اختلت الألوهية. فإن قال قائل: ولو حدث الكلام لكان قبله أخرس، فالخرس ضد الكلام ونقيضه، فالكلام إذن من صفات الذات. قيل له: قد تقدم القول في ذلك[1] ان كلام الله تعالى على وجهين: فكلامه الذي هو صفة ذاته يوصف به على نفي الخرس عنه؛ لأنه تعالى متكلم ليس بأخرس، وليس الخرس بنقيض الكلام وإنما الخرس آفة وزمانة لا يستقيم معها الكلام، كما أن العجز آفة لا يستقيم معها الخلق، وهما منفيان عنه تعالى بالقدرة. وإنما ضد الكلام السكوت؛ لأنه قد يكون الحي ساكتا لا متكلما ولا أخرس. والوجه الثاني: كلامه الذي هو القرآن وسائر كتبه؛ [هو فعل من أفعاله وخلق من خلقه إذ وصفه الله تعالى بصفات الحدث كما قدمنا.

واعلم أنه لا يجوز أن يقال: الله سبحانه عَلِم بعلم وقَدَر في سائرها؛ لأنه يوهم عليه الإستعانه بها تعالى عن ذلك. وإنما يقال: علم بنفسه وبذاته. وكذلك سائرها. وبالله التوفيق][2]

---

(١) راجع الأصل السادس من هذا الباب.

(٢) هذه الزيادة ساقطة من ب

الباب الثالث

فى أفعاله تعالى ومدارها

ويحتوى على عشرة أصول : وهى أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأنها مكتسبة للعباد . وأنها مرادة لله تعالى وأنه متفضل بالخلق . وأن له تكليف العقلاء . وأن إيلام البرىء عدل منه تعالى . وأنه لا يجب عليه رعاية الأصلح . وأنه لا واجب إلا بالشرع . وأن بعثه الأنبياء جائز . وأن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة مؤيدة بالمعجزات . وبالله التوفيق .

الأصل الأول : العلم بأن كل حادث فى العالم فهو خلقه وفعله واختراعه لا خالق له سواه ولا محدث إلا إياه . خلق الخلق وصنعهم ، وأوجد قدرتهم وحركتهم ، فجميع أفعال العباد مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقا لقوله تعالى : « **الله خالق كل شىء** »(١) وقوله : « **والله خلقكم وما تعملون** »(٢) وقوله تعالى . « **واسروا قولكم او اجهروا به انه عليم بذات الصدور * الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** »(٣) أمر العباد بالتحرز فى أقولهم وأسرارهم وضمائرهم لعلمه موارد أفعالهم ، واستدل على العلم بالخلق . وكيف لا يكون لفعل العبد خالقاً وهو سبحانه يقول : « **وقدرنا فيها السير** »(٤) وقال : « **وانه هو اضحك وابكى** »(٥) .

وقدرته تعالى تامة لا قصور فيها . وهى متعلقة بحركة أبدان العباد ، والحركات متماثلة ، وتعلق القدرة بها لذاتها . فما الذى تقصر تعلقها عن بعض الحركات دون بعض

---

(١) الزمر : ٦٢ (٢) الصافات : ٩٦
(٣) الملك : ١٤ (٤) سبأ : ١٨

مع تماثلها ؟ أو كيف يكون الحيوان مستبداً بالإختراع والخلق ؟ وقد يصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوى الألباب ، فكيف انفردت هى بخلقها واختراعها دون رب الأرباب جل جلاله وهى غير عالمة بتفصيل مايصدر منها من الإكتساب ؟ هيهات هيهات ! دلت المخلوقات على انفراد جبار الأرض والسماوات بالخلق والإختراع ، والانشاء والابتداع ، والايجاد والابداع .

الأصل الثانى : أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد وسكناتهم لا يخرجها عن كونها مقدَّرة للعباد على سبيل الإكتساب . فالله — سبحانه — خلق القدرة والمقدور جميعاً ، والكسب والمكتسب جميعا ، فأما القدرة فوصفٌ للعبد وخلقٌ للربِّ سبحانه وليست بكسب له . وأما الحركة فخلقٌ للرب تعالى ووصفٌ للعبد وكسبٌ له ، فإنها خلقت بقدرة هى وصفهُ . فكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة ، فسُمِّيت باعتبار تلك النسبة كسباً . وكيف يكون الفعل جبراً محضا وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ أو يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها ؟ فإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد فى الإعتقاد : وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً و بقدرة العبد على وجه آخر من التَّعَلُّق يُعبَّر عنها بالإكتساب . وقد قال تعالى : « **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم** »(١) فأضاف القتل إلى العباد والتعذيب إلى نفسه فى فعل واحد ، والتعذيب هو عين القتل .

بل صرح وقال : « **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** »(٢) وهو جمع بين النفى والاثبات ظاهراً ، فكأنه قال : وما رميت بالمعنى الذى يكون به الرب رامياً إذ رميت بالمعنى الذى يكون به العبد رامياً . فردَّ تعالى فى هذه الآية على المعتزلة والمجبِّرة جميعاً ، ولأنه ليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط إذ قدرة الله تعالى فى الأزل كانت متعلقة بالمخلوقات ولم يكن الاختراع

---

(١) التوبة : ١٤ (٢) الأنفال : ١٧

حاصلا بها ، وهى عند الاختراع متعلقة به نوعاً آخر من التعلق فيه يظهر أن تُعلَّق القدرة ليس مخصوصا بحصول المقدور بها . فافهمه فإنه معنى غامض و بالله التوفيق .

الأصل الثالث : أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه . فلا تجرى فى الملك والملكوت طرفة عين ، ولا فلتة خاطر ، ولا لفتة ناظر إلا بقضاء الله تعالى وقدره ، وبإرادته ومشيئته . فمنه الخير والشر والنفع والضر والاسلام والكفر ، والعرفان والنكر والفوز والخسر ، والغواية والرشد والطاعة والعصيان ، والشرك والايمان . لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . و يدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة(١) : ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن . وقوله الله سبحانه : « **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** »(٢) و « **لو يشاء الله يهدى الناس جميعا** » (٣).

ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصى والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريدها وإنما هى جارية على وفق إرادة إبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه ، والجارى على وفق إرادة العدو أكثر من الجارى على وفق إرادته [تعالى] ، فليت شعرى كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذى الجلال والإكرام إلى رتبة لو رُدَّ إليها سيد ضيعة لاستنكف(٤) منها ؛ إذ لو كان ما يستمر لعدو السيد فى قرية أكثر مما يستمر له لاستنكف من سيادته وتبرأ عن ولايته. والمعصية هى الغالبة على الخلق ، وكل ذلك جار على قياد قول المبتدعة(٥) على خلاف إرادة الخالق وهذا غاية الضعف والعجز ، تعالى رب العالمين عن قول الظالمين علوا كبيرا .

ثم مهما ثبت أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى صح أنها مرادة له . فإن قيل : كيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد ؟ قلنا : الأمر غير الإرادة ، ولذلك إذا ضرب السيد عبده

(١) أى جميعاً .
(٢) السجدة : ١٣
(٣) الرعد : ٣١
(٤) استنكف : استكبر .
(٥) فى ا : المعتزلة

فعاتبه السلطان عليه ، فاعتذر بتمرد عبده عليه فكذبه السلطان — فأراد إظهار حجته بأن يأمر عبده بفعل ويخالفه بين يديه — فقال له : أسرج هذه الدابه بمشهد من السلطان، فهو يأمره بما لا يريد امتثاله ، ولو لم يكن آمراً لما كان عذره عند السلطان ممهداً ، ولو كان مريدا لامتثاله لكان مريداً لهلاك نفسه وهو محال .

الأصل الرابع : أن الله تعالى متفضل بالخلق والإختراع، ومتطول بتكليف العباد ، ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه خلافاً للمعتزلة الذين زعموا أن التكليف لا يكون إلا من طريق مصلحة العباد . واستدل أبو يعقوب[1] على فساد قولهم هذا بقول الله سبحانه « **فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم** »[2] قال : وهذا تكليف عقوبة لا مثوبة ، وهذا فى حق الله سبحانه محال ؛ إذ هو الموجب والآمر والناهى سبحانه ، وكيف يتعرض لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب ؟ والمراد بالواجب أحد أمرين :

---

(١) هو أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم بن مياد الوارجلانى من (وارجلان) واد بأرض المغرب بالجزائر ، فيه عمارة ينزلها الإباضية ، خربها يحى بن اسحق الميورقى عام ستة وعشرين وستمائة : وذلك بعد موت أبى يعقوب رحمه الله بست وخمسين سنة . وارتحل فى شبابه الى الأندلس وسكن قرطبة وفيها حصل علوم اللسان والحديث وغيرها ، وفسر القرآن تفسيراً كبيراً فائقا جمع فيه من العلوم ما لم يذكره غيره قال عنه الشيخ أبو القاسم البرادى فى الجواهر ص ٢٢٠ : « وله فى تفسير القرآن كتاب عجيب رأيت منه فى بلاد أريغ سفراً كبيراً لم أر ولا رأيت قط سفراً أضخم منه ولا أكبر منه ، وحزرت أنه يجاوز سبعمائه ورقة أو أقل أو أكثر ، فيه تفسير الفاتحة والبقرة وآل عمران وحزرت أنه فسر القرآن فى ثمانية أسفار مثله ، فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدور فى لغة أو إعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو فى جميع العلوم ... الخ » ١٠ هـ وصنف فى أصول الفقه « العدل والإنصاف » وفى أصول الدين كتاب :«الدليل والبرهان » فى ثلاثة أجزاء، وقد طبع طبعة حجرية بالقاهرة . ورتب مسند الربيع بن حبيب عن أبى عبيدة عن جابر ، وكان مشوشا وضم اليه بعض روايات الربيع عن ضمام عن جابر ، وروايات أبى سفيان عن الربيع وروايات الإمام أفلح عن أبى غانم وغيره ومراسيل جابر بن زيد . وشرح أسماء رجال المسند فى كراسة ، وألف مرج البحرين فى علم الفلسفة : المنطق والهندسة والحساب . وقال البدر الشماخى : ولا أحصى ما رأيته له من الأجوبة لكثرتها .قال : وله قصائد منها الحجازية فى ثلاث مائة وستين بيتا تدل على غزارة علمه لما أودعها من فنون العلم . وتوفى عام سبعين وخمس مائة رحمة الله عليه .

(٢) سورة النساء : ١٦٠

إما الفعل الذى فى تركه ضرر ؛ إما آجل كما يقال : يجب على العبد أن يطيع الله تعالى ؛ أو ضرر عاجل كما يقال : يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت .

وإما أن يراد به الذى يؤدى عدمه إلى محال . كما يقال : وجود المعدوم واجب ؛ إذ عدمه يؤدى إلى محال ، وهو أن يصير العلم جهلا . فإن أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله تعالى على المعنى الأول فقد عرّضه للاضرار ، وإن أراد به المعنى الثانى فهو مسلم ؛ إذ بعد سبق العلم لابد من وجود المعلوم ، وإذ أراد به معنى ثالثاً فهو غير مفهوم .

وقوله : « يجب لمصلحة عباده » كلام فاسد ؛ فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب فى حقه معنى . ثم إن مصلحة العباد فى أن يخلقهم فى الجنة فأما أن يخلقهم فى دار البلايا، ويعرضهم للخطايا ، ثم يهدفهم لخطر العقاب وهو العرض والحساب فما فى ذلك غبطة لذوى الألباب .

الأصل الخامس : إنّ لله ـ سبحانه ـ تكليف العباد إذ ركّب فيهم العقول السالمة من الآفات ، وليس من الحكمة إهمالهم مع العقول ؛ لأن ذلك يؤدّى إلى إباحة الشتم له والإجتراء عليه بما ليس من أهله ، فكيف وقد نزّهَ الجليل ـ سبحانه ـ نفسه عن هذه الصفة فقال : « **افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون** »(٢) وقال تعالى : « **ايحسب الانسان ان يترك سدى** »(٣) أى مهملا لا يؤمر ولا ينهى ؛ فكما أنه ليس من الحكمة تكليف من انعرى من العقل والتمييز إذ كان ذلك بمنزلة تكليف الأصم السمعَ ، وبمنزلة تكليف الأخرس النطقَ ، فكذلك ليس من الحكمة إهماله مع العقل والتمييز . وقد زعمت الأشعرية أو غيرهم أنه يجوز على الله ـ سبحانه ـ تكليف العباد ما لا يطيقونه ، ولم تجز ذلك المعتزلة فيما حكى عنهم والله أعلم . واستدلّ من أجاز ذلك

---

(١) سورة المؤمنون : ١١٥

(٢) سورة القيامة : ١١٦

أنه قال : لو لم يسغ ذلك ذلك لاستحال سؤال دفعه . قال : وقد حكى الرب ـ سبحانه ـ عن عباده أنهم سألوه دفع مالا يطيقونه فقال مخبراً عنهم : فقالوا : « **ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به** »[1] .

قالوا : ولأن الله تعالى أخبر نبيه عليه السلام أن أبا جهل لا يصدّقه ، ثم أمره تعالى أن يصدق نبيه عليه السلام فى جميع أقواله . قالوا : وقد كان فى جملة أقواله أنه لا يصدقه ، فكيف يصدقه فى أنه لا يصدقه ؟ قالوا : فهذا محال وجوده . وقول المعتزلة عندى فى هذا أقرب إلى الصواب والله أعلم .

الأصل السادس : واختلفوا هل يجوز على الله سبحانه إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم منهم سابق ، ولا لعوض ثواب لهم لا حق ، فمنعت المعتزلة ذلك ، وأجازته الأشعرية أو غيرهم . وأستدلوا بأن قالوا : إن لله تعالى التصرف فى ملكه ، ولا يتصور أن يعدو تصرفه ملكه . قالوا : والظلم إنما هو عبارة عن التصرف فى ملك الغير [بغير إذنه][2] وهو محال على الله سبحانه فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما .

واستدلوا أيضاً على جواز ذلك بذبح البهائم ـ وذلك إيلام لها ـ وبما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين ، ولم تتقدمها قبل ذلك جريمة ، ولا لها فى الآخرة ثواب . وليت شعرى كيف قولهم فى المجبّرة الذين زعموا أن الله أجبرهم على أفعالهم ثم عذبهم عليها أوصفوه بقولهم هذا بالظلم أم لا ؟ والله أعلم . وقولنا فى هذا وغيره من جميع ما يسع جهله قول[3] المسلمين . وبالله التوفيق .

الأصل السابع : أنّ الله سبحانه يفعل ما يشاء بعباده ، فلا يجب عليه رعاية الأصلح

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٦

(٢) زيادة من لحياء علوم الدين : وقد أورد الغزالى هذا الاستدلال فيه جـ ١ : ١١٢

(٣) ساقطة من (ب)

لهم فى ذلك . لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه شىء ، بل لا يُعقل فى حقه الوجوب ؛ فإنه « **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** »(١) ؛ ولاتفاق الجميع أن الأمر فى مقتضى اللغة لا يفيد حسن المأمور ، ولا النهى قبح المنهى عنه أن هذا حسن وأن هذا قبيح . وإنما يُعلمان من جهة الشرع ولا يعلمان من جهة المصلحة ، خلافا للقدَرية الذين يقولون إن الله عز وجل لا يكلف عباده إلا من جهة المصلحة .

وفى كتاب الغزالى(٢) قال فى هـذه المسألة : وليت شعرى بما يجيب المعتزلى فى قوله « إن الأصلح على الله تعالى » فقال : بما يجيب عن مسألة نرضها عليه ، وهو أن يفرض مناظرة فى الآخرة بين صبى مات مسلما ، وبالغ مات مسلما ؛ فإن الله ـ سبحانه ـ يزيد فى درجات البالغ و يفضله على الصبى لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ، ويجب عليه ذلك عند المعتزلى . فلو قال الصبى : يارب ، لم رفعت منزلته علىَّ ؟ فيقول الرب تعالى : لأنه بلغ واجتهد فى الطاعات. فيقول الصبى: أنت أمتنى فى الصبا فكان يجب أن تديم حياتى حتى أبلغ فأجتهد فقد عدلت عن العدل فى التفضل عليه بطول العمر له دونى فلم فضلته ؟ فيقول الله تعالى : لأنى علمت أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت فى الصبا . هذا عذر المعتزلى عن الله عز وجل . قال : فعند هذا ينادى الكفار من دركات لظى ويقولون : أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا ؟ فهلا أمتنا فى الصبا فإنا رضينا بما دون منزلة الصبى المسلم . فبماذا يجاب عن ذلك ؟ وهل يجب عند هذا [إلا](٣) القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الإعتزال ؟ ! وبالله التوفيق .

الأصل الثامن : إن معرفة الله ـ سبحانه ـ وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٣

(٢) إحياء علوم الدين جـ ١ : ١١٢

(٣) زيادة من الإحياء .

لا بمجرّد العقل ـ خلافا للمعتزلة ـ لأن العقل إن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال ؛ لأن العقل لا يوجب العبث . وإما أن يوجبها لفائدة وغرض ، وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى غرض المعبود وذلك محال [فى حقه تعالى][1] ؛ فإنه يتقدّس عن الأغراض والفوائد، بل الكفر والإيمان ، والطاعة والعصيان فى حقه سيّان . وإما أن يرجع إلى غرض العبد وهو محال ؛ لأنه لاغرض له فى الحال ، بل يتعب به وينصرف عن الشهوات بسببه وليس فى المآل[2] إلا الثواب . ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليها مع أن الطاعة والمعصية فى حقه سيان ؛ إذ ليس له إلى أحدهما ميل ، ولا لأحدهما به اختصاص ، وإنما عرف تميز ذلك بالشرع : ولقد زلّ من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفرق المخلوق بين الشكر والكفران لما له [من] التلذذ بأحدهما دون الآخر

فإن قيل :فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع ، والشرع لايستقر إلا بنظر المكلّف فيه ، فإذا قال المكلف للنبى : إنّ العقل ليس يوجب علىّ النظر ، والشرع لا يثبت إلا بالنظر ، ولست أقدم على النظر إذاً ، فيؤدى ذلك إلى إلحام الرسول [صلى الله عليه وسلم] . قلنا : هذا يضاهى قول القائل للواقف فى موضع من المواضع : إن وراءك سبعاً ضاريا ، فإن لم تنزعج عن المكان قتلك ، وإن التفتّ وراءك ونظرت عرفت صدق ، فيقول الواقف : لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائى ، ولا ألتفت ورائى : ولا أنظر ما لم يثبت صدقك ، فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتعرضه للهلاك ، ولاضرر فيه على الهادى المرشد. فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم يقول : وراءكم الموت ، ودونه السباع الضارية والنيران المحرقة ،إن لم تاخذوا منها حذركم وتعرفوا لى صدق بالإلتفات إلى معجزتى ، فمن التفت عرف واحترز ونجا ، ومن لم يلتفت وأصرّ هلك وتردى ، ولاضرر علىّ إن هلك الناس

---

(١) زيادة من إحياء علوم الدين ج ١ : ١١٣

(٢) المآل : المصير والمرجع .

كلهم أجمعون ، وإنما على البلاغ المبين... والشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت، والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله فى المستقبل ، والطبع يستحث على الحذر من الضرر ، ومعنى كون الشىء واجباً : أن فى تركه ضرراً . ومعنى كون الشرع موجباً أنه معرِّف بالضرر المتوقع فإن العقل لا يهدى إلى التعرض للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات ، فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما فى تقرير الواجب ، ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتا ، إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر فى الآخرة . والله أعلم .

الأصل التاسع : أنه ليس يستحيل بعثه ـ تعالى ـ للأنبياء عليهم السلام ـ خلافا للبراهمة ـ حيث قالوا : لا فائدة فى بعثهم ؛ إذ لا يخلو ما جاءوا به أن يكون موافقا للعقل أو مخالفا له ، فمحال أن يخالف الشرع العقل . وإن كان موافقا لما فى العقل ففى العقل كفاية عنهم . فالحجة عليهم أن العقل يهدى إلى الأفعال المنجية فى الآخرة كما يهدى إلى الأدوية المفيدة للصحة فى الدنيا . فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء ، فكما يُعرَف صدق الطبيب بالتجربة كذلك يُعرف صدق الرسول بالمعجزة . والله أعلم .

الأصل العاشر : إن الله سبحانه قد أرسل محمد ابن عبد الله صلى الله عليه خاتما للنبيين ، وناسخا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين ، وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة ، كانشقاق القمر وتسبيح الحصا وإنطاق العجماء وما تفجر من بين أصابعه من الماء[1] . ومن آياته الظاهرة التى تحدى بها مع كافة العرب القرآن ؛ فإنهم ـ مع تمييزهم بالفصاحة والبلاغة ـ تعرضوا لسبه ونهيه وقتله ولم يقدروا على معارضته

(١) حديث « انشقاق القمر » : متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس . وحديث « تسبيح الحصى » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة من حديث أبى ذر ، وقال صالح بن أبى الأخضر ليس بالحافظ ، والمحفوظ رواية رجل من بنى سليم لم يسم عن أبى ذر . وحديث « إنطاق العجماء » اخرجه أحمد والبيهقى بإسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة فى البعير الذى شكا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أهله . وقد ورد فى كلام الضب والذئب والحمرة أحاديث رواها البيهقى فى الدلائل .

بمثله ؛ إذ لم يكن فى قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه ، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه ـ عليه السلام ـ أميا غير ممارس للكتب ، والإنباء عن الغيب فى أمور تحقق صدقة [فيها] فى الإستقبال كقوله : **«لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله امنين محلقين رؤوسكم ومقصرين »**(١) وكقوله تعالى : **« الم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين »**(٢) ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسول أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلا لله تعالى ، فمهما كان مقرونا بتحدى الرسول عليه السلام نزل بمنزلة قول الله تعالى : صدق رسولى . وذلك مثل القائم بين يدى الملك المدعى على رعيته إلى رسول الملك ؛ فإنه مهما قال للملك : إن كنت صادقا فقم على سريرك ثلاثا واقعد على خلاف عادتك ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضرورى بان ذلك نازل منزلة قوله : صدقت . وبالله التوفيق .

---

(١) سورة الفتح : ٢٧

(٢) سورة الروم : ١ — ٤

الباب الرابع

فى تصديق الرسول عليه السلام فيما ورد على لسانه من عند ربه تعالى

اعلم أن هذا الباب يحتوى على مقدمة وعشرين مسألة تجرى مجرى الأصول والأمهات فى الاعتقاد الوارد على لسان الرسول فى السمعيّات .

أما المقدمة : فهو أن تعلم أن جملة التوحيد واجبة على كل عاقل مكلف ؛ وهى ثلاث جمل لا يستغنى بعضها عن بعض ؛ وهى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن ما جاء به حق من عند الله . فهذه الثلاث جمل لا يسع جهلها كل عاقل مكلف عند بلوغه ، ولا يخرج من الشرك ما لم يأت بها نطقاً باللسان واعتقاداً بالجنان لقول الله تعالى « **آمنوا بالله ورسوله والنور الذى انزلنا** »(١) ، ولقوله عليه السلام : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : شهادة أن لا إله إلا الله . وأنى رسول الله ، وأنه بعثنى بالحق ، والبعث بعد الموت ، والقدر » .

فإذا أتى العبد بهذه الجملة فقد تم إيمانه فيما بينه وبين الناس . واختلفوا فيما بينه وبين الله ، فقال بعض العلماء : قد تم إيمانه فيما بينه وبين الله وفيما بينه وبين الناس . روى هذا عن الإمام عبد الرحمن بن رستم وعمروس بن فتح وغيرهما . هـــذا هو

---

(١) سورة التغابن : ٨

الأشهر من[1] دعوة الرسول عليه السلام أجلاف العرب ، والأوفق لما عليه أوائل الأمة قبل وقوع الإفتراق ؛ فلما وقعت الفرقة وتوزعت الأمة شرعت أئمة المذاهب عقائد لأتباعها فيها زيادة تحتوى على بعض اعتقاداتها . فرأى مشايخ المسلمين ـ حين تمسكوا بآثار السلف الصالحين واعتصموا بحبل الله المتين ، ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين ـ أن النطق بما تعبدوا به من قول «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وما جاء به حق» ليس له طائل ومحصول إن لم يتحقق بتصديق القلب بما تضمنته الجملة من الوظائف والأصول ، فجمعوا فى ذلك بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول ، وعرفوا أن كلمتى الشهادة على إيجازهما تتضمنان إثبات ذات الإله سبحانه وإثبات صفاته ، وإثبات أفعاله ، وإثبات صدق الرسول بما جاء به ، فقالوا لا يتم إيمان المكلف حتى يأتى بعشر كلمات . وأنا ـ إن شاء الله ـ أضيف إليها بعض ما ورد به الشرع من السمعيات ، فلنرسم ها هنا عشرين مسألة تجرى مجرى الأمهات فى أصول الإعتقادات .

أحدها : العلم بأن ورود الموت حق على كل مخلوق من سكان الأرض والسماوات وما بينهما من جميع الحيوانات ، وأن كل نفس ذائقة الموت وسالكة سبيل الفوت وفى الخبر أن ملك الموت وملك الحياة تناظرا فقال ملك الموت : أنا أميت الأحياء . وقال ملك الحياة : أنا أحيى الأموات . فأوحى الله إليهما : كونا على عملكما وما سخرتما له من الصنع وأنا المميت والمحيي ، لا مميت ولا محيي سواى » .

واختلفوا فى كيفة قبض الروح ؛ فقال بعض العلماء : إن ملك الموت الروح بمنزلة حجر المغنطيس فى جذبه للحديد ، وإنه إذا ظهر الملك للروح طار إليه . وقال قوم

---

(١) قال المؤلف رحمه الله فى كتاب « قواعد الإسلام » بعد أن أورد هذا القول : « وهذا القول مروى عن عمروس بن فتح وابن زرقون ، والإمام عبد الرحمن بن رستم وأبى خزر يفلا بن زلتاف وأبى معاوية عزان بن الصقر ، ومن شايعهم رحمهم الله . وهو الأرفق بعوام الأمة ، والأليق برأفة الرب الكريم ذى الرحمة ، والأشهر من دعوة بنى الأمة » .

الله تعالى يخرج الروح فيتلقاها الملك . والصحيح أن الله ـ سبحانه ـ هو الذى يحيى ويميت وهو أعلم بكيفية ذلك .

والثانية : العلم بأن قيام الساعة حق ، وأنها آتية لا ريب فيها ، وهى مما استأثر الله بعلمه لم يطلع عليها أحد من خلقه كما قال تعالى : « **ان الله عنده علم الساعة** »(١) وقال تعالى : « **يسالونك عن الساعة ايان مرساها ، قل انما علمها عند ربى** » .(٢) الآية يعنى الساعة التى تقوم فيها القيامة . وفى الحديث : « بين النفختين أربعون سنة أو ما شاء الله ، فالأولى يميت الله تعالى فيها كل حى والثانية يحيى الله تعالى فيها كل ميت »(٣) .

والثالثة : اعتقاد كون البعث بعد الموت يوم الحشر والنشر ، وقد ورد بها الشرع وهو حق ، والتصديق به واجب ، لأنه فى العقل ممكن : ومعناه الإعادة بعد الإفناء . قال الله سبحانه: « **كما بدانا اول خلق نعيده** »(٤) وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء قال تعالى : « **من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى انشأها اول مرة** »(٥) فدلنا بالابتداء على الإعادة . وقال تعالى « **ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة** »(٦) والإعادة ابتداء ثان وهو ممكن كالأول ، فيحشر أجساد المكلفين مع أرواحها ـ خلافا

---

(١) لقمان : ٣٤

(٢) الأعراف : ١٨٧ .

(٣) ومن حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بين النفختين أربعون » قال : أربعون يوماً ؟ قال : أبيت . قال : أربعون شهراً ؟ قال : أربعون سنة ؟ قال : أبيت . قال : « ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شىء الا يبلى ، الا عظما واحدا ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة »
(أخرجه البخارى فى : ٦٥ كتاب التفسير — ٧٨ — سورة عم يتساءلون) .

(٤) سورة الأنبياء : ١٠٤

(٥) يس : ٧٨ — ٧٩

(٦) سورة لقمان : ٢٨

للملحدين من اليهود والنصارى والفلاسفة ، الزاعمين أن الأرواح تحشر دون أجسادها — وبالله التوفيق .

والرابعة : سؤال الملكين ، وهما : منكر ونكير . وقد وردت بهما الأخبار ؛(١) وذلك ممكن فى العقل ؛ إذ ليس يستدعى إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذى به يفهم الخطاب . ولا يدفع ذلك بما يشاهد من سكون أجزاء الميت ، وعدم سماعنا للسؤال ؛ فإن النائم ساكن بظاهره ويدرك فى باطنه الآلام واللذات ما يحس تأثيره عند انتباهه من النوم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومَنْ حوله لا يسمعونه ولا يرونه ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاءه الله تعالى ، فإذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه . والله أعلم .

والخامسة : عذاب القبر . وقد ورد الشرع به : قال الله تعالى : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عليها غدواً وعشيا ويومَ تقومُ الساعةُ أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذابِ »(٢) وقد اشتهر

(١) ورد فى صحيح الربيع بن حبيب ج ٤ ص ١٨ حديث (٩٨٢) عن جابر بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه عليه السلام قال : إذا وضع الميت فى قبره وسوى عليه فإنه يسمع نعال القوم حين ينصرفون عنه لأنه حمل من بيته وروحه مع الملائكة ، فإذا وضع فى قبره يأتيه ملكان أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيقصدونه فيقولان له : يا هذا ، من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فإذا كان مؤمناً قال : الله ربى والإسلام دينى ومحمد نبيى فيقال له : على هذا أحييت وعليه أمت وعليه تبعث أنظر عن يسارك ، فيفتح له باب فى قبره إلى النار فيقال له : هذا منزلك لو عصيت الله فأما إذا أطعته فأنظر عن يمينك فيفتح له باب فى قبره إلى الجنة فيدخل عليه برد منزله ولذته فيريد أن ينهض فيقال له : لم يأت أوان ذلك ثم سعيداً ، ثم نومة العروس فما شىء أحب إليه من قيام الساعة حتى يصير إلى أهل ومال وإلى جنة النعيم ، وأما إذا كان كافراً فيقعدانه فيقولان من ربك فيقول : ما أدرى فيقولان : ما تقول فى هذا الرجل — يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم — فيقول كنت أقول فيه كما يقول الناس . فيقولان : لا دريت ولا تليت على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث أنظر عن يمينك فيفتح له باب من الجنة فيقال له : هذا منزلك لو أطعت الله فأما اذا عصيته فأنظر عن شمالك ؟ فيفتح له باب من قبره الى جهنم فيدخل عليه غم منزله وأذاه ومامن شىء أبغض اليه من قيام الساعة فيصير الى العذاب » .

وحديث « سؤال منكر ونكير » أخرجه الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أبى هريرة « إذا قبر الميت — أو قال أحدكم — أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير » وفى الصحيحين من حديث أنس : « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه ... الحديث » .

(٢) سورة غافر : ٤٦

من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن السلف الصالحين الإستعاذة بالله من عذاب القبر[1]، فالتصديق به ممكن ولا يمنع منه تفرق أجزاء الميت فى بطون السباع وحواصل الطير فإن المدرك لألم العذاب أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها. والله أعلم.

والسادسة : الميزان. قال سبحانه « **فمن ثقلت موازينه** » ، « **ومن خفت موازينه** »[2] فقال أصحابنا ومن وافقهم : ميزان الأعمال تمييزها وتفصيلها ووزن النيات المعتقدة لها دليله ، والوزن يومئذ الحق ، فيثقل الحق يوم القيامة لصاحبه فينجو به كما ثقل على نفسه فى الدنيا فتحمله . فيخف الباطل عند الوزن لصاحبه فيهلك به كما خف على نفسه فى الدنيا فارتكبه ، ولأن الأعمال أعراض لا تظهر للعيان فتوزن بالميزان ، وإنما وزنها تمييزها وتفصيلها والمجازاة بها . هذا هو المعروف فى لغة العرب ، يقول الرجل لصاحبه . زن كلامك وأمورك كما قال القائل :

وَزِنِ الكَلَامَ إذا نَطَقْتَ وإنَّما يُبْدى عُيوبَ ذَوِى العُقولِ المَنْطِقُ

وقال أبو بلال رحمه الله :

إنِّى وزنْتُ الَّذى يَبْقى بعاجِلَةٍ تَفْنَى وَشِيكًا فلا واللهِ ما اتَّزَنَا

فى أمثال هذا كثير . هذا قول أصحابنا ، وقال مخالفهم : إنه ميزان على الحقيقة ذو كفتين ولسان عِظَمُهُ مثل طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال ، تطرح فيه صحائف الحسنات — فى صورة حسنة — فى كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر

---

(١) جاء فى صحيح الربيع بن حبيب ج ٢ : ص ٢٥ : أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن : « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » .

(٢) سورة الأعراف : ٨ ، ٩

درجاتها عند الله تحقيقاً لتمام العدل ، وتطرح صحائف السيئات فى كفة الظلمة فيخف بها الميزان ، واستدلوا بالآية المتقدمة وأخواتها فقالوا : إن الله تعالى يحدث فى صحائف الأعمال وزناً بحسب درجاتها عند الله ، فتصير مقادير الأعمال معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل فى العقاب ، والفضل فى العفو وتضعيف الأعمال والله أعلم .

والسابعة : الصراط : وقد ورد به القرآن ، فقال أصحابنا : الصراط هو طريق الإسلام ، ودليله : « **انك لتهدى الى صراط مستقيم** »[1] وقوله : « **اهدنا الصراط المستقيم** »[2] فى أمثالها ، واستدلوا بقول الشاعر وقيل هو جرير :

أمـيرُ المـؤمنين على صراط ... إذا اعـوجَّ الموارِدُ مستقيم

وقال آخر :

أكر عـلى الحرُورِيِّين مهرى ... لأحملهم على وَضَحِ الصراط

هـذا رجل يقاتل أبا بلال رحمه الله ، فأخذ فأوتى به أبو بلال مرداس ، فاعتذر أنه لم يخرج لقتاله فأطلقه ، ثم عاد فأوتى به فقتله . وقد كان اعتذر فقال أبو بلال مرداس: المؤمن لا يلدَغُ من جُحر أفعى مرتين .

فقال مخالفونا : الصراط هو جسر ممدود على متن جهنم أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، تزل عليه أقدام الكافرين فيهوى بهم إلى النار ، وتثبت عليه أقدام المسلمين فيعبرون عليه على تفاوت درجاتهم ، منهم من يمر كالريح وكالبرق وكالفرس الجواد وكالمسرع وغير ذلك . والذى عندى — والله أعلم — أن الصراط المذكور فى القرآن على وجهين : أحدهما طريق الإسلام كما قدمنا . والثانى : أنه الجسر الموضوع على متن

---

(١) الشورى : ٥٢

(١) الفاتحة : ٦

(٣) البيت فى الكامل للمبرد ص ٩٩٧ بتحقيق أحمد شاكر .

جهنم ، المرتب عليه القناطر السبع التى هى مراصد ومجالس للعباد حتى يُسألوا عن السبع السؤالات المشهورة . هـذا مشهور فى كتب أصحابنا ، ويدل على هـذا قول الله تعالى : « **فاهدوهم الى صراط الجحيم ، وقفوهم انهم مسئولون** »[1] إذ يستحيل حمل الصراط المذكور ها هنا على طريق الإسلام والله أعلم فهذا ممكن فى العقل لأنه ليس فيه ما يحيله ولا فى الشرع ما يبطله ، فإن القادر على أن يطير الطير فى الهـواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط والله أعلم بكيفيته .

والثامنة : الحساب ؛ والإيمان به واجب ، قال الله سبحانه « **وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين** »[2] وحساب الله تعالى ـ يؤمئذ ـ فصل وتمييز لا يشغله حساب أحد عن أحد . كما لا يشغله رزق أحد عن أحد . وقيل لعلى : كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرة عددهم . ويتفاوت الخلق فى الحساب من مناقش[3] فيه إلى مسامح ، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب وهم المقربون . فيسأل الله تعالى من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ، ويسأل أهل البدع عما أحدثوا من بدعهم وعما تركوا من سُنَّة نبيهم عليه السلام ، ويسأل المسلمين عن الأعمال كما قال تعالى : « **فوربك لنسالنهم اجمعين . . عما كانوا يعملون** »[4] وقال تعالى : « **والله سريع الحساب** » عن الحسن : قال : أسرع من لمح البصر . وفى الخبر : « إن الله تعالى يحاسب فى قدر حلب شاة »

---

(١) الصافات : ٢٣ — ٢٤

(٢) سورة الأنبياء : ٤٧

(٣) المناقش : هو الذى ناقشه الله الحساب : أى استقصى حسابه ، وفى الحديث : « ولكن من نوقش الحساب يهلك » .

(٤) سورة الحجر : ٩٢ — ٩٣

ومعنى الحساب : تعريف الله تعالى عباده مقادير الجزاء على أعمالهم ، وتذكيره إياهم ماقد نسوه . كما قال : « **يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد** »(١)

والتاسع : الشفاعة : وهى حق ؛ فمن كذب بها فقد كذب القرآن ؛ وهى المقام المحمود . قال الله لنبيه عليه السلام : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً »(٢) يحمده فيه الأولون والآخرون ، يحمده الأولون بما فتح لهم من الشفاعة وكانت مخزونة لا يصل إليها أحد حتى يفتحها النبى عليه السلام(٣) . ويحمده الآخرون حيث نجاهم فى هول المقام

والشفاعة إنما هى للمسلمين الذين ماتوا على الطاعة ، لأن الله سبحانه يقول :

---

(١) سورة المجادلة : ٦

(٢) سورة الإسراء : ٧٩

(٣) جاء فى صحيح الربيع بن حبيب فى الجزء الرابع : فى مقاطيع جابر بن زيد : « إن أهل الإيمان يحبسون فى الموقف بعد ما بشروا عند الموت ، وبعد ما أجابوا عند المحنة فى القبور أن الله ربهم قد غفر لهم وأخذهم كتبهم بأيمانهم وأبيضت وجوههم وثقلت موازينهم ، وأراد الله أن يدخلهم الجنة بالشفاعة ، والشفاعة مخزونة لا يصل إليها نبى ولا ملك حتى يفتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : والأنبياء ، ومن أتبعهم محبوسون الأولون والآخرون ، قال : فبينما هم كذلك فيقولون : « لو أستشفعنا إلى ربنا فيريحنا من هذا المقام » فيقول بعضهم لبعض « عليكم بآدم » فيأتونه فيقولون « أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته فلو أستشفعت لنا إلى ربك فيريحنا من هذا المقام » فيقول « إنى أكلت من الشجرة التى نهانى الله عنها ولكنى أستحى من لقاء ربى ولكن عليكم بنوح فإنه أول نبى أرسله الله » فيأتون نوحاً فيقولون لو أستشفعت لنا إلى ربك فيقول : إنى سألت ربى ما ليس لى به علم وأنا أستحى من لقاء ربى ولكن عليكم بإبراهيم خليل الرحمن فيأتونه فيقولون له : لو استشفعت لنا إلى ربك فيقول : إنى أستحى من لقاء ربى ولكن عليكم بموسى كليم الله . فيأتونه ، فيقولون له : لو استشفعت لنا إلى ربك فيقول : إنى قتلت نفساً فأنا أستحى من لقاء ربى ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته فيقولون له : لو استشفعت لنا إلى ربك فيقول : « إنى عبدت من دون الله فأنا أستحى من لقاء ربى ، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم عبد قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر » قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فيأتونى فأمشى بين سماطين من المؤمنين فأقرع باب الجنة فإذا فتح لى تم يقال لى يا محمد أشفع تشفعك فيقول : يا رب ما بقى إلا من حبسه القرآن » يعنى أوجب عليه الخلود فى النار .

« **لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** »(١) يعنى بالعمل الصالح. فى أمثالها وقال تعالى مخبراً عن أهل النار: « **فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم** »(٢) فى أمثالها . وكان جابر بن زيد رحمه الله يحلف ما لأهل الكبائر من شفاعة . وكان يقول : والله ما شفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين إلا للتائبين . وكان يقول : ما نالت دعوة مؤمن منافقاً قط . والشفاعة ليست(٣) لمن استوجب العقاب فيصير بها إلى الثواب ، ولكن الشفاعة للمؤمنين زيادة لهم فى الثواب ، وتشريف فى المنازل . وبالله التوفيق .

العاشرة : الحوض المورود ؛ حوض محمد صلى الله عليه وسلم ، قد استفاض الحديث به كقوله عليه السلام : « وليذادن رجال من أمتى على حوضى [كما يذاد البعير الضال فاناديهم ألا هلموا ، فيقال ، إنهم قد بدّلوا بعدك ولم يزالوا يرجعون على أعقابهم فاقول : ألا سحقاً سحقاً] »(٤) فى أمثالها(٥) .

---

(١) مريم : ٨٧

(٢) الشعراء : ١٠٠ — ١٠١

(٣) وفى صحيح الربيع بن حبيب ج ٤ : ٢٢ جابر بن زيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ليست الشفاعة لأهل الكبائر من أمتى » يحلف جابر عند ذلك ما لأهل الكبائر شفاعة لأن الله قد أوعد أهل الكبائر النار فى كتابه ولن جاء الحديث عن أنس بن مالك أن الشفاعة لأهل الكبائر فوالله ما عنى القتل والزنى والسحر وما أوعد الله عليه النار . وذكر أن أنس بن مالك يقول : إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر ما كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من الكبائر .

(٤) تكملة الحديث من سنن ابن ماجة وهو بلفظه .

(٥) وردت أحاديث كثيرة فى الحوض ؛ منها حديث جندب قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا فرطكم على الحوض » أخرجه البخارى فى ٨١ — كتاب الرقاق : ٥٣ باب فى الحوض وقول الله : « إنا اعطيناك الكوثر » . ومنها : حديث عبد الله بن عمرو قال النبى صلى الله عليه وسلم : « حوضى مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها فلا يظمأ أبداً » البخارى فى : ٨١ كتاب الرقاق : ٥٣ باب فى الحوض وقول الله تعالى : إنا اعطيناك الكوثر .

ومنها أيضاً حديث حديث سعيد بن سهل بن سعد قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : إنى فرطكم على الحوض ، من مر على شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً . ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونى ، ثم يحال بينى وبينهم » أخرجه البخارى .

وقد فسر ذلك فى قوله عز وجل : « إنا أعطيناك الكوثر » فى بعض الأقوال أن الكوثر نهر فى الجنة يصب منه ميزابان فى حوض النبى عليه السلام يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط ، من شرب منه شربة فلا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة ، عرضه مسيرة شهر ، أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، حوله أباريق عدد نجوم السماء . والله أعلم

الحادية عشر : الجنة والنار : وهما مما يجب اعتقاد كونهما على كل مكلف . واختلفوا هل هما مخلوقتان أم لا ؛ فقالت طائفة : هما مخلوقتان ، واستدلوا بقوله تعالى فى الجنة : « **اعدت للمتقين** » (١) وفى النار « **اعدت للكافرين** »(٢) قالوا : والمعد لا يكون إلا حاضرا مع ما ورد فى ذلك من الأحاديث . وقالوا : يجب إجراء جميع ذلك على الظاهر إذ لا استحالة فيه .

وقال آخرون : ليستا مخلوقتين ، إذ لا فائدة فى خلقهما قبل يوم الجزاء . والقول الأول عندى أقرب إلى الصواب . وقد قال تعالى حكاية عن نبيه عليه السلام « **ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى** » (٣) يعنى محمداً رآى جبريل عليه السلام . وقد وجدت فى بعض آثار أصحابنا من أهل المشرق أنه روى عن الحسن أو غيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الجنة مخلوقة وهى فى السماء . والنار مخلوقة وهى فى الأرض » والله أعلم . وجواب بعض أصحابنا فى ذلك : إن كانتا كانتا ، وإن

= وقال النووى فى شرح مسلم : « قال القاضى عياض رحمه الله : أحاديث الحوض صحيحة ، والإيمان به فرض ، والتصديق به من الإيمان . وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة ، لا يتأول ولا يختلف فيه وحديثه متواتر النقل ، رواه خلائق من الصحابة .

(١) سورة آل عمران : ١٣٣

(٢) سورة آل عمران : ١٣١

(٣) النجم : ١٣ — ١٥

لم تكونا فستكونان . والجنة حق مع ما فيها من المأكول والمشروب والمنكوح والملبوس وسائر الملاذ المحسوسة وغير ذلك من المساكن الطيبة ، وكذلك النار حق مع ما فيها من أصناف العذاب من الزقوم (١) والحميم (٢) وسرابيل القطران والأنكال والأغلال والغساق (٣) وغير ذلك ، فالنار جسم محسوس محرق ينضج الجلود ويذيب الشحوم . هذا كله خلافا لليهود والنصارى والفلاسفة وسائر الملحدين ـ الذين أنكروا حشر الأجساد وردوا كل ما ورد فى الآيات والأخبار من تحريق النار أهلها ، ردوا ذلك إلى آلام عقلية روحانية . فقالوا : إن الأرواح هى التى تتألم ، وكذلك ما ورد من نعيم الجنة ، ردوا ذلك إلى لذات عقلية بأن الأرواح هى التى تستلذ وتتنعم ، هذا كله فيما حكى عنهم فى كتب التفسير وغيرها والله أعلم فالواجب على المكلف أن يعتقد أن الله سبحانه ثواباً لا يشبهه ثواب ، وعقاباً لا يشبهه عقاب وهما الجنة والنار ، وهما دائمان مع سكانهما من الأبرار والفجار ، لايموتون ولا هم منها يخرجون وبالله التوفيق .

الثانية عشر : جملة الملائكة ، وهى مما يجب على المكلف اعتقاده ومعرفته ، وذلك أن يعلم أن لله ـ سبحانه ـ جملة الملائكة ، وهى غير جملة الإنس والجن ، قال الله سبحانه : « **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** » (٤) فى أمثالها ، منهم حفظة يكتبون أعمال العباد ، ومنهم رسل الله إلى أنبيائه كما قال تعالى « **الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس الآية** »(٥) ، ومنهم ملائكة غلاظ شداد خزنة للنيران ، ومنهم خزنة للجنان ، وهم كلهم مخلوقون للقرب والسعادة ، يسبحون الليل والنهار ولا يفترون « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون

---

(١) الزقوم : طعام أهل النار ، وشجرة بجهنم .
(٢) الحميم : الماء الحار .
(٣) الغساق : هو ما يسيل من جلود أهل النار ، وشجر فى النار .
(٤) سورة البقرة : ٢٨٥
(٥) الحج : ٧٥

مايؤمرون » كما قال تعالى: «**جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة**»(١)، لا يوصفون بالشهوة ولا بالتعب، ولا بالذكورية ولا بالانوثية، ولا بالجنون ولا بالطفولية، ولا باللحم ولا بالدم ولا بالبول ولا بالغائط، وهم عقلاء وثوابهم واصلة إليهم لا محاله صلوات الله عليهم أجمعين.

الثالثة عشر: جملة الأنبياء والرسل: وهما جملتان يجب على المكلف الإيمان بهما ومعرفة كل واحدة منهما عل حدة لقوله تعالى: « **قولوا آمنا بالله وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون** »(٢)

فالأنبياء أعم من الرسل، لأن من الأنبياء أبياء مرسلين أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليهم أجمعين، ومنهم أنبياء غير مرسلين، فالرسول هو الذى نُبِّىء بالوحى وأرسل إلى غيره. والنبىء من نبىء بالوحى ولم يرسل إلى غيره وبالله التوفيق.

الرابعة عشر: جملة الكتب المنزلة: وذلك مما يجب على المكلف الإيمان به، وذلك أن يعلم أن لله تعالى جملة الكتب أنزلها على رسله بواسطة الملائكة الكرام البررة الذين هم سفرة بين الله تعالى وبين خلقه. ويقصد إلى القرآن فيؤمن به خصوصا، ويؤمن بغيره من الكتب عموماً.

قال الله تعالى: «**آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى انزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل ضلالا بعيدا**»(٣)

والقرآن وغيره من الكتب هو كلام الله ووحيه وتنزيله وفرقانه أنزل به الروح الأمين على قلب محمد ليكون به من المنذرين بلسان عربى مبين. وبالله التوفيق.

---

(١) فاطر: ١

(٢) البقرة: ١٣٦

(٣) سورة النساء: ١٣٦

الخامسة عشر : الإيمان بالقضاء والقدر ، وذلك واجب على كل مكلف أن يعلم أن ما كان من خير وشر ، ونفع وضر ، وإيمان وكفر ، ورشاد وخسر ، وعرفان ونكر ، وشقاوة وسعادة وغير ذلك قد سبق به قضاء الله ـ سبحانه ـ وقدره فى أزليته قبل وجود عينه ، فظهر جميع ذلك بحكمة الله سبحانه على وفق تقديره ، كل شىء من ذلك فى وقته من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تأخير لشىء منه عند وقته ولا تقديم ، ولا تبديل فى المقدور ولا تحويل فى المحتوم ، فكل ما ظهر وجوده بعد عدمه من أصناف الخلائق فى ملك الله تعالى ، فقد سبق به قضاؤه وقدره ؛ فالأرزاق مقسومة ، والآثار محتومة ، والأنفاس معدودة والآجال محدودة . لا يستأخر شىء عن أجله ولا يسبقه ، ولا يموت أحد دون أن يستكمل رزقه ولا يتعدى ما قدر له ، كل ميسر لما خلق له ، من خُلق للنعيم يُسِّر لليسرى ، ومن خلق للجحيم يسر للعسرى ؛ كل ذلك بقضائه وقدره لا يخرج شىء عن تقديره ، ولا تتحرك ذرة فما فوقها فى ظلمات الأرض إلا بقضاء وقدر .

فعلى المكلف أن يؤمن بهذا ويتيقن به ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه كما صح فى النقل عنه عليه السلام أنه قال لعُبادة بن الصامت : « إنك لن تجد ولن تؤمن وتبلغ حقيقة الإيمان حتى تؤمن بالقدر خيره وشره أنه من الله » فقال : يارسول الله ، كيف لى أن أعلم خير القدر وشره ؟ قال : « أن تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك فإن مت على غير ذلك دخلت النار »[1] وبالله التوفيق .

السادسة عشر : فى معنى التوحيد والشرك ، وذلك مما يجب على العبد معرفته أيضاً ، لأنهم قالوا : لا يعرف الأشياء من لا يعرف حقائقها .

أما التوحيد ، فمعناه : إفراد الرب ـ سبحانه ـ عن الخلق وجميع معانيهم ، وترك التسوية بينه وبين العباد فى جميع أفعالهم وصفاتهم ، فحقيقة المعرفة به ـ سبحانه ـ أن تعلم الأشياء لا تشبهه ولا يشبهها من جميع الجهات فى اسم ولا صفة ولا ذات ولا فعل ؛ لأنه

(١) أخرجه الربيع بن حبيب فى مسنده جـ ١ : باب ١٢ فى القدر والحذر والتطير الحديث (٧٢) .

لو أشبه شيئاً من الأشياء ولو فى أقل قليل لدخل عليه العجز من تلك الصفة ، فلهذا وجب على المكلف أن يعرف حقيقة الوحدانية لله تعالى ويصفه بما يليق به من الصفات ، وينفى عنه شبة الأشياء من جميع الجهات .

أما الشرك ، فمعناه : التساوى بين الأشياء فى الذوات أو الصفات ، ومعناه فى الله تعالى التسوية بينه وبين خلقه فى الذوات أو الصفات أو الأفعال . قال الله سبحانه : « **اذ نسويكم برب العالمين** »[1] الآية : أى فى العبادة والتعظيم وإثبات الألوهية . والشرك إذن على وجهين : جحود ومساواة ، ويتصرف على وجوه تركت ذكرها مخافة التطويل ؛ لأن أكثر هذا الباب موجود فى كتابنا المسمى «قواعد الإسلام» وفى غيره . وبالله التوفيق .

السابعة عشر : فرز ما بين كبائر الشرك وكبائر النفاق : وقد شدد أصحابنا فيمن لم يفرز بينهما أن يبلغه ذلك إلى الشرك . والفرز بينهما : الكاذب على الله منافق ، والمكذب لله مشرك ، فالكاذب على الله مثل أهل الخلاف الذين كذبوا على الله فتأولوا كتابه على غير تأويله فى جميع ما كفّرهم به المسلمون ؛ مثل ادعائهم الرؤية لله سبحانه فى الآخرة بتأويل الخطأ ، كنفيهم خلق القرآن ، ونفيهم تخليد أهل الكبائر من هذه الأمة فى النار بتأويل الخطا ، وغير ذلك مما يطول به الكتاب .

وأما المكذب لله تعالى فهو مثل أهل الإلحاد الذين أنكروا الله سبحانه ، وكذلك كل من أنكر وجها من وجوه التوحيد الذى لا يسع جهله ، أو حرفاً من القرآن ، أو فرضا منصوصا فيه ، أو حلل حراما منصوصا تحريمه فى القرآن ، أو حرم حلالا منصوصا فيه ـ مما يطول شرح تلك المعانى ـ فهو مشرك .

الثامنة عشر : ومما يجب على المكلف ؛ أن يعلم أن الله أمر بطاعته وأوجب عليها

---

(١) سورة الشعراء : ٩٨

ثواباً، ونهى عن معصيته وأوجب عليها عقاباً . ويعلم الإسلام والمسلمين والكفر والكافرين؛ ويعلم تحريم دماء المسلمين وأموالهم وسبى ذراريهم بالتوحيد الذى معهم ، ويعلم أن الله — تعالى — ممتن على العباد بتكليفه إياهم طاعته ، وممتن عليهم بسائر نعمه عليهم ، ويعلم أن المخلوقات دلائل على الله سبحانه ، ويخاف من عقاب الله تعالى ، ويطمع فى ثوابه . وبالله التوفيق .

التاسعة عشرة : الولاية والبراءة فى الجملة ، وهما سواء لاعذر لمن جهلهما ، وهما واجبتان على كل مكلف عند حال بلوغه ؛ وذلك أن يتولى الله سبحانه وأولياءه المسلمين من الثقلين أجمعين من الأولين والآخرين إلى يوم الدين . ويتبرأ من جميع أعداء الله من الأولين والآخرين إلى يوم الدين ، فهذا واجب على كل مكلف فى جملة اعتقاده للدين حتى يقع عليه الغرض فى شخص معين إذا صح له فيه ما يوجب ولايته أو براءته ؛ لأن الحكم النقلى يشهد أن الأمور ثلاثة : أمر بانَ رشده فاتبعوه ، وأمر بانَ غيه فاجتنبوه ، وأمر أشكل عليكم فكلوه إلى الله تعالى . وبالله التوفيق .

العشرون : فى معرفة الملل وأحكامها ؛ وذلك واجب على كل مكلف فى أول حال بلوغه . وشدد أصحابنا فيمن جهل ذلك أن يبلغه إلى الشرك . وشرح هذه الملل وأحكامها موجود فى كتابنا المسمى بـ « قواعد الإسلام » وفى غيره من كتب أصحابنا ، فمن أراد معرفتها فليطلبها هناك ؛ فإنه لا معنى لإعادة شرحها ها هنا ، وبالله التوفيق .

فصل

اعلم أن التوحيد لا يبقى فى الشرع مطلقاً ولكن لابد له أن يتقيد بسبع تقييدات :

منها : أن يكون صادراً من المكلف عن علم محقق لا عن جهل .

ومنها : أن يكون عن يقين لا عن شك .

ومنها : أن يكون عن إخلاص لا عن شرك .

ومنها : أن يكون مقرونا معه العمل وإلا بطل واختل .

ومنها : أن يصدر عن القلب واللسان جميعا .

ومنها : أن يتكلم به ابتغاء وجه الله تعالى من غير طمع فى الدنيا ولا خوف من أهلها

ومنها : أن يستصحب حالة ويثبت عليه حتى يموت لا مبدلا ولا مغيرا وبالله التوفيق، وكل هذه التقييدات ورد بها الحديث تركتها مخافة التطويل والله أعلم .

(مسألة)

من كتاب الضياء : وقيل : جعل دين الله تعالى فى هذه الأشياء الخمسة :

أولها : المعرفة بالله تعالى ، والتوحيد له ، مع أداء فرائض الله فى أوقاتها بكمالها ، واجتناب الكبائر ، وولاية أهل الطاعة من المكلفين جميعاً وفرادى بالقلب من لدن آدم إلى أن يفنى الخلق جميعاً . هذه الجملة دين المسلمين فى الأولين والآخرين ، وهذه الخصال الخمس فرض على الخلق من ترك خصلة منها فقد كفر

قال : وينبغى للعبد أن يتوب ويرجع إلى ما خرج منه إن كان وقع شك منه فى التوحيد ، أو رياء فى فريضة ، أو تهاون بركوب كبيرة ، ويقول : « آمنت أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن ما جاء به حق من عند الله ، وأن من عصى الله ورسوله حياً كان أو ميتاً فمات ولم يتب فإن الله تعالى سيدخله النار خالداً فيها. وآمنت بملائكة الله ورسله وكتبه واليوم الآخر والجنه والنار بدوامهما لمن دخلهما ، وأن هذا الثواب والعقاب بعد الموت والبعث ، وأنه ليس للانسان هناك إلا ما سعى؛ إن كان خيراً فخير دائم ؛ وإن كان شراً فشر دائم . لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد . ووطنت نفس على أداء كل فريضة فرضها الله أو سيفرضها ، وعلى اجتناب كل ما حرمه علىّ ، وعلى الكف عن التقدم إلى شىء حرمه على مما هو مشتبه عندى مما يسع

الإشتباه فيه ، وعلى أن لا أطيع مخلوقاً فى شىء من معاصيه أبداً ، وعلى أن لا أجحد كل ذى حق حقه ولا أقر لأحد بباطل ، ولا أتولى عدو الله ولا أعادى ولىّ الله ، وإن كان منى يوماً أو ليلة أو ساعة من ليل أو نهار تقصير فى شىء من هذه الوظائف فإنى تائب من ذلك مستغفر لله منه ، موطّن النفس على أن لا أعود لشىء من هذا أبداً » وبالله التوفيق .

الباب الخامس

فى شرح بعض أسماء الشريعة

من ذلك التوحيد :

ومعناه : إثبات الواحد جل جلاله ،ونفى ماسواه من إله أوشريك أو ولى أو طاغوت. فلكل ما يعبد سوى الله يجب نفيه والكفر به والتبرؤ منه .وقد بين الرسول عليه السلام التوحيد وفسره بقوله : « من وحّد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ما له ودمه ، وحسابه على الله » .

وبقوله : « بُنى الإسلام على خمس ، على أن يوحد الله تعالى . . الحديث » وبقوله فى التلبية : « لبيك لا شريك لك » فالمعنى بالتوحيد إثبات الواحد ونفى ما سواه ، وهو معنى « لا إله إلا الله الواحد الحق ، وأن ما دونه الباطل » نبه الله تعالى على ذلك فى كتابه فقال : « **ذلك بان الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل** »[1] وقال : « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال »[2] ووجدت فى الأثر عن أبى المؤثر[3] أنه قال : من عرف أن الله عز وجل واحد ليس كمثله شىء فقد عرفه تبارك وتعالى قال : فهذا أقل ما يكون به الإنسان موحّداً . والصحيح أنه لا يثبت التوحيد لأحد إلا بالإتيان بثلاث كلمات وهى :

---

(١) سورة الحج : ٦٢

(٢) سورة يونس : ٣٢

(٣) أبو المؤثر : هو أحد علماء المذهب العظام فى عمان ، له مصنفات كثيرة ، ولا يخلو كتاب من كتب الفقه عن قول له أو رأى .

الإيمان بالله أنه رب ، ويتحمد أنه رسول ، وأنّ ما جاءبه حق من عند الله ؛ فمن أتى بهذا فهو موحّد ما لم يخطر بباله أنه تعالى جسم أو ليس بجسم ، أو محدود أو غير محدود ، أو يرى بالأبصار أو يدرك بالحواس أو غير ذلك . فإذا خطر له هذا أو أشباهه فقد وقع فى البَلِية فعليه أن يعلم أن الله ليس بجسم ولا يشبه الأجسام ولا شيئاً من الخلق ، وأنه ليس بمحدود ، وأنه لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس . فإن شك فى شىء من هذا ووصفه تعالى بغير صفته فهو هالك كافر .

(مسألة)

والتوحيد لا يكون العُدول فيه حجة دون العقل ، وهم حجة مع العقل ، ولا يجوز التقليد فى جميع الديانات باتفاق الأمة ؛ وهذا فى جميع ما يكون الحق فيه فى واحد ومع واحد . وضاق على الناس خلافه لأن الله سبحانه إذا تَعَبَّد بشىء من ذلك نصب عليه الدليل ، وقد نهى عز وجل عن التقليد فى ذلك وذمّ من قلّد فيه كقوله تعالى : «إنا وجدنا آباءنا على أمة »(١) فى أمثالها من القرآن

وأما الذى يجوز فيه التقليد للعالم الأمين فهو كلُّ مايسع جهله مما تَعَبَّد الله به عبادَه مما لم ينص عليه فى كتابه نصاً ظاهراً يدل على مراده فيه ، ولم ينصب عليه دليلا من كتاب ولا سنة ولا إجماع من الأمة ، وردّ الحكم فيه إلى العلماء المستنبطين ليجتهدوا فى استخراج الحكم به ؛ نحو أروش الجراحات . ومتعة المطلقات اللائى لم تفرض لهن الصدقات إذا وقع الطلاق قبل الدخول بهن ، وغير ذلك من مسائل الأحكام والنوازل . فهذا مما يجوز التقليد فيه من الدين ، وما كان مثله مما كان طريقه طريق السمع ويرجع فيه إلى قول أهل العلم لعدم الدليل على حكمه .

---

(١) سورة الزخرف : ٢٢ — ٢٣

ولايجوز التقليد عند وجود دليل من الكتاب أو السنة أو إجماع من الأمة أو حجة العقل ؛ لأنه لا معنى للتقليد هناك ؛ لأن حقيقة التقليد هو قبول قول القائل بغير دليل ولا برهان وبالله التوفيق .

فصل

ويحكى - والله أعلم - أن رجلا خرج سائحاً لله تعالى حتى دخل بيت المقدس فوجد رجلا يصلى فى المسجد فلما فرغ قال له : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فردَّ فقال : السلام على أهل اليقين والتسليم والإسلام ، اجلس . فجلس فلما اطمأن قال له : عبد أنت أم حر ؟ قال : بل حر . فقال : من أعتقك ؟ فأطرق المسئول ملياً متفكراً فى جوابه ثم قال : لا ، بل عبد . فقال : من استعبدك ؟ فقال المسئول : الله استعبدنى وهو معبودى ، والعبادة طاعة الله تعالى . فقال له : أخبرنى عن الله الذى استعبدك اسم هو أم صفة أم فعل أم معنى ؟ قال : اسم . قال : اسم لمن ؟ قال : لله تعالى . قال : فأى إلهين تعبد ، الاسم أم المسمى ؟ فانقطع المسئول وتحير فى جوابه . فقال المصلى : يا هذا ، إنما يعبد الله من يعلم ما الله ، فأما من لم يعرف الله فإنما يعبد غير الله ، ومن عبد غير الله فقد أشرك بالله . ثم قال : لا يدرك بعقل ضمير ، ولا إحاطة تفكير .

ويقال : من عبدالله بتوهم القلب فهو مشرك ، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك ، ومن عبد الاسم دون الصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب ، ومن عبد المعنى بحقيقة المعرفة فهو مؤمن حقاً وبالله التوفيق .

فصل

فى حقيقة التوحيد وأقسامه

اختلف علماء السلف فى حقيقة التوحيد . فحكى عن ذى النون المصرى[1] أنه سئل عن التوحيد فقال : «أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنعه لها بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه تعالى ، ومهما تصور فى وهمك شىء فالله تعالى بخلافه »

وسئل بعضهم عن التوحيد فقال : « إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بأنه الواحد الذى لم يلد ولم يولد ، بنفى الأضداد والأنداد بلا تكييف ولا تشبيه ، ولا تصوير ولا تمثيل . ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

وقال بعضهم : التوحيد تلاشى الخلائق عند ظهور الحقائق .

وقال بعض العلماء : أشرف كلمة فى التوحيد ما قاله أبو بكر الصديق رضى الله عنه «سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته » فقال : ليس يريد الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه لا يُعرف ، قال : فالعارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه ؛ لأن عند هؤلاء المعرفة ضرورية . وهذا كما قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله

---

(١) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن ابراهيم المعروف بذى النون المصرى . ولد باخميم من صعيد مصر ، وقيل إنه من أصل نوبى ثم نزل اخميم فأقام بها ، وكان مولده حوالى سنة ١٥٥ هـ وأتفق المؤرخون الذين ترجموا لذى النون أن وفاته كانت فى ذى القعدة سنة ٢٤٥ هـ . كان من أئمة الصوفية فى مصر ، ومن العلماء المعدودين . وقد اتصل بعدد من جلة العلماء والأئمة وروى عنهم وتأثر بهم . اتصل بأحمد بن حنبل واجتمع به وروى عن مالك والليث وابن لهيعة والفضيل بن عياض وغيرهم . . ويروى له أصحاب التراجم والطبقات كثيراً من الكرامات والفضائل . وكانت وفاته بمصر وذكر الشوكانى أنها كانت بالجيزة .. ويقال أن ذا النون المصرى وعقبة بن عامر الجهنى الصحابى وعمرو بن العاص فى قبر واحد .

وأما أقسام التوحيد : فذكر الغزالى فى ذلك ثلاثة أقسام[1] :

قال : إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام فقال : « يا داود تعلم العلم النافع . قال : يا إلهى ، وما العلم النافع ؟ قال : أن تعرف جلالى وعظمتى وكبريائى وكمال قدرتى على كل شىء فإن هذا هو الذى يقربك إلى » قال الغزالى : فالتوحيد جوهر نفيس وله قشران أحدهما أبعد عن اللب من الآخر . قال : وخص الناس اسم التوحيد للقشر الأول وبصنعة الحراسة للقشر الثانى ؛ أراد بذلك صنعة الكلام . وأهملوا اللُّبَّ بالكلية .

قال : فالقشر الأول ، هو أن تقول بلسانك « لا إله إلا الله » فقال : هذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذى تصرح به النصارى ؛ أراد قولهم : إن الله ثالث ثلاثة . قال: ولكن هذا التوحيد قد يصدر من المنافق الذى يخالف سره جهره . وهـذا هو الزنديق عندنا .

قال : والقشر الثانى : هو أن لا يكون فى القلب إنكار ولا مخالفة لمفهوم قول القائل « لا إله إلا الله » بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به . قال : وهو توحيد عوام الخلق من المسلمين والمتكلمين الذين هم حراس هذا القشر الذى هو توحيدهم وتوحيد عامة الموحدين يحرسونه عن تشويش المبتدعة ؛ أراد ينقضون عليهم بدعهم وخلافهم فى التوحيد بالكلام الذى هو صنعتهم .

قال : والثالث؛ لباب الجوهر الذى هو التوحيد قال : وذلك لا يفهمه أكثر المتكلمين، فإن فهموه لم يتصفوا به ؛ وهو أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط والأسباب ، فلا يرى الخير والشر إلا من الله جل جلاله ، وأن يعبده عبادة يفرده بها ولا يعبد معه غيره ، وهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل ـ كما سيأتى

---

(١) إحياء علوم الدين ج ١ : ٣٣ — ٣٤

إن شاء الله — ومن ثمراته أيضا ترك الشكاية إلى الخلق ، وترك الغضب عليهم والتسليم لحكم الله جل جلاله فكان إحدى ثمراته قول أبى الدرداء لما قيل له فى مرضة أنطلب لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضنى .

وقول أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — لما مرض فقيل له : ماذا قال لك الطبيب فى مرضك ؟ فقال : قال إنى فعال لما أريد .

قال : ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ؛ فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوداً له . قال الله تعالى : « **أرأيت من اتخذ الهه هواه** »[1] وقال عليه السلام : « **أبغض إله عبد فى الأرض عند الله تعالى هو الهوى** »[2] .

قال : وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه ؛ إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل ، وميل النفس إلى المألوف أحد المعانى التى يعبر عنها بالهوى .

قال : ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والإلتفات إليهم ؛ فإن من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره !! فقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين ؛ فانظر إلى [ماذا][3] حول ، وبأى قشر قنع [منه][3] وكيف اتخذوا هذا معتصما فى التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقى . قال : وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً » وهو أول كذب يفاتح الله تعالى به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجها إلى الله عز وجل على الخصوص ؛ فإنه إن أراد بالوجه وجه

---

(١) الفرقان : ٤٣

(٢) أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة بإسناد ضعيف .

(٣) زيادة من إحياء علوم الدين .

ظاهر بدنه فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات ، والكعبة ليست جهة للذى فطر السماوات والأرض ، حتى يكون المتوجه إليها متوجهاً إلى الله عز وجل ، تعالى الله عز وجل عن أن تحده الجهات والأقطار . وإن أزاد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبد به ، فكيف يصدق قول من قلبه متردد فى أوطاره وحاجاته الدينوية ومتوجه بالكلية إليها ، فمتى وجه وجهه للذى فطر السموات والأرض ؟ !

وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالموحِّد الحقيق هو الذى لا يرى إلا الواحد الخالق جل جلاله ، ولا يوجه وجهه إلا إليه وهو امتثال قوله تعالى : « **قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** »[1] وليس المراد به القول باللسان ؛ إنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى ، وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب ، وهو معدن التوحيد ومقره . وبالله التوفيق .

وأما الإيمان : فأصله فى اللغة التصديق بالشىء ؛ يقال : آمن فلان بكذا ؛ أى صدق به ، وآمن بالوثن والسحر ، أى صدق بهما . قال الله سبحانه حكاية عن أولاد يعقوب عليه السلام : « **وما انت بمؤمن لنا** »[2] أى بمصدق .

ثم إن الشرع خصص هذا الإسم وقَصَره على الذى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبما جاءت به الرسل عليهم السلام ، فاشتهر هذا الإسم حتى إذا قيل مؤمن لا يعقل منه إلا المؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبما جاءت به . . فمن لم يؤمن بهذه الأشياء فلا يُسمى مؤمنا فى الشرع .

فالمؤمن إذن على وجهين ؛ لغوى وشرعى . فاللغوى بمعنى المُصدِّق ، والشرعى بمعنى

---

(١) الأنعام : ٩١

(٢) سورة يوسف : ١٧

الموفى بالدين ، ومصداق الأول قول الله تعالى : «**ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن**»(١) وقوله « **وما كان لمؤمن ولا لمؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة** »(٢) .

وقوله : « **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها** »(٣)

وقال : « **فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه** »(٤) .

دخل فى هذه الآيات البار والفاجر .

ومصداق الثانى قول الله تعالى : « **انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلوات ومما رزقناهم ينفقون * اولئك هم المؤمنون حقا** »(٥) وغيرهم المؤمنون باطلا .

وقوله : « قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »(٦)

وقوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون »(٧)

---

(١) سورة الإسراء : ١٩
(٢) سورة الأحزاب : ٣٦
(٣) سورة النساء : ٩٣
(٤) سورة الأنبياء : ٩٤
(٥) سورة الأنفال : ١ — ٤
(٦) سورة المؤمنون : ١ — ١١
(٧) سورة الحجرات : ١٥

ومن السنة قوله عليه السلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »(٢)

وقوله : « ليس المؤمن مَنْ بات شبعانا وجارُه جائع »(٣)

وقوله : « المؤمن من أَمِنَ الناسُ من لسانه ويده »(٤) فى أمثالها .

فاختلف الناس فى هذا ؛ فقالت طائفة : يسمى صاحب الكبيرة مؤمنا بالإيمان الذى صدر منه وإن لم يكن معه غيره ، وهم المرجئة .

وقال قوم : يسمى مؤمنا مقصِّرا ، والموفى يسمى مؤمنا كامل الإيمان ، وهم الأشعرية .

وقال قوم يسمى مؤمنا فاسقا ، وهم المعتزلة .

وقال أصحابنا ومن وافقهم : لا يجوز أن يسمى مؤمنا إلا الموفى بالدين قولا وعملا واعتقاداً . وأما المنافق المضيع يقال له آمَنَ ولا يقال له مؤمن .

قالوا : لأن المؤمن اسم البدن ، وهم اسم مدح لا يسمى به إلا الولى الموفى .

وآمن ، أي : أقرَّ . جائز أن يقال للمضيع آمن ، أى أقر ؛ لأن الله تعالى يقول : **« امنوا ثم كفروا ثم امنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم »** (٥)

---

(١) سورة الحجرات

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وأخرجه الربيع بن حبيب فى صحيحه فى مقاطيع جابر ابن زيد وتمامه : « ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، فإن تاب تاب الله عليه » .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب ، والطبرانى فى الكبير ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس . وهو حديث صحيح .

(٤) هكذا أورده المؤلف رحمه الله . ولابن ماجة عن فضالة بن عبيد : « المؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب » حديث حسن . والذى رواه الشيخان : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » . ولأحمد فى مسنده والترمذى والنسائى والحاكم فى المستدرك وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » وأخرجه الطبرانى فى الكبير عن واثلة . وهو حديث صحيح .

(٥) سورة النساء : ١٣٧

واحتجَّ الأولون بقول الله تعالى : « **ان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** »[١] الآية فسماهم مؤمنين وهم بغاة . والإحتجاج فى هذا يطول ليس هذا الكتاب موضوعا لذلك. وبالله التوفيق .

فصل

اعلم أن للايمان ثلاث مقامات :

أحدها : إنطواء القلوب وضمير النفوس على اعتقاد التوحيد لغة وشرعاً ، أما اللغة فقد قدمنا ذكرها ، وأمَّا الشرع : فكقول الله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان »[٢] فى أمثالها .

وسئل النبى عليه السلام عن الإيمان فقال : « إن الإيمان هاهنا ، وأشار إلى صدره » وقال عليه السلام : « الإيمان أثبتُ فى قلوب أهله من الجبال الرواسى على قرارها »[٣] ومن طريق جابر بن زيد عنه عليه السلام أنه قال : « الإيمان قيد الفتك ؛ لا يفتك مؤمن »[٤] .

وعن ضمام رحمه الله أنَّ النبى عليه السلام قال لعمار بن ياسر رحمه الله : « الإيمان أحلى من العسل ؛ لا يدخل قلب مؤمن ثم يخرج منه » فى أمثالها من الأحاديث .

---

(١) الحجرات : ٩

(٢) سورة النحل : ١٠٦

(٣) أخرجه الربيع بن حبيب فى صحيحه فى الأخبار المقاطيع عن جابر بن زيد ج ٤ ص ٢١ الحديث رقم (٩٩٥) .

(٤) صحيح الربيع بن حبيب أخرجه فى الأخبار المقاطيع عن جابر بن زيد ج ٤ ص ٢١ الحديث رقم (٩٩٧) .

وجميع ما حكى الله تعالى فى كتابه من ذم المنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم دليل على أن الإيمان لابد فيه من اعتقاد القلوب حين ذمهم إذ لم يعتقدوه فى قلوبهم .

المقامة الثانية : الإقرار باللسان نطقاً ، والإعراب عن الضمير وفقاً ، وقبله صدقا . وهذا دون الأول؛ لأن الأول يجزى عن هذه العلل، ولا يجزى هذا عن ذلك على حالٍ لغة أيضاً وشرعاً .

أما اللغة : فلأن نطق اللسان وإقراره عبارة عن التصديق الذى حصل فى القلب قال الله تعالى : « **يا أيها الذين امنوا** » أى أقروا . وقوله عليه السلام : « ما آمن مَن آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه » .

وقال الله تعالى: « **قالوا آمنا بأفواههم ولم تومن قلوبهم** »(١) الآية ، وجميع ماقدَّمنا من ذم الله تعالى المنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم دليل على أن الإيمان فيهما جميعا بإثبات الله إياه فى الأفواه ، وذمهم إذ لم يكتسبوه بالقلوب ؛ قال الله تعالى : « **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تومنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم** »(٢) الآية .

والإتفاق واقع على هذا ، وإنما الكلام فى الأعمال على ما سيأتى إن شاء الله تعالى .

المقامة الثالثة من الإيمان : هو العمل بالأركان وتحقيقه بالأفعال شرعاً وسمعاً .

أما الشرع فقول الله تعالى : « **وما كان الله ليضيع ايمانكم** »(٣) أى صلاتكم إلى

---

(١) المائدة : ٤١
(٢) الحجرات : ١٤
(٣) البقرة : ١٤٣

بيت المقدس فى قول أهل التفسير ، ولاتفاق الجميع أن الشرع طارىء على اللغة ، وإن الشرع قد ورد فى أشياء نقل لسان العرب إليها ، فانتقل من ذلك اسم المنافق ؛ كان فى اليربوع ، فانتقل إلى من انسل من الإسلام من حيث لم يدخل فيه ، والوضوء فى اللغة : الوضاءة والنظافة فى الجوارح ، فزاد الشرع المسح ، والصلاة : الدعاء ، فزاد الشرع الركوع والسجود . والغائط فى اللغة : المطمئن من الأرض ، فانتقل الإسم إلى النجس الذى يوضع فيه ، فغلبت الشريعة اللسان ؛ ولهذا قال تعالى : « **وما كان الله ليضيع إيمانكم** » أى صلاتكم كما قدمنا .

وأما السنة : فكقول النبى عليه السلام : « الإيمان مائة جزء ، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »(١) وقال عليه السلام : « الحياء شعبة من الإيمان »(٢) وقال : « الصبر والسماحة من الإيمان والبذاذة من الإيمان » وقال : « حسن العهد من الإيمان »(٣) . وقال : « الصبر نصف الإيمان والوضوء نصف الصبر » فى أمثالها ، وهذه الأخبار عنه عليه السلام دالة على أن الأعمال من الإيمان لما قدمنا من أحكام الشرع ونقله الأسماء عن مواضعها وبالله التوفيق .

فإن قال قائل : فما الحكم فيمن انعرى من هذه المقامات الثلاث ؟ قلنا قول الله تبارك

---

(١) هكذا أورده المؤلف رحمه الله . والحديث فى صحيح البخارى : « الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان » . وهو فى صحيح مسلم : « الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان » ورواه أبو داود والترمذى وغيرهما من رواية سهيل بضع وسبعون .

وهو فى صحيح مسلم أيضاً ج ٢ : ص ٧ من حديث أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان » .

(٢) أخرجه الشيخان من حديث عمر .

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك وقال إنه صحيح على شرط الشيخين وليس له علة .

وتعالى فيهم: « **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون* لا جرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون** »(١)

وإن كان فى قلبه وانعرى منه لسانه فهو من الذين قال الله فيهم من قوم فرعون « **وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين**»(٢)

وإن كان فى القلب واللسان وانعرى منه العمل فهم من الذين قال الله عز وجل فيهم: « **آلم * احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** »(٣) فهذا من الكاذبين ، والأوسط من المفسدين ، والثالث من الخاسرين .

فصل

فى درجات الإيمان

اعلم أن الإيمان فى اللغة التصديق كما قدمنا ، ولكنه يتفاضل المؤمنون فى الإيمان على قدر ترقيهم فيه وينحصر ذلك فى خمس درجات :

احداها : درجة الإيمان : وهو المعنى الذى كلف الله تعالى عباده المؤمنين ثم رضيه منهم وذلك قوله تعالى : « **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله** »(٤) الآية .

وقال تعالى: « **ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى** »(٥) وهذه إشارة إلى قوله : « يا أيها الذين آمنوا » وقوله : « آمنوا وعملوا

---

(١) النحل : ١٠٨
(٢) النمل : ١٤
(٣) العنكبوت : ١ — ٣
(٤) البقرة : ٢٨٥
(٥) البقر : ٢٥٦

الصالحات » فى أمثالها . وبهذا الإيمان رضى الله عز وجل عن خليله إبراهيم عليه السلام حين سأله فقال : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى . قال: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قال : بلى ولـكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي »(١) وذلك حين أراد عليه السلام الترقى فى درجات الإيمان إلى أعلاه ولم يقتصر فى الشرع على مبداه فطلب مشاهدة إحياء الموتى معاينة ، والذى رضى الله عز وجل به أولا الظاهر من قوله: « بلى » وهو الإيمان الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « عليكم بإيمان العجائز وإيمان الأعرابى » وهـذا الإيمان هو تصديق عامة المسلمين واعتقادهم ، وذلك بمنزلة العقدة على القلب من غير كشف ولا انشراح ، يشتد ويقوى تارة ، ويضعف ويسترخى تارة كالعقدة على الخيط مثلا. وهذا موجود فى اعتقاد المؤمنين، والعمل يؤثر فى نماء هذا الإعتقاد وزيادته كما يؤثر سقى الماء فى نماء الأشجار علوًّا وفى رسوخ أصولها سفولا ولذلك قال تعالى : « **فزادهم ايمانا** »(٢) وقال تعالى . « **ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم** »(٣) وقد روى فى بعض آثار أصحابنا قال : معنى هـذه الزيادة أنهم أقروا بجملة الدين ثم أوفوا بها عند التفسير فزادهم الله إيمانا وتصديقا ويقينا . فدلَّ هذا على أن الإيمان يزداد بالطاعة وينقص بالمعاصى ؛ لأن الإيمان مائة خصلة أعلاها التوحيد وأدناها إماطة الأذى عن الطريق .

وفى بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم أنه قال . « الايمان يزيد وينقص »(٤) وذلك بتأثير الطاعات فى القلب . ولهذا قال على بن أبى طالب : إن الايمان

---

(١) البقرة : ٢٦٠

(٢) آل عمران : ١٧٣

(٣) الفتح : ٤

(٤) حديث « الإيمان يزيد وينقص » أخرجه ابن عدى فى الـكامل وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أبى هريرة ، وقال أبو عدى : باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملحى يتعمد الـكذب . وهو عند ابن ماجة موقوف على أبى هريرة وابن عباس وأبى الدرداء . (سنن ابن ماجة جـ ١ : ٢٠) .

لَيَبْدو لمعة بيضاء فى القلب ، فإذا عمل العبد الصالحات نمت وزادت حتى يَبْيض القلب كله ، وإنَّ النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسْوَدّ القلب كله فيطبع عليه فذلك [هو] الختم وتلا : « كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهم مَا كَانُوا يَكْسبون »(١)

الثانية : درجة الظن ؛ فإذا تحقق العبد الإيمان ورسا فى قلبه انتقل إلى درجة هى أقوى مما هو فيه ، وهى الظن الذى مدح الله به المؤمنين حيث قال : « **الذين يظنون انهم ملاقو ربهم وانهم اليه راجعون** »(٢) وقال تعالى : « **وظنوا ان لاملجأ من الله إلا اليه** »(٣)

وهذا الظن درجة فى الإيمان أعلى من أوائله ، ولذلك مدح الله تعالى به المؤمنين ؛ وذلك أن الظن فى لغة العرب على وجهين :

أحدهما : بمعنى الشك كقوله تعالى « **ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين** »(٤) .

والثانى : معنى يقرب من اليقين وهو ما قدمناه أولا : قال الشاعر :

فقلتُ لَهُمْ ظُنُّوا بألْفَى مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُم بالفَارِسِىِّ المُسَرَّدِ

ظنوا : أى تيقنوا ، وهذا هو الظن الممدوح به المؤمنون .

قال : وذلك أن من سكنت نفسه إلى وجود البارىء سبحانه ووقع فى قلبة الايمان به أنتفى عنه الجهل وأعتوره الشك والظن ؛ وهما طريقان : أحدهما يمنة والآخر يسرة ، فالشك تردد وتوقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر نحو طريق الجهل والعلم ؛ والظن ترجيح أحد الجانبين ، فمهما ترجح جانب الظن إلى جانب العلم كان ظنا محموداً ؛

---

(١) سورة المطففين . ١٤
(٢) البقرة : ٤٦
(٣) التوبة : ١١٨
(٤) الجاثية : ٣٢

لأنه جاوز حد الجهل والشك إلى الايمان . فحقيقة الظن ميلان النفس إلى تحقيق ما اعتقده المؤمن وآمن به .

الثالث : درجة العلم : وذلك أن الظن يؤول إلى العلم ؛ لأن جل أحكام الشريعة إنما بُنيت على غلبيات الظنون ؛ فإذا قوى الظن صار علما ، وهو أن يلوح المعنى الذى اعتقده القلب فتطمئن إليه النفس ، وربما يعضده الدليل فيتضح به السبيل . وهذا العلم نور يُقذف فى قلب المؤمن فيتسع القلب به وينشرح . قال الله سبحانه : « **ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا** »(١)

وقال . « أو من كانَ ميتاً فأحييناهُ وجعلنا لهُ نُوراً يمشى به فى الناس كمَنْ مَثلهُ فى الظُّلمات ليس بخارِجٍ مِنْها كذلكَ زُيِّنَ لِلْكافِرينَ ما كانوا يعملون »(٢) .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى . « **فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام** » الآية(٣) فقيل : ما هـذا الشرح ؟ فقال عليه السلام : « إن النور إذا قذف فى القلب انشرح له القلب وأنفسح » قيل : فهل لذلك علامة يعرف بها ؟ قال : « نعم ؛ التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله »(٤) .

فالعلم درجة فى القلب أعلى من درجة الايمان ؛ ولذلك فرَّق الله تعالى بين درجة الايمان ودرجه العلم فقال : « **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات** »(٤) فلحن الخطاب : يرفع الله الذين آمنو منكم درجة والذى أوتوا العلم درجات .

---

(١) الشورى : ٥٢
(٢) سورة الأنعام : ١٢٢
(٣) سورة الأنعام : ١٢٥
(٤) أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن مسعود .

وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : للعلماء درجات فوق المؤمنين سبعمائة درجة ، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام .

وقال تعالى : « **وقال الذين أوتوا العلم والايمان** »(١) الآية فإن آزداد العلم صار يقينا .

الرابعة : درجة اليقين :

قال الله تعالى فى صفة المؤمنين: «**وبالآخرة هم يوقنون** »(٢) قال : « **ولا يستخفنك الذين لا يوقنون** »(٣) وقال تعالى : « **وفى الارض آيات للموقنين** »(٤) وقال تعالى : « **كلا لو تعلمون علم اليقين** »(٥) ومعنى اليقين: إزاحة الشك ، وهو علم راسخ فى القلب زايلته الشكوك وفارقه الاضطراب ، واستحكم فى النفس حتى كاد أن يكون عن مشاهدة ؛ فلهذا قال نبينا عليه السلام : « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر »(٦) وقال لابن عباس : « اعمل على الرضا واليقين ، وإلا فنى الصبر على ما تكره خير كثير »(٧)

وعنه السلام أنه قال : « لا ترضين أحداً بسخط الله ، ولا تحمدن أحداً على فضل الله ، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص ولا ترده عنك كراهية كاره » فإن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والفرج فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط .

---

(١) المجادلة : ١١
(٢) الروم : ٥٦
(٣) البقرة : ٤
(٤) الروم : ٦٠
(٥) الذاريات : ٢٠
(٦) التكاثر : ٥٠
(٧) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين ج ١ : ٠٧٢ وقال مخرجه الحافظ العراقى : لم أقف له على أصل ، وروى ابن عبدالبر من حديث معاذ « ما أنزل الله شيئاً أقل من اليقين ولا قسم شيئاً بين الناس أقل من الحلم » .

وقال بعض العلماء : إن أقل اليقين إذا وصل إلى القلب يملأه نوراً وينفى عنه كل ريب ، ويملأ القلب شكراً ومن الله خوفاً.

وقال بعض السلف : التوحيد نور ، والشرك نار ، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين . وأراد به اليقين .

وقد أشار القرآن إلى ذكر الموقنين فى مواضع دل به على أن اليقين هو الرابط للخيرات والسعادات ، وأنه أعظم ما يعطى للعبد من الهبات.

وقال بعض العلماء : أول المقامات المعرفة ثم اليقين ثم التصديق ثم الاخلاص ثم المشاهدة ثم الطاعة ، والايمان اسم لجميع هذا كله . أشار هذا القائل إلى أن أول الواجبات هو المعرفة بالله سبحانه

وقال بعضهم : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله .

ويحكى عن ذى النون المصرى انه قال : اليقين داع يدعو إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر فى العواقب .

وقال بعض العلماء : ثلاث من أعلام اليقين : النظر إلى الله فى كل شىء ، والرجوع إلى الله فى كل أمر ، والإستعانة به فى كل حال .

واختُلف فى معنى اليقين فقال بعضهم : اليقين علم مستودع فى القلب . يشير هذا القائل إلى أنه غير مكتسب .

وقال آخرون : اليقين تحقيق الأسرار بحكم المغيبات .

وقال قوم : العلم التعلم بمعارضة الشكوك ، واليقين لا شك فيه . وأشار إلى العلم المكسبى .

وقيل : هو استقرار العلم الذى لا يتحول ولا يتقلب ولا يتغير فى القلب .

وقال بعضهم : اليقين هو المكاشفة . وقيل : اليقين رؤية العيان بقوة الإيمان . والله أعلم .

فصل

ومن كتاب أحمد بكر[1] قال : « ومنازل العباد إلى الله تعالى على قدر تفاضلهم فى اليقين ، وسواء فى ذلك الملائكة والنبيون والمرسلون على قدر يقينهم ؛ فالملائكة أعظم يقينا من الأنبياء والرسل ، وكذلك الأنبياء والرسل أعظم يقيناً من غيرهم من المسلمين . وأصل اليقين العلم ، والإبلاغ فيه أن الأمور كلها من عند الله ، وقد يتفاضل الناس فى الدوام عليه وقلة السهو على قدر تفاضلهم : واليقين يصيب المسلم ولكن لا يستحق به الثواب إلا المسلم الموفى بدينه ، وأما غير المسلم فلا يستحق به الثواب فى الآخرة

ويستجاب الدعاء باليقين للناس كلهم ؛ المؤمن وغيره ؛ ولكن غير المؤمن لا يستجاب له إلا دعاء الدنيا خاصة . ومن كثرة اليقين تكون البراهين والعلامات ، ولكن ليس فى ذلك ما يستوثق به لأمر الآخرة ولكن يزيد فى ذلك الرغبة فى الإجتهاد .

وفى كتاب المحاسبى قال : وقالت طائفة من العلماء : اليقين استقرار معرفة العارفين . وقالت طائفة : اليقين هو التصديق . وروى مثله عن النبى عليه السلام .

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر . من علماء المذهب الأجلاء ، وله عدة تصانيف ذكر بعضها البرادى فى الجواهر فقال : ولأبى العباس أحمد بن محمد بن بكر رضى الله عنه تآليف كثيرة منها جامعه المعروف بأبى مسألة ومنها كتاب تبين أفعال العباد سفر كبير ومنها كتاب السيرة فى الدماء رأيت منه سفراً واحداً وكتاب الأصول رأيت منه ثلاثة أسفار . ا هـ .

قال : واليقين يزيد بزيادة الإيمان وينقص بنقصانه . قال : ويتزايد الناس فى اليقين بلزوم القلب المعرفة التى يتولد منها اليقين . وقد قيل : يا رسول الله ، بلغنا أن عيسى عليه السلام كان يمشى على الماء . قال : « ولو ازداد يقينا لمشى على الهواء » .

وأما الذى يضعف اليقين فالدخول فيما لا يعنى ، واستعمال أعمال أهل الريب ، والشهرة فى الخلق باللبس والمذهب والحلية ، وذلك بأن يدخل فى بعض الأحوال مثل اللباس الشنيع ، ويشتهر ويشتغل قلبه . فعلى قدر شغل القلب يضعف اليقين لعلة اشتغال القلب وإشارة الأصابع ، وكفى به شغلا .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان له خميصة يصلى فيها فبعث بها إلى أبى جهم . فقيل له فى ذلك ، فقال : « ألهتنى أعلامها فى الصلاة » (١) فمثل ذلك وشبهه يضعف اليقين . وقد روى عنه عليه السلام أنه قال : « أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين » والله أعلم .

فصل

فى تحقيق معنى اليقين

ومن كتاب الغزالى قال :(٢) فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان المعنيين مختلفين . قال : أما النظار والمتكلمون فيعنون به عدم الشك ، إذ ميل النفس إلى التصديق بالشىء له أربع مقامات :

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) إحياء علوم الدين جـ ١ : ٧٢ وما بعدها .

الأولى : أن يعتدل التصديق والتكذيب ، ويعبر عنه بالشك ، كما إذا سئلت عن شخص معين ؛ أن الله يعاقبه أم لا ؟ وهو مجهول الحال عندك ؛ فإن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفى بل يستوى عندك أمكان الأمرين فيسمى هذا شكا .

الثانية : أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع إمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول ؛ كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب ؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح . ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمر موجب للعقاب فى باطنه وسريرته ، فهذا التجويز مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه . قال : فهذه الحالة تُسمَّى ظناً .

الثالثة : أن تميل النفس إلى التصديق بشىء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال نقيضه ، ولو خطله بالبال لأبت النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة تحققه ؛ إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز ، وهذا يسمى [اعتقاداً مقارباً لليقين][1] ، وهو اعتقاد العوام فى الشرعيات كلها إذ رسخ فى نفوسهم . لمجرد السماع حتى أن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها ، ولو ذكر لها إمكان خطإ إمامها لنفرت عنه .[2]

الرابعة : المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لا شك فيه ولا يتصور الشك فيه ، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه سمى عند ذلك يقيناً . ومثاله ؛ إذا قيل للعاقل : هل فى الوجود شىء قديم ؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة ؛ لأن القديم غير محسوس

---

(١) زيادة من الإحياء .

(٢) عبارة الغزالى : « ولو ذكر لأحدهم لمكان خطإ إمامه نفر عن قبوله » .

لا كالشمس والقمر ، فإنه يصدق بوجودهما بالحس وليس العلم بوجود شيء قديم أزلى ضرورياً مثل العلم بأن الإثنين أكثر من الواحد ، ولكن ذلك مثل العلم بأن حدوث حادث بلاسبب محال ؛ فإن هذا أيضاً ضرورى . فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهة . ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقاً جزماً ويستمر ، وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام .

ومن الناس من يصدق به بالبرهان ، وهو أن يقال له : إن لم يكن فى الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة ، فإن كانت كلها حادثة فهى حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال فالمؤدى إلى المحال محال . فيلزم فى العقل التصديق بشيء قديم بالضرورة ؛ لأن الأقسام ثلاثة : وهى ؛ إما أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة . فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب ، إذ ثبت على الجملة قديم . وإن كان الكل حادثاً فهو محال ، إذ يؤدى إلى حدوث بغير سبب فيثبت القسم الثالث أو الأول . فكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً ، سواء حصل بحس أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب ، أو بتواتر كالعلم بوجود مكة ، أو بتجربة كالعلم بأن [السقمونيا][1] المطبوخ مسهل . أو بدليل كما ذكرنا . فشرط إطلاق الإسم عندهم عدم الشك ؛ فكل علم لا يشك فيه يسمى يقينا عند هؤلاء . وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت فى نفى الشك.

الإصطلاح الثانى للفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء ؛ وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك بل إلى استيلائه وغلبته على القلب[2] ؛ حتى يقال : فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه . ويقال : فلان قوى اليقين فى إتيان الرزق مع أنه قد

---

(١) زيادة من الأحياء . قال فى القاموس : والسقمونيا نبات يستخرج من تجاويفه رطوبة دبقة وتجفف وتدعى باسم نباتها أيضا مضاداتها للمعدة والأحشاء أكثر من جميع المسهلات .

(٢) فى إحياء علوم الدين : العقل .

فإذا فهمت هـذا علمت المراد من قولنا « إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام » بالقوة والضعف ، والكثرة والقلة ، والخفاء والجلاء .

أما بالقوة والضعف ؛ فعلى الاصطلاح الثانى ، وذلك فى الغلبة والاستيلاء على القلب ودرجات اليقين فى القوة والضعف لا تتناهى ، وتفاوت الخلق فى استعدادهم للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعانى .

وأما التفاوت بالخفاء والجلاء فلا ينكر أيضاً . أما فيما يتطرق إليه التجويز فلا ينكر — أعنى الاصطلاح الثانى — وفيما انتفى الشك أيضاً عنه لا سبيل إلى إنكاره ؛ فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فَدَكٍ[1] مثلا ، وبين تصديقك بوجود موسى عليه السلام ووجود يوشع عليه السلام مع أنك لا تشك فى الأمرين جميعاً إذ مستندهما التواتر ، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح فى قلبك من الثانى ؛ لأن السبب فى أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين .

وكذلك يدرك الناظر هذا فى النظريات المعلومة بالأدلة ؛ فإنه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد كوضوح ما لاح بأدلة كثيرة مع تساويهما فى نفى الشك . وهذا قد ينكره المتكلم الذى يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال .

وأما القلة والكثرة ؛ فذلك بكثرة متعلقات اليقين ، كما يقال : فلان أكثر علماً . أى معلوماته أكثر . ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع ما ورد الشرع به ، وقد يكون قوى اليقين فى بعضه .

فإن قلت : قد فهمت اليقين وقوته وضعفه ، وكثرته وقلته ، وجلاءه وخفاءه بمعنى

---

(١) فدك : قرية بالحجاز بها عين فوارة ونخل ، بينها وبين المدينة يومان ، وقيل ثلاثة ، أفاءها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم صلحا .

نفى الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب . فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه وفيماذا يطلب اليقين ؟ فإنى ما لم أعرف ما يُطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه . فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء عليهم السلام من أوله إلى آخره هو من مجارى اليقين ، فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ، ومتعلقه المعلومات التى وردت بها الشرائع فلا مطمع فى إحصائها . ولكنى أشير إلى بعض أمهاتها .

فمن ذلك :

التوحيد : وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ، ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها . فالمصدق بهذا موقن ، فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين ، فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والتكبر لهم ، ويرى الوسائط فى قلبه منزلة القلم واليد فى حق المنعم بالتوقيع . فإنه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما ، بل يراهما آلتين وواسطتين فقد صار موقناً بالمعنى الثانى . وهو الأشرف ، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته . ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوق فهى مسخرات بأمره حسب تسخير القلم فى يد الكاتب ، وأن القدرة الأزلية هى المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم ، وصار موقناً بريئاً من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق . فهذا أحد أبواب اليقين .

ومن ذلك :

الثقة بضمان الله عز وجل الرزق فى قوله عز وجل : « **وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها** »[1] واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ما قدر له سيساق إليه ، فمهما غلب ذلك على

---

(١) سورة هود : ٦

قلبه كان مجملا فى الطلب ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على ما يفوته . وأثمر هذا اليقين أيضاً جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة .

ومن ذلك :

أن يغلب على قلبه أنَّ « مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ » ، وهو اليقين بالثواب والعقاب . حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع . ونسبة المعاصى إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعى إلى الهلاك . فكما يحرص على تحصيل الخبز طالب الشبع فيحفظ قليله وكثيره ، فكذلك يحرص على الطاعات كلها ، قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين . وأما بالمعنى الثانى فيختص به المقربون ، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة فى الحركات والسكنات والخطرات والمبالغة فى التقوى والتحرز عن كل السيئات ، وكلما كان اليقين أغلب كان الإحتراز أشد والتيسير أبلغ

ومن ذلك :

اليقين بأن الله عز وجل مطّلع عليك فى كل حال ، ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خاطرك وفكرك . وهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك . أما بالمعنى الثانى — وهو المقصود — فهو عزيز يختص به الصديقون ، وثمرته أن يكون الإنسان فى خلوته متأدباً فى جميع أحواله كالجالس بمشهد ملك عظيم ينظر إليه ؛ فإنه لا يزال متأدباً [فى جميع أعماله][1] متماسكا محترزاً عن أكل حركة تخالف هيئة الأدب . ويكون فى فكرته الباطنة كهو فى أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله عز وجل مطلع على

---

(١) زيادة من الإحياء : ١ : ٧٥

سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره ، فتكون مبالغته فى عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكائنة أشد من مبالغته فى تزيين ظواهره لسائر البشر ، وهذا المقام فى اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة ، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة .

فاليقين فى كل باب من هـذه الأبواب مثل الشجرة ، وهذه الأخلاق فى القلب كالأغصان المتفرعة منها ، وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان . فاليقين هـو الأساس والأصل . وله مجارى وأبواب أكثر مما عددناه . وهذا الذى ذكرناه فى اليقين كافٍ . والله أعلم .

الخامسة :

درجة المعرفة : وذلك إذا قوى يقين العبد ترقى إلى درجة المعرفة ، واختلفوا فى معناها ؛ فقال بعضهم : المعرفة هى العلم ، فكل علم معرفة وكل معرفة علم ، وكل عارف بالله عالم به تعالى وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة مَن عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ثم صدَق الله فى معاملاته ، ثم ينتفى عن أخلاقه الدَّنِيَّة وآفاته ، ثم طال بباب الخدمة وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه فحظى من الله تعالى بجميل إقباله ، وصدَق الله فى جميع أحواله ، وانقطع عنه هواجس نفسه ولم يصغِ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره فإن صار فى الخلق أجنَبياً ، ومن صفات النفس بريئاً ، ومن المساكنات والملاحظات نقيا ، وحق فى كل لحظة إليه رجوعه ، وصار من قبل الحق يتعرف أسراره فيما يجرى من تصاريف أقداره سمى ذلك عارفا ، وتسمى حالته معرفة .

وقال بعضهم . من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله تعالى ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن دعامة البيت أساسه ، ودعامة الدين المعرفة بالله واليقين والعقل القامع » قيل : وما العقل القامع ؟ قال : « الكف عن معاصى الله ، والحرص على طاعة الله » .

ومعنى المعرفة بالله سبحانه أن تعرفه بأياديه الكاملة ، وصفاته البالغة وقدرته التامة ، وأفعاله الجارية فى خلقه من أصناف النعم وضروب النقم . فإذا عرفه العبد بهذه المعرفة لزمت قلبه الرهبة منه ، والرغبة إليه ، وامتلأ قلبه له عظمة وحياء .

وتتزايد المعرفة فى قلب العارف بحسن التفكر والاعتبار فى إتقان صنع الله الموجودات ، وحسن تدبير فى أصناف المخلوقات . ومعرفة الله تعالى بحر لا يدرك له قعر ، ولا يحيط به بشر ، إنما يحوم الخلق على سواحله وأطرافه ، بقدر ما تيسر لهم من حسن عون الله وألطافه . وما خاض أطراف بحر معرفته إلا الأنبياء والأولياء والراسخون من العلماء على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قواهم ، وتفاوت تقدير الله تعالى فى حقهم .

وهذه المعرفة إذا قويت فى قلب العارف واستحكمت ، لاح له من ربه اللطف الخفى والنور الجلى ، واستولى على قلبه حب ربه ، واستأنس بذكره فى الخلوات ، ووثق باسعافه فى المهمات ، وغلب نور قلبه على نور بصره فأبصر الدنيا خيالا والآخرة مثالا ، وتعرف مع ذلك المريد من ربه فى المواطن ، وكان له ومعه فى جميع الأماكن حتى كأنه يناجيه عند همه ، ويناغيه عند غمه . وفى هذه الصفة الحديث الطويل الذى رواه أبو هريرة وأسامة ابن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر أهل الانقطاع إلى الله عز وجل فقال : « لباسهم الخرق ، ومسكنهم العلق ، تعرفهم بقاع الأرض . إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا . . الحديث »

قال الشاعر :

قُلوبُ العارفينَ لها عيونٌ تَرَى ما لا يَرَاهُ النَّاظِرونا

وقال آخر :

فَلَوْلا اللهُ يحفظ عَارِفيه لَهَامَ العارِفُون بِكُلِّ وَادِ

وفى المعرفة معنى الفطنة وعلم تقدمه جهل ، فلذلك لا يسوغ على البارىء سبحانه أن تقول « عارف » بل عالم .

فهذه الدرجات الخمس التى ذكرناها رُتَب الأنبياء والسابقين والصديقين والمتقين والصالحين ، كل يجاهد على قدر قوته ، ويقرب من الله تعالى على قدر معرفته . نسأل الله تعالى أن لا يخيبنا من رحمته التى وسعت كل شىء بمنِّه وكرمه وبالله التوفيق .

فصل

وأما **الاسلام** : فمعناه فى اللغة الخضوع والانقياد ؛ قال الله سبحانه حكاية عن بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام : « **واسلمت مع سليمان لله رب العالمين** »(١) وقال : « **وله اسلم من فى السموات والأرض** . »(٢) وقال تعالى : « **والقوا الى الله يومئذ السلم** »(٣) يعنى الاستسلام .

وقال تعالى : « **قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا** »(٤) أى :

---

(١) النمل : ٤٤
(٢) آل عمران : ٨٣
(٣) النحل : ٨٧
(٤) الحجرات : ١٤

استسلمنا لأمرك استسلاماً لا إسلاماً فكان الاسلام على هذا المعنى عبارة عن التسليم والاستسلام لله تعالى بالإذعان والانقياد ، وترك التمرد بالإباء والعناد .

وقال تعالى : « **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقل منه .** » (١) الآية وقال عليه السلام : « بنى الاسلام على خمس ... » الحديث . وقوله عليه السلام فى حديث سعد : « أو مسلم . » ؛ وذلك أن سعد بن أبى وقاص(٢) [رضى الله عنه] نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم الغنائم ويعطى الأقوام ، فنظر سعد إلى رجل كان أوثق فى نفسه من هؤلاء الذين كان يعطيهم فقال : يا رسول الله ، لم لا تعطى فلاناً ؟ فلم يكترث به عليه السلام . قال سعد : فأخذنى ما قرب وما بعد ثم قمت ثانية فقلت : يا رسول الله ، ألا تعطى فلانا فإنى لأراه مؤمناً . فالتفت إلىَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الثانية أو

---

(١) آل عمران : ٨٥

(٢) هو سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشى الزهرى أبو اسحق ابن أبى وقاص صاحب رسول الله صلى عليه وسلم وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة رضوان الله عليهم وآخرهم موتا ، وكان أحد الفرسان وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وكان مجاب الدعوة مشهورا بذلك تخاف دعوته وترجى وذلك أن رسول الله صلى عليه وسلم قال فيه « اللهم سدد سهمه وأجب دعوته » وروى الترمذى من حديث جابر قال أقبل سعد فقال النبى صلى الله عليه وسلم « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » وكان سابع سبعة فى إسلامه بعد ستة . وقال الواقدى حدثنى سلمة بن بخت عن عائشة بنت سعد قال : أسلمت وأنا ابن تسع عشرة سنة . وروى عنه أنه قال : أسلمت قبل أن تفرض الصلاة ، وشهد بدراً والحديبية وسائر المشاهد وهو الذى تولى فتح فارس ففتح الله على يديه أكثرها وكان له فتح القادسية وغيرها وولى الكوفة لعمر رضى الله عنه وهو الذى بناها . وهو أحد الستة الذين جعل فيهم سيدنا عمر الشورى وقال : إن وليها سعد فذاك وإلا فليستعن به الوالى . وكان سعد رضى الله عنه ممن قعد ولزم بيته فى الفتنة وأمر أهله أن لا يخبروه من أخبار الناس بشئ حتى تجمع الأمة على إمام . ومات رضى الله عنه فى قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة وحمل الى المدينة على رقاب الرجال ودفن بالبقيع وصلى عليه مروان بن الحكم . واختلف فى وقت وفاته وقال الواقدى : أثبت ما قيل فى وقت وفاته أنها سنة خمس وخمسين . وقال أبو نعيم مات سنة ثمان وخمسين .

الثالثة فقال: « أو مسلماً ! » ثم قال: « يا سعد ، إنى والله لأعطى هذا المال أقواماً وأكل آخرين إلى إيمانهم »(١).

قال عليه السلام : « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، والمهاجر من هاجر السيئات »(٢) ويروى أنه سئل عن أفضل الأعمال فقال : « الاسلام » فقيل : أى الاسلام أفضل ؟ فقال عليه السلام « الايمان » .

واعلم أن الناس قد اختلفوا فى الايمان والاسلام هل هما شىء واحد ، أو كل منهما غير الآخر ؟ وإن كان غيره فهل هو منفصل يوجد دونه أو هو مرتبط به وملازم له ؟

قيل : إنهما شىء واحد . وقيل : هما شيئان لا يتواصلان . وقيل إنهما شيئان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر .

فنقول إن ها هنا ثلاثة مباحث : (٣)

أحدها : بحث عن موجب اللفظين فى اللغة .

والثانى : بحث عن المراد بهما فى إطلاق الشرع .

والثالث : بحث عن حكميهما فى الدنيا والآخرة

فالبحث الأول لغوى ، والثانى تفسيرى ، والثالث فقهى شرعى .

البحث الأول : فى موجب اللغة ؛ والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق . قال

---

(١) أخرجاه فى الصحيحين ، واللفظ فيهما : « يا سعد ، إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى ، خشية أن يكبه الله فى النار »

(٢) هكذا أورده المؤلف رحمه الله والذى أورده السيوطى فى الجامع الصغير ٢ : ٥٧٦ قوله : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » قال : أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى من حديث ابن عمرو . صحيح .

(٣) وانظر هذه المباحث فى إحياء علوم الدين ج ١ : ١١٦

الله تعالى : « **وما انت بمؤمن لنا** »(١) أى : بمصدق ، والإسلام عبارة عن الإستسلام والانقياد . والتصديق محل خاص ووو القلب واللسان ترجمانه . وأما التسليم فإنه عام فى القلب واللسان والجوارح فإن كل تصديق بالقلب هو تسليم وترك للإباء والجحود ، وكذلك الاعتراف باللسان ، وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح . فموجب اللغة أن الاسلام أعم والايمان أخص فكان الايمان عبارة عن أشرف أجزاء الاسلام ؛فإذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديق .

البحث الثانى : عن إطلاق الشرع ؛ والحق فيه أن الشرع قد وردباستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد ، وورد على سبيل الإختلاف ، وورد على سبيل التداخل .

أما الترادف ؛ ففى قوله تعالى : « فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ »(٢) ولم يكن بالإتفاق إلا بيت واحد .

وقال تعالى: « يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ »(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : « بُنِى الإسلام على خمس . . . »(٤) الحديث . وسئل مرة عن الايمان فأجاب بهذه الخمس(٥) .

وأما الاختلاف؛ فقوله تعالى: « **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا** »(٦) ومعناه استسلمنا فى الظاهر ، وأراد بالايمان ها هنا تصديق القلب فقط ، وبالاسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح.

---

(١) يوسف : ١٧ (٢) الذاريات : ٣٥ — ٣٦

(٣) يونس : ٨٤ (٤) أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر

(٥) أخرجه البيهقى فى الإعتقاد من حديث ابن عباس فى قصة وفد عبد القيس « تدرون ما الإيمان : شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت » والحديث فى الصحيحين ولكن ليس فيه ذكر الحج وزاد « وأن تؤتوا خمساً من المغنم » .

(٦) الحجرات : ١٤

وفى حديث سعد المتقدم : « ألا تعطى فلاناً وإنى لأراه مؤمناً ، فقال عليه السلام : « أو مسلماً » .

وقوله عليه السلام فى حديث جبريل عليه السلام المشهور حين جاءه فى صورة أعرابى فقال : يا رسول الله . ما الإيمان ؟ فقال عليه السلام : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره . فقال : صدقت . فما الاسلام ؟ فقال عليه السلام : « شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان والحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا ، والغسل من الجنابة » قال : صدقت ... »(١) الحديث . فذكر عليه السلام الخصال الخمس فعبر بالاسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل .

وأما التداخل ؛ فما روى عنه عليه السلام أنه سئل فقيل له : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « الاسلام » فقيل له : أى الاسلام أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « الايمان » رواه الغزالى فى كتابه(٢) فإن صح فهو دليل على التداخل . فهذه الأحاديث دليل على الاختلاف والتداخل ، وهو أوفق الاستعمالات فى اللغة .

وأما الدين : فمعناه فى اللغة : الطاعة . ويتصرف فيها على وجوه ؛ يكون بمعنى الجزاء كقوله تعالى : « **مالك يوم الدين** »(٣) أى يوم الجزء . ويكون بمعنى الحكم قال تعالى : « **ما كان لياخذ اخاه فى دين الملك** »(٤) أى فى حكمه . ويكون بمعنى الحساب :

---

(١) حديث جبريل عليه السلام أخرجاه من حديث أبى هريرة . ومسلم من حديث عمر ذكر الحساب .

(٢) إحياء علوم الدين ١ : ١١٧ والحديث أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عمرو بن عنبسة بالشطر الأخير « قال رسول الله أى الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان » واسناده صحيح .

(٣) الفاتحة : ٤

(٤) يوسف : ٧٦

« **ذلك الدين القيم** »[١] أى الحساب المستقيم . ويأتى بمعنى العادة . « **قل اتعلمون الله بدينكم** »[٢] أى بعادتكم . والله أعلم .

واعلم أن الدين هو اسم لطاعة الله سبحانه . قال الله تعالى : « **الا لله الدين الخالص** »[٣] وقال تعالى : « **إن الدين عند الله الإسلام** »[٤] وقال تعالى : « **وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** »[٥] أى دين أى دين الحنيفية السمحة السهلة .

فإن قال قائل : قد نصَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل عليه السلام إن الإيمان هو مايتعلق بالقلب فى الاعتقادات ، وبقوله عليه السلام : ألا إن الإيمان ها هنا . وأشار إلى صدره » وفيه أيضا : « فهلا شققت عن قلبه » لالذى قتل الصارخ بالايمان ، وأن الاسلام هو مايتعلق بالجوارح من العبادات ولم يذكر الدين وأنت تتوجب أن الايمان هو الاسلام وأن الاسلام هو الايمان وهما الدين . فاعلم أن الايمان أصله التصديق كما ذكرنا ، وأن الاسلام أصله الاستسلام والخضوع . وأن الاسلام كله من قِبَلِ التصديق إيمان . وأن الايمان من قِبَلِ الاستسلام والخضوع إسلام ، والدين من قبل الايمان تصديق ، والايمان من قبل الدين طاعة ، وأن الاسلام من قبل الدين طاعة والدين من قبل الاستسلام إسلام ، وكل خصلة من الايمان فهى إسلام ودين ، وكل خصلة من الاسلام فهى إيمان ودين وكل خصلة من الدين إيمان وإسلام

---

(١) الروم : ٣٠
(٢) الحجرات : ١٦
(٣) الزمر : ٣
(٤) آل عمران : ١٩
(٥) البينة : ٥

وإلى هذا القول ذهب أصحابنا رحمهم الله . وهو الصواب إن شاء الله ؛ إذ لا يسعك أن تنفى الايمان عن الصلاة وأخواتها ، فإن اتسع لك فلا يسعك أن تنفى الاسلام عن الايمان الذى هو الاعتقاد فيكون الواحد مؤمنا غير مسلم ومسلما غير مؤمن . قال الله عز وجل « **وذلك دين القيمة** » . وقال : « **ان الدين عند الله الاسلام** » وقال : « **ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه** » الآية .

البحث الثالث : عن الحكم الشرعى فى الاسلام والايمان .

اعلم أن لهما حكمين أحدهما حكم أخروى وحكم دنيوى :

أما الأخروى فالتخليد فى النار أو الإخراج منها ، واختلفوا على ماذا يترتب هذا الحكم ؛ فمن قائل : إن الإيمان إقرار باللسان ، ومن قائل : إنه معرفة بالقلب دون إقرار باللسان ، ومن قائل إن الإيمان معرفة وإقرار ، ومن قائل بمزيد ثالث وهو العمل بالأركان .

فالأقوال الثلاثة هو اعتقاد المرجئة فى الإيمان على الإختلاف المتقدم ، والقول الرابع قول سائر الأمة : إن الإيمان قول وعمل واعتقاد ؛ فمن جمع هذه الثلاثة ومات عليها فلا خلاف أن مستقره الجنة . فهذه درجة .

الدرجة الثانية : أن يوجد اثنان وبعض الثالث وهو المعرفة والإقرار وبعض الأعمال ولكن ارتكب صاحبه كبيرة ومات مصراً عليها ، قالت المرجئة : هو مؤمن لا يعرض على النار .

وقالت الأشعرية : هو مؤمن عاص فى مشيئة الله ؛ إن شاء عذبه وإن شاء رحمه .

وقالت المعتزلة : خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل فى الكفر ، بل اسمه فاسق منزلته بين المنزلتين وهو مخلد فى النار .

وقالت الإباضية ومن وافقها : هو منافق كافر كفر نعمة لا كفر شرك ، وهو مخلد في النار ، والاحتجاج في هذا يطول تركته طلباً للاختصار . فإن قيل : فما حجة المرجئة والمعتزلة ؛ قيل : إنهم احتجوا بعمومات القرآن ؛ أما المرجئة فقالوا : لا يدخل النار وإن أتى بكل المعاصي لقوله تعالى : « **ومن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا** »(١) ولقوله تعالى: « **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون** »(٢) الآية . وبقوله تعالى « **كلما القى فيها فوج سألهم خزنتها ألم ياتكم نذير . قالوا: بلى قد جاءنا نذير فكذبنا** » الآية . وقوله : كلما ألقي عام ، قالوا : فينبغي أن يكون المعنى كلما ألقي فيها مكذب . وبقوله تعالى : « **لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى** »(٣) فها هنا حصران : إثبات ونفي . ولقوله تعالى: « **ومن جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** »(٤) والإيمان رأس الحسنات ، في أمثال هذه العمومات . ولا حجة في هذا لهم فإنه تعالى حيث ذكر الإيمان في هذه الآية أراد به الإيمان مع العمل كما قدمنا قبل هذا . ودليل هذا التأويل آيات كثيرة وردت في عقوبة العاصين كقوله تعالى : « **ومن يعص الله ورسوله فان لهم نار جهنم خالدين فيها ابدا** »(٥) وتخصيصه بالشرك تحكم بغير دليل . وقوله : « **ألا ان الظالمين فى عذاب مقيم** »(٦) وقوله : « **ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار** »(٧)

فهذه العمومات في معارضة عموماتهم ، ولابد من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين تركته مخافة التطويل .

---

(١) الجن : ١٣
(٢) الحديد : ١٩
(٣) الليل : ١٦
(٤) النمل : ٨٩
(٥) الجن : ٢٣
(٦) الزخرف : ٤٥
(٧) النمل : ٩٠

وأما المعتزلة فاحتجوا بأن صاحب الكبيرة فاسق عدو الله ، وأنه ليس بكافر ولا مؤمن ؛ فأظنهم قالوا : لأن المؤمن اسم مدح ؛ قال الله سبحانه : « **وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا** »(١) وقال تعالى : « **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون** »(٢) وقال تعالى : « **وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان .** »(٣) الآية . فى أمثالها . والحجة عليهم قول الله تعالى : « **ان المنافقين هم الفاسقون** »(٤) وقوله . « **وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوما فاسقين** »(٥) وقوله : « **الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر ربه** »(٦) ولا يسوغ لأحد أن يجعل قوم نوح وإبليس فساقا ليسوا بكفار وفى قوله تعالى : « **واتقوا النار التى اعدت للكافرين** »(٧) هقوله : « **من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين** »(٨)

فلما كان صاحب الكبيرة عدوا لله علمنا أنه كافر ، والاحتجاج فى مثل هذا يطول وليس هذا الكتاب موضعا لذلك وبالله التوفيق

وأما الحكم الدنيوى فهو أن يشهد بشهادة الحق بلسانه ولكنه لم يصدق بقلبه ، فلا شك فى هذا أنه فى الآخرة من المشركين مخلد فى النار ، وأنه فى حكم الدنيا موحد بظاهر حاله ، لأن قلبه لا يطلع عليه . وعلينا أن نظن به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو مُصدِّق به فى قلبه . وإنما تشك فى أمر ثالث وهو الحكم الدنيوى فيما بينه وبين الله تعالى ؛ وذلك بأن يموت له فى هذا الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستفتى

---

(١) الأحزاب : ٤٧
(٢) السجدة : ١٨
(٣) الحجرات : ٧
(٤) التوبة : ٦٧
(٥) الذاريات : ٤٦
(٦) الكهف : ٥٠
(٧) آل عمران : ١٣١
(٨) البقرة : ٩٨

فيقول : إنى كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن فى يدى فهل يحل لى فيما بينى وبين الله ؟ أو أُنكح مسلمة ثم صدَّق هل يلزمه إعادة النكاح ؟

هـذا فى محل النظر ، فيحتمل أن يقال : أحكام الدنيا منوطة[1] بالقول الظاهر ظاهراً وباطناً . ويحتمل أن يقال : تناط بالظاهر فى حق غيره ؛ لأن باطنه غير ظاهر لغيره ، وهو ظاهر له فى نفسه بينه وبين الله ، والأظهر — والعلم عند الله — أن يقال إنه لا يحل له الميراث ، ويلزمه إعادة النكاح . ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين ، وعمر رضى الله عنه فيما بلغنا كان يراعى ذلك فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة ، والصلاة فعل ظاهر فى الدنيا وإن كانت من العبادات . . والتوقى عن الحرام أيضاً فى جملة ما يجب الله تعالى كالصلاة ، وليس هـذا مناقضاً لقولنا إن الإرث حكم الاسلام وهو الاستسلام التام ما يشمل الظاهر والباطن . فهذا مبحث فقهى ومبنى على ظاهر اللفظ والعموم ؛ فلا ينبغى أن يظن القاصر فى العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث ورد من الكلام الذى يطلب فيه القطع فما أفلح من نظر إلى ظاهر العلوم . وبالله التوفيق .

فصل

فى معنى الكفر والنفاق والشرك

أما الكفر : فهو فى أصل اللغة الستر والتغطية ، قال لبيد[2]

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِراً فِى لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

---

(١) منوطة ، معلقه .

(٢) هذا البيت من معلقته . وهو لبيد بن ربيعة كان فارسا شجاعا شاعرا سخياً ، قال الشعر دهراً فى الجاهلية ثم أسلم . ولما كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عامله بالكوفة : سل لبيداً والأغلب العجلى ما أحدثا من الشعر فى الإسلام قال لبيد : أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر فى عطائه . قدم على النبى صلى الله عليه وسلم سنة وفد قومه بنو جعفر بن كلاب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة فاسلم وحسن اسلامه ورجع إلى بلاد قومه ثم نزل الكوفة حتى مات فى سنة إحدى وأربعين هـ .

وأصل الكفر فى كلام العرب جحود المنعم نعمته .

والكفر إذن على وجهين :

أولهما : كفر المنعِم . والثانى : كفر النعمة .

فأما كفران المنعم ؛ فالذى جهل ربه أو تجاهل أو استجهل ؛ أما من جهل ربه فالذى لا يعرفه ولا يثبته كالدهرية والتنوية وجميع الملل غير ملة الاسلام . دليله : « وإذَا قِيلَ لَهُم اسْجُدُوا للرَّحْمَٰن قالُوا : وما الرَّحْمَٰن ؟ أَنَسْجُدُ لما تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورا »(١) .

وأما المتجاهل فالذى قصَّرَ عن بعض مالا تصح المعرفة إلا به إثباتاً أو نفياً ؛ كمن لا يعرف مالا يسعه جهله من ذاك . دليله : « وجَحَدُوا بِهَا واستَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُم . . . »(٢) الآية .

وأما المستجهل فالمعترض لأوصاف بارئه تعالى بما لايليق به . دليله : « وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ . . »(٣) الآية .

والثانى : كفران النعمة بالفعل والمقال . فهذا الكفر كفر من جهة اللغة ومن جهة الشريعة ، وقد اجتمعت الأمة على الكافر الأصلى وهو المشرك واختلفوا فى كفر النعمة فنفاه قوم وهم القدرية والمرجئة وسائر الأشاعرة . وأثبته سائر الأمة من الاباضية والصفرية والشيعة .

---

(١) الفرقان : ٦٠

(٢) النمل : ١٤

(٣) الأنعام : ٩١

والكفر المعهود عند العرب كفران النعمة ، وورد فى الشرع بمصداقه ، قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام : « **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** » (١) وقوله تعالى : « **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين** » (٢) قوله : ومن كفر؛ أى ترك الحج . وقوله عليه السلام حين سئل أواجب فى كل عام ؟ فغضب فقال : « والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لم تفعلوا ، ولو لم تفعلوا إذن لكفرتم » (٣) . وقال تعالى : « **لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد** » (٤) وقال عليه السلام : « سباب المؤمن فسق وقتله كفر » (٥) وقال عليه السلام : « إن انتفى الرجل من أبيه كفر ، ومن ترك الصلاة كفر » (٦) فى أمثالها من الأحاديث . فمن صادم هذه الآثار فليحاسِبْ نفسه وليراقب ربه .

وأما النفاق : فأصله فى لغة العرب مأخوذ من نافقاء اليربوع ، وهو أحد أبواب جحره يستعمله مستخفيا يخرج منه عند الضرورة إذا خاف ، فأخفاه عن العيون . وهو اسم شرعى فسّره أهل العلم فقالوا : إنه اختلاف السريرة والعلانية ، واختلاف القول والعمل ، والمدخل والمخرج . وهذه المقالة تُروى عن الحسن البصرى ، ومعناها عن حذيفة بن اليمانى رضى الله عنه . وهو قول جل الصحابة رضى الله عنهم .

---

(١) النمل : ٤٠

(٢) آل عمران : ٩٧

(٣) أخرجه الربيع بن حبيب فى صحيحه من حديث أنس ج ٢ : ٢ الحديث (٣٩٤) .

(٤) ابراهيم : ٧

(٥) الحديث أخرجه الشيخان وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة عن ابن مسعود . ورواه ابن ماجة عن أبى هريرة ، وعن سعد ، والطبرانى فى الكبير عن عبدالله بن مغفل ، وعن عمرو بن النعمان بن مقرن والدار قطنى فى الأفراد عن جابر . وهو حديث صحيح .

(٦) أخرج الشيخان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا ترغبوا عن آبائكم فمن رغب عن أبيه فهو كفر » ومن حديث أبى ذر رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر .. »

وحديث : « من ترك الصلاة كفر » رواه الدارقطنى عن أنس به وهو عند أحمد والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم من حديث بريدة ولفظه : « العهد الذى بيننا وبينهم ترك الصلاة ومن ترك الصلاة فقد كفر » ولمسلم عن جابر رفعه : بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة .

وقد ذكر الله عز وجل المنافقين فى آى كثيرة من كتابه ، فاختلف الناس فيهم ، فقال قوم : هم مشركون خالف قولهم اعتقادهم ، وقال آخرون : بل خالف فعلهم قولهم ؛ والأصل فى هذا قول الله تعالى : « **فما لكم فى المنافقين فئتين . .** »[1] الآية ، وذلك أن أصحاب رسول الله عليه السلام اختلفوا فيمن خلفوا فى مكة ممن آمن وصدق برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم : القوم على حقيقة ما أنتم عليه وهم إخواننا ، وإنما ثقل عليهم أمر الهجرة والخروج من الوطن فهم مسلمون مؤمنون .

وقال آخرون : بل هم مشركون بتخلفهم عن الهجرة ولقعودهم بين ظهرانى قوم مشركين . فأنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية معاتبا للمؤمنين فى اختلافهم ، وردا على الفريقين ، فسماهم بخلاف ما سموهم به : إذ سماهم البعض مشركين وقال تعالى « **فمالكم فى المنافقين فئتين والله اركسهم بما كسبوا** » فأخبر أنهم ليسوا بمشركين ولا بمؤمنين لكنهم منافقون ، وأخبر أنه أركسهم[2] بما كسبوا رداً على من سماهم مؤمنين ، وسماهم تعالى منافقين رداً على من سماهم مشركين . ثم قال عتاباً للمؤمنين : « **اتريدون ان تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** »[3] فوقع العتاب ها هنا على من سماهم مؤمنين . ثم قال : « **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء** » فإن يترك المؤمنون الهجرة كما تركوها هم فيكفرون كما كفروا . ثم قالو « **ولا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله** » فقد انقطعت الولاية بين المؤمنين والكفار حتى يهاجروا فى سبيل الله . ثم قال : « **فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا** » .

فصح أنهم قبل التولى لم يصدر منهم فعل يكونون به منافقين إلا ترك الهجرة ، فإن وقع التولى ، وهو الإرتداد ، كان لهم حكم آخر وهو القتل . فمن أثبت النفاق فى

---

(١) النساء : ٨٨

(٢) أركسهم : نكسهم وردهم فى كفرهم .

(٣) سورة النساء : ٨٨ — ٨٩

الأفعال لمخالفتها الأقوال فهو أقرب إلى الحجة والمحجة إن شاء الله ؛ لأنهم استدلوا بظاهر هذه الآية ، وقضوا بأن النفاق فى الأفعال . واستدل من شكّركهم بقول الله تعالى: « **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون** » .(١)

قالوا : فلما أخبر عن الوعد باللسان وعقب النفاق فى القلب علمنا أنما سلبهم الإيمان الذى يكون فى القلب عقوبة لهم ، ولن يستقيم الإيمان والنفاق فى قلب واحد .

وقال الآخرون : قد يصح ذلك ويقاوم إيمانَ القلب ، فإن هذا النفاق دغل وغش فى قلوبهم إلى المؤمنين .

والذين قضوا بأنّ النفاق فى الضمير تعسّفوا(٢) ، لأنهم لا يصلون إلى الإعتقادات إلا بنصوص الشارع ، والذين قضوا بهذا قد أبعدوا عن أنفسهم أسباب الشر لأنهم هوّنوا قاعدة الخوف ، وسهّلوا الطريق إلى الجنة .

والذين قالوا إنه فى الأفعال عظّموا أسباب المخاوف فهم أحزم ، وهو الصحيح إن شاء الله . ولا يستحيل تصرفه فى الوجهين جميعاً ، والإحتجاج فى هذا يطول تركته طلباً للاختصار .

وقد استفاض الحديث بذكر النفاق فى الأقوال والأفعال كقوله عليه السلام : « أربعٌ من كُنَّ فيه فهو منافق حقاً وإنْ صلّى وصام وزعم انه مُسلم ، مَنْ إذا حدّثَ كذِب ، وإذا أُؤتمِن خانَ ، وإذا وَعدَ أخلَف ، وإذا خاصَم فجَرْ »(٣) وهذا حديث صحيح عند الفريقين .

---

(١) سورة التوبة : ٧٥ — ٧٧

(٢) تعسفوا : مالوا وحادوا عن طريق الحق .

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر .

وقال عليه السلام : « أكثرَ مُنافِقي هذه الأمة قُرَّاؤُها »[١] وفى حديث حذيفة رضى الله عنه أنه قال : « كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقاً ، وإنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات »

وقيل له : المنافقون اليوم أكثر أم إذ كان عهد رسول الله ؟ فقال : « المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه »[٢] وقال أيضاً : « إنما كان النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما اليوم فقد كفروا كفراً مبيناً »

وقيل للحسن : يقولون لا نفاق اليوم ، فقال : يا أخى ، لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى الطريق .

وقال هو أو غيره فيما بلغنا : لو نبت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ الأرض .

قال :[٣] وسمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج فقال : أرأيت لو كان حاضراً أكنت تتكلم به ؟ قال لا . قال ابن عمر : كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان ذا لسانين ووجهين جعل الله له لسانين ووجهين فى النار » وقال : « شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »

وحكى الغزالى فى كتابه[٤] أن ابن مليكة قال : أدركت ثلاثين ومائة ـ وفى رواية خمسين ومائة ـ من أصحاب النبى عليه السلام كلهم يخافون النفاق .

---

(١) أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وهو حديث حسن .

(٢) فى نسخ العناطر : وقيل له : المنافقون اليوم أكثر أم إذا كان على عهد رسول الله الخ . . . وهذا الحديث أخرجه البخارى إلا أنه قال « شر » بدل « وأكثر » .

(٣) أى الغزالى : إحياء علوم الدين ١ : ١٢٣

(٤) احياء علوم الدين ١ : ١٢٣ ـ ٢٤

وفى كتابه قال : قال رسول الله عليه السلام فى دعائه : « اللهم إنى استغفرك لما علمت ولما لم أعلم . فقيل له : أتخاف يا رسول الله ؟ فقال : وما يؤمننى والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ! » وأراد بالأصابع القدرة .

وفى حديث أبى سعيد الخدرى أنه قال : « القلوب أربعة : قلب أجرد وفيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن . وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء العذب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد ، فأى المدتين غلب حُكم له بها » . قال الغزالى : وفى لفظ آخر : [غلبت عليه] ذهبت به »(١)

ولمَّا روى الغزالى فى كتابه هذه الأحاديث فى النفاق ولم يمكنه ردُّها اضطر فقال : النفاق نفاقان ؛ أحدهما : يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك فى زمرة المخلدين فى النار .

قال : والثانى : يفضى بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين . قال : وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية ، والأمن من مكر الله ، والعجب ، وأمور أخرى لا يخلوا عنها إلا الصديقون »

وقد رُوى عن جابر بن زيد وغيره فى النفاق وكفر النعمة أحاديث وآثار كثيرة تركت ذكرها ؛ إذ لا يمكن الاستدلال على الخصم إلا بما يُقِرُّ به ، وبالله التوفيق .

وإنما هربوا من أن يجعلوا فى الكبيرة كفراً ونفاقاً جنوحاً إلى الراحة ، ومن قضى فى ذلك بالوعيد أذهبَ الطَّمَعَ فى البيد ، والله أعلم .

وأمَّا الشرك : فمعناه فى اللغة : التساوى كما قدمنا ، قال الله تعالى : « اذ نسويكم

---

(١) قال أبو الفضل العراقى : أخرجه أحمد من حديث أبى سعيد وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه

برب العالمين »[1] ويتصرف فى وجوه كثيرة منها : أن يقيم غير البارىء سبحانه فى مقام البارىء تعالى فى العبادات والتسمية بالألوهية كأهل الأوثان .

ومنها : أن ينكر وجود الله تعالى .

ومنها : أن يجعل له شريكا فى خلقه مما لا يتوهم للغير فيه شركة ولا صنع ؛ كمن نسب جسما من الأجسام إلى غير الله تعالى خلقا .

ومنها : أن يصفه بما يخرجه من معنى الألوهية ، وتكذيبه فى كلامه وتكذيب رسله ، وجهله البعثَ والمعاد وغير ذلك مما لا يسع جهله .

ومنها : الشركة فى الأفعال ، وذلك بأن يتقرب العبد إلى غير الله عز وجل رياء وسمعة ؛ كما قال تعالى : « **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا** »[2]

ومنها : شرك الإكراه ، ولكن لا يعاقب العبد عليه لأنه قد أبيح له النطق به فى حالة الإكراه بشرط طمأنينة الإيمان فى القلب .

ومنها : الشرك المركب فى قلوب العباد من الجزع والهلع وقلة الثقة بموعود الله عز وجل ، وثقتهم بأنفسهم وقواهم وحيلهم حتى أنهم ليثقون بكلابهم ، ولذلك قال ابن عباس لا تزالون تشركون ، تقولون : لولا كلابنا لسرقنا .

ومن هذا المعنى أخبر الله تعالى عنهم فقال : « **فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون** » قيل : كانوا يقولون لولا استواء الريح لهلكنا .

وبالجملة ، وإن الشرك يلحق العبد فى أقل الخطرات كما قال عليه السلام : « الشرك

---

(١) سورة الشعراء : ٩٨

(٢) الكهف : ١١٠

أخفى فى أمتى من دبيب ذرَّة سوداء على صخرة صمَّاء فى ليلة ظلماء »[١] فإذا كان الشرك أخفى من دبيب الذر فكيف السبيل منه إلى السلامة إلا بعصمة الله تعالى ! !

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بكر الصديق رضى الله عنه : « ألا أدلك على كلمات إذا قلتها برئت من الشرك ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال عليه السلام : قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك لما أعلم »[٢]

والله تعالى نسأله التوفيق فى القول والعمل ، والعصمة من الخطإ والزلل فهو حسبنا ونعم والوكيل .

وقد رأيت أن أثبت ها هنا دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ورسالته إلى كافة الخلق ، وأختم بها قنطرة التوحيد إذ كانت من جنسها وموضعها هو الأليق بها . وبالله تعالى العون والتوفيق

---

(١) أخرجه أبو يعلى وابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى بكر ، ولأحمد والطبرانى نحوه من حديث أبى موسى .

(٢) أخرجه الحكيم عن أبى بكر ولفظه : « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ، وسأدلك على شىء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره ، تقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم ، تقولها ثلاث مرات » .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليما

سيرة النبى صلى الله عليه وسلم كتبها لِلْعَلاء بن الحضرمى[1]:

« هذا كتاب من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى نبى الله ورسوله إلى خلقه كافة ، سيرة للعلاء بن الحضرمى ومن معه من المسلمين عهداً عهده نبى الله إليهم : أيها المسلمون : اتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا لِلْعَلاء بن الحضرمى ؛ فإنى

---

(١) العلاء بن الحضرمى واسم الحضرمى عبد الله بن عماد بن أكبر بن ربيعة بن عويف الحضرمى وذكر ابن عبد البر خلافا فى نسبه ، ولا خلاف فى أنه من حضرموت . وكان أبوه عبد الله الحضرمى قد سكن مكة وحالف حرب بن أمية والد أبى سفيان . وكان للعلاء عدة إخوة منهم عمرو بن الحضرمى وهو أول قتيل من المشركين وماله أول مال خمس فى المسلمين وبسببه كانت وقعة بدر . .

ويروى أن العلاء بن الحضرمى وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أتقرأ من القرآن شيئاً فقرأ « عبس » ثم قال : « هل تروى من الشعر شيئاً » ؟ فأنشده :

حى ذوى الأضغان تسب قلوبهم ... تحيتك القربى فقد ترقع النمل
وإن دحسوا بالكفر فاعف تكرما ... وإن خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذى يؤذيك منه سماعه ... وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر حكما وإن من البيان سحرا » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ثم ولاه على البحرين إذ فتحها الله عليه و أقره عليها أبو بكر ثم عمر رضى الله عنهما . ثم ولاه عمر البصرة فمات قبل أن يصل إليها بماء من مياه بنى تميم سنة أربع عشرة . وقيل سنة إحدى عشرين . وكان رضى الله عنه مجاب الدعوة وقد خاض البحر بكلمات قالها ودعا بها وذلك مشهور عنه فى كتب الفتوح . وفى تاريخ الطبرى : بسند ذكره عن منجاب بن راشد قال : بعث أبو بكر العلاء ابن الحضرمى على قتال أهل الردة بالبحرين ، فلما أقبل إليها وكان بجبال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال فى مسلمة بنى حنيفة من بنى سحيم ومن أهل القرى من سائر بنى حنيفة ، وتنقاء قيس بن عاصم وخرج معه إلى قتال أهل البحرين فأكرمه العلاء ، وخرج معه العلاء من عمرو وسعد الربّاب مثل عسكره ، وسلك بنا الدهناء . حتى إذا كنا فى بحبوحتها والحنانات والمزافات عن يمينه وشماله ، وأراد الله عز وجل أن يرينا آياته نزل وأمرنا بالنزول ، فنفرت الإبل فى جوف الليل ، فابقى عندنا بعير ولا زاد ولا مزاد ولا بناء إلا ذهب عليها فى عرض الرمال ، وذلك حين نزل الناس ، وقبل أن يحطوا ، =

استعملته عليكم وأمرته بتقوى الله الذى لا إله إلا هو وحده لاشريك له ، وأن يُلين لكم الجناحَ وأنْ يحسن فيكم السيرة بالحق، وأن يُحسن ولايَتكمُ ؛ ويشاوِرَكم فى الأمُورِ

= فما علمت جمعا هجم عليهم من الغم ما هجم علينا . وأوصى بعضنا إلى بعض ، ونادى منادى العلاء : اجتمعوا ، فاجتمعنا إليه ، فقال : ما هذا الذى ظهر فيكم وغلب عليكم . فقال الناس : وكيف نلام ونحن إن بلغنا غداً لم تحم شمسه حتى نصير حديثا ، فقال : أيها الناس ، لا تراعوا ، ألستم مسلمين ألستم أنصار الله ؟ قالوا بلى ، قال : فأبشروا ، فو الله لا يخذل الله من كان فى مثل حالكم . ونادى المنادى بصلاة الصبح حين طلع الفجر فصلى بنا ، ومنا المتيمم ، ومنا من لم يزل على طهوره ، فلما قضى صلاته جثا لركبتيه وجثا الناس فنصب فى الدعاء ونصبوا معه ، فلمع لهم سراب الشمس ، فالتفت إلى الصف . فقال : رائد ينظر ما هذا . ففعل ثم رجع . فقال سراب ، فأقبل على الدعائم ثم لمع لهم آخر

فقال : ماء ، فقام وقام الناس ، فمشينا إليه حتى نزلنا ، فشربنا واغتسلنا ، فما تعالى النهار حتى أقبلت الإبل تكرد من كل وجه فأناخت إلينا ، فقام كل رجل إلى ظهره فأخذه فما فقدنا سلكا ، فأرويناها وأسقيناها العلل بعد النهل وتروينا ثم تروحنا — وكان أبو هريرة رفيقى — فلما غبنا عن ذلك المكان قال لى : كيف علمك بموضع ذلك الماء ؟ فقلت : أنا من أهدى العرب بهذه البلاد . قال : فكن معى حتى تقيمنى عليه ، فكررت به فأتيت به على ذلك المكان بعينه ، فإذا هو لا غدير به ، ولا أثر للماء فقلت له : والله لولا أنى لا أرى الغدير لأخبرتك أن هذا هو المكان ، وما رأيت بهذا المكان ماء ناقعاً قبل اليوم . واذا اداوة مملوءة ؟ فقال : يا أبا سهم هذا والله المكان ولهذا رجعت ورجعت بك ، وملأت اداوتى ثم وضعتها على شفيره ، فقلت : ان كان منا من المن وكانت آية عرفتها ؛ وان كان غيانا عرفته ؛ فاذا من من المن فحمداً لله . »

أما خبر اجتيازه البحر مع أصحابه فقد أورده الطبرى فى تاريخه أيضاً قال : « وندب الناس إلى دارين ، ثم جمعهم فخطبهم ، وقال ان الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشرد الحرب فى هذا البحر ؛ وقد أراكم آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر ، فانهضوا الى عدوكم ، ثم استعرضوا البحر اليهم ، فإن الله قد جمعهم ، فقالوا : نفعل ولا نهاب والله بعد الدهناء هولا ما بقينا . فارتحل وارتحلوا ، حتى اذا أتى ساحل البحر اقتحموا على الصاهل والجامل والشاحج والناهق ، والراكب والراجل ودفا ودعوا .. قال : فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعا يمشون على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل ، وان مابين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر فى بعض الحالات ، فالتقوا بها ، واقتتلوا قتالا شديداً ، فاتركوا بها مخبراً ، وسبوا الذرارى واستاقوا الأموال .. فلما فرغوا رجعوا عودهم على بدئهم حتى عبروا وفى ذلك يقول عفيف بن المنذر .

ألم تر أن الله ذلل بحره ... وأنزل بالكفار احدى الجلائل
دعونا الذى شق البحار فجاءنا ... بأعجب من فلق البحار الأوائل

أنظر (الطبرى دار المعارف حـ ٣ : ٣٠٦ — ٣١٣ والأغانى ط الساسى : ١٤ : ٤٤ — ٤٧)

كُلها ؛ وأن يَحْكم بينكم وبين من لَقِيَ من الناس بما أنزَلَ الله فى كِتَابِهِ من العدْل ، فإذا حَكَمَ وعَدَلَ وأقْسَطَ واسْتُرْحِمَ فَرَحِمَ فاسمعوا له وأطيعوا وأحْسِنُوا مُؤازَرَتَه ؛ فإنَّ لى عَلَيكُمْ من الله حقاً عظيما وطاعة لاتقدرون على قدر ما يجب لى عليكم ، ولا تبلغ العقول كُنْهَ عظمة حق الله وحقِّ رَسُولِهِ . وكما أن لله ورسوله — على الناس عامة ، وعليكم خاصة — حقاً واجباً وطاعة ورضى ووقاراً ، فمن اعتصم بالطاعة وعظَّمَ حقَّ أهْلِهَا ، ولزم أمر الله تعالى وما أمرناه به من ولاية المسلمين فإن له على المسلمين حقاً واجباً وطاعةً .

واعلموا عبادَ الله أن فى الطاعة دَرْكاً لكل خير يُبْتغى، ونجاةً من كل شر يُتَّقَى ، وإنما نُشْهِدُ الله على من ولَّيْنَاه شيئاً من أمرِ المسلمين — قَلَّ أو كَثُر — ولم يعدل فلا طاعةَ له وهو خَلِيعٌ مِمَّا وَلَّيناه ، وقد برئت للذين معه أيمانهم وعهودهم وذممهم ، فلْيَسْتَخِيرُوا اللهَ عِنْدَ ذلك وليستَعْمَلُوا عليهم من أفضل أفاضلهم .

سيروا على بركةِ الله وعونِهِ ، وتوفيقه ونصره ، وعافيتهِ ورُشْدِهِ ، فَمَنْ لقيتموه فادْعُوه إلى كتابِ الله المنزل، وسنة نبيه على أن يُحِلُّوا حلالَ ما أحلَّ الله لهم فى كتابه ، ويحرموا حرامَ ماحرَّم الله عليهم فى كتابه ، وأن يخلعوا الأنداد ، وأن يبرءوا من الشرك والكفر والنفاق ، وأن يتركوا عبادةَ الطَّواغِيتَ واللاَّتِ والعُزَّى ، وأن يتركوا عبادة عيسى بن مريم وعزير بن حروة والملائكة والشمس والقمر والنيران وكل شىء يُتَّخَذُ ويُعْبَدُ من دُونِ الله ، وأن يَتَولَّوا اللهَ ورسوله، وأن يَتَبرَّءوا مما بَرِىءَ الله ورسوله منه ؛ فإذا فعلوا ذلك وأقرُّوا بهِ فقد دخلوا فى الولاية ، فبينوا لهم بعد ذلك كتاب الله الذى تدعونهم إليه المنزل مع روح الله الأمين جبريل عليه السلام على صفيِّهِ من العالمين محمد بن عبد الله ، رسول الله ونبيه ، أرسله رحمة للعالمين عامة ؛ الأسود منهم والأبيض ، والجن والإنس . كتاب الله فيه بيان كل شىء كان قبلكم ، وما هو كائنٌ بعدكم ليكون حاجزاً بين الناس يحجز به بعضكم عن بعض ، ويحرم دماء بعضكم على بعض ، وأموال بعضكم على بعضٍ ، وهو كتاب الله مُهَيْمِناً على الكِتَاب ومصدِّقاً

لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، يخبركم فيه بما كان قبلكم مما فاتكم دركه فى آبائكم الأولين ـ الذين أتتهم رسل الله وآياته ـ كيف كان جوابهم وكيف تصديقهم بآيات الله ، يخبركم بشأنهم وأعمالهم وأعمال من هلك منهم بعمله لتتجنبوا أن تعملوا بمثله فيحق عليكم من عذاب الله وسخطه ونقمته مثل الذى حق عليهم عند ذلك من شر أعمالهم ، وتهاونهم بأمر الله . وأعمال من نجا منهم لتعملوا مثل أعمالهم رحمة منه لكم ، وشفقة من الله عليكم .

وهو هدى من الضلالة ، وبيان من العمى ، واستقالة من العثرة ، ونجاة من لحيرة ، ونور من الظلمة ، وضياء من الأحداث ، وعصمة من الهلكة ، ورشد من الغواية ، وبيان من اليقين ، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة ، وفيه كمال دينكم .

فإذا عرضتم عليهم كتاب الله وأقروا لكم به فقد استكملوا الولاية . فأعرضوا عليهم الإسلام ؛ والإسلام : الصلوات الخمس ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، وصيام شهر رمضان ، والغسل من الجنابة ، والطهور عند الصلاة ، وبر الوالدين المسلمين وصلة الرحم المسلمين ؛ فإذا فعلوا ذلك فقد أسلموا .

وادعوهم إلى الإيمان وبينوا لهم شرائعه ؛ ومعالم الإيمان : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن ما جاء به حق ، وأن ما سواه باطل . والإقرار بالملائكة والكتب والنبيين قبل محمد والرسل كلهم أجمعين ، وأن الله بعثهم . والإقرار بهذا الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، والإيمان بالبعث والحساب ، والجنة والنار ، والموت والحياة ؛ فإذا فعلوا ذلك فهم مؤمنون .

ودلوهم على الإحسان : أن يوفوا الله بالذى عهد إلى رسله وعهدت رسله به إلى خلقه ، وسلامة صدورهم من كل غائلة وشنآن للمسلمين ، والتصديق بوعد الرب ، والوداع من الدنيا فى كل ساعة ، والمحاسبة للنفس عند استئناف كل يوم وليلة ، والتعاهد لما فرض الله عليهم وأداءه فى السر والعلانية ، فإذا فعلوا ذلك فهم محسنون .

ثم بينوا لهم الكبائر فإن الهلكة فيها : وهي الشرك بالله ؛ والله لا يغفر أن يشرك به ، والسحر ؛ والساحر ما له في الآخرة من خلاق ، وقطيعة الرحم ؛ أولئك الذين لعنهم الله ، والفرار من الزحف ؛ وباءوا بغضب من الله ، والغلول ؛ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم لا يقبل منه وقاتل النفس التي حرم الله جزاؤه جهنم . والزاني ؛ يضاعف له العذاب ، وقاذف المحصنة : لعن في الدنيا والآخرة ، وأكلة الربا : قد أذنهم الله ورسوله بحرب منه فإذا انتهوا عن الكبائر فقد استكملوا التقوى. فادعوهم إلى العبادة والعبادة : الصيام ، والقيام ، والخشوع ، والركوع والسجود ، واليقين والرجوع والإنابة ، والإخبات والتحميد والتهليل ، والتسبيح والتكبير والصدقة بعد الزكاة ، والتواضع والسكينة ، والشكر والمواساة ، والدعاء والتضرع ، والإقرار بالملكة لله ، والإستقلال لما عمل من عمل صالح . فإذا فعلوا ذلك فقد استكملوا العبادة . فأذنوهم عند ذلك بالجهاد وبينوه لهم ، ورغبوهم فيما رغبهم الله فيه من فضل الجهاد وفضل ثوابه عند الله . فإن انتدبوا فبايعوهم وادعوهم حين تبايعونهم إلى كتاب الله المنزل وسنة نبيه عليه السلام : عليكم عهد الله وذمته وميثاقه ، وسبع كفالات لا تنكثون أيديهم من بيعة ، ولا تنقضون أمر وال من ولاة المسلمين. فإذا أقروا لكم بذلك فبايعوهم واستغفروا الله لهم ؛ فإذا خرجوا يقاتلون في سبيل الله غضباً لله ونصراً لدينه ؛ فمن لقوا من الناس فليدعوه إلى مثل الذي يدعوا إليه من كتاب الله وإجابته وبيانه وإسلامه وإيمانه وإحسانه ، وتقواه وعبادته وهجرته ، فمن اتبعهم فهو المستجيب للمسلمين ، المؤمن المحسن ، المتقي العابد المهاجر ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن أبى هذا عليكم فقاتلوه حتى يفيء إلى أمر الله : إما أن يسلم ، وإما أن يعطى الجزية عن يد وهم صاغرون من الذين أوتوا الكتاب وإن لم يفيء سفك دمه وغنم ماله وسبيت ذريته . ومن أقر لكم بالجزية وأعطيتموه الذمة فأوفوا له بها ، ومن أسلم وأعطاكم الرضا فهو منكم ، ومن قاتلكم مجاهداً من بعد ما بينتم له فقاتلوه ، وحاربكم فحاربوه ، وكايدكم فكايدوه ، وجمع لكم فاجمعوا له ، وخادعكم فخادعوه من غير أن تعتدوا ، وماكركم فماكروه من غير أن

تعتدوا سراً أو علانية ؛ فإنه من انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل .

واعلموا أن الله معكم، يراكم ويرى أعمالكم ويعلم ماتصنعون، فاتقوا الله وكونوا منه على حذرٍ ، وإنما هذه أمانة ائتمنني ربي عليها أبلغها عباده عُذراً منه إليهم، وحجةً يحتج بها على خلقه . فمن بلغه هذا الكتاب — من الخلق أجمعين — فعمل بما فيه نجا ، ومن اتبع ما فيه هدى ، ومن خاصم بما فيه ظفر ، ومن قال بما فيه نصر ، ومن تركه ضل حتى يراجعه فيعمل بما فيه ، فأسمعوه آذانكم ، وأوعوه قلوبكم فإنه نور الأبصار وربيعُ الأفئدة وشفاءٌ لما في الصدور . وكفى به آمراً وزاجراً ومعتبرا وعظة وداعياً ومحتجاً وهو الخير — من الله ورسوله — الذى لا شرَّ فيه ، كتابٌ من محمد بن عبد الله للعلاء بن الحضرمى حين بعثه إلى البحرين يدعو إلى الله ورسوله ويدعو إلى ما فيه من حلال ، وينهى عن ما فيه من حرام ، ويدل على ما فيه من رشد ، وينهى عن ما فيه من غيٍّ ، كتاب إئتمن عليه نبيُّ الله العلاء بن الحضرمى فإن أصابت العلاء بن الحضرمى مصيبةُ الموتِ فخالد بن الوليد — سيفُ الله — على المسلمين . فليسمعوا له وليطيعوا ما عرفوا أنه على الحق حتى يخالف الحقَّ إلى غيره ، وخالد بن الوليد خليفة . وقد أعذر إليهما فى الوصية بما فى هذا الكتاب إلى من معهما من المسلمين ، ولم يجعل لأحد منهما عذراً فى إضاعة شىء منه ، لا للوالى ولا لجميع من صحبهما من المسلمين ، فمن بلغه هذا الكتاب فلا حجة له ولا عذر ، ولا يعذر أحد بجهل شىء مما فى هذا الكتاب ويسعهم جهلُ ما سواه . كُتب هذا الكتاب لثلاث بقين من شهر ذى القعدة لأربع سنين مضين من ظهور نبيِّ الله عليه السلام إلا شهرين . شهد هذا الكتاب يوم كتب : معاوية بن سفيان ، وعثمان ابن عفان يمليه عليه ونبيُّ الله جالس والنقباء : رجل من قريش ، ورجل من بنى سليم ، ورجل من غفير ، ورجلان من حمير ، ورجل من غسان ، ورجلٌ من خزاعة ، ورجل من جهينة وأربعة من الأنصار : المختار بن قلس العدىّ ، وأبو الدرداء السلمى ، وحذيفةُ ابن اليمانى العبسى ، وقصىُّ بن أبى عمرة الخيرى ، والضحاكُ بن ربيعة الخيرى ، وشبيبُ ابن مرة الغسانى ، وميسر بن صعصعة الخزاعى ، وعوادُ بن جناح الجهنى ، وسعدُ بن معاذ

الأنصارى ، ونوفل بن طلحة الأنصارى، وسعد بن عبادة الأنصارى، وزيد بن عمير الأنصارى ، شهدوا هذا الكتاب حين دفعه نبى الله إلى العلاء بن الحضرمى وخالد بن الوليد وائتمنهما عليه وأوصاهما بما فيه ، وختمه نبى الله بخاتمه ، وجمعهما ومن أراد الخروج معهما ، ثم أمر عثمان فقرأ عليهم جميع ما فى هذا الكتاب بأعلى صوته والله على كل شىء وكيل .

دعوة من نبيك ورسولك محمد يسألك أن تنصر من عمل بما فى هذا الكتاب نصراً عزيزاً ، وأعنه على ما استعانك عليه ، وعافه ما أبقيته ، واغفر له إذا توفيته ، والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . »

تمت قنطرة الإيمان والتوحيد بتمام سيرة الدعوة بحمد الله وحسن عونه والصلاة على محمد نبيه . تتلوها قنطرة الصلاة(١)

---

(١) هنا ينتهى القسم الأول من الكتاب حسب تقسيمه الجديد ، ويبتدى القسم الثانى بقنطرة الصلاة وينتهى بانتهاء قنطرة الحج . والحمد الله على ما أعان من العمل فيه ، ونسأله تعالى العون على إتمامه . وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين .

الفهارس

فهـــرس الأعلام

فهـــرس البلدان والأماكن

فهـــرس الـكتاب

فهرس الأعلام

(أ)

محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم : في سائر الكتاب
الأحنف بن قيس : ٧٣ ، ١٤٢
الأحوص بن حكيم : ١٩٤ ، ٢٢٣
الأعمش : ٤٦ ، ٢٢٨ ، ٢٦٨
الأوزاعي : ١٨٨ ، ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢٢٩
ابراهيم عليه السلام : ٦٥ ، ٨٣ ، ٣٢٠
ابراهيم أطفيش (أبو اسحاق) : ٥٩ ، ٦٢ ، ٩٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
ابراهيم بن أدهم : ٢١١ ، ٢٣٢ ، ٣٣٣
ابراهيم بن الأغلب : ٤٩
ابراهيم بن جبلة : ٢١٣
ابراهيم بن حسان : ٣٠
ابراهيم بن داود البغدادى : ١٨٣
ابراهيم بن عيينة : ٧٨ ، ١٩٨
ابراهيم بن يزيد بن شريك التيمى : ٢٣٣
ابن أبى الدنيا : ٢٢٠
بن أبى ذئب : ١٥٣ ، ١٥٤
ابن جريج : ٢٤٠
ابن حبان (أبو الشيخ) ٢٠ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٥٥ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ ، ٢٧٢ ، ٣٤٤ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥
ابن خلدون : ١٥٦
ابن خلاد : ٢١٩
ابن خلكان : ١٥٦
ابن دريد : ١٣٦ ، ١٧٨
ابن الرومى : ١٦٤
ابن زرقون : ٣١٤
ابن سعد : ٣٣٩
ابن السنى : ٧٩ ، ٨٨ ، ٢١٦ ، ٢٧١
ابن شهاب الزهرى : ٤١ ، ٧٨
ابن عازب : ٢٩
ابن عبد البر : ٥٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٣٤٧
ابن عدى : ٦٦ ، ١٣٦ ، ١٦٨ ، ٢١١ ، ٣٤٤ ، ٣٧٥
ابن العميد : ١٨١
ابن القطان : ٢٧٢
ابن لهيعة : ١٠٧ ، ٣٣٤
ابن ماجة : ٦٠ ، ٦١ ، ٧٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ، ١٨١ ، ١١٩ ، ١٨٨ ، ٢٠١ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٣٣٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٣٢١ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٦٩
ابن الحجر : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥١
أبو الأسود الدؤلى : ٧١
أبو أمامة : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ١٣٦ ، ١٨٨ ، ٢٦٧
أبو أيوب الأنصارى : ٦٢ ، ٢٤٠
أبو بردة بن ابى موسى : ٨٠
أبو بكر الصديق : ٣٨ ، ٨٤ ، ١٢٥ ، ١٧٨ ، ٢٠٨ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦
أبو بكر الآجرى : ٦١
أبو بكر بن الشخير : ٣٣

أبو بكر بن عبد الله المزنى : ١٢٥
أبو بكر بن لال : ١٧٣
أبو حاتم السجستانى : ٣٨
أبو حنيفة : ١١٠ ، ٢٤٢
أبو حيان التوحيدى : ٢٩
أبو داود القبلى النفزاوى : ٩١ ، ١٦٢ ١٦٦
أبو داود (صاحب السنن) : ٦٠ ، ٦٥ ٨٦ ، ٨٨ ، ١٥٥ ، ١٨١ ، ٢٠٢ ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٩ ٢٦١ ، ٢٧٢ ، ٣٤٢ ، ٣٦٠
أبو الدرداء : ١١ ، ٢٠ ، ٣٨ ، ٤٠ ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٩ ٩٣ ، ١٤١ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٣٤ ٢٣٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٣٤٤ ، ٣٨١
أبو ذر أبان بن وسيم : ٢٢
أبو ذر الغفارى : ٢٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ ١٩٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٦٧ ، ٣١١
أبو رافع : ٥٧
أبو زكرياء الباروني : ١٦١
أبو زكرياء التندميرتى : ٩٢
أبو زكرياء الجناوني : ٩٢
أبو سليمان الدارانى : ٢٤٦
أبو طالب المكى : ٥٩ ، ٧٠ ، ٩٨
أبو العالية : ١٥٦ ، ٢٣٣
أبو عبيدة = مسلم بن أبى كريمة
أبو العباس الذهبى : ٨٦
أبو غانم الخراسانى : ٢٠٦
أبو الفرج الأصفهانى : ١٧٢
أبو الفضل العراقى (الحافظ) : ٣٣ ، ٤٠ ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٩٣ ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٦١ ، ٢٧٤ ٣٤٧ ، ٣٧٣
أبو القاسم البرادى : ٣٠٦ ، ٣٤٩
أبو محمد الكباوى (يصليتن) : ٩٢
أبو مسعود البدرى : ٨٨
أبو منصور الياس : ٤٩
أبو منصور الديلمى : ٧٦ ، ١٤١ ، ١٦٧
أبو المؤثر : ٣٣١
أبو موسى الأشعرى : ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٤ ٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٣٩ ، ٣٧٥
أبو نعيم : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٩ ٨٥ ، ٨٨ ، ١٤٩ ، ١٦٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٦٣ ٢٧١ ، ٣٥٩
أبو نوح : ٥٩
أبو هارون الجلالى : ٩٢
أبو هريرة : ١٢ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٦١ ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٥ ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١١٠ ، ١٤٤ ، ١٥٥ ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢١٩ ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٥٩ ، ٢٧٣ ٣١٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٧
أبى بن كعب : ٤١ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٧٠
أحمد بن حنبل : ٢ ، ٢٤ ، ٥٠ ، ٦٢ ، ٨٥ ١١١ ، ١٧٧ ، ١٩٤ ، ٢١٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ٢٧٤ ، ٣١١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٦٢ ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥
أحمد بن الحسن : ٢٥٦
أحمد شاكر : ٣١٨
أحمد بن عبد ربه : ٤٥ ، ١٤٤ ، ١٤٥
أحمد بن محمد بن بكر : ٣٤٩
إدريس عليه السلام : ١٤٥
أسامة بن زيد : ١٠٩ ، ١٩٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤
أسامة بن منقذ : ٨١
اسحاق بن راهويه : ٣٨
أسماء بنت أبى بكر : ٣٨
اسماعيل عليه السلام : ٦٢ ، ١٤٥
اسماعيل بن درار الغدامسى : ٩١ ، ١٦١

اسماعيل بن علية : ٢٠٣
أفلح بن عبد الوهاب : ٢٢ ، ٣٠٦
اقليدس الفيثاغورى : ١٢٣
الليث بن سعد : ٣٣٤
أم حبيبة : ٢٣٤
أم سلمة : ٢٢٧
أم ماطوس : ٩٠
أمنة (زوجة جابر بن زيد) : ٩١
أنس بن مالك : ٢ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٢
٤٦ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥
٧٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٤١ ، ١٤٤
١٤٩ ، ١٨١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ ، ٢١١
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٩
٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣٢١
أوس بن حجر : ٥٠
إياس بن معاوية : ٥٩
أيوب بن اسماعيل : ١٣٤
أيوب السختيانى : ٤٦

(ب)

البخارى (محمد بن اسماعيل) : ٢ ، ١٢ ، ٢٤
٥٠ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ١٠٧ ، ١٥٩ ، ١٦٧
١٧٤ ، ١٧٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٧
٢٧٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢
البراء بن عازب : ٢٩ ، ١٠٧
بريدة : ٢١١ ، ٢٦١ ، ٣٦٩
البزار : ٨٣ ، ١٧٧
بزرجمهر : ٤٤ ، ٧١ ، ١٤١ ، ١٤٩
بشر بن الحارث : ٢٢٣
البشر بن محمد (أبو سهل) : ٢٠٩
البلاذرى : ١٤٥
بلج بن عقبة : ٢١٣
بنو اسرائيل : ٤٤ ، ٤٦ ، ٢٢٥
بنو تيجن : ٩٠
بنو قريظة : ٨٠
بنو النضير : ٨٠
البيهقى (صاحب السنن) : ٤٢ ، ٧٨ ، ١٠٧
١١١ ، ١٣٥ ، ١٦٨ ، ١٩٣ ، ٢٠٩
٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣٣٩ ، ٣٦١

(ت)

تبع : ٢٣٣
الترمذى : ٢ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٦٠
٦١ ، ٦٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١١١
١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ٢٢٧ ،
٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٦٧ ، ٢٥٣ ، ٣١٦ ،
٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٩ ، ٣٨٥
تيجينة : ٢٢

(ث)

ثابت بن قرة : ٢٩
الثعالبى : ١٥٦
ثمامة بن أثال : ٣٧٦
ثمامة بن أشرس : ٣٦
ثور بن يزيد : ٢٢٠

(ج)

جابر بن زيد (أبو الشعثاء) : ٤٢ ، ٥٨ ،
٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٩١
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ،
٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ،
٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،
٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٤٠ ، ٣٧٣
جابر بن عبد الله : ٤٤ ، ٧٩ ، ١٣٢ ،
٢١٢ ، ٢٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٩
جانا التنزغى : ٩٢
جعفر بن السماك : ٩١
جعفر بن محمد : ١٩٨
جلال الدين السيوطى : ٦٠ ، ١٩٣ ، ٣٦٠
جلدين البغطورى : ١٤٧
جندب : ٢٢٦ ، ٣٢١

(ح)

حاتم الأصم : ٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢٨١ ،
حاجب بن مدود الطائى : ١٦٤
الحارث بن أبى أسامة : ٢٨ ، ٢٩ ، ٤١
الحارث بن أسد المحاسبى : ٣٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٤٩
الحاكم (أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابورى) ٦٣ ، ٨٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٣٥ ، ١٧٧ ، ١٩٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٦٩
حبيب بن أوس الطائى (أبو تمام) : ١٥٣
حذيفة بن اليمانى : ٦٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٣٧٢ ، ٣٨١
الحسن بن بشر الآدمى (أبو القاسم) : ١٨٠
الحسن البصرى : ٢٩ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٧٥ ، ٢٠٠ ، ٢١٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٦٤ ، ٣٦٨

(خ)

خالد الحذاء : ١٨٧
خالد القسرى : ٨٠
خالد بن الوليد : ٣٨١ ، ٣٨٢
خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها : ٣٨
خصيب بن ابراهيم : ٩٠
الخضر عليه السلام : ١٣٨ ، ١٥٣ ، ٢٦٥
الخطيب : ٤٥ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ١٧١ ، ٢١١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٣
خلف الأحمر : ١٨٣
خليفة بن عسكر : ٩٠
الخليل بن أحمد : ١٤٤ ، ١٧٠ ، ١٧٩ ، ١٨٠

(د)

الدارقطنى : ١٠٧ ، ٢٤٧
الدرامى : ١٩٤ ، ٢١١ ، ٢٣٣
داود عليه السلام : ٦٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٣٣٥
داود بن عبد الله : ١٧٤
الدرجينى (أحمد بن سعيد) : ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤

(ذ)

ذو القرنين : ٢٣٣
ذو النون المصرى : ٢٣٢ ، ٣٣٤

(ر)

الربيع بن حبيب : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ١٣٢ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٦٩
الربيع العامرى : ٤٦
رستم : ٨٠
الرشيد : ٣٦ ، ٩٧

(ز)

زار بن يونس اليتفسى (أبو نصر) : ٢٠٩
الزبير بن العوام : ٢٥٢
زرارة بن سعد : ١٧٧
زكريا القرسطائى (أبو يحى) : ٩٠
زياد بن أبيه : ٤٢
زيد بن أسلم : ٨٧
زيد بن أفصت (أبو محمد الدرقى) : ٩٣
زيد بن ثابت : ١٣٥ ، ١٧١ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠
زيد بن عمير الأنصارى : ٣٨٢

(س)

سابور بن أردشير : ٤٠
سعد بن أبى وقاص : ٢٣٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦١
سعد بن عبادة الأنصارى : ٣٨٢

سعد القرظى : ٢٤٦
سعد بن معاذ الأنصارى : ٣٨١
سعيد بن جبير : ٨٠
سعيد بن سهل : ٣٢١
سعيد بن المسيب : ٤١ ، ٨٩ ، ٢٢٨
سفيان الثورى : ١١٢ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤
سلمان الفارسى : ٤٠ ، ٦١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
سلمة بن بخت : ٣٥٩
سلمة بن مسلم الصحارى : ٦٢
سليمان عليه السلام : ٥٦ ، ٧٣ ، ٣٦٩
سليمان باشا البارونى : ٢٢ ، ٤٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٦٢
سليمان بن محمد الحامض : ١٨٠
سليمان بن هارون اللالوتى : ٩٠
سهل التسترى : ٢٢٢
سهل بن سعد : ٨٣ ، ٣٤٢
سهل بن معاذ : ٨٥
سويد بن الحارث : ٢٦٣

(ش)

شبيب بن مرة الفسانى : ٣٨١
شداد بن أوس : ٢٦٤
شعيب عليه السلام : ٢٠٨
شقيق البلخى : ١١٦ ، ٢٠٨
الشماخى (أبو العباس) : ٢٢ ، ٤٩ ، ٩٠ ، ١٣٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤

(ص)

صالح الفركلى (أبو خليل) : ١٦١
صالح بن عبد القدوس : ٣١ ، ١٣٩
صالح بن كيسان البصرى : ٢٠٣
صحار العبدى : ٩١
صفوان بن عسال المرادى : ٨٢
الصلتان العبدى (قثم بن خبيئة) : ١٣٤

(ض)

الضحاك : ٣٢ ، ٢٠٠
الضحاك بن ربيعة الحميرى : ٣٨١
ضمام بن السائب : ٥٩ ، ٣٠٦

(ط)

الطبرانى : (على بن عمر) : ١١ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ٢٥٦ ، ٢٦٧ ، ٣٣٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥
طريف بن سليمان : ٧٨

(ع)

عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : ٣٠ ، ٣٣ ، ٦٥ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٨٨ ، ٢١٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٣٥٠
عائشة بنت سعد : ٣٥٩
عاصم السدوانى : ٩١
عامر بن جدرة : ١٤٦
عامر بن عبد الله بن الزبير : ٤٥
عامر بن عبد الله الشعبى : ٤٦ ، ١٣٥ ، ١٨٢ ، ٢٣٢ ،
عبادة بن الصامت : ٢٢٩ ، ٣٢٥ ،
عبد الأعلى المعافرى (أبو الخطاب) : ٩١ ، ١٦٦ ،
عبد الحميد الجناونى : ٢٢
عبد الخالق الغزانى : ٤٩
عبد الرحمن بن أبى بكر : ١٨٧
عبد الرحمن بن الأشعث : ٨٠
عبد الرحمن بن رستم : ٩١ ، ١٦٦ ، ٣١٣ ، ٣١٤
عبد الغنى الأزدى : ٦١
عبد الله بن بركة العمانى : ٦٢
عبد الله بن جزء : ٦٤

عبد الله بن حميد السالمى : ٥٩ ، ٦٢ ، ٧٨ ، ١٧١
عبد الله بن الخير : ٢٢
عبد الله بن الزبير : ٣٨
عبد الله بن سلام : ٤٠ ، ٥١
عبدالله بن عباس : ٣١ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٠٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٧١ ، ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٦١
عبد الله بن عتبة بن مسعود : ٨٠
عبد الله بن عمر : ١٢ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ١٥٤ ، ١٧٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
عبد الله بن عمرو : ٨٦ ، ٨٧ ، ١٧٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٤ ، ٢٩٥ ، ٣٢١ ، ٣٦٠
عبد الله بن عمرو (ابن الكواء) : ١٧٢
عبد الله بن غنم : ٢١٠
عبد الله بن قتيبة : ٣٨ ، ٤٤ ، ١٤٥
عبد الله بن المبارك : ٧٢ ، ٨٧ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠
عبد الله بن مسعود : ٢ ، ١٠ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٧٠ ، ١٧٩ ، ١٩٠ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٦ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٣١١ ، ٣٦٩
عبد الله بن المسور : ٢١٦
عبد الله بن مصعب : ١٧٨
عبد الله بن المعتز : ٧١ ، ٩٣
عبد الله بن مغفل : ٣٦٩
عبد الله بن يحى الكندى : ٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤
عبد الملك بن الطويل : ١٦٤
عبد الملك بن قريب (الأصمعى) ٣٦ ، ٤٦ ، ٨١
عبد الملك بن مروان : ٣٨
عبد الوهاب بن عبد الرحمن الرستمى : ٢٢ ، ١٦١ ، ١٦٢
عبيد بن محمد : ٧٨
عثمان بن عفان : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٦٤ ، ١٩٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
عثمان بن مظعون : ٢٤٠ ،
العرباض بن سارية : ٢٧٢
عروة بن الزبير : ١٤٥
عزان بن الصقر : ٣١٤
عزير : ٢٣٣
عطاء بن أبى رباح : ٤١ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٢٤٠ ، ٢٦٨
عطية بن سعد : ١١١
عقبة بن عامر : ٣٣٤
العقيلى : ١٩٣ ، ٢٧١
عكرمة : ٨٩
العلاء بن الحضرمى : ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٢
على بن أبى طالب : ٢٩ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٥ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٦٨
على بن عبد العزيز الجرجانى (القاضى) : ١٥٦
على بن محمد بن حبيب البصرى (الماوردى): ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٧ ،

١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ،
١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٦ ،
١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٥٣
عمار بن ياسر : ٦٧ ، ٢٥٢
عمر بن الخطاب : ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤١ ،
٤٢ ، ٤٣ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٧٣ ،
٨٣ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١٢٥ ، ١٥٤ ، ١٧٦ ،
١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ،
٢١١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٥ ،
٢٦٨ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٧ ،
٣٧٦
عمر بن عبد العزيز : ٤٦ ، ٢٠٢ ، ٢٣١
عمران بن حصين : ١٩٥
عمروس بن فتح : ٤٩ ، ١٨٢ ، ٣١٣ ،
٣١٤
عمرو بن دينار : ٣٨ ، ٤١
عمرو بن شعيب : ١٠٨
عمرو بن العاص : ٣٣٤
عمرو بن عوف : ٢٧٣
عمرو بن النعمان بن مقرن : ٣٦٩
عمرو بن يامن : ١٦١ ، ١٦٢
عواد بن جناح الجهني : ٣٨١
عوام بن حوشب : ٢٩
عياض بن سليمان : ٢٢٣ ، ٣٣٢
عيسى بن مريم عليه السلام : ٣٩ ، ٨٦ ،
١٣٤ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ،
١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،
٢٢٢ ، ٣٢٠

(غ)

غزالة : ٢٢
الغزالى (أبو حامد محمد بن محمد الغزالى):
٢٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٥٠ ، ٦٠ ،
٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٨٤ ،
٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،
١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٤١ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،
١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ،
٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ،
٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٣٠٨ ،
٣٠٩ ، ٣٣٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ،
٣٧٢ ، ٣٧٣

(ف)

فرج الويغوى : ٢٢
الفضيل بن عياض : ٢٠٩
فروة بن نوفل : ٢٢

(ق)

قارون : ٢٠٨
قتادة : ٥٩
قصى بن أبى عمرة الحميرى : ٣٨١
القلقشندى : ١٤٥
القلهاتى : ١٩٩
قيس بن عاصم : ٣٧٦

(ك)

كسرى : ٤٣
كعب الأحبار : ١٤٥
كعب بن عجرة : ٢٢٨
الكلبى : ٢٥١
كميل بن زياد النخعى : ٦٨ ، ٦٩

(ل)

لبيد بن أعصم : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣
لقمان : ٧٣

(م)

مالك بن أنس : ٢١٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٣٣٤
مالك بن دينار : ١٤١ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢
مالك بن سنان الخدرى (أبو سعيد) ٢٨ ، ١٠١ ، ٣٧٣
المأمون (الخليفة العباسى) : ٣٦ ، ٣٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣
مامد بن يانس : ١٦١
مجاهد : ٢٤٠
مجدول التنزغتى (أبو يوسف) : ٩٢
محبوب بن الرحيل : (أبو سفيان) : ٩١ ، ١٦٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤
محمد بن ادريس (الشافعى) : ٣٢ ، ٥٠ ، ٦٨ ، ١٤٣ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
محمد بن بركه العمانى (أبو عبد الله) : ١٧١
محمد الباقر بن زين العابدين : ٤١
محمد بن جرير الطبرى : ٥٧ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧
محمد بن جلداسن اللالوتى : ١٤٧
محمد بن زكرياء البارونى : ١٤٧
محمد بن زياد بن عبد الله : ٣٨
محمد بن سلام : ٧١
محمد بن سوار : ٢٢٢
محمد بن سيرين : ٤٦
محمد بن القاسم : ١٧٤
محمد القصبى الجربى (أبو ستة) : ٩٢
محمد بن كعب القرظى : ٨٠
محمد بن محبوب : ١٨٢
محمد بن المنكدر : ٨٧
محمد ناصر الدين الألبانى : ٢٩٥
محمد بن يزيد المبرد : ٣٠ ، ١٤٠ ، ٣١٨
محمد يوسف أطفيش (القطب) : ٦٢ ،
المختار بن عوف : ١٦٤ ، ٢١٢
مرامر بن مروة : ١٤٦
مرداس بن حدير (أبو بلال) : ٩١ ، ٣١٨
مروان بن أبى حفصة : ١٤٣
مروان بن الحكم : ٢٤٦ ، ٣٥٩
مسروق : ٨٤
المسعودى : ٢٥٥
مسكين الدرامى : ١٧٢
مسلم بن أبى كريمة (أبو عبيدة) : ٥٩ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٩١ ، ١٤٨ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢١٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٩ ، ٣١٧
مسلم (صاحب الصحيح) : ٢ ، ١٢ ، ٢٤ ، ٥٠ ، ٨٨ ، ١٠٩ ، ١٥٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٩٥ ، ٣٢٢ ، ٣٦٢ ، ٣٦٩
المسيح بن حاتم : ١٤٠
مسيلمة الكذاب : ٤٣
معاذ بن جبل : ٤٠ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٣٦ ، ١٩٦ ، ٢١١ ، ٢٤٠
معاوية بن أبى سفيان : ٤٣ ، ٦٠ ، ٣٨١
معاوية بن يزيد بن معاوية : ٣٨
معمر بن راشد الصنعانى : ٢٤٠
مغلس (أبو روح) : ١٦٢
المغيرة بن شعبة : ٤٣
مكحول الدمشقى : ٢١١ ، ٢٣٩
مليح بن عقبة : ١٦٤
منجاب بن راشد (أبو سهم) : ٣٧٦ ، ٣٧٧
المنذر بن ساوى العبدى : ٣٧٦

المهدى (الخليفة العباسى) : ٣١ ، ٩٧
مهدى الويغوى : ٢٢
المهلب بن أبى صفرة : ١٧٢
موسى عليه السلام : ٥٨ ، ١٣٨ ، ١٥٣ ، ١٧٩ ، ٢٠١ ، ٢٧٢ ، ٣٢٠
موسى بن محمد الوليد الموفرى : ١٧١
موسى بن يونس الجلالى (أبو هارون) : ٩٠
ميسر بن صعصعة الخزاعى : ٢٨١

(ن)

نافع : ٤٦ ، ٦٤
النسائى (صاحب السنن) : ٦٥ ، ١١١٨٣، ١٥٥ ، ٢٢٧ ، ٢٧٢
النعمان بن مقرن : ١٩٥
نفوسة : ٤٩ ، ٩٢ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ٢٠٩
نوح عليه السلام : ١٤٥ ، ٣٢٠

(هـ)

الهروى : ٨٨
هشام بن حسام : ٤٦
هشام بن عروة : ٢٥٣

(و)

وائل بن أيوب : ٢١٣
وابصة : ١١١ ، ٢١٩
الواثق : ٣٦
الواقدى : ٣٥٩
الوضاح بن عقبة : ٦٢
وكيع بن أبى سود : ٤٥

(ى)

ياقوت الحموى : ١٥٦
يحيى بن اسحق الميورقى : ٣٠٦
يحيى بن خالد البرمكى : ٧١
يحيى بن معاذ : ٨٩ ، ٢٠٢
يعقوب بن حميد : ٨٣
يعلى بن مرة : ٣١١
يوسف بن ابراهيم بن مياد الوارجلانى (أبو يعقوب) : ٣٠٦

فهرس البلدان والأماكن

(ا)

آدرف : ٩٢
الأندلس : ٣٠٦
أنطاكية : ٢٥٥

(ب)

البحرين : ٤٣ ، ٣٧٦ ، ٣٨١
البصرة : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٧١، ١٤٠ ، ١٦٦، ١٨٠ ، ٢٦٨ ، ٣٧٦
بغداد: ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ١٤٠ ، ١٦٦
بقطورة : ١٤٧
البقيع : ٦٧ ، ٣٥٩

(ت)

تالات : ٩٠
تاهرت : ٤٩ ، ١٦١ ، ١٦٢
تاورغا : ١٦٦
تبوك : ٢٣٨
تمصص : ٩٠
تنزغت : ٩٢
تنومات : ٩٠
تونزيرف : ٢٢
تونس : ٩٠
تيفست : ٢٠٩
تيمجار : ٢٢

(ث)

الثوية : ٤٣

(ج)

جادو : ٢٢ ، ٩٢
جار لصرا : ٩٠
جبل نفوسة : ٢٢ ، ٩٢ ، ٢٠٩
جرجان : ١٥٦
جربجن : ٩٢ ، ١٤٧
الجزائر : ٦٢ ، ١٦٦
جناون : ٢٢ ، ٩٢

(ح)

الحجاز : ٣٨ ، ١٠٦
حضرموت : ٢١٣ ، ٢٤٤ ، ٣٧٦
حمص : ٢٥٥
الحوامد : ٩٠

(خ)

خراسان: ٣٨ ، ٢٠٠

(د)

دارين : ٣٧٧
درج : ٢٠٩
الدهناء : ٣٧٦
الدينور : ١٩٥

(ر)

الرملة : ٢٢٩

(ز)

الزاوية : ٩٠

(س)

سناون : ٢٠٩

(ش)

شروس : ٢٢
الشام : ٣٨ ، ٨٤ ، ١٥٦

(ص)

صفين : ٢٩ ، ٦٨
الصين : ٧٧

(ط)

الطائف : ٤٣
طرابلس : ٩٠
طمزين : ٩٠

(ع)

العراق : ٣٨ ، ١٦٦
العقبة : ٣٢٩
العقيق ٣٥٩
عمان : ٥٨ ، ٦٢ ، ١٦٤ ، ٣٣١

(ف)

فرق : ٥٨
فزن : ٤٩

(ق)

قابس : ٤٩
القادسية : ٤٣
قرطبة : ٣٠٦
القيروان : ٣٦٦
القويسم : ٢١٣

(ك)

كباو : ٩٢
الكوفة: ٢٩ ، ٤٣ ، ٦٧ ، ٨٠ ، ١٩٠ ، ٢٣٤ ، ٣٥٩ ، ٣١٧

(ل)

لالوت (نالوت) : ٩٠ ، ٩٢
ليبيا : ٤٩ ، ٩٠ ، ١٦١ ، ١٦٦

(ن)

نزوى : ٥٨
نهاوند : ١٩٥
نيسابور : ٦٣

(هـ)

همذان : ١٩٥
الهند : ٤٤

(و)

وادى أمسين : ٢٢
وادى الزير : ٢٢
وادى ميزاب : ٦٢
وارجلان : ٣٠٦
وازن : ٩٠
واسط : ٨٠
ويغو : ٢٢

(ى)

اليرموك : ٤٣
اليمامة : ٤٥ ، ٣٧٦
اليمن : ٣٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٢١٣

فهرست

القسم الأول

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٣—٢٣*
الكلام على ما يوصل العبد إلى السعادة الأبدية	٢
« « ملة الإسلام التى شرعها الله لعباده	٤
فصل فى ترتيب قناطر الإسلام	٨
الكلام على القناطر الستة التى تستقبل العبد	
الأولى قنطرة العلم	
القنطرة الثانية قنطرة الإيمان	٩
« الثالثة قنطرة الصلاة	١٠
« الرابعة قنطرة الصوم	
« الخامسة قنطرة الزكاة	١١
« السادسة قنطرة الحج	١٢
فصل : القنطرة السابعة : قنطرة التوبة	١٣
قنطرة العوائق	
قنطرة العوارض	١٤
قنطرة البواعث ، وقنطرة القوادح فى الأعمال وقناطر : الحمد والشكر ، والمناجاة ، وخوف الخاتمة وقنطرة الموت	١٥
فصل : الكلام على الطريق الذى تسلكه القلوب	١٧
فصل : التمثيل لهذا الطريق فى الدنيا بطريق الصراط فى الآخرة	١٨
فصل : فى الكلام على من سبق له التوفيق من الله تعالى	
فصل : فى بيان الداعى لتمثيل الدنيا بالمفازة وتمثيل الشريعة بالطريق فيها	٢٠
فصل : الكلام على أسلافنا رحمهم الله تعالى	٢٣

* أرقام صفحات التمهيد فى الذيل

الموضوع	الصفحة
قنطرة العلم	٢٥
فصل : فى بيان فضل العقل وشرفه وحقيقة أقسامه	٢٨
فصل : فى الكلام على العقل المكتسب والعقل الغريزى . . .	٤٤
فصل : ذكر الإختلاف فى تفاوت العقل	٤٨
ذكر قنطرة العلم وتفصيل أبوابها العشرة	٥٣
الباب الأول : فى بيان فضل العلم	٥٥
فصل فى بيان فضل العقل من السنة	٥٨
« فى بيان فضل العقل من الآثار	٦٦
« فضل العلم من جهة المعانى والعقل	٧٤
الباب الثانى : فى فضل التعلم والتعليم	٧٧
الفصل الأول : فى فضل التعلم من الكتاب والسنة والآثار . .	
الفصل الثانى : فى بيان فضل التعليم من الكتاب والسنة والآثار .	٨٥
فصل : فى بيان ما يجب على الإنسان أن يتعلمه	٨٩
ذكر ماينتظم به أمر الدنيا	٩٣
الباب الثالث : فى فرض العين	٩٧
فصل : الكلام على العلم والعمل	١٠١
الباب الرابع : فى العلم الذى هو فرض كفاية	١٠٥
الكلام على مراتب الورع	١١٠
الباب الخامس : فى بيان حد الفقه والكلام فى علم الدين وطريق الآخرة	
وحد الكلام والفلسفة . الفصل الأول : فى حد الفقه . . .	١١٥
الفصل الثانى : فى علم الدين وطريق الآخرة	١١٦
الفصل الثالث : فى حد الكلام وعلوم الفلسفة	١٢١
الجزء الأول من الفلسفة : الهندسة والحساب	١٢٢

الموضوع	الصفحة
الجزء الثانى : المنطق	١٢٣
الجزء الثالث : الإلهيات	١٢٤
الجزء الرابع : الطبيعيات	
الباب السادس : فى طرق العلم وتقاسيمه قسمة أخرى .	١٢٧
الباب السابع : فى آداب المتعلم والمعلم وفيه عشرة أقسام	١٣١
الفصل الثانى : فى وظائف ما على العالم المعلم المرشد من الآداب	١٥١
الوظيفة الأولى	١٥١
الوظيفة الثانية	١٥٤
الوظيفة الثالثة	١٥٥
الوظيفة الرابعة	١٥٨
الوظيفة الخامسة	١٦٥
الوظيفة السادسة	١٦٨
الوظيفة السابعة	١٦٩
الوظيفة الثامنة	١٧١
الوظيفة التاسعة	١٧٣
الوظيفة العاشرة	١٧٦
فصل : فيما يجب على العالم أن يلتزمه	١٨١
الباب الثامن : فى آفات العلم والعلماء السوء	١٨٥
الجملة الأولى : فى آفات العلم	
بيان شروط المناظرة وهى سبعة	١٨٩
الجملة الثانية : فى الأخبار والآثار الواردة فى العلماء السوء . . .	١٩٢
الباب التاسع : فى العلامات المميزة بين علماء الدنيا والآخرة	٢٠٧
الباب العاشر : فى بيان العلم المذموم وأسماء العلم المحمود	٢٥١
الجملة الثانية : فى أسامى العلوم الشرعية وبيان القدر المحمود منها . .	٢٦٢

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : فى بيان التباس العلوم المذمومة بالعلوم المحمودة .	٢٦٢
الفصل الثانى : فى بيان القدر المحمود من العلم المحمود . . .	٢٧٥
القطرة الثانية : قنطرة الإيمان وسائر قواعد اعتقاد والتوحيد وفيها خمسه أبواب	٢٨٣
الباب الأول	
الفصل الأول : ترجمة العقيدة والإستدلال على وجود الله سبحانه .	٢٨٧
فصل فى بيان الأدلة على وجود الله تعالى	٢٩٠
الأصل الثانى : العلم بأن البارى سبحانه قديم لا أول لوجوده . .	٢٩٢
الأصل الثالث : العلم بانه تعالى لا نهاية لوجوده ودوامه . . .	
الأصل الرابع : العلم بأنه ليس بجوهر يتحيز	
الأصل الخامس : العلم بأنه تعالى ليس بجوهر مؤلف من جواهر . .	٢٩٣
الأصل السادس : العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم فى الجسم أوحالّ فى محل	
الأصل السابع : العلم بأنه تعالى منزه الذات عن الإختصاص بالأمكنة والجهات	
الأصل الثامن : العلم بأنه تعالى مستو على العرش استواء القهر والغلبة والاستيلاء	٢٩٤
الأصل التاسع : العلم بأنه تعالى منزه عن الرؤية والإدراك بالأبصار .	
الأصل العاشر : العلم بأنه تعالى واحد لا شريك له ، فرد لاند له .	٢٩٥
الباب الثانى : فى معرفة صفاته فى ذاته	٢٩٧
الأصل الأول : العلم بأنه تعالى عالم بجميع الأشياء	
« الثانى : العلم بأنه تعالى قادر	
« الثالث : العلم بأنه تعالى حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم	٢٩٧
« الرابع : العلم بأن الله تعالى مريد لأفعاله	
« الخامس : العلم بأن الله تعالى سميع لا تخفى عليه الأصوات بصير لاتخفى عليه الألوان	٢٩٨
الأصل السادس : أنه تعالى متكلم ليس بأخرس وكلامه على وجهين .	
« السابع : أنه تعالى منزه عن حلول الحوادث والآفات . .	

الموضوع الصفحة

الأصل الثامن : أن صفاته تعالى هى هو لاغيره ٢٩٩
« التاسع : أن صفات الله تعالى ليست معانى غيره ولا هى قائمة بذاته
« العاشر : أن صفاته غير متغايرة بينها البين ٣٠٠

الباب الثالث : فى أفعاله تعالى ومدارها

الأصل الأول : العلم بأن كل حادث فى العالم فهو خلقه وفعله واختراعه ٣٠٣
« الثانى : العلم بأن انفراد الله باختراع حركات العباد وسكناتهم
لا يخرجها عن كونها مقدرة للعباد على سبيل الإكتساب . . . ٣٠٥
الأصل الثالث : أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه
مراداً لله سبحانه ٣٠٥
الأصل الرابع : أن الله تعالى متفضل بالخلق والإختراع . . . ٣٠٦
« الخامس:أن لله تعالى تكليف العباد ٣٠٧
« السادس:هل يجوز على الله تعالى إيلام الخلق وتعذيبهم ؟ ..
« السابع : إن الله يفعل فى عباده مايشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح ٣٠٨
« الثامن : إن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى
وشرعه ٣٠٩
الأصل التاسع : أنه ليس يستحيل بعثه — تعالى — للأنبياء عليهم السلام
« العاشر : إن الله سبحانه قد أرسل محمد ابن عبد الله خاتما للنبيين ٣١١

الباب الرابع : فى تصديق الرسول عليه السلام ويشتمل على مقدمة
وعشرين مسألة ٣١٣
الأولى : فى الموت ٣١٤
الثانية : فى قيام الساعة ٣١٥
الثالثة : فى البعث بعد الموت ٢١٥
الرابعة : فى سؤال منكر ونكير ٢١٥
الخامسة : فى عذاب القبر ٣١٦
السادسة : فى الميزان ٣١٧

الموضوع	الصفحة
السابعة : فى الصراط	٣١٨
الثامنة . فى الحساب	٣١٩
التاسعة : فى الشفاعة	٣٢٠
العاشرة : فى الحوض المورود	٣٢١
الحادية عشر : فى الجنة والنار	٣٢٢
الثانية عشر : فى جملة الملائكة	٣٢٣
الثالثة عشر : فى جملة الأنبياء والرسل	
الرابعة عشر : فى جملة الكتب المنزلة	٣٢٤
الخامسة عشر : فى القضاء والقدر	٣٢٥
السادسةعشر : فى معنى التوحيد والشرك	٣٢٥
السابعة عشر : فى فرز ما بين كبائر الشرك وكبائر النفاق	٣٤٣
الثامنة عشر : فى طاعة الله تعالى ومعصيته وثوابه وعقابه	٣٢٦
التاسعة عشر : فى الولاية والبراءة	٣٢٦
العشرون : فى معرفة الملل وأحكامها	٣٢٦
فصل فى بيان مايتقيد به التوحيد وهو سبع تقييدات	٣٢٧
مسألة : من كتاب الضياء	٣٢٨
الباب الخامس : فى شرح بعض أسماء الشريعة	٣٣١
مسألة : فى الكلام على التقليد وحكمه	٣٣٢
فصل : فى حقيقة التوحيد وأقسامه	٣٣٤
الكلام على الإيمان وحقيقته	٣٣٧
فصل فى بيان مقامات الإيمان	٣٤٠
فصل فى درجات الإيمان	٣٤٣
الأولى : درجة الايمان	
الثانية : درجة الظن	٣٤٥
الثالثة : درجة العلم	٣٤٦
الرابعة : درجة اليقين	٣٤٧

الموضوع	صفحة
فصل : فى منازل العباد عند الله تعالى	٣٤٩
فصل : فى تحقيق معنى اليقين	٣٥٠
فصل : فى بيان الاسلام	٣٥٨
فصل : فى معنى الكفر والنفاق والشرك	٣٦٧
سيرة النبى صلى الله عليه وسلم التى كتبها للعلاء بن الحضرمى . .	٣٧٦
الفهارس :	٣٨٣